

الدكتور بدوي طبائنه

مَعْلَقَاتُ الْعَرَبِ

دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعراء الجاهليين

الطبعة
مكتبة الأنجلو المصرية
١٩٥٠ شارع محمد علي القاهرة

معلقا العرب

دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعر الجاهلي



تأليف

دكتور بدوي طبانة

أستاذ النقد الأدبي المساعد
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

شبكة كتب الشيعة

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد علي (مماز الدين سابقا)



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

الطبعة الأولى

١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مِطْبَعَةُ السَّالَةِ
٣ شارع حمودة المكاول - عابدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذه دراسة جديدة في « معلقات العرب » وهي تلك القصائد الطوال المأثورة عن أعلام الشعراء في العصر الجاهلي .

وللشعر الجاهلي مكانته المرموقة بين المأثور من أدب العرب طوال حياتهم التاريخية منذ ذلك الزمن البعيد الذي عاشوا فيه في حدود جزييرتهم أو أطرافها لا يتجاوزونها إلا لمأماً ، إلى العصور التي انتشروا فيها في الأرض حاملين أضواء الإسلام الذي حملوا مشاعله إلى مختلف البقاع ، وتقاليده العروبة التي ربوا في ظلالها ، والتي ورثوها عن أسلافهم الأجداد .

وكانما ورث العرب طبيعة الحرص على هذا التراث الأدبي ، حتى أصبحت تجري في دماهم وتنقل في أصلابهم ، فلم يفقدوها في عصر من عصورهم ، أو في مصر أمصارهم ، فما من عصر من عصور التاريخ الطويلة التي عاشت فيها الأمة العربية إلا وقد برزت العناية فيه بالشعر الجاهلي بروزاً واضحاً ، على الرغم من الأحداث التي كانت تستهدف لها هذه الأمة ، فتفرق صفوفها ، وتعبث بوحدتها ، وتعود بها القهقري في ميادين السياسة والاجتماع ، وميادين العلم والمعرفة ، حتى صارت أوطانهم مطعماً للغزاة الذين كانوا ينتهزون فرص الضعف فيستغلونها ، ومواطن النقص في صفوفهم فيعملون على اقتحامها .

ولم تستطع تلك الأحداث الكثيرة والخطوب المبيرة أن تفسى على ذلك التراث الأدبي الحافل ، ولا أن تفسى العرب تعهد هذا الأدب بالرواية والحفظ

والمدرسة ؛ لأنهم وجدوا هذا الأدب ركنا من أركان حضارتهم الفنية ، وثقافتهم الأدبية .

ولا يزال الشعر الجاهلى يحظى بهذه المنزلة فى زماننا ، فى جميع البلاد الناطقة بالضاد ، وغيرها من البلاد التى تعنى بتاريخ هذه الأمة ، ودراسة حضارتها ومقوماتها ، سواء أكانت تلك الدراسة تستهدف المعرفة المجردة ، والبحث الذى يراد به استتمام حلقات المعرفة بالشعوب ، والحضارة الإنسانية ، أم كانت ترمى إلى تحقيق غرض مادى من أغراض السيادة والاستقلال .

ذلك أن الشعر الجاهلى — وهو أبرز فنون الأدب العربى — يعد أهم مصدر من المصادر التى يستمد منها الباحثون فى تاريخ هذه الأمة وحضارتها ، ولذلك عنيت الكليات الجامعية ، ومعاهد التعليم العالى فى الحواضر العربية وغيرها بدراسة هذا الأدب ، وأصبحت دراسته تقليداً فى مدارس التعليم العام ، تشغل مكانا ملحوظا بين مناهج تاريخ الأدب .

وكان من أسباب تلك العناية أيضاً أن النظام الذى سلكه أولئك الشعراء الأولون فى نظم ذلك الشعر ، ظل هو الطراز الذى تتطلع إليه أنظار الشعراء فى العصور التالية ، وظل هو النظام المتبع والطراز المحتذى فى التعبير الشعرى عند أمة العرب منذ أقدم العصور إلى الوقت الذى نعيش فيه ، ولم يستطع الشعراء مع تباعد الزمن واختلاف البيئات أن يخرجوا على تلك النظم والتقاليد التى سنّها الشعراء الأولون فى ذلك الزمن البعيد . فأوزان الشعر لا تزال هى تلك الأوزان القديمة التى نظم الجاهليون شعرهم عليها ، ونظام القافية الموحدة لا يزال كما هو ، إذا استثنينا بعض محاولات لتخفيف من قيود تلك الوحدة التى تكلف للشعراء بصناعة الشعر ثقافة لغوية ، ومعرفة بعدد كبير من مفردات اللغة ومترادفاتها يصلح لاختيار ما يلائم المعانى ، وما يلائم حروف القافية المختارة . وإذا استثنينا محاولات

أخرى للتخلص من هذه القافية أصلاً ، وللتخفيف من قيود الوزن ، فيما يسمى بالشعر للرسل أو الشعر الحر أو الشعر المنشور . وإن كانت تلك المحاولات لم تستطع أن تطفئ على التقاليد الأصيلة في بناء القصيدة ، تلك التقاليد التي سنّها الأولون ، وجرى عليها الشعراء في العصور التالية التي ازدهر فيها الشعر والأدب .

ولكل هذا عظمت العناية بالشعر الجاهلي في أيامنا ، كما عظمت في العصور السابقة ، بعد الإحساس بالصلة الوثيقة التي تصل حلقات هذا الشعر بعضها ببعض ، وأن على دراس الأدب الحديث أن يقف على تلك التقاليد ، حتى يستطيع أن يحدد محاولات التجديد ، ويعرف مجالات التقليد .

ولقد كانت « المعلقات » هي الصورة الأخيرة التي انتهت إليها تجارب الجاهليين في التعبير الشعري ، ولذلك فافت شهرتها شهرة ما سواها من الشعر الجاهلي ، بل الشعر العربي على الإطلاق ، وأصبح لأصحابها من الذكر في تاريخ الأدب العربي ما لم يظفر به غيرهم من الشهرة وذیوع الصيت .

ومن الممكن اعتبار تلك الصورة التي وصلت بها إلينا المعلقات الصورة الكاملة للشعر العربي ، بما اجتمع لها من حسن الوزن ، وجودة القافية ، وقوة المعاني ، وجزالة الألفاظ ، ومتانة الصياغة . وكانت تلك الصفات هي السبب في أن ينظر الشعراء العرب دائماً إلى تلك الصورة للمثالية التي رأوها في المعلقات ، وأن يحاولوا محاكاتها في تعبيرهم الشعري عن عواطفهم وآلامهم وآمالهم ووصف مجتمعاتهم ، كما عبرت تلك المعلقات أقوى تعبير عن أمانى النفس وعواطفها وانفعالاتها ، وكانت أصدق صورة للمجتمع الذي عبرت عنه في ذلك الشعر القوى الرائع ؛ كما كانت مجتمعا لألفاظ اللغة العربية ، وأساليب التعبير بها .

وبهذه النظرة نظر إليها علماء اللغة وعلماء الأدب الذين اتخذوا منها مواطن

الاستشهاد على صحة اللفظ وصحة الأسلوب ، ومقياساً من مقاييس التشريع اللغوى وكانوا على حق فيما ذهبوا إليه ، إذا كانت صحة ذلك الشعر مما لا يقبل الجدل ، لصدوره عن أصحاب اللغة الأصليين ، الذين وضعوا ألفاظها ، واصطلحوا على مفهوماتها فى الاستعمال ، ودلالاتها إن هى ركبت ، ووضع بعضها إلى جوار بعض ، واختلاف تلك المفاهيم إذا تغير الوضع ، أو اختلف الضبط . ولم يكن لأولئك الذين جاءوا من بعدهم أن يغيروا عليهم ما وضعوا وما ارتضوا من تلك الدلالات أو تلك الاستعمالات ، وهم الذين أخذوا تلك اللغة عنهم بالتلقى والتلقين . وكذلك نظر نقاد الأدب إلى هذه الملاحظات ، لأنهم إنما يضعون مقاييسهم وفقاً لمجموعة التقاليد التى سبقتها للأدباء ، وينظرون إلى الظواهر المشتركة والخصائص الفنية ، ليمقسوا ما ينشأ فى عصورهم بما كان قبلهم ، ومعنى ذلك أنهم لا يبتدعون جديداً فى تلك المقاييس ، وإنما يستكشفون من طبيعة التراث الأدبى تلك المقاييس بما يجمعون منه من أسباب الجلال أو القوة أو الوضوح . وقد رأوا الإجماع ينقذ على توافر تلك الأسباب فى شعر المعلقات ، باعتراف البيهية التى أنشدت فيها ، واعتراف الخبراء بعميق تأثيرها فى نفوس الذين عاصروا قائلها ، ورأوا بأنفسهم التجارب التى عبرت عنها تلك الملاحظات .

ويبدو أن هذا التقديس - وإن كانت له أسبابه الوجيهة - كان خطراً على الشعر العربى فى عصوره كلها . ذلك لأن اعتراف العلماء والنقاد ، بل واعتراف الشعراء أنفسهم ، بعظمة تلك الملاحظات ، وجودة الفن الشعرى فيها ، كان هو الذى دعا الشعراء فى سائر العصور إلى محاكاتها ، والأخذ بنظامها فى طريقة النظم ، وفى تعدد الأغراض فى القصيدة الواحدة ، بل وفى بدء قصائدهم بوصف الدمن والأطلال ، وجوب الفلوات على ظهور الإبل والمطايا ، وغير ذلك مما كان حقيقة واقعة بالنسبة للجاهليين فى بداوتهم ، وكان كذباً وتدليساً بالنسبة لغيرهم من الشعراء الذين سكنوا الحواضر العاصرة ، وعاشوا فى الأمصار التى تعج

بصنوف الحياة وألوان الحضارة . ومن هنا فقد كثير من هذا الشعر سمات الأصالة ، وبدا تعبيراً عن عواطف مصطنعة ، وتجارب كاذبة ، وقد تبعاً لذلك تأثيره في نفوس الأفراد والجماعات ممن يسمعون أو يقرءونه ، إلا بالقدر الذي يسترجعون به ذكريات الشعر القديم ، وذكريات الأسلاف الذين عبروا بهذا الشعر ، أو عبر عنهم ذلك الشعر .

وأياً ما كان الأمر فإن هذه المعلقة قد حظيت بتقدير علماء العرب ونقادهم ، بما تهدها به من الحفظ والرواية ، وبما تولوه من شرح الغامض من مفرداتها وتراكيبها . وقد عهد إلى قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم القيام بإلقاء بعض المحاضرات في موضوع من موضوعات الأدب الجاهلي ، فاخترت « المعلقة » موضوعاً لتلك المحاضرات ، التي كانت خلاصتها هذا البحث الذي أنشره اليوم في هذا الكتاب .

وقد نظمت البحث في المعلقة في أربعة فصول :

ففي الفصل الأول شرحت مدلول لفظ « المعلقة » الذي أصبح مصطلحاً من المصطلحات الأدبية ، وذكرت أسماءها المختلفة التي عرفت بها في العصور ، وقد عنيت في هذا الفصل بتوثيق المعلقة ، واستعرضت الآراء التي دارت حولها ، وفندت الأقوال التي تشكك في صحة ثبوتها ، أو في نسبتها إلى أصحابها ، بما أظن أنه إليه من الحجج والأسانيد .

وفي الفصل الثاني عرضت لأصحاب المعلقة ، وذكرت تاريخ حياتهم ومنزلاتهم بين الجاهليين ، وموضوع كل معلقة ، وأغراضها ، وأهم خصائصها ، وأتبع ذلك بالنصوص السكاملة لكل معلقة ، معتمداً على أصح الروايات ، حتى لا يضطر القارئ إلى التماس تلك النصوص في مصادر أخرى قد لا تيسر له . واقتصرت من هذه المعلقة على السبع التي اتفق عليها معظم الرواة ، وصرفت

النظر عن القصائد التي كانت موضع خلاف بين الرواة في اعتبارها من المعلقة .
وخصصت الفصل الثالث لدراسة المجتمع العربي والحياة العربية في شتى
مظاهرها ، كما صورتها المعلقة ، وفي هذا الفصل ذكرت ما في المعلقة من أسماء
المواضع والجبال والرياح والسحاب والمطر والمياه والنبات والحيوان ، وأيام العرب
وحياة الحرب والسلام ، وأدوات القتال ، ومنزلة المرأة عندهم ، ومظاهر الحضارة
في الحياة الجاهلية ...

وكل ذلك استخرجته من نصوص المعلقة نفسها ، ولم أجا إلى مصدر
آخر سواها .

وفي الفصل الرابع درست الفن الشعري في المعلقة ، وعرضت فيه لنظام
المعلقة وأوزانها وقوافيها ، وألفاظها وأساليبها ، ومعانيها وأخيلتها ...

وقد حرصت على أن تكون هذه الدراسة دراسة موضوعية ، تعتمد على
النص وحده ، وتأخذ منه ما يستطاع أخذه في غير عمل ولا إسراف في التأويل ،
أو تحميل للألفاظ ما فوق طاقتها من لاحتال ؛ ولذلك لم أجاوز شعر المعلقة
إلى غيره من المأثور من الشعر الجاهلي ، حتى تكون دراسة موضوعية عميقة
متخصصة . وقد استعنت ببعض شروح المعلقة وفي مقدمتها كتاب «نهاية الأرب
من شرح مطلق العرب» للنعماني ، وكتاب « شرح القصائد العشر » للتبريزي .

وأرجو بعد ذلك أن أكون قد وفقت إلى خدمة هذا اللون من ألوان
الأدب الذي اعتز به العرب دائماً ، على درجة قريبة من السكال .

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ؟

بروق المطران

مصر الجديدة { ربيع الأول ١٣٧٨ هـ
أكتوبر ١٩٥٨ م

الفصل الأول

المعلقات

- ١ -

يعبر الدارس للأدب العربي والمتتبع لمراحل تطوره ، بمجموعة من المصطلحات التي كان لها بأصل وضعها اللغوي دلالاتها الخاصة ، وكانت - في هذا الأصل اللغوي - صفات صالحة لأن يوصف بها كل شيء اجتمع فيه ما يجعله صالحاً للوصف بها .

ولكن تلك الحقائق اللغوية في دلالة تلك الألفاظ على معانيها توارت في عرف هذا الأدب وفي عرف دارسيه ، وأصبح لها مدلولات خاصة عندهم ، ومفاهيم محدّدة ، لا يكادون يقصدون سواها عند إطلاقها ، ودخلت بسبب هذا الاستعمال في باب « الحقيقة العرفية » ؛ وأصبحت مصطلحات تدل على معانٍ خاصة معروفة عند دارسي هذا الأدب وعند مؤرخيه .

وقد أصبحت تلك المصطلحات تطلق عندهم على مجموعات من الأعمال الأدبية ، تصلها روابط من الوحدة في أغراضها أو أفكارها أو أسلوب تأليفها . فأتت تجد في هذه المجموعات ما أطلقوا عليه أمثال مصطلحات « الحوليات » و « الاعتذاريات » و « النقائض » و « الهاشميات » و « السيفيات » ... وأشباه هذه الألقاب والمصطلحات مماله معنى خاص في الأدب العربي وتاريخه .

ومن أقدم هذه المصطلحات التي عرفها تاريخ الأدب العربي لفظ (المعلقات)

الذى كان فى الأصل اللغوى وصفاً صالحاً لكل شئ، يطلق ، ثم أخذ اللفظ طريقه إلى الأدب ، وأصبح يطلق على مجموعة معروفة من أقدم القصائد التى أترت عن فحول الشعر العربى ، فى العصر السابق لعصر الإسلام ، الذى يعرف فى تاريخ الأدب العربى بالعصر الجاهلى ..

وأصحاب هذه (الحلقات) عند بعض الباحثين سبعة من الفحول المقدّمين ، وهم كما أحصاهم ابن عبد ربّه ، صاحب « العقد الفريد » ^(١) :

(١) امرؤ القيس ، ومعلّقة قصيدته التى أولها :

قَفَانَبِكَ مِنْ ذَكَرَى حَيْبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ خَوْفٍ مَلٍ

(٢) زهير بن أبى سلمى ، ومعلّقة قصيدته التى أولها :

أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةٍ الدَّرَاجِ فَالْمُتَنَلِّمِ

(٣) طرفة بن العبد ، ومعلّقة قصيدته التى أولها :

خِلْوَةٌ أَطْلَالٌ بِرَقَةٍ تُهَمِّدُ تَلَوْحُ كِبَاقِي الْوُثْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

(٤) عنتره بن شدّاد العبسى ، ومعلّقة قصيدته التى أولها :

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ أَمْ هَلْ عُرِفَتِ الدَّارَ بَعْدَ تَوْهَمِ ^(٢)

(٥) عمرو بن كلثوم ، ومعلّقة قصيدته التى أولها :

(١) العقد الفريد ٩٨/٣ (المطبعة الأزهرية المصرية — القاهرة ١٣٢١ هـ)

(٢) الذى ذكره صاحب العقد أن معلقة عنتره هى قصيدته « يادار عبلة . . . » يشير

إلى بيته :

يادار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحا دار عبلة واسلمى

وهو ثانى أبيات المعلقة ، أما مطلعها فالشهور ما ذكرته . ولعلّ وعم صاحب المقدير جمع إلى ما فى هذا البيت من التصريح .

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي خَمُورَ الْأَنْدَرِينَا

(٦) لبيد بن ربيعة العامري ، ومعلّقة قصيدته التي أولها :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلَّهَا فُقَامُهَا بِمَعْنَى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرَجَامُهَا

(٧) الحارث بن حِلْزَة ، ومعلّقة قصيدته التي أولها :

أَذْنَتْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رُبَّ نَارٍ يُمَلِّئُ مِنْهَا الثَّوَاءَ

و« الزوزني » شارح المعلقات يوافق ما ذكره ابن عبد ربّه في المعلقات وأصحابها

وعددها على النحو السالف .

أما أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، صاحب « جهرة أشعار العرب »

فإنه يجعل أصحاب المعلقات ثمانية فحول ، يسقط من هؤلاء السبعة الحارث

ابن حِلْزَة ، ويضيف النابغة الذبياني ، ويجعل معلّقة قصيدته التي أولها^(١) :

عُوجُوا فُحِيثُوا لِنُعْمِ دِمْنَةِ الدَّارِ مَاذَا تَحْيُونَ مِنْ نُؤْيٍ وَأَحْجَارِ

كما يضيف الأعشى ، ويجعل معلّقة قصيدته التي أولها^(٢) :

مَا بَكَاءَ الْكَبِيرِ بِالْأَطْلَالِ وَسُؤَالِي وَمَا تَرُدُّ سُؤَالِي

أما سائر المعلقات ، وهي الست الباقية ، فإنه يشارك فيها غيره من الشراح

والرواة ، في أصحابها ومطالعها على النحو الذي سبق .

ويضيف أبو زكريا التبريزي إلى هؤلاء التسعة عبيد بن الأبرص ، ومعلّقة

قصيدته التي أولها :

(١) جهرة أشعار العرب ٧٧ (المطبعة الرحمانية — القاهرة ١٩٢٦ م)

(٢) المصدر السابق ٨٧٠

أفقر من أهله ملحوبُ قالقطبياتُ قالذَنُوبُ

وذكر أبو جعفر النحاس (٥٣٣٨) وهو من شراح المعلقات أنها سبع ، وأن بعضهم أضاف إليها قصيدتي النابغة والأعشى ، وإن لم يعدهما من المعلقات .

أما ابن خلدون ، فلا يبدو في كلامه أثر الجزم والتثبت من أصحاب المعلقات ، بل يختار من مجموع الأقوال السالفة أقوالا يلفقها ، ويضيف إليهم اسما ينفرد بذكره ، في قوله : « . . . كما فعل امرؤ القيس بن حُجْر ، والنابغة الذبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، والأعشى » .

والناظر في هؤلاء يجدهم سبعة ، ويجد أن ابن خلدون أسقط من حسابهم شاعرين انعقد إجماع الرواة على عدّهما من أصحاب المعلقات ، وهما : عمرو بن كلثوم ، وليبد بن ربيعة .

كما يجده قد زادهم شاعراً ، لم يذكره غيره - فيما نعلم - بين أصحاب المعلقات وهو علقمة بن عبدة ؛ ولم يذكر قصيدته التي عدّها من أصحاب المعلقات .

ودلالة فقد التثبت عنده في إحصاء المعلقات ، أنه بعد أن أحصى أولئك السبعة الذين اختارهم ، عطف عليهم بقوله ^(١) . « وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع » . فكيف يكونون سبعة ؟ ويخصيهم سبعة ؟ ثم يشير إلى غيرهم من السبعة ؟ !

* * *

على أن هذا الاضطراب الذي يبدو من اختلافهم في المعلقات وفي عددها

وفى أصحابها أو إحصائهم ، لا يهولنا ، فإنما منشؤه فى الواقع هو الاعتماد على الروايات الشفوية ، ووعيتها يعتمد أولاً وأخيراً على ملكة الحفظ . والرواة أو جملهم يدورون فى فلك العدد ، ومن شذ عنه منهم شيء ، فقد يجد من يسير عليه أن يجد له بديلاً ؛ ولا سيما إذا كان ذلك البديل الذى وضع موضع ما شذ عن الذكر مشهوراً متداولاً ، يجرى على ألسنة الرواة ، ويحملونه فى متخيرهم ، وله فى النفوس مكانة مرموقة ، مثل مكانة المتفق عليه أو ما يقرب منها ، بما فيه من الصفات والخصائص ، التى تجعل مجال الخلاف بينهما ضيقاً محدوداً .

وربما يكون بعض هذه القصائد موضوعاً تحت ألقاب أو مصطلحات أخرى عند بعض العلماء ، وهذه الألقاب والمصطلحات تدل على الجودة ، ومن أمثلة ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص ، التى عدّها بعضهم من المعلقات ، فقد ذكرها أبو زيد القرشى صاحب الجمهرة تحت لقب « الجمهرات » وتلك « الجمهرات » تلى فى ترتيب ذكرها « المعلقات » عنده .

والتسليم بجواز مثل هذا التصرف فى تلك الحدود المشار إليها ، بسبب ما يعتري الذاكرة من الغفلة والنسيان ، لا يفضى حتماً إلى إنكار هذه المعلقات أو رفضها جملة . أو رفض ما اتفق عليه منها ، كما سيأتى بيان ذلك تفصيلاً .

ولم تكن كلمة (المعلقات) وحدها هى التى أطلقت على تلك القصائد المشهورة ، بل إن لها ألقاباً أخرى تدل عليها ، وتشارك فى عرف الأدب لفظ (المعلقات) فى مدلولها الأدبى ؛ وإن كانت أقل منها ذبوعاً وجرياناً على الألسنة .

٥

فقد أطلق عليها بعض العلماء لفظ (السبع الطوال) . ذكر ابن خلكان

في ترجمة حمّاد الراوية مانصه : كان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ، وهو الذي جمع (السبع الطوال) ، فيما ذكره أبو جعفر بن النحاس^(١) وعنه نقل ياقوت أيضاً قوله : إن حمّاداً هو الذي جمع (السبع الطوال)^(٢) . وفي جهرة أشعار العرب يروى أبو زيد القرشي عن المفضل أن امرأ القيس وزهيراً والناطقة والأعشى وليبداً وعمراً وطرفة ، أصحاب (السبع الطوال)^(٣) . ووصف ابن قتيبة طرفة بن العبد بأنه « أجودهم طويلاً »^(٤) . ونقل ابن سلام مقالة أصحاب الأعشى عنه : هو أكثرهم عروضاً ، وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلاً جيدة^(٥) .

وهذه التسمية وصف لتلك القصائد بأظهر صفاتها وهو الطول ، وهالك عدد أبيات السبع المشهورة كما وردت في شرح المعلقة السبع للزوزنى :

- (١) معلقة امرئ القيس ، وعدة أبياتها ٨١ بيتاً .
- (٢) معلقة طرفة ، وعدد أبياتها ١٠٣ .
- (٣) معلقة زهير ، وعدد أبياتها ٦٢ .
- (٤) معلقة أبيب ، وعدد أبياتها ٨٨ .
- (٥) معلقة عمرو بن كلثوم ، وعدد أبياتها ١٠٣ .
- (٦) معلقة عنبرة ، وعدد أبياتها ٧٤ .
- (٧) معلقة الحارث بن حلزة ، وعدد أبياتها ٨٢ .

(١) وفيات الأعيان ١٢٠/٥ (طبعة الحلبي — القاهرة)

(٢) معجم الأدباء ١٠ / ٢٢٦ (طبعة دار المأمون — القاهرة)

(٣) جهرة أشعار العرب ٤٥

(٤) الشعر والشعراء ١٣٧/١ (طبعة دار إحياء الكتب العربية — القاهرة ١٣٦٤ هـ)

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٣٠ (طبعة السعادة — القاهرة)

ولا شك أن هذه الأعداد استرعى النظر ، ونجعل تلك القصائد جديرة بتلك التسمية ، وتدلّ على خاصة من خصائصها أو خصائص قائلها ، ألا وهي « طول النفس » التي يمتاز بها عدد قليل من فحول الشعر في سائر بيئاته ، ومختلف عصوره . وتدل على قدرتهم الفريدة على هذا الفن الشعري ، وتمسكهم من زمام القوافي ، بصرفونها حيث يشاءون .

ويقال إن تسمية هذه القصائد (السبع الطوال) من فعل حماد الراوية ، وأنه نقلها من الحديث النبوي الشريف : « أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعُ الطُّوَالُ » وهي : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف . واختلفوا في السابعة أنها يونس ، أو يوسف ، أو الكهف ^(١) .

وقد تسمى تلك القصائد (المذهبات) إشارة إلى أنها كتبت بماء الذهب وقد ذكر ابن رشيّق سبب هذه التسمية في قوله : وكانت الملعقات تسمى (المذهبات) وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر ، فكتبت في القبايطي ^(٢) بماء الذهب ، وعلقت على السكبة ، فلذلك يقال : مُذَهَّبَةٌ فلان ، إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء .. ^(٣)

وقريب من ذلك قول ابن عبدربه « .. حتى لقد بلغ من كلف العرب به (الشعر) وتفضيلها له ، أن عمدت إلى سبع قصائد خيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب في القبايطي المدرجة ، وعلقتها في أستار السكبة ، فمنذ يقال مذهبه امرئ القيس ، ومذهبه زهير . والمذهبات سبع .. » ^(٤)

(١) انظر تاريخ آداب العرب للرافعي ١٨٩/٣ (مطبعة الاستقامة — القاهرة ١٩٤٠م)

(٢) القبايطي : بفتح القاف وضمها جمع قبطية بضم القاف ثياب من الكتان تنسب إلى

أهل مصر القبط بكسر القاف ، وضمها في النسبة على غير قياس .

(٣) الصمد ١/ ٦١ (مطبعة السعادة — القاهرة ١٩٠٧ م)

(٤) العقد الفريد ٣ / ٩٨

وقال ابن قتيبة في عنقرة : فكان أول ما قال قصيدة :

* هل غادر الشعراء من متردّم *

وهي أجود شعره ، وكانوا يسمونها (المذهبية)^(١)

وقال البغدادي صاحب « خزنة الأدب » في قول عنقرة :

وَكُنَّ رُبًّا أَوْ كَحَيَلًا مُعَقَّدًا حَشَّ الْوَقُودُ بِهِ جَوَانِبَ قُفْمٍ
يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبِ جَسْرَةٍ زِيَافَةٍ مِثْلَ الْفَنِيْقِ الْمُسَكَّدِمِ^(٢)

هذان البيتان من معلقة عنقرة ، وهي من أجود شعره ، وكانت العرب تسميها (المذهبية) بصيغة اسم المفعول - من الإذهاب أو التذهيب - وهما بمعنى التمويه والتطليق بالذهب^(٣)

وهذا كلام صريح في أن (المعلقات) هي (المذهبيات) ذكر العلماء في بعضه علة هذه التسمية .

ولكن لفظ (المذهبيات) يطلقه أبو زيد القرشي صاحب جمهرة أشعار العرب على مجموعة أخرى من القصائد ، أو ينقل هذا الإطلاق عن الفضل الضبي . قال : وأما المذهبيات فللأوس والخزرج خاصة ، وهنّ : لحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، ومالك بن العجلان ، وقيس بن الخطيم ، وأحيحة

(١) الشعر والشعراء ١ / ٢٠٦ (دار إحياء الكتب العربية — القاهرة ١٣٦٤ هـ)

(٢) الرب : ما بقي من عصارة التمر ، والسكحيل : القطران ، ومعقداً : أوقد تحته حتى انقصد ، وحش : احتش بمعنى اتقصد ، والوقود : الخطب ، والقمم : القدر الصغير ، ينباع : ينيم ، والذفرى العظم الناقع خلف الأذن ، والغضوب : الناقة العبوس ، والجسرة الماضية في سيرها ، الزيافة : المسرعة المتبخرة في سيرها ، والفنيق الفحل ، والمكدم : المعضض والمكدم المعض

(٣) خزنة الأدب ١ / ٨٧ (طبعة دار العصور — القاهرة)

بن الجلاح ، وأبى قيس بن الأسلت ، وعمرو بن امرئ القيس^(١) ..

وليس واحد من هؤلاء صاحب معلقة ، بل إن جميع هؤلاء الذين ذكرهم القرشي في أصحاب المذاهب من طبقة أخرى ، أو من جيل آخر ، يختلف عن السابقين .

ولكن ذلك لا ينفى أن « المذاهب » هي « المعلقات » . ومن المحتمل جداً أن يكون الذين سماهم صاحب الجهرة « أصحاب المذاهب » قد بنيت تسميتهم بذلك على أساس التشبيه بأصحاب المعلقات أو المذاهب المقدمين في الإجابة ، أو الإبداع ، أو تشابه الأغراض ، وطريقة النظم .

ومن الأسماء التي سميت بها تلك القصائد (السموط) قال صاحب الجهرة في تقديم أصحاب المعلقات : والقول عندنا ما قال أبو عبيدة : امرؤ القيس ، ثم زهير ، والنابعة ، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو ، وطرفة . وقال المفضل : هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب (السموط) فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة^(٢) وقد روى عنه ذلك القول ابن رشيقي ، ولكنها في روايته (السَّمط) مكان (السموط)^(٣) وكذلك هي في كتاب المزهر للسيوطي^(٤)

وأصل التسمية بالسَّمط أو السموط عن حماد الراوية ، ففي بعض أخباره قال : كانت العرب تعرض أشعارها على قريش ، فاقبلوا منها كان مقبولا ، وماردوا منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة ، فأنشدهم :

* هل ما علمت وما استودعت مكتوم *

(١) جهرة أشعار العرب ٤٥

(٢) جهرة أشعار العرب ٤٥

(٣) انظر كتاب العمدة ٦١/١

(٤) المزهر للسيوطي ٢ / ٢٩٧ (طبعة صبيح — القاهرة)

فقالوا : هذه « سَمِط » الدهر ، ثم عاد عليهم في العام المقبل ، فأنشدهم :

* طحابتك قلبٌ في الحِسانِ طَرُوبٌ *

فقالوا : هاتان « سَمِط » الدهر . والسَّمِطُ عندهم خِيطُ النظم ، والخِيطُ مادام فيه الخرز فهو سَمِطٌ ، وإلا فهو سِلكٌ ، والسَّمِطُ أيضا القلادة . والأمر في التسمية قائم على التشبيه .

ومن أسمائها (المشهورات) أو (القصائد المشهورة) وصاحب التسمية الأولى هو حماد ، روى ذلك أبو جعفر النحاس في قوله : إن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه السبع وحضَّهم عليها ، وقال لهم : هذه هي « المشهورات » فسميت « القصائد المشهورة » . كما سيأتى .

ونخلص من هذا بأن أهم الألقاب التي وضعت للدلالة على هذه المجموعة الخاصة من الشعر القديم هي :

- (١) المعلقات - وسيأتى القول مفصلا في هذه التسمية .
- (٢) السبع الطوال ، وقد تسمى المطوَّلات .
- (٣) المذهَّبات : لكتابتها بالذهب أو بمائه .
- (٤) السُّمُوط ، وقد تسمى السَّمِط .
- (٥) المشهورات ؛ وتسمى القصائد المشهورة .
- (٦) وقد انفرد الباقلائي صاحب إعجاز القرآن بتسميتها (السبعيات)^(١)
- (٧) كما انفرد ابن الأنباري في شرحها بتسميتها (السبع الجاهليات)^(٢)

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١٣٠ (طبعة السلفية - القاهرة ١٩٣٤٩)

(٢) شرح ابن الأنباري ٢ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ز ١٩٩٠٧)

أما تسمية هذه القصائد بالملقات ، وهو أشهر أسمائها ، فإن سببه عند أكثر الباحثين ، هو تعليقها على الكعبة .

قال ابن السكبي (٥٢٠٤) : أول شعر علق في الجاهلية شعر امرئ القيس ، علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم ، حتى نظر إليه ، ثم أخذ ، فعلق الشعراء ذلك بعده . وكان ذلك محرراً للعرب في الجاهلية ، وعدوا من علق شعره سبعة نفر ؛ إلا أن عبد الملك طرح شعر أربعة منهم ، وأثبت مكانه أربعة .

وقال ابن عبد ربه (٥٣٢٨) : كان الشعر ديوان خاصة العرب ، والمنظوم من كلامها ، والمقيّد لأيامها ، والشاهد على حكمها ، حتى لقد باع من كاف العرب به ، وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد خيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة ، وعلقتها في أستار الكعبة ، فنه يقال : مذهب امرئ القيس ، ومذهب زهير ، والمذهبات سبع ؛ وقد يقال لها (الملقات) . قال بعض الحداث قصيدة له ، ويشبهها ببعض هذه القصائد بقوله :

برزتْ تذكُرُ في الحسن من الشعرِ المعلقِ كلَّ حَرْفٍ نادرٍ منها له وَجْهٌ مُعَشَّقُ
والملقات لامرئ القيس « قفآنك » ولزهير « أَمِنْ أَمِ أَوْي » ولطرفة « لخولة أطلال » ولعنتر « يادار عبلة » ولعمرو بن كلثوم « ألا هبي » ولبيد « عفت الديار » ولالحارث بن حلزة « آذنتنا بدينها أسماء »^(١).

وقال ابن رشيقي (٥٤٦٣ هـ) : وكانت المعلقة تسمى المذبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر ، فكتبت في القباطي بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال مذهب فلان إذا كانت أجود شعره . ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل : بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة لشاعر يقول : علقوا لنا هذه ، لتكون في خزانته ^(١) .

وقال ابن خلدون (٨٠٨ هـ) : اعلم أن الشعر كان ديوانا للعرب ، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم ، وكان رؤساء العرب منافسين فيه ، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده ، وعرض كل واحد منهم ديوانه على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز حوله ، حتى انتهوا إلى المناظرة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم ، كما فعل امرؤ القيس بن حجر ، والنايفة الدياني ، وزهير ابن أبي سلمى ، وعنترة بن شداد ، وطرفة بن العبد ، وعلقمة بن عبدة ، والأعشى ، وغيرهم من أصحاب المعلقة السبع . فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبية ومكانه في مضر ، على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقة ^(٢) .

وقال البغدادي (١٠٩٣ هـ) في خزانة الأدب : ومعنى (المعلقة) أن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض ، فلا يعبا به ، ولا ينشده أحد ، حتى يأتي مكة في موسم الحج ، فيعرضه على أندية قریش ، فإن استحسنوه روي وكان فخراً لقائله ، وعلق على ركن من أركان الكعبة ، حتى ينظر إليه ، وإن لم يستحسنوه طُرح ولم يعبا به .

قال : وأول من علق شعره في الكعبة امرؤ القيس ، وبعده علق

(١) العمدة لابن رشيقي ٦١/١

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٨١

الشعراء . وعدد من علق شعره سبعة : ثانيهم طرفة بن العبد ، ثالثهم زهير بن أبى سلمى ، رابعهم لبيد بن ربيعة ، خامسهم عنتره ، سادسهم الحارث بن حلزة ، سابعهم عمرو بن كلثوم التغلبي . هذا هو المشهور .

قال : وقد طرح عبد الملك بن مروان شعراً أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة .

قال : ورؤي أن بعض أمراء بني أمية أمر من اختار له سبعة أشعار ، فسامها (المعلقات)^(١) .

ونكتفى بهذه النصوص ، التي تتفق في المضمون ، وإن اختلفت عباراتها . وخلاصتها أن هذه القصائد المشهورة سميت (المعلقات) بسبب تعليقها على السكبة ، بعد كتابتها بلاء الذهب في القباطي المدرجة ، وهي ثياب إلى الرقة والدقة والبياض ، كانت تتخذ بمصر من الكتان ، ومعنى المدرجة المطوية .

ولا نجد من الأسباب الظاهرة أو الخفية ما يدعو إلى الشك في صدق هذه الروايات ، ولا نرى سبباً معقولاً يدعو إلى نفي هذه المعلقات ، أو تكذيب هذه الروايات التي توارد عليها الرواة في مختلف العصور .

— ٤ —

نعم ذكر أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس النحوي (٣٣٨ هـ) أنهم اختلفوا في جمع هذه القصائد السبع ، وقال : وقيل إن العرب كان أكثرهم يجتمع بمكاف ، ويتناشدون الأشعار ، فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوها وأثبتوها

(١) خزنة الأدب للبغدادي ٨٩/١

في خزانتي . فأما قول من قال إنها علقت في الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة ، وأصلح ما قيل في هذا أن حماداً الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها ، وقال لهم : هذه هي « المشهورات » فسميت « القصائد المشهورة »^(١) .

وقيل عن أبي جعفر بعض الرواة ، ومنهم أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري (٥٧٧ هـ) صاحب نزهة الألباء ، فإنه قال في ترجمة حماد : وأما حماد الراوية فإنه كان من أهل الكوفة مشهوراً برواية الأشعار والأخبار ، وهو الذي جمع السبع الطوال ، هكذا ذكره أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس ، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة^(٢) .

ومثل ذلك ما نقله ياقوت (٦٢٦ هـ) وذكر أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس أن حماداً هو الذي جمع السبع الطوال ، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة^(٣) .

وقد أخذ بعض الباحثين من المعاصرين بفكرة الشك التي تبدو في كلمة أبي جعفر النحاس « أما قول من قال إنها علقت على الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة » فراحوا يرددونها في كتبهم ، ومنهم معتدلون ، وقف شكهم عند خبر تعليقها ، ووجدوا في كلمة أبي جعفر ما يؤيدهم في إنكار خبر التعليق وحده مع التسليم بصحة هذه القصائد جملة ، والتسليم أيضاً بتسميتها المشهورة « المعلقات » مع محاولة اختراع سبب آخر لإطلاق هذا الاسم أو اللقب عليها .

ومن هؤلاء الذين وصفناهم بالاعتدال في الشك مصطفى صادق الرافعي الذي

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لرجي زيدان ١/ ٩٠ (مطبعة الهلال — القاهرة ١٩٣٦ م)

(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ٤٤ (القاهرة ١٢٩٤ هـ)

(٣) معجم الأدباء ١٠/ ٢٦٦

يقول : « وأما خبر الكتاتبة بالذهب أو بمانه ، والتعليق على الكعبة ، ففي روايته نظر . وعندى أنه من الأخبار الموضوعة التي خفى أصلها ، حتى وثق بها المتأخرون ، وإنما استدرجهم إلى ذلك أن هذه القصائد تسكاد تكون الصفحة المذهبة من ديوان الجاهلية ؛ وأن العرب قوم لم يصح من أديانهم إلا دين الفصاحة ، وهو الذي دانوا به أجمعين ، فلو أنهم فعلوا ذلك لكانوا قد أتوا بشيء غير نكير .

ويذهب إلى أن خبر التعليق من الأخبار الموضوعة ، وأن طرح عبد الملك لشعر أربعة من أصحاب المعلقات وإثبات شعر أربعة آخرين مكابهم من الأخبار الموضوعة أيضاً ، خصوصاً وقد أغفل أبو زيد بن أبي الخطاب القرشي صاحب جمهرة العرب (١٧٠ هـ) . وقد أغفل ابن قتيبة صاحب الشعر والشعراء (٢٧٦ هـ) رواية ابن الكلبي بحملتها .

قال : ولم نر أحداً ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار إلى هذا التعليق ، ولا سمى تلك القصائد بهذا الاسم ، كالجاحظ ، والمبرد ، وصاحب الجمهرة ، وصاحب الأغاني ، مع أن جميعهم أوردوا في كتبهم نثراً وأبياتاً منها : وقد ذكر أبو الفرج صاحب الأغاني (٣٥٦ هـ) أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيباً بسوق عكاظ ، وقام بها في موسم مكة ، فلو كان خبر التعليق صحيحاً لما ضره أن يقول : فكتبها العرب وعلقتها على ركن من أركان الكعبة ..

ويخلص من ذلك وغيره إلى أن حماداً هو أول من اختار السبع الطوال ، وشهرها في الناس ، وقد ذكر ذلك قبله أبو جعفر النحاس ، وأن ابن الكلبي

وهو الذى ذكر خبر تعليقها على الكعبة ، وهو قد علل ذلك بأن العرب ينظرونها فى الموسم ، ثم ينزلونها أو يسقونها ، وأن من عدا ابن الكلبي ممن هم أوثق فى رواية الشعر وأخباره ، لم يذكرها من ذلك شيئاً ، بل جملة كلامهم ترمى إلى أن القصائد لم تخرج عن سبيل ما يختار من الشعر ، وأن المتأخرين هم الذين بنوا على خبر التعليق ما ذكروه من أمر الكتابة بالذهب أو عائه فى الحرير أو فى القباطى ..

قال : وقد رأينا من ينسكرك أن هذه القصائد صحيحة النسبة إلى قائلها ، مرجحاً أنها منحولة وضمها مثل حماد الرواية ، أو خلف الأحمر ، وهو رأى فائل ، لأن الروايات قد تواردت على نسبتها ، وتجد أشياء منها فى كلام الصدر الأول ، وإنما تصحح الروايات بالمعارضة بينها ، فإذا اتفقت فلا سبيل إلى ذلك ، غير أنه مما لا شك فيه عندنا أن تلك القصائد لا تخلو من الزيادة وتعارض الألسنة ، قل ذلك أو كثير . أما أن تكون بحملتها مولدة فدون هذا البناء نقض التاريخ ^(١) .

ويرجع المستشرق « تيودور نولدكى » أن (المعلقات) معناها (المنتخبات) وإنما سماها حماد الراوية بهذا الاسم تشبيهاً لها بالقلائد التى تعلق بالنحور ، واستدل على ذلك بأن من أسماها (السموط) ومن معانى السموط القلائد . وشايه على هذا الأستاذ « كليمان هيار » الفرنسى ، مؤرخ كتاب الأدب العربى بلفته ^(٢) . وهذا من غير شك وهم من نولدكى ومن شايه يدل على قلة دراية بفهم النصوص ، فإن حماداً لم يسمها « المعلقات » وإنما قال لهم : هذه هى « المشهورات » فسميت : القصائد المشهورة .

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ١٩٣ / ٣

(٢) تاريخ الأدب العربى للزيات

وهناك فريق آخر من الباحثين كان نقي خبر التعليق على الكعبة أهون ما قالوا في شعر المملقات ، بل في الشعر الجاهلي كله ، فإنهم تجاوزوا ذلك إلى إنكار هذا الشعر برمته ، ورفضه جملة ، بل إلى الشك في وجود من نسب إليهم هذا الشعر . وزعيم هؤلاء المنكرين الدكتور طه حسين وكتابه الذي سماه « في الأدب الجاهلي » يقوم كله على هذا الإنكار الذي حاول به نقض الشعر الجاهلي جملة وتفصيلا ، بل هدم تاريخ العرب قبل الإسلام ، ووصف في سبيل ذلك كل مأثور من القول ، وكل محمداً يتباهى بها العرب ، بالوضع والاتحال . وينتهي به البحث إلى أن أكثر هذا الشعر الذي يضاف إلى امرئ القيس ، شيخ الشعراء ، وزعيم أصحاب المملقات ، ليس من امرئ القيس في شيء ، وإنما هو محمول عليه حملاً ، ومختلق عليه اختلاقاً ، حمل بعضه العرب أنفسهم ، وحمل بعضه الآخر الرواة الذين دونوا الشعر في القرن الثاني للهجرة ، ثم يقول عن المعلقة :

« ولننظر في المعلقة نفسها ، فلسنا نعرف قصيدة يظهر فيها التكلف والتعمل أكثر مما يظهران في هذه القصيدة ؛ لأنحفل بقصة تعليق هذه القصائد السبع أو العشر على الكعبة أو في الدفاتر ، فما نظن أن أنصار القديم يحفلون بهذه القصة التي نشأت في عصر متأخر جداً ، والتي لا يثبتها شيء في حياة العرب وعنايتهم بالأدب ... وهم بعد هذا يختلفون اختلافاً كثيراً في رواية القصيدة في ألفاظها وفي ترتيبها ، ويضعون لفظاً مكان لفظ ، وبيتاً مكان بيت . وليس هذا الاختلاف مقصوراً على هذه القصيدة ، وإنما يتناول الشعر الجاهلي كله . وهو اختلاف شنيع يكفي وحده لملأنا على الشك في قيمة هذا الشعر ^(١) .

(١) في الأدب الجاهلي ٢١٤ (مطبعة فاروق — القاهرة ١٩٣٣ م)

ونعود إلى القول في نقي خبر هذا التعليق ، وأقدم الأقوال في ذلك فيما نعلم هو كلمة أبي جعفر النحاس^(١) التي تتضمن عدة أمور :

(١) إثبات الاختلاف في جمع القصائد السبع ، في قوله « اختلفوا في جمع هذه القصائد السبع » . وهي عبارة لا تفصح تماماً عن المقصود منها في مجال التثبت والتحقيق ، فهل هو يقصد أن اختلافهم كان في الجمع أو عدمه ؟ أم يقصد الاختلاف فيمن قام بهذه الجمع من العلماء أو الرواة ؟ أم في الطريقة التي جمعت بها تلك القصائد ؟

ولو أخذنا بظاهر اللفظ لكان المراد أن اختلافهم كان منصبا على الجمع نفسه ، والمقابل لهذا الجمع هو عدم الجمع ، ومعناه أن تكون تلك القصائد موجودة أو مجموعة حين وصلت إلى العلماء والرواة ، فلم يكن لأحد منهم شيء من الفضل في هذا الجمع ، بل وجدوها معروفة ومعروفا أصحابها على نحو ما ؛ ولم تكن هنالك حاجة إلى الجمع من جديد ؛ وإنما يكون مجال الحاجة أو مجال الجمع محصوراً في تنسيق ما وجدوه مجموعاً ؛ إما باستبعاد بعض هذه القصائد التي كانت ثمانياً أو تسعاً أو عشرأ ؛ وحصرها في تلك السبع . أو إضافة قصيدة أو أخرى إلى السبع أو ما دونها صححت روايتها عند الذين قاموا بهذا الجمع .

وأنا أميل إلى هذا الرأي ، إذ به نشعر أننا لسنا في حاجة إلى التأوّل ، أمام صريح النص وألفاظه ، وأعتقد أن أبا جعفر كان يعني مايقول ، ويدقق في اختيار اللفظ الذي يدل على ما يريد أن يقول ؛ حتى لا يوقع الدارسين بعده في عيباء .

(٢) أن المسألة هنا ، كما هو واضح من العبارة ، مسألة جمع لا أكثر، وهذا

(١) سبقت في صفحة ٢٢ من هذا الكتاب

يقضى على كل شبهة ، بل لا يجد القارىء مجالاً للشبهة مطلقاً ، فليس أماننا ما يمكن أن يستدل منه على الوضع أو الانتحال أو الاختراع أو زيادة فى الناقص ، أو حذف مما هو مأثور . وهذا يدل دلالة واضحة على التسليم المطلق بصحة ذلك المأثور .

(٣) نقله ما قيل من أن العرب كان أكثرهم يجتمع بسوق عكاظ ، ويتناشدون الأشعار . وهى حقيقة معروفة من عادات العرب وتقاليدهم ، ولم ينكر ذلك واحد من المؤرخين ، أو من أخذ عنهم تاريخ العرب فى الجاهلية .^(١) والاحتكام إلى النابغة أمر معروف ، وقصته مع الأعشى وحسان والخنساء مشهورة .

والذى يستفاد من ذلك أن هذه القصائد كانت من جملة ما أنشد فى عكاظ ، وفى هذا يتفق أبو جعفر النحاس مع ابن خلدون وغيره فى رواية هذا التقليد عن عرب الجاهلية .

(٤) مارواه من أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال : علّقوها وأثبتوها فى خزائنى .

ولم يذكر من هو هذا الملك حتى يمكن تتبع تاريخه ، وتحقيق

(١) قال ياقوت فى (عكاظ) هو نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة ، وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، كانت تقام سوق للعرب بموضع منه يقال له « الأنياء » ، وبه كانت الفجار . وهناك صخور يطوفون بها ويحجون إليها ، وكانت للعرب أسواق تقام بمواضع حول مكة ، فعكاظ بين نخلة والطائف ، وذو الحجاز خلف عرفة ، ومجنة بحر الظهران . ولم يكن فيها أعظم من عكاظ ، وكانت العرب إذا حجت تقيم بعكاظ شهر شوال ، ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوماً من ذى القعدة ، ثم تنتقل إلى سوق ذى الحجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج (مراصد الاطلاع ٢ / ٩٥٣) وقال الفيروز ابادى . عكظه يعكظه حبسه وعركه وفهره ورد عليه نغره . وعكاظ كغراب سوق بصحراء بين نخلة والطائف كانت تقام هلال ذى القعدة وتستمر عشرين يوماً ، تجتمع قبائل العرب ، فيتعاكظون ، أى يتفاخرون ويتناشدون (القاموس المحيط ٢ / ٣٩٦)

هذا الاستحسان ، ومعرفة ما استحسنت عليه خزائنه .

وما أعرف من ملوك العرب القدماء من كان عنده شيء من ذلك إلا النعمان بن المنذر ، قال ابن سلام الجحى (٢٣٢ هـ) في طبقات الشعراء : وقد كان عند النعمان بن المنذر منه « من الشعر » ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح فيه هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو ما صار منه ^(١) .

ولكن النعمان بن المنذر كان من ملوك الحيرة ؛ فهل كان حريصاً على حضور هذه المواسم في عكاظ لا يفوته موسم منها ؟ ذلك ما نشك فيه . أو نقول إن النابغة الذبياني المحكم في عكاظ ، وكان أثيراً عند النعمان ، هو الذى كان ينقل إليه ما يستحسن فيأمر بتعليقه في خزائنه ؟ نشك في ذلك أيضاً ، لأنه لم يثبت أن النابغة أنشد هذه المعلقات أو أكثرها ، ولم تعرف صلة بينه وبين أصحابها ؛ ولم يسمع أنه أنشد هذه المعلقات أو استمع إلى أصحابها ، اللهم إلا ما روى من قصة تحكيمه بين الأعشى والخنساء وحسان بن ثابت .

وكل ما يمكن أن يقال إن مثل هذا الملك العربى ، الذى كان يقدر الشعر وأصحابه حق قدرهم ، كان حريصاً على أن ينقل إليه ما أنشد وما ينشد في هذه المواسم ، فإذا استحسنت منه شيئاً أمر بتعليقه في خزائنه ، إلى جوار ما مدح فيه هو وأهل بيته .

حتى هذا لا يمكن أن يتعارض مطلقاً هو وما روى من كتابتها بالذهب أو بمائه وتعليقها على الكعبة ، فقد يكون تعليقيها في خزائنه تقليداً للتبعية من تعليقيها على الكعبة . والروايات يتم بعضها بعضاً ، كما يصحح بعضها بعضاً . وعلى هذا يكون قول ابن سلام : « فصار ذلك إلى بنى مروان أو ما صار منه »

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٢٣ (طبعة دار المعارف — القاهرة ١٩٥٢ م) .

متما وموضعا لما قال ابن الكلبي إن عبد الملك بن مروان « طرح شعر أربعة منهم ، وأثبت مكانه أربعة »

ومن البين أن الكلام هنا يتصل بشعر مجموع كائن ، انتقل من ملك إلى ملك ، أو من مالك إلى مالك ، حتى آل إلى عبد الملك بن مروان في رواية ابن الكلبي ، أو بنى مروان على التعميم في رواية ابن سلام .

وهذا شيء آخر ، أو كلام عن شعر آخر ، يخالف مارواه البغدادى صاحب خزانة الأدب من أنه روى أن بعض أمراء بنى أمية أمر من اختار له سبعة أشعار فسمها « المعلقات » ^(١) ..

ذلك أن هذه المعلقات كما يتضح من هذا النص ، معلقات جديدة ، أو مختارات جديدة ، تخالف تلك المعلقات المشهورة الماثورة التي اصطلاح على تسميتها بهذا الاسم . وقد نقل الرافعى ^(٢) رواية أخرى عن غير الخزانة : أنه سماها « المعلقات الثوانى » وهذه التسمية وحدها حجة قاطعة ، وعبارة مفسرة ، كفيّة بأن تدحض كل شبهة ، وتقضى على كل شك في نفس من يزعمون أن هذه « المعلقات الثوانى » هي « المعلقات السبع » .

وعلى هذا يكون أمير بنى مروان قد استعار لمختاراته التي اختارها له أحد رواة الشعر لفظ (المعلقات) أو (المعلقات الثوانى) تشبيها لها في الجودة أو أو الأسلوب أو التصرف الفني بالمعلقات السبع .

وليس من الغرابة في شيء أن يختار أى باحث اللقب الذى يروقه ليكون

(١) خزانة الأدب للبغدادى ١/ ٨٨

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعى ٣ / ١٨٧

علماً على ما يكتب أو يؤلف أو يختار . وقد اختير كثير من الألقاب لكثير من المجموعات المختارة . ومن ذلك ما روى أبو زيد عن المفضل قال : قد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعد هنّ — يعنى المعلقات أو الشُّمُوط — سبعاً ما هنّ بدونهنّ ، ولقد تلا أصحابهنّ أصحاب الأوائل ، فما قصّروا ، وهنّ (الجمهرات) لعبيد بن الأبرص ، وعنزة بن عمرو ، وعدى بن زيد ، وبشر بن أبي خازم ، وأمّية بن أبي الصّات ، وخداش بن زهير ، والنمر بن تَوَّاب .

وأما (منتقيات العرب) فهنّ للمسيّب بن عَلس ، والمرقش ، والمتلس ، وعروة بن الورد ، والمهلل بن ربيعة ، ودريد بن الصّمة ، والمتنخل بن عويمر .

وأما (المذهّبات) فللأوس والخزرج خاصة ، وهنّ لحسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، ومالك بن العجلان ، وقيس بن الخطيم ، وأحيحة ابن الجلاح ، وأبى قيس بن الأسلت ، وعمرو بن امرئ القيس .

و (عيون المراثي) سبع : لأبى ذؤيب الهذلي ، وعلقمة بن ذى جدن الحميري ، ومحمد بن كعب الغنوي ، والأعشى الباهلي ، وأبى زبيد الطائي ، ومالك بن الريب النهشلي ؛ ومتمم بن نويرة اليربوعي .

وأما (مشوبات العرب) وهنّ اللاتي شابهنّ الكفر والإسلام : فلنابغة بنى جعدة ، وكعب بن زهير ، والقطاميّ ، والحطيئة ، والشماخ ، وعمرو ابن أحر ، وابن مقبل .

وأما (الملحّات السبع) فهنّ : للفرزدي ، وجريّر ، والأخطل ، وعبيد الراعي ، وذى الرّمة ، والكميت بن زيد ، والطريقم بن حكيم .

فهذه التسعة والأربعون قصيدة عيون أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ،
ونفس شعر كل رجل منهم^(١) .

(٥) وتأتى بعد ذلك عبارة أبي جعفر النحاس التى يقول فيها : فأما قول
من قال إنها علقت فى الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة .

وهذه العبارة تستدعى وقفة طويلة عندها ، لأن فيها خبر النفى الذى
تشبَّه به الطاعنون على خبر التعليق . ونحن نسأل أبا جعفر : إذا كان
تعليق تلك القصائد على الكعبة لا يعرفه أحد من الرواة فمن ذا الذى قاله له ؟
أو من ذا الذى اخترعه ؟

ولا يخلو الأمر من أحد ثلاثة افتراضات : إما أن يكون القائل بالتعليق
المذكور رجلاً من الرواة الذين لا يثق أبو جعفر بروايتهم ، ولا يؤمن بنقلهم ؛
ومن ثم لا يكون عنده أهلاً للرواية لما عرف عنه من الكذب أو التلغيف
أو الوضع ، ولا يكون صالحاً بسبب ما عرف به لأن يؤخذ عنه قول ، أو يروى
له رأى .

ولما أن يكون الذى قال بذلك التعليق رجلاً من عامة الناس الذين
لا يعدون من أهل الرواية .

ولما أن يكون القول بالتعليق فكره شائعة بين أوساط الناس ، ولكنها
لم تثبت فى مجال التحقيق عند أبي جعفر النحاس .

وفى كل قول !

فإذا كان القائل بالتعليق رجلاً من الرواة غير أولى الثقة ، فقد يكون

ذلك رأياً شخصياً لأبي جعفر، وليس ما يمنع من أن يعدّله غيره ؛ وكان عليه أن يذكر اسم هذا الراوية حتى نستطيع أن نعرف رأى غيره فيه .

وإذا كان الذى انفرد بهذا القول رجلاً من عامة الناس فأحرى بأبي جعفر وغيره ألا يأبهوا بمثل قوله فى معرض التأييد أو معرض التنفيد .

وإذا كان القول بالتعليق فكرة شاعت فى أوساط الناس ، وهذا ما ترجح أن أبا جعفر يقصده ويعنيه ، فلا بد لهذه الفكرة من أصل ، ولن يكون هذا الأصل سوى الرواية ، وكان على أبي جعفر أن يبحث عن هذا الراوية الذى ذاعت روايته فى الناس ويبحث عن الأسانيد التى اعتمدها فى روايته هذا الرأى الذى أخذ به عامة الناس .

لقد ذكر خبر التعليق على الكعبة رواة مختلفون منهم من هو أقدم عهداً من أبي جعفر النحاس كابن السكبي (٢٠٤ هـ) ومنهم من يعد معاصراً له كابن عبد ربه (٣٢٨ هـ) الذى توفى قبل أبي جعفر (٣٣٨ هـ) بعشر سنوات ، ومنهم من كان بعده كابن رشيقي صاحب العمدة ، وابن خلدون صاحب المقدمة ، والبغدادى صاحب الخزائنة .

وأكثر هؤلاء ممن عرفوا بالرواية ، واشتهروا بتحقيقها وتمحيصها والفحص عن صحة كل خبر مما يكتبون .

وإذا كان أبو جعفر يقول : إن قول من قال بتعليقها لا يعرفه أحد من الرواة فإن ابن رشيقي الذى عرفناه ثقة صدوقاً ، يقول فى أمر التعليق على الكعبة « ذكر ذلك غير واحد من العلماء ^(١) » .

ونحن برغم هذا التعارض الذى أثبتناه فى عبارة أبي جعفر ، لا نتهمه فيما يقول بالهوى أو محاولة الغرض من شأن الذين نفي مقالتهم ، أو الرغبة فى

الانفراد بالرأى الذى يعرف به ويذكر به فى الناس . ولكن فى وسعنا أن نصدقه فيما قال ، ونقول إنه لم يعرف أو لم يلق من الرواة من حدثه بمحدث التعليق ولكن غيره عرف ، ولقى أكثر من واحد أخبره بخبر التعليق ، ومن عرف حجة على من لم يعرف . ولا سببا إذا كان ذلك فى أمر مرجعه إلى السماع والرواية الشفوية عن الرواة والعلماء . وفى ذلك يقول المستشرق « تيودور نولدكي » فى مقام الإعجاب برواية العرب وقوة حافظتهم : إن الشعر العربى نقل بواسطة الرواية الشفوية والتواتر السماعى ، ولا غرابة فى هذا بالنسبة للمقطوعات والقصائد القصيرة ، أما المطولات فقد كان من التوفيق فى حفظها وتداولها وجود فريق من الرجال اختصوا بالحفظ ، فوعوا أشعار شاعر واحد أو جملة شعراء ، كما كان للشعراء أنفسهم رواة يروون أشعارهم ، فكان لكل شاعر راويته ، وقد يكون ابنه أو ربيبه أو نسيبه أو حبيبه . « والسبع الطوال خالية بالتأكيد من التزييف والتزوير ، فلا يشك فى صحتها . وقد تنشأ بعض الاختلافات اللفظية عن اختلاف بعض قواعد النحو فى النطق والقراءة بحسب آراء العلماء الذين وضموها ولفنوها ، والناظر فى مجموع هذا الشعر البدوى بعين الانتقاد يمكنه استخراج صورة شعرية كاملة من حياة هذا الشعب العربى فى بداوته .

« وقد بسأل الناقد نفسه : كيف وقع الاختيار على المطولات دون سواها من مئات بل ألوف القصائد التى قالها الشعراء وحفظها الرواة ، والرد على ذلك أن الانتخاب يرجع إلى سعة الشهرة التى تمتع بها أمثال امرئ القيس وزهير وطرفة ، كما أن قصيدة مفردة لشاعر مثل عمرو بن كلثوم حازت سمعتها لأسباب خاصة أدت إلى سرعة انتشارها^(١) .

(١) نقلا عن (الشهاب الراصد) ل محمد لطفى جمعة ٣٠٠ (مطبعة المتكاتف والمطعم — القاهرة ١٩٢٦ م) .

٦ — ثم قول أبي جعفر : وأصلح ما قيل في هذا أن حماداً الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها ، وقال لهم : هذه هي المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة .

ولست أرى أن هذا التعقيب في محله ، وأقصد حكمه بصلاحيه هذا الرأي ، فإن جمع حماد الراوية لتلك القصائد شيء آخر ، غير القول بالتعليق على الكعبة ، الذي سبق الكلام من أجله . فإن حماداً — كما يقرر أبو جعفر نفسه — قال للناس : هذه هي « المشهورات » ، ولو كان قد قال لهم : هذه هي « المملقات » لكان التعقيب في محله ، ولكن أصح رأي أو أصلحه من وجهة نظر أبي جعفر ، ولكنه قال اسماً بعيداً كل البعد عن المعنى الذي حاول أبو جعفر أن ينفيه .

ثم متى رأى حماد زهد الناس في الشعر ؟ لقد كانت ولادته في سنة خمس وتسعين وتوفي سنة خمس وخسين ومائة^(١) . وفي هذه المدة لم ينقطع تيار الشعر العربي عن التدفق ، وأقبل الرواة على رواية الشعر ، وأكب الكاتبون على تدوينه ، والعلماء على نقده وإحصاء المآخذ عليه ؛ فالفترة التي عاصرها حماد تعدت من أخصب فترات التاريخ العربي بالشعر والشعراء والرواة والمدونين والنقاد ؛ ولا يكون شيء من هذا في زمن زهد الناس فيه في الشعر !

إن الشاعر لا يقول إلا إذا وجد ما يقول ، ووجد من يقول له ، ومن يبي قوله ويقدره حتى قدره ، ويوازن قوله بالمأثور من أقوال من قبله ، ومن حاصره ليشهد له بالإجادة أو التقصير . والراوية لا يروي إلا إذا وجد الراغبين في روايته . والناقد لا ينقد إلا إذا أحس حاجة الذين يروي لهم إلى معرفة ما عنده .

وقد كان الأمر كذلك في هذه البيئة ، وفي هذا الزمان ، اللذين عاش فيهما حماد الراوية ، ولقد كان شأن حماد شأن غيره من الرواة الذي عاشوا في خصب بما يدّرعليهم فنّ الرواية الذي كانوا ممتعين به ، من صلات الخلفاء والسراة الراغبين في هذا الفن الجميل ، والقادرين على تقديره ، وتمييز القيم الفنية الصحيحة فيه .

وليس في شيء من النصوص التي استشهدنا بها فيما سبق ، ما يمكن أن يؤخذ منه الخط من شأن حماد ؟ أو الغرض من رواياته ، أورميه بالكذب أو الوضع أو الانتحال ، بل إن المدائني يقول : إنه كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وكانت ملوك بني أمية تقـدّمه وتؤثره وتستزيه ، فيفد عليهم ويسألونه عن أيام العرب وعلومها ، ويجزلون صلته . وقال الهيثم بن عدى : قال الوليد بن يزيد لحمد الراوية : نعم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية ؟ فقال : بآني أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن أعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أنشد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميّزت القديم منه من الحديث . فقال : إن هذا لعلم وأييك كبير ، فكم مقدار ما تحفظ ؟ قال كثيراً . وقال الهيثم بن عدى : ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد^(١) . . .

نظن بعد كل هذا أن رجلاً يوصف بهذه الصفات ، ويرسل في طلبه من أقصى الأرض ليُسأل عن شعر ، أو يستفتى في شاعر ، لا بد أن يكون بعيداً عن شبهات الوضع والكذب والانتحال .

وعليّنا أن نقرأ بحذر ما قال بعض الرواة في حقّ هذا الرجل الذي فاقهم علماً ورواية لكلام العرب ودراية به ، ومن ذلك ما قال ابن سلام : كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير مونتوق به ، كان ينحل شعر

للرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد في الأشعار^(١) . وقال الأصمعي :
كان حماد أعلم الناس إذا نصح ، يعني إذا لم يزد وينقص في الأشعار
والأخبار ؛ فإنه يقول الشعر ، وينحله شعراء العرب . وقال المفضل الضبي :
قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقليل له :
وكيف ذلك ؟ أيخطئ في رواية أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل
العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، واسكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها
ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ،
ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ،
ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك^(٢) .

قلت : إن أمثال هذه الأقوال ينبغي أن تقرأ على حذر ، ألا تؤخذ على
علائقها ؛ فإن المعاصرة حجاب يحول في كثير من الأحيان دون تقدير المعاصرين ،
والتنافس بين أولئك الرواة أمام الخلفاء والسراة ، لا تجعل المنافس يشهد لمنافسه
بالحق كله ، ولا سيما إذا كان الذي يوجد عند المنافس دون ما عند غيره من رجال فنّه .
ولم يكن حماد أول راوية جمع شعر العرب فقد سبقه كثير من الرواة ،
وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه .
فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلو بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت
عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب
بالأمنصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يثولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب
وألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ،
وذهب عنهم منه أكثره^(٣) .

قال ابن سلام : ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار ، وليس بشكل
على أهل العلم زيادة ذلك ، ولا ما وضع المولدون^(٤) .

(١) طبقات غول الشعراء ٤١ . (٢) معجم الأدباء ١٠/٦٦٢ .
(٣) طبقات غول الشعراء ٢٢ . (٤) طبقات غول الشعراء ٤٠ .

ومع هذا لم يستطع واحد ممن يعدون أنفسهم عدولا ، أو يعدهم الناس عدولا ، أن يضع أيدينا على زيادة في المعلقة أو بعضها ؛ ادّعاها حماد أو غيره ، وقام الدليل الثابت على افتعالها أو زيادتها ، أو النقص الذي تعمد من الأصل . لقد كان هنالك رواة آخرون ، لعله لم يقل فيهم شيء مما قيل في حماد ، من أمثال أبي عمرو بن العلاء الذي يقول فيه يونس بن حبيب : لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله ، ولكن ليس أحدٌ إلا وأنت آخذ من قوله وتارك^(١) . ومن أمثال خلف ابن حيان أبي محرز الأحمر ، الذي يقول فيه ابن سلام : أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس بيت شعر وأصدق لسانا ، لانبأى إذا أخذنا عنه خبراً ، أو أنشدنا شعراء أن نسمعه من صاحبه . قال ابن سلام : وكان أبو عبيدة والأصمعي من أهل العلم ، وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبي الكوفي ، ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والاسلام والخضرمين ، فنزلناهم منازلهم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدناه له من حجة ، وما قال فيه العلماء^(٢) .

أما كان لواحد من هؤلاء الثقة أن يد لنا على موضع واحد في المعلقة حصل فيه التعديل بالزيادة أو النقصان ؟ وما كان ينبغي لواحد من أولئك العدول أن يسكت على ضلال يراه ، ولا سيما إذا كان ذلك الضلال متصلا بتراث هذه الأمة التي يروون أديها وينقلون أخبارها ؟

إن الذي نعتقده ، بعد كل هذا ، أن حماداً هو جامع المعلقة بالمعنى الذي أوضحناه آنفاً ، وفي الحدود التي فُتّلناها ، وأننا لم نقرأ طعناً صريحاً أو غير صريح في روايته للمعلقة بزيادة عليها أو نقصان منها . .

(١) راجع طبقات خول الشعراء لابن سلام ١٥ (٢) ص ٢١ .

وعلى هذا نكون تلك المعلقات قد وصلت إلينا سليمة في مجموعها . ولا يؤثر في تلك السلامة الاختلاف اليسير في ألفاظ قليلة منها ، أو ترتيب الأبيات في القصائد الذي قد يختلف نادراً بين الرواة المختلفين . وذلك الاختلاف طبعي — كما أسلفنا — في أمر مرجعه كله إلى السماع .

— ٥ —

وقد حاول بعض المعاصرين من باحثي المستشرقين ومقلديهم من العرب الاستعانة ببعض الأدلة النظرية يؤيدون بها حجّتهم في نفي تعليق تلك القصائد على السكبة ؛ وفي أوائل يقول جرجي زيدان : وإنما استأنف إنكار ذلك بعض المستشرقين من الإفرنج ، ووافقهم بعض كتابنا رغبة في الجديد من كل شيء^(١) . . .

ومن الأدلة التي استندوا إليها في نفي التعليق :

(١) أن العرب كانوا أمة أمّية يندر فيها القارئون والكتابون ، وقد بنوا ذلك على وصف العرب قبل الإسلام بالجاهلية ، وتسميتهم عصرهم السابق للإسلام بالعصر الجاهلي ، ذاهبين إلى اشتقاق ذلك من الجهل الذي هو ضد العلم ، وليس هذا سر التسمية ، وإنما السبب « هو السفاهة المؤدية إلى الممجية ، وانتشار الضلالة ، وعبادة الأوثان ، والإسراف في القتل ، واستباحة الزنا والخمر ، وانهاء ذلك كله إلى تأريث العداوة ، وقيام الحروب ، وتفرق القبائل^(٢) . . .

وقد ثبت أنه كان في العرب من كانوا يكتبون ، وليس ذلك إلى حد الندرة كما يزعم الزاعمون ، وكيف يمكن أن يكون العرب أمة من الأميين مع أن الحروف المكتوبة بها النقوش العربية الجنوبية قد تكون هي الحروف

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١/٩١ .

(٢) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ٦ (مطبعة العلوم — القاهرة ١٩٣٢ م) .

الأصلية التي بنيت عليها المجاثية القينية ، فهي لذلك أم الكتابات المجاثية في هذا العالم ^(١) .

وإذا استبعدنا ما قال به رواة الملقات أو مؤرخوها عن كتابتها بهذه الدعوى — دعوى أمية العرب وعدم معرفتها القراءة والكتابة — فإن هناك أدلة أخرى ، وباحثين مدققين ، أثبتوا معرفتهم القراءة والكتابة ، وإذا ثبتت الكتابة في غير الملقات ، فثبتها في الملقات أخرى . ومن هذه الأدلة أن العرب كانوا يكتبون عهودهم وموائيقهم وما يعطون من أمان ، ومن ذلك ما قال الحارث ابن حنزة ، وهو أحد أصحاب الملقات ، في شأن بكر وتغلب :

واذكروا حنزة ذى الحجاز وما قُ
دُم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتدوى وهل ين
قضى ما في المهارق الأهواء ؟

يقول : إذا كانت أهواؤكم زينت لكم الغدر والخيانة بعد ماتعافدنا على الكف عن القتال ، فكيف تصنعون بما هو مكتوب في الصحف عليكم من الموائيق ^(٢) . قال الجاحظ : والمهارق ليس يراد بها الصحف والكتب ، ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين ، أو كتب عهود وميثاق وأمان ^(٣) .

والحديث في ذلك يطول ، وليس ذلك المجال مجال بحثه ، ففي ذلك بحوث طويلة لا ينقصها التحقيق أو التدقيق ، وفيها من الأدلة النظرية ما تؤكدها الأدلة المادية ^(٤) .

(١) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث ١٩٤ قلا عن :

The Background of Islam, p. 10.

(٢) نهاية الأرب من شرح مملقات العرب للنسائي ١٨٨ (مطبعة السعادة — القاهرة

١٩٠٦ م) .

(٣) كتاب الحيوان للجاحظ ٣٥/١ — طبعة الساسي (المطبعة الحيدية — القاهرة

١٣٢٣ م) .

(٤) من ذلك على سبيل المثال الفصل الأول من الباب الثاني « اعتماد حركة إحياء القديم =

ولكننا نجتزئ ببعض الإشارات التي تثبت وقائع مادية لم ينظر إليها الذين تشبثوا بالإنكار معتمدين على دعوى جهل العرب القراءة والكتابة ؛ فنقول لهم :
 ألم تقرأوا ما كان من أمر قريش ، في حربها النبي والمسلمين ، لمارأت قريش
 أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً (الحبشة) أصابوا به
 أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد من منع لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان
 هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وجعل
 الإسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا واثمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون
 فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب ، على ألا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ،
 ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم . فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ، ثم
 تعاهدوا وتوافقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة ، توكيداً على
 أنفسهم .

ولم يفتر رواة هذا الأثر — وكأنهم يتنبئون بما يكون في آخر الزمان
 من جحود وإنكار — أن ينصوا على اسم كاتب هذه الصحيفة ، فقالوا :
 وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ، فثلب بعض أصابعه ^(١) ..

ولست أعتقد أن واحداً من أولئك المنكرين كتابة العرب يستطيع أن يحدد
 تاريخ السيرة النبوية ورواياتها التي استفاضت بها كتب التاريخ ، وتواترت بها
 الأخبار ، وتوارد عليها الرواة ، الذين بلغ بهم التمهيص والتدقيق درجة لم يجتزئوا

== على أصول مكتوبة من كتاب تاريخ الضم العربي حق آخر القرن الثالث الهجري صفحة
 ١٩٢ وما بعدها (طبعة دار الكتب المصرية — ١٩٥٠ م) .

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ، لعبد السلام هارون ١٠٥/١ (مطبعة سعد مصر —
 القاهرة ١٩٥٥ م) .

معهما بالأخبار الخطيرة والأحداث الجسام يروونها ويتناقلونها ، بل حرصوا حرصاً على رواية التفاصيل التي تتناول كبار الأحداث وما دونها وفي هذه السيرة النبوية كثير من كتب النبي صلى الله عليه وسلم التي بعثها إلى الملوك والرؤساء والجماعات بنصوصها وكتابتها ، وفيها كثير من عهود النبي ومواريثه التي قطعها الرسول صلوات الله عليه على نفسه ومن معه من المسلمين ، وفيها كثير من وثائق الصلح والمهادنة بينهم وبين غيرهم من المخالفين أو المخاربين من قريش وغيرهم .. وصلح الحديبية بوقائمه وأحداثه مشهور معروف ، ويعتينا منه في هذا المقام أن قريشاً بعثت سهيل بن عمرو أخا بني عاصم بن لؤي إلى النبي ، وقالوا له : أنت محمدأ فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً . وجاء سهيل فلما رآه النبي مقبلاً قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل . فلما انتهى إلى النبي تكلم فأطال ، ثم جرى بينهما الصلح ، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر فأتى أبا بكر فقال : أليس برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطى الدنية في ديننا ؟ فطمأنه ثم ذهب إلى النبي فقال له نحواً مما قال عمر ، فقال النبي : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني !

ودعا رسول الله على بن أبي طالب ، فقال : اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب « باسمك اللهم » . فأمره الرسول بموافقة . ثم قال اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقائك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فقال النبي : اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، واصطلحنا على وضع الحرب عن الناس

عشر سنين يأمنُ فيهنّ الناس ، ويكفّ بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً من مع محمد لم يردّوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة^(١) ، وأنه لا إسدال ولا إغلال^(٢) . وأنه من أحبّ أن يدخل في عهد محمد وعقده دخل فيه ، وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه^(٣) .

والذى لا شك فيه أن تاريخ البعثة النبوية هو الحلقة التالية للجاهلية في تاريخ العرب ، وأن الكتابة في صدر الإسلام لم يتعلمها العرب في يوم وليلة أو شهر أو شهرين ، ولكنها معرفة متتابعة متسلسلة لا ينكرها باحث منصف . ولا أريد بهذا القول أن أثبت أن العرب في مجموعهم كانوا أمة كاتبة ، فإن ذلك محال ، بل شأن العرب في ذلك شأن غيرهم من الأمم التي يوجد فيها الكتّابون وغير الكتّابين ، ولا تزال هذه الظاهرة ظاهرة حتى في عصر الحضارة الذي نعيش فيه ؛ ففي مصر وسائر البلاد العربية والمواطن الإسلامية وغيرها ملايين لا تحصى من الذين لا يقرءون ولا يكتبون ، على الرغم من تقدم وسائل العلم وأسباب المعرفة ، ولا توصف هذه الأمم بالأمية الجامعة ، كما يراد وصف العرب بذلك في حياتهم الجاهلية قبل الإسلام . ولكن الإنصاف الذي تقتضيه هذه الأدلة وعشرات من أمثالها ، يدعونا إلى القول بأنه كان في العرب من يكتب ، كما كان فيهم من لا يكتب ، مع الاعتراف الطبيعي بكثرة الذين كانوا يجملون القراءة والكتابة منهم . وعلى هذا لا يمكن أن يبنى الطعن في كتابة العلاقات على جهل العرب بفن الخط أو الكتابة ؛ ولا شك أن التأنيق في كتابة أمثال هذه الروائع الممدودة عندهم على الحرير أو القباطى بالذهب شيء لا يحكم

(١) أى صدوراً منطوية على ما فيها لا تبدو منها عداوة .

(٢) خيانة .

(٣) تاريخ الفتح الإسلامى لمحمد فخر الدين ١٣٥ (مطبعة الطلبة — القاهرة ١٩٣٢ م)

العقل باستحالته ولا تمنع العادة حصوله ؛ فإن لذلك الشعر المختار منزلته ،
والكعبة محلها من الاحترام ، وهذان السببان يقتضيان ما يستطاع من التأنيق
والإبداع حتى تجتمع الأسباب التي تدعو إلى الإعجاب بكتابتها وتذهيبها
وما تكتب عليه ، كما اجتمعت أسباب الإعجاب بالنفن الشعرى التي رزت في
تلك القصائد .

وقد أورد صديقنا الدكتور أحمد الحوفى في كلمته الموجزة التي كتبها عن
الملقات في كتابه « الحياة العربية من الشعر الجاهلى » تساؤل الأستاذ
نيكلسون الذى يقول فيه : هل من المعقول أن يقبل أبناء الصحراء
الأبتيون أن يقدموا نمرات قرأنهم التي تشيد بشرف قبائلهم — وهم جدّ
حريصين عليه — ليحكم فيها محكمون من قبائل أخرى ؟ أو يقبلوا عن طيب
خاطر حكم طائفة من الرجال من القبائل المجاورة لمسكة من الصعب أن يحكموا
حكماً عادلاً في مصلحة منافسيهم من قبائل أخرى ^(١) ؟

واست أدري موضع هذا الكلام في الحديث عن الملقات أو نفي تعليقها أو
إثباته ، وقد استشهد به المؤلف في مقام نفي تعليق تلك القصائد على الكعبة مستظهراً
به على ذلك النفي . وأنا لأرى في ذلك النص شيئاً من الحديث عن الملقات ، ولا إشارة
إلى القول بتعليقها بالتأييد أو بالتفنيد ، وإنما هو كلام في التحكيم ، أو الاحتكام
إلى الفحول ، طلباً لرأيهم في الشعر أو في صاحبه ؛ في الأسواق أو ماشا كلها ،
واستبعاد نيكلسون ينصب على هذا الاحتكام بما ذكر من الأسباب ، ولا يستحق
هذا القول تعقيماً عليه منا ، لأنه يتصل بكلام آخر ، وبموضوع يخالف ما نحن

(١) الحياة العربية من العصر الجاهلى ١٤٩ (مطبعة نهضة مصر — القاهرة ١٩٥٢ م)

بصدده من البحث في المعلقات . اللهم إذا كان الاحتكام متصلاً بإحدى
القصاصد المعلقات ؛ وهذا ما لم يذكره أحد من الرواة فيما نعلم ؛ ولو كان الأمر
كذلك جديلاً ، لكان البحث خاصاً بصحة القصيدة أو القصائد ، وهذا شيء
لم يحاول الدكتور الحوفي أن ينفيه أو يثبتته ، فسكانت هذه العبارة عبارة نيكاسون
أشبه بالكلام المقحم في غير موضعه ؛ لأنه كما أسلفنا كان بصدد الحديث عن
المعلقات ، ونفى خبر تعليقها على الكعبة ، منضمّاً إلى جماعة المنكرين .
فلننظر بعد ذلك في غير هذه الحجة من الحجج التي تذرّع بها أولئك
المنكرون .

ومن هذه الحجج أن الذين نقلوا تعليق هذه القصائد على الكعبة لم يذكروا
تفصيلاً شافياً عن كيفية تعليقها ، ولا عن الذين كتبوها ، والذين أمروا بتعليقها
من الملوك والأشراف والقضاة^(١) . وهي أيضاً حجة واهية لا تنهض دليلاً مقنعاً
على النفي ، لأن كيفية التعليق ، وذكر أسماء الكتّابين ، وأسماء الملوك
أو الأشراف أو الحكّامين ، أمور لا يتعلّق الفرض بها ، كما يقول البلاغيون ،
وإنما يتعلّق الفرض بهذه القصائد وعظم شأنها ، وخطورة منزلتها في الشعر
الجاهلي ، ومفاخر الذين أنشدوها ، والقبائل التي ينسبون إليها ؛ وكما أن
الإغفال ليس دليلاً على الحصول ، فهو كذلك لا ينهض دليلاً على المنع .
فالجبتان متقاومتان في السلب والإيجاب ، لا تهدم إحداها الأخرى . على أننا
وجدنا فيما كتب المحققون ما يشير إلى شيء من هذا ، في كلمة ابن خلدون
التي سبقت ، وأعني بها قوله : إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها (بالكعبة)
من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبية ومكانه في مضر^(٢) .

(١) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ١٢٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٨١ وانظر صفحة ٢٠ من هذا الكتاب .

ومعنى ذلك أن الذين قاموا بتعليق القصائد هم أولئك الذين كانوا يتعصبون للشعراء ، والذين كان لهم منزلة في نفوس أولئك الذين كانوا يعنون بأمر الكعبة والبيت الحرام ، من قريش ومن بوالونهم من الذين كانوا يقدرون هذا الفن الشعري ، وكانوا حراساً على صونه من عبث الرواة ، وتضييع الأحداث ، وسطوة الزمان ، غيرة عليها أو على قائلها .

وقالوا : إن الكعبة هدمتها قريش بسبب سيل أصابهم فهدمها ، أو نار أحرقتها ، أو لأنهم أرادوا رفعها وتسقيفها ، وإنما كانت رضياً^(١) فوق القامة فنقضوها ، وجددوا بناءها وسقفوها ، ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود موضعه ، وكان إذ ذاك ابن خمس وعشرين سنة ؛ ولم يذكر رواية خبر الهدم والبناء شيئاً عن المعلقات .

قلت : لم أقرأ في كتب السيرة أو أخبار مكة شيئاً مما عثر عليه فيها عند هدم الكعبة وبنائها عن المعلقات أو غيرها من المعلقات ؛ فإذا لم يذكر المؤرخون شيئاً عن عنورهم على المعلقات ؛ فإنهم لم يذكروا شيئاً عن غيرها ، وليس عدم ذكرهم لهذه الآثار بمانع من وجودها .

ولنعد النظر في الأخبار التي اتصلت بهدم الكعبة وبنائها . قال الحافظ الفاسي ، صاحب « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » في ذلك :

« وهو صلى الله عليه وسلم الذي وضع الحجر الأسود موضعه من الكعبة حين اختلفت قريش في ذلك ، وكان سبب بنائهم لها لوهنها من الحريق الذي أصابها حين جرت ، والسيل العظيم الذي دخلها وصدع جدرانها ، بعد توهنها بالحريق ، وجعلوا ارتفاعها من خارجها من أعلاها إلى الأرض ثمانية عشر ذراعاً منها تسعة أذرع زائدة على طولها حين عمرها الخليل عليه السلام ، واقتصروا من عرضها أذرعاً جعلوها في الحجر لقصر النفقة الحلال التي أعدوها لهامة الكعبة

(١) الرض : أن تنضد الحجارة بعضها على بعض من غير ملاط .

عن إدخال ذلك فيها ، ورفضوا بابها ليدخلوا من شاءوا ، ويمنعوا من شاءوا ، وكبسوها بالحجارة ، وجعلوا في داخلها ست دعائم في صفين^(١) .. فالسبب في هدم الكعبة ذلك الوهن الذي أصاب بناءها من الحريق الذي أصابها ، والسييل العظيم الذي دخلها وصدع جدرانها ، بعد توهنها بالحريق .. وأعتقد أن في ذلك السبب الذي أجمع عليه المؤرخون وكتاب السيرة حجة مقنعة ودليلا كافيا على أن هذه الآثار التي كانت معلقة على جدران الكعبة ، أو موصولة بأستارها ، قد أتت عليها الحريق ؛ فإن حريقاً يوهن البناء ، وسيلا يجعل أركانها تتداعى ، من المعقول جداً ألا يبقى ولا يذر شيئاً من تلك العروض العالقة بذلك البناء ، بله نسيجاً من الحرير أو الكتان يحرقه أدنى لهب ، وتأتى إليه أضعف نار .

ألم يفكر واحد من أولئك المنكرين ، والمتذرعين بمثل هذه الحجة الواهية ، في شيء من هذا ، حتى يكون تفكيرهم تفكيراً منطقياً علمياً ؟ وحتى لا يقال إنهم يقلّدون في تفكيرهم ، أو أنهم ينكرون لمجرد الإنكار ؟! وقالوا : إنه ما كان للعرب الذين يوقرون هذه البنية أن يدنسوها بمثل مجون امرئ القيس ولا فسوق طرفة .. !

وكأنى بأولئك المتذرعين بهذه الحجة يقيسون العرب في جاهليتهم بالعرب أو بالمسلمين وقد طهّروا الكعبة ، وقصّوها حجاً تائبين عابدين ، لارفت ولا فسوق ولا جدال ، وإنما رجال يحبون أن يتطهّروا في بيت شريف وفي مقام كريم ، ونسوا الهوة العميقة التي تفصل بين الجاهلية والإسلام ، وبين عادات العرب في الجاهلية وتقاليدها ، وعادات الإسلام وتقاليده ، وكأنهم يصفون الأولين بالورع والتقوى إلى درجة التحرج والتأثم من قراءة مثل مجون امرئ

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٩٥/١ (دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٥٦م)

القيس أوفسوق طرفة، في شعر كتب بالذهب وعلق بالكعبة ، وكأن مجنون امرئ
القيس أوفسوق طرفة أشدّ خطراً وأعظم فتكاً بأخلاقهم ومثلهم العليا من
عبادة الأوثان والسجود للأصنام ، وقد روي أنه كان من أولئك المتحرجين
المتأتمين في زعم المنكرين من صفع إلهه ، لأنه حال بينه وبين ما كان يريد من
موافقته على الأخذ بثأره .

على أن كثيراً من المسلمين ، ومن الذين لم يعرف عنهم ماثم ، ولم يطعن
في صحة دينهم ، كانوا لا يتأتمون من رواية الشعر الماجن الخليع ، بل وقرضه في بيوت
الله ، ولم يطعن ذلك في دينهم وورعهم ، وهل تقاس كعبة الشرك والأصنام
في ظلمات الجاهلية بمساجد العبادة والتوحيد في نور الإسلام ؟

وقد قيل لابن سيرين : إن قوماً يرون أن إنشاد الشعر ينقض الوضوء ،
فقال :

نَبَيْتُ أَنْ فِتَاةً كُنْتُ أَخْطُبُهَا عُرْقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطَّوْلِ
ثم قال : الله أكبر ، ودخل في الصلاة .^(١)

ورواية ابن رشيقي في هذا ، أن ابن سيرين قال : الشعر كلام عَمْدٌ بالقَوَايِ ،
فما حَسُنَ فِي الْكَلَامِ حَسُنَ فِي الشَّعْرِ ، وكذلك ما قَبِيعَ مِنْهُ .. وسُئِلَ
فِي الْمَسْجِدِ عَنْ رِوَايَةِ الشَّعْرِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَقَدْ قَالَ قَوْمٌ إِنَّهَا تَنْقُضُ
الْوُضُوءَ ، فَقَالَ :

نَبَيْتُ أَنْ فِتَاةً كُنْتُ أَخْطُبُهَا عُرْقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطَّوْلِ
ثم قام فأمّ النَّاسَ . وقيل بل أنشد :

(١) جمع الجواهر لأبي إسحق المصري القيرواني ٣٩ (دار إحياء الكتب العربية —

القاهرة ١٩٥٣ م)

لقد أصبحت عرسُ الفرزدق ناشراً ولو رُضيت رُمحُ استِه لاستقرتِ

... وسئل ابن عباس : هل الشعر من رَفَثِ القول ؟ فأنشد :

وَهْنٌ يَمِشِينَ بَنَاهِمِيَّاسَا إِن تَصْدُقُ الطَيْرُ

وقال : إنما الرَفَثُ عند النساء ، ثم أحرم للصلاة^(١) .. وسئل ابن سيرين عن ذلك مرة أخرى ، وقد استفتح الصلاة ، فأنشد للأعشى :

وَتَسْخُنُ لَيْلَةً لَا يَسْتَطِيعُ نُبَاحُهَا الْكَلْبُ إِلَّا هَرِيرًا

وتبردُ بردَ رداءِ العارِو من بالصيف رقرقت فيه العبيرُ

ثم كبر وصلى . وقال جرير بن حازم : كنت في مسجد الجهاضم فقرضت بيت شعر ، فقالوا : ما نراك إلا قد أحدثت فتوضاً ، فذعرتي قولهم ، فأتيت ابن سيرين ، وقد قام إلى الصلاة ، فقلت : رويدك يا أبا بكر ! فقال منهم^(٢) ؟ فعرّفته ، فقال : هلا رددت عليهم :

ديارٌ لوملةٌ إذ عِشْنَا بها عِشَّةُ الْأَنْمِ الْأَفْضَلِ

وإذ وُدَّهَا فَارَغٌ لِلصَّيْدِ قِ لَمْ تَتَغَيَّرْ وَلَمْ تَبْدِلْ

كَأَنَّ التَّلُوجَ وَمَاءَ السَّمَا بَ وَالْقِرْقَرِيَّةَ^(٣) بِالْفُلْفُلِ

وماءِ القَرْنَفِلِ وَالزَّجْجِ لَ شَيْبَ بِهِ ثَمَرُ الشَّنْبِلِ^(٤)

(١) المدة لابن رشيقي ١١/١

(٢) كلمة استفهام ، أي ما حالهم ؟ وما شأنك ؟

(٣) القرقف : الحمر يرعد منها صاحبها .

(٤) الشنبل : نبات طيب الرائحة ، ويسمى سنبُل المصافير ، وأجوده السورى وأضعفه

يُصَبُّ عَلَى بَرْدِ أَنْيَابِهَا قَبِيلَ الصَّبَاحِ وَلَمْ يَنْجَلِ
نَمْ قَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! وَقِيلَ لَابْنِ سِيرِينَ : أَنْشُدِ الْقَذْعَ مِنَ الشَّعْرِ
وَأَصْلِي ؟ فَقَالَ :

وَأَنْتَ لَوْ بَاكَرْتَ مَشْمُولَةً صَفَرَاءَ مِثْلَ الْفَرَسِ الْأَشْقَرِ
رُحْتَ وَفِي رَجْلَيْكَ مَا فِيهِمَا وَقَدْ بَدَّاهُنَّكَ ^(١) مِنَ الْمُنْزَرِ ^(٢)

تلك آراء صريحة ، وروايات صحيحة ؛ عن عالمين كبيرين أحدهما
ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يلقب بحجر هذه الأمة ، أنشد هذا
الشعر وفيه ما فيه من وصف ومجون في بيوت الله ، والمسلمون أشد إعظاماً
لها من الجاهليين . لكعبتهم . وقد كان لعبد الله بن عباس مجالس في مسجد
رسول الله يسمع فيها شعر عمر بن أبي ربيعة في ديبه وغزله ، وما كان له مع
إسلامه وقرباته من صاحب هذه الروضة المباركة ، أن يسمع بمثل ذلك في هذا
المكان ، لولا أن استجادة العرب للشعر لم تكن تتوقف على شرف
معناه كما يزعم أصحاب هذه الشبهة الواهية ^(٣) .

وفي كتاب ابن المعتز إلى أبي بكر ابن الأنباري جواباً عن كتابه إليه الذي
قال فيه : جرى في مجلس الأمير ذكر الحسن بن هاني ، والشعر الذي قاله
في المجون ، وهو يؤمّ قوماً في صلاة ... فكان حقّ شعر هذا الخليع ألا يتلقاه
الناسُ بالسنتهم ، ولا يدونونه في كتبهم ، ولا يحمله متقدمهم إلى متأخرهم

(١) ألهن : اسم لما يستقبح ذكره

(٢) جمع الجواهر للحصى التيرواتي ٤٠

(٣) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ١٢٣

لأن ذوى الأقدار والأسنان يجلّون عن روايته ، والأحداث يغشون بحفظه ، ولا ينفش في المساجد ، ولا يتحمل بذكره في المشاهد .

فكان مما كتب ابن المعتز إليه : ولم يؤسس الشعر بانيه على أن يكون المبرز في ميدانه من اقتصر على الصدق ، ولم يغوَ بصبوة ، ولم يرخص في هفوة ولم ينطق بكذبة ، ولم يفرق في ذم ، ولم يتجاوز في مدح ، ولم يزور الباطل ويكسبه معارض الحق . ولو سلك بالشعر هذا المسلك لكان صاحب لوائه من المتقدمين أمة بن أبي الصلت النقي ، وعدى بن زيد العبادي ، إذ كانا أكثر تذكيراً وتحذيراً ومواعظ في أشعارهما من امرئ القيس والنايفة ... وهل يتناشد الناس أشعار امرئ القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة وشار وأبي نواس على تعيهرهم ، ومهاجاة جرير والفرزدق إلا على ملأ الناس ، وفي حلق المساجد ؟ وهل يروى ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم^(١) ...

وأظننا بهذا القدر من الموازنة بين احترام عرب الجاهلية للكعبة واحترام المسلمين لمساجدهم ، قد أبطلنا تلك الحجة من حجج المنكرين تعليق المعلقات على الكعبة .

* * *

وقد روى أن بعض شيوخ الأدب الذين يصح التعويل على آرائهم في هذا الموضوع يرى أن السبب في تسمية هذه القصائد بالمعلقات أن العرب لم تسكن

تكتب في دقاف ، وأنها لم تكتب قبل القرآن كتاباً مدققاً^(٢) ، وإنما كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد ، يوصل بعضها ببعض ، ثم تطوى على عود أو خشبة ، وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة ، بعيدة عن الأرض حرصاً عليها من قرص فأرة أو عُث أو نحو ذلك من دواب الأرض قال : وذلك تأويل قوله تعالى « يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجْلِ لِلْكَتُبِ » إذ يظهر أن السجل ومعناه الصحيفة أو الكاتب الذي كان يعلق للكتب أو يطويها ، لعله كان يستعمل مثل هذا العود في طي الكتاب وتعليقه^(٣)

وموقفنا من هذا الرأي لا يخالف موقفنا من غيره من الآراء السابقة ، التي لا تخرج في حقيقتها عن افتراضات وظننـون ، والظن لا يغنى من الحق شيئاً .

بل ربما كان هذا الرأي يحمل أسباب الشك فيه ، والنفي فيه يتعلق بنفي التعليق على الكعبة بالذات لا يعمده إلى نفي الكتابة أو نفي التعليق ، أى تعليق . وقوله : إن العرب لم تكتب قبل القرآن كتاباً مدققاً ، لعله قول جديد ، لم نعرف قائله ، لأن بحثنا الطويل في أمر المعلقات ، ومحاولة استقصائنا لما كتب فيها بالنفي أو بالإثبات ، لم يصل بنا إلى هذا القول ، ولم نجد واحداً من الرواة ذهب إلى أن المعلقات كتبت في كتاب مدقق أو زعم ذلك ، حتى يكون ذلك موضع تعليق أو تعرض لنفيه أو إثباته ، ونحن مع ذلك نؤيد ما ذهب إليه صاحب الرأي من أن العرب لم تكتب كتاباً مدققاً ، ولم نعرف كتاباً مدققاً قبل

(٢) دفنا المصحف : ضامته .

(٣) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ١٢٣ وأمل صاحب هذا القول هو المرحوم الأستاذ أحمد الإسكندري .

المصحف ، وذلك أن أهم خصائص الكتاب الواحد الوحدة بين عناصره وأجزائه ، ولا يكون ذلك إلا في عصور الحضارة .

وقول صاحب الرأي : إن العرب كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ، ثم تطوي على عود أو خشبة » وهذا القول لا يتعارض مطلقاً مع ما روى عن المعلقات ، فإن الذي قيل هو أنها كتبت على الحرير أو القباطي المدرجة ، وهي نسيج من السكتان من صنع مصر وليس في هذا القول أى خلاف لذلك الرأي ، بل إن قوله ثم تطوى على عود أو خشبة ، يتفق مع آراء الرواة في وصف القباطي بالمدرجة .

وذهب صاحب الرأي إلى أن تعليقها كان في جدار الرواق أو الخيمة ، بعيدة عن الأرض حرصاً عليها من قرض فأرة أو عث أو نحو ذلك من دواب الأرض ، لا نجد مانعاً من قبوله ولكن يبقى بعد ذلك سؤال ، وهو فكيف عرفت العرب أمرها ؟ وكيف تعلقت الرواة بحفظها ؟ ذلك بأن الخيمة أو الرواق مهما يقل في أمرها ، فلها حرمة الخصوصية عند صاحب الخيمة أو الرواق ، أو عشيرته الأذنين . اللهم إلا أن يقال إن كل رواية كان لا يروى إلا لشاعر واحد أو قبيلة واحدة ، ومن مجموع روايات الرواة اجتمع هذا التراث الفني من الشعر الجاهلي ؛ وهذا القول لا يخلو من شك ، وأثنى لنا التسليم بأن أولئك الرواة لم يكونوا يروون إلا ما علق بجدر الخيام أو الأروقة في منازل رؤساء العرب ؟ لاشك أنهم سيروون كل ما يحلوهم من شعر القبيلة ، ولن تقتصر الرواية على ذلك الشعر المعلق .

وأبسر من هذه الافتراضات التي لا تخلو من ضعف ، التسليم بصحة الروايات التي تقول بكتابتها وتعليقها على الكعبة ؛ ما لم تقم الأدلة القاطعة على نفيها أو تكذيبها ؛ وقد فصلنا القول في أسباب الشك في الكلمات السابقة ، مما نعتقد

أن فيه الكفاية على إثبات عدم جدّيتها ؛ وأنها لا تنهض بنقض الروايات التي سارت في الزمن ، ورضيها الثقة المحققون من العلماء .

وليس تعليق الآثار النفيسة التي يحرص عليها على جدران الأماكن ذات القداسة والإجلال بدعاً من العمل ، فإن الأمم قديمها وحديثها تعودت أن تصون نفائسها في مثل تلك المقدسات . والأفراد من أولى الحول والطول اعتادوا أن يتقربوا إليها بما يقدمونه إليها من الألفاظ والهدايا والتحف التي يؤثرونها بها على وراثيهم وبيوتهم ، لأنهم يرون وراثيهم عرضة للتضييع ، وبيوتهم هدفاً لسهام الزمان ، أما الأماكن المقدسة فإن في تقديس الناس لها وعنايتهم الدائمة بها ما يجعل هذه النفائس في مأمن من عاديّات الأحداث ، وتقلبات الزمان ؛ وقد يلتمسون بذلك الزلفى والثبوت ؛ وبذلك جرت العادة في الجاهلية ، وبقيت في الإسلام ، وكانت في غير العرب ، كما كانت في العرب ، وعند غير المسلمين . قال المسعودي في أخبار الفرس : وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر ، وقد كان ساسان ابن بابك أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً فدفن في زمزم . ولما فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه مدائن أسرى كان سما بعث إليه هلالان ، فبعث بهما فعلقهما في الكعبة . وبعث عبد الملك بن مروان بالشمسيتين وقدحين من قوارير . وبعث الوليد بن عبد الملك بقدحين . وبعث الوليد بن يزيد بالسريّر والكرسى وهلالين . وبعث أبو العباس السفاح بالصفحة الخضراء . وبعث أبو جعفر المنصور بالقارورة الفرعونية . وبعث المأمون بالياقوتة التي تعلّق كل سنة في وجه الكعبة في الموسم بسلسلة من ذهب . وبعث المتوكل بشمسية عملتها من ذهب مكلّلة بالدر الفاخر والياقوت . . . الخ^(١)

وأنت إذا زرت مسجداً من المساجد المأهولة أو معبداً أو مزاراً من المزارات التي لها

شأن في نظر الناس في أيامنا ألفيت الدليل ما ثلا ، سترى خير آيات الفن والصناعة وقد زينت جدرانها ، وترى الرسوم والتصاوير والشعر والخط والفرش والتماثيل التي تقدم بها أصحابها في هذه العصور التي تسمى عصور النور والحضارة ، والماضي أشبه بالحاضر من الماء بالماء .

لقد سبق أن قرشنا كتبوا صحيفتهم التي تعاهدوا فيها على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب على ألا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحهم ، ولا يبيعهم شيئا ولا يبتاعوا منهم ؛ ثم تعاهدوا وتوافقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم ، ويستخلص من هذا أن الكعبة كانت مكانا لمثل هذه الوثائق التي يدعى إلى احترامها ، ولم تكن مقصورة على العبادة والنسك ، كما يظن بعض المعاصرين . وبذكر التاريخ الذي لا يشك فيه أولئك المنكرون أن الرشيد حج ومعه الأمين والمأمون وقواده ووزراؤه وقضاته ، وهناك كتب المأمون كتابين أشهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيها ، أحدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه ، والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة ، والشروط المأمون على الأمين ، وجعل الكتابين في البيت الحرام ، فعلقا في أستار الكعبة ، ليزداد العهد بذلك نفاذاً وهيبة ، ويزداد الناس له إذعانا وتسليما . فآية غرابة في أن يتقدم نحول شعراء العرب أو أولياؤهم أو المعجبون بهم وبفهم بهذه الآيات من الإبداع لتصان في هذا المقام الكبير ، وليقرأها الزائر والحاج والطائف ، فيذيعوا من أمرها في أحياء العرب ما شتهى أصحابها من المجد وذبوع الصيت إذا رجعوا إلى قومهم ؟ وهم أمة ليس لها من التدين إلا هذا الفن الذي هاموا به وسحروا ، حتى كانت الفصاحة والتباهي بالبيان أصدق أديانهم ؛ وكانوا أشد إخلاصا لها من إخلاصهم لألهتهم وأصنامهم . أما كيف علفت تلك القصائد ؟ ومتى علفت ؟ ولم ظلت معلقة ؟

فهي تفصيلات لا يجدى الحرص على معرفتها من خبر مأثور ، أو منطلق يوجب التسليم . وليس ما يمنع من تعليقها أعواماً أو عاماً من الموسم إلى الموسم ، أو أيام الموسم وحدها دون أيام العام ، أو تعليق إحداها حتى يتحقق الغرض من تعليقها ، ثم ترفع ليعلق مكانها أخرى ، وهكذا .

وقد كان لهذا الأمر نظائر في أدب الإغريق ، فإن القصيدة التي قالها (بندار) زعيم الشعر الفنائى يمدح بها (دياجوراس) قد كتبوها بالذهب على جدران معبد أثينا في لمنوس^(١)

* * *

نستطيع بعد ذلك أن نوضح بعض معالم هذا الفصل في النقاط الآتية :

(١) أن هذه القصائد (المعلقات) كانت آية للفن الشعري عند عرب الجاهلية ، وكان أصحابهم المقدمين عندهم ، وقد بقيت لهم ولقصائدهم تلك المنزلة في نفوس العرب منذ عصر الإسلام حتى يومنا هذا ، وكان في هذه القصائد مادة تواتر علماء الدين وعلماء الكلام والمؤرخون والرواة والنحاة واللغويون والبلاغيون على الانتفاع بها في دراساتهم القرآنية والنحوية واللغوية والبلاغية ، واتخذوها مصدراً للفحص عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، ولا يمكن عقلاً وعادة أن تكون هذه العناية بأثر من الآثار التي يشك فيها ؛ وليس من المسلم به أن تجتمع هذه الأجيال على ضلالة ؛ أوزيف من التاريخ .

(٢) إن القول بكتابة هذه القصائد وتعليقها على الكعبة ، أسرروا النقطة

(١) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٣٤ (مطبعة الرسالة — القاهرة ١٩٥٥ م) .

المحققون في مختلف العصور العربية ، وأخذ به الباحثون الذين لم يجدوا ما يدفعه من الأدلة العلمية أو العقلية .

(٣) وأنّ أبا جعفر النحاس هو وحده الذى انفرد بالشك في تعليق هذه القصائد على السكبة من بين القدماء ، وقد فصلنا القول في رأيه ، وأبنا عما فيه من آثار التهافت ، وأنه إذا كان قد قال : أما تعليق هذه القصائد على السكبة فلا يعرفه أحد من الرواة ؛ فإن غيره من الذين عرفوا بالتحقيق والتحصيل قال : ذكر ذلك غير واحد من العلماء !

(٤) وأنه كان في العرب الكاتبون ؛ وأن القول بأمية العرب المطلقة قول قائل ، لا يثبت أمام الأدلة القاطعة والأخبار الصحيحة التي لم يشك أحد فيها مما فصلناه في موضعه ، ويتصل بهذا قولهم إن الشعر العربى لم يدون إلا أواخر عصر بنى أمية أو أوائل العصر العباسى ، وهو زعم باطل ؛ فقد ثبت أن العرب في الجاهلية وفي وقت قريب منها كانت تكتب شعرها ، وليس ما يمنع ذلك من المعرفة أو العادات والتقاليد . وقد روى صاحب الأغاني أن عبد الله بن الزبعرى السهمى وضرار بن الخطاب القهرى أنشدا حسان بن ثابت شعراً حتى فاروصار كالمرجل غضبا ، فشكاهما حسان إلى عمر ، فقال عمر لمن حضره : إني كنت قد نهيتكم أن تذكروا بما كان بين المسلمين والمشرىكين شيئاً ، دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم . فأما إذ أبوا فاكذبوه ، واحتفظوا به . فدوتوا ذلك عندهم . قال خلاد بن محمد : فأدر كته والله ، وإن الأنصار اتجدهه عندها إذا خافت بلاه^(١) . ومعنى ذلك أن التدوين مخافة الدثور كان تقليداً عرفه المسلمون كما عرفه عرب الجاهلية ، وكما تعرفه كل أمة تحرص على بقاء ماتخشى سطوة الأيام عليه .

(٥) وأن الحجج التي تذرع بها المنكرون لنفي التطليق ، حجج ظنية لا تقوى على هدم المأثور ، ولا تلبث أن تتبدد أمام البحث العلمى النزيه والتفكير المستقيم .

* * *

و بعد : فقد طالما فنن بعض الباحثين من الشباب بكثير من الدعاوى التي يروّجها أعداء هذه الأمة باسم التجديد في البحث ، بما يلقون إليهم من الشكوك والأباطيل حول هذا التراث الأدبي وغيره من خصائص العروبة قديماً وحديثاً ، ليفقدوهم الثقة بماضى أسلافهم ، وليخدعهم عن الحقائق الماثلة من تراثهم ومقوماتهم في الفن والمعرفة ، وأصبح بعض المحدثين ممن غرّهم السراب يحرون في خدمة تلك الآراء المبتسرة التي تهدف إلى هدم كل رأى صالح ، ورفض كل مأثور من الأخبار الصحيحة عن أدب هذه الأمة وأخلاقها وتقاليدها ، ويرفضون الاعتراف بمجهودهم في العلم والتفكير .

وقد آن للشباب أن يفتح عينيه ليميز الخبيث من الطيب ويتدبر ما يلقي إليه غير مخدوع بالتضليل ، ولا مفتون بالآراء المتهاففة ، والدعاوى الباطلة التي تعمل على ثل مجد أمته وتراثها في الأدب وشتى فنون المعرفة التي يعترف لهم بالأصالة فيها المُنصفون من رجال الفكر في العالم ، ومن لا تشوب آراءهم شوائب التعصب والهوى . وأما غيرهم من المبطلين فقد أضلّهم الهوى أو أعماه الجهل ؛ إن وجدوا منقصة عند العرب تعلقوا بها وأذاعوها ، وزعموا أن النقص شيمتهم ، والخلط طبيعتهم ؛ وإن رأوا عندهم فضيلة في خلق أو علم أو تفكير ، نسبوها إلى غيرهم ، وعدوهم عيالا عليهم في تلك الفضيلة ؛ فإن لم يستطيعوا أحاطوها بسياج من الشك لا يهتدى الباحث إلى رؤية ما وراءه إلا بالفكر الثاقب والتأمل الطويل .

الفصل الثاني

شعراء المعلقات

المشهور عند الرواة أن المعلقات سبع وأن أصحابها هم : امرؤ القيس بن حُجر ،
وطرفة بن العبد البكري ، وزهير بن أبي سلمى ، ولييد بن ربيعة العامري ،
وعمر بن كلثوم التغلبي ، وعنترة بن شداد العبسي ، والحارث بن حلزة
اليشكري . وكلهم جاهليون ، عاشوا في الجاهلية ، وماتوا قبل البعثة النبوية ؛
ما عدا لييد بن ربيعة الذي عاش في الجاهلية وصدر الإسلام ، ومات في أواخر
خلافة معاوية بالكوفة .

وعند أبي زيد القرشي أن أصحاب المعلقات هم : امرؤ القيس ، وزهير ،
والنابغة الذبياني ، والأعشى ، ولييد ، وعمر بن كلثوم ، وطرفة بن العبد ، وعنترة
ابن شداد . فهؤلاء ثمانية ، هكذا ذكرهم في جمهرة أشعار العرب . وعلى هذا
يكون قد حذف من المشهورين واحداً هو الحارث بن حلزة ، وأضاف إلى الستة
الباقيين شاعرين هما : النابغة الذبياني والأعشى .

أما أبو زكريا التبريزي فإن أصل تلك القصائد عنده سبع ، وأصحابها هم :
امرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، وزهير بن أبي سلمى ، ولييد بن ربيعة ، وعنترة
العبسي ، وعمر بن كلثوم ، والحارث بن حلزة . وهم المشهورون عند الرواة .

ولكنه أضاف إلى هذه السبع ، قصيدة النابغة الذبياني التي مطلعها :
يا دار مئةً بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد
وقصيدة الأعشى أبي بصير ، التي أولها :

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنْ الرِّكْبَ مَرَّحَلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرُّجُلُ
وقصيدة عبيد بن الأبرص ، التي أولها :

أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ فَالْقَطَائِبَاتُ فَالذَّنُوبُ

ومفهوم كلامه أن قصيدتي النابغة والأعشى ، قد زادها أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل ، وأنه — أى التبريزى — هو الذى أضاف قصيدة عبيد بن الأبرص لتسكون تمام العشر . ونص كلامه فى خطبة كتابه (شرح القصائد العشر) : سألتنى ، أدام الله توفيقك ، أن أخلص لك شرح القصائد السبع ، مع القصيدتين اللتين أضافهما إليها أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحوى : قصيدة النابغة الذبياني الدالية ، وقصيدة الأعشى اللامية — وقصيدة عبيد ابن الأبرص البائية تمام العشر ^(١) .

والذى يدل عليه هذا الكلام أنه يتفق مع جمهور الرواة فى السبع ، وأن قصيدتي الأعشى والنابغة أضافهما أبو جعفر ، وأنه أى التبريزى هو الذى أضاف قصيدة عبيد ، ولم ينقل عن أحد الرواة هذه الإضافة . ويؤكد موافقته للمشهور من كلام الرواة فى اعتبار المعلقة سبعة ، أنه قال فى نهاية شرحه لمعلقة الحارث بن حلزة : هذه آخر القصائد السبع ، وما بعدها المزيد عليها ^(٢) .

وابن خلدون يذكر أصحاب المعلقة سبعة هم : امرؤ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وعنترة ، وطرفة ، وعلقمة بن عبدة ، والأعشى ، ثم يقول : وغيرهم من أصحاب المعلقة السبع ^(٣) فهو لاء قد علفت قصائدهم ، كما أن غيرهم (من أصحاب المعلقة السبع) قد علفت قصائدهم ؛ وهى عبارة يبدو فيها التناقض كما أسلفنا ، وكل ما يمكن أن يفهم من هذه العبارة ، ويحاول به إزالة التناقض الظاهر فيها ، أن من بين الذين ذكر أسماءهم مَنْ عُلِّقتْ له قصيدة ، وإن لم يذكره

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢ (المطبعة المنيرية — القاهرة ١٣٥٢ هـ) .

(٢) المصدر نفسه ٢٨٧ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ٥٨١ . وانظر صفحة ١٢ من هذا الكتاب .

الرواة والمؤرخون بين أصحاب المعلقات ، ويكون المقصود بقوله (وغيرهم) من يتم السبعة الذين انفق الرواة عليهم .

وليس في مرجع مما بين أيدينا ما يدل على أن علقمة بن عبدة من أصحاب المعلقات ، ولم يذكر ابن خلدون من أخذ عنه القول ، ولم يذكر اسم قصيدته التي علقت كذلك . ولا يمكن أن نأخذ بكلام ابن خلدون فيما يخالف ؛ ولكننا من غير شك لا يسعنا إلا الأخذ بكلامه فيما يوافق ، لأن هذا أمر مرجعه أولاً وأخيراً الرواية والأخذ عن العلماء ، وهو لم يذكر السند أو الراوى الذى أخذ عنه .

ومن هذا الذى سبق يتبين :

١ — أن الجمع على عدم أصحاب المعلقات ستة من الشعراء هم :

(١) امرؤ القيس (٢) طرفة بن العبد (٣) زهير بن أبى سلمى

(٤) لبيد بن ربيعة (٥) عمرو بن كلثوم (٦) عنتر بن شداد

٢ — وعند أكثر الرواة أن سابع هؤلاء هو الحارث بن حنظلة ، ولم يغفل

منهم — فيما نعلم — إلا صاحب جمهرة أشعار العرب .

٣ — أن أبا زيد القرشى ، أضاف إلى الستة السابقين الجمع عليهم النابغة

الذياني ؛ وجعل معلقته القصيدة التي مطلعها :

عُوجُوا فُخِيُوا لَنُغَمِّ دَمْنَةَ الدَّارِ مَاذَا تَحْيُونَ مِنْ نُؤْيٍ وَأَحْجَارِ

وأضاف إليهم أيضاً الأعشى ، وجعل معلقته قصيدته التي أولها :

مابكاه الكبير بالأطلالِ وسؤالى وما تردُّ سؤالى

٤ — وأن أبا جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحوى يتفق مع أبى زيد

في عدد النابغة والأعشى من أصحاب المعلقات ، ولكنه يخالفه في القصيدة

المعتبرة اسكل منهما ، فعلقة النابغة عنده هي قصيدته الدالية التي مطلعها :

يادارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

ومعلقة الأعشى عنده ، هي قصيدته اللامية التي أولها :

ودّع هُرَيْرَةَ إنَّ الركب مرّحلٌ وهل تطيقُ وداعاً أيّها الرّجلُ

٥ — وأن أبا زكريا التبريزي أضاف إلى هؤلاء عبيد بن الأبرص ليكون

تمام العشرة .

٦ — وذهب بعضهم إلى أن معلقة الأعشى هي قصيدته الدالية التي مدح

بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي أولها :

ألم تفتنّ عيناك ليلة أرمدًا وبتّ كما بات السليمُ مسهدًا

كما يضيف إلى المعلقات قصيدة النابغة « يادارمية .. » ويسقط قصيدتي

عنبرة والحارث بن حلزة ، ويزيد « أقفر من أهله ملحوب .. » لعبيد بن الأبرص^(١)

وأنا أستبعد أن تكون قصيدة الأعشى المذكورة من المعلقات بسبب

ظروفها التاريخية كما سيأتى فى ترجمة الأعشى .

٧ — وأن ابن خلدون انفرد بعد علقمة بن عبدة من أصحاب المعلقات ،

ولم يذكر القصيدة التي اعتبر بها واحداً منهم .

ويقتضى منهجنا فى هذه الدراسة أن نكتب عن كل واحد من أولئك

الفحول المقدمين كلمة نعالج فيها التعريف بالشاعر وبيئته وفنّه الشعرى فى حدود

ما يسمح به نطاق هذه الدراسة ؛ حتى يتحقق لها الجانب التاريخى إلى المنهج

الفنى الذى نشده .

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ١٠٠ .

امرؤ القيس

رأس الطبقة الأولى من فحول الجاهلية ، وهى عند ابن سلام أربعة شعراء :
امرؤ القيس ، ونابعة بنى ذبيان ، وزهير بن أبى سلمى ، والأعشى ميمون.
ابن قيس^(١) .

وهو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث بن عمرو بن حُجْر آكل المزار بن
عمرو . . الكندى . وأمه فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير ، أخت كليب
ومهلل ابني ربيعة التغلبيين ، وكليب هو الذى تقول فيه العرب « أعزّ من
كليب وائل » وبمقتله هاجت حرب بكر وتغلب^(٢) .

واسم امرؤ القيس حُنْدُج ، والحندج الرملة الطيبة تنبت نباتا حسنا ، ومعنى
« امرؤ القيس » رجل الشدة . ويكنى أبا الحارث ، وأبا وهب . ويلقب
بالمك الضليل ، كما يلقب بذي القروح .

وهو من قبيلة كندة ، وكندة قبيلة يمنية ، كانت تسكن قبل الإسلام
غربيّ حضر موت ، وكانت على اتصال بالحيريين .

وفى عهد حسان بن تبع ملك حمير ، كان حُجْر بن عمرو سيّد كندة
فى حاشية حسان ، وقد فتح حسان فتوحاً كثيرة فى جزيرة العرب . فولّى
حُجْر بعض قبائلها ، ودانت كلها لحجر الكندى ، كما دان حُجْر بالولاء
لحمير ، ونزل حجر نجداً ، وكان اللخميون ملوك الحيرة قد بسطوا نفوذهم على
تلك البلاد وخاصة بلاد بكر بن وائل ، فخارب حُجْر اللخمين ، وأزال
نفوذهم .

(١) طبقات فحول الشعراء ٤٣ (دار المعارف — القاهرة ١٩٥٢ م)

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٢/١ .

وفى عهد الحارث بن عمرو بن حجر اتسع سلطان كندة ، واتصل الحارث بقباذ ملك الفرس ، فولاه الحيرة مكان اللخمين ، ونشر نفوذه وسط الجزيرة على كثير من قبائل العرب ، وفرق الملك فى أبنائه الأربعة ، فولى ابنه حجراً — أبا امرئ القيس — بنى أسد ، وابنة شرحبيل بكر بن وائل ، وابنه معد يكرب قبيلة قيس وكفانة ، وابنه سلمة قبيلتي تغلب والنمر بن قاسط . ولسكن هذه السلطة لم تدم طويلا ، فقد عاد اللخميون إلى نفوذهم فى الحيرة وقربهم من ملك فارس ، ودسّوا الدسائس لأولاد الحارث ، فقتل سلمة وشرحبيل ، وتنكر بنو أسد لحجر ، ونبذوا طاعته ، وأمسكوا عن دفع الإتاوة له ، واستعان حجر بجند من ربيعة ، وأعمل فى أسد السيف ، واستباح أموالهم ، وحبس أشرفهم ، ثم رقّ لهم وأطلق سراحهم ، فخذلوا عليه واغتالوه . وقد جاء فى أخبار الرومان أن حُجراً هذا (Ogdros) وأخاه معد يكرب قاما ببعض غزوات على حدود المملكة البيزنطية فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وبموت حجر تضرعت سلطة كندة ^(١) .

وروى ابن قتيبة أن حُجراً — أبا امرئ القيس — مُلِّك على بنى أسد ، فكان يأخذ منهم شيئاً معلوماً ، فامتنعوا منه ، فأخذ سرّاتهم فقتلهم بالعصى ، فسَمَوْا « عبيد العصا » وأسر منهم طائفة ، فيهم عبيد بن الأبرص . فقام بين يدي الملك فقال :

يا عينِ ما فابكى بنى أسد هم أهلُ الندامةِ
أهل القبابِ الحمرِ والـ نَمَمِ المؤبِّلِ والمـدامةِ
مهلاً أبيت اللعنَ مهلاً إن فيما قلتَ آمنة

(١) الفصل فى تاريخ الأدب العربى ١/ ٥٠ (مطبعة مصر — القاهرة ١٩٣٤ م)

فِي كُلِّ وَادٍ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْقُصُورِ إِلَى الْيَمَامَةِ
تَطْرِيبُ عَانٍ أَوْ صِيَا حُ مُحَرَّقٍ وَزُقَاءُ^(١) هَامَةِ
أَنْتَ الْمَلِكُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ الْعَبِيدُ إِلَى الْقِيَامَةِ

فرحهم الملك وعفا عنهم وردهم إلى بلادهم ، حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة ، تسكن كاهنهم عوف بن ربيعة الأسدي ، فقال : يا عباد ، قالوا لبيك ربنا ! فقال : والغلاب غير المغلَّب ، في الإبل كأنها الربرب ، لا يقلق رأسه الصخَب ، هذا دمه يشَب ، وهو غداً أول من يُسَلَب ! قالو : من هو ربنا ؟ قال : لولا تبجيش نفس جاشية ، أنباتكم أنه حُجر ضاحية ! فركبت بنو أسد كل صعب وذلول ، فما أشرق لهم الضحى حتى انتهوا إلى حِجر ، فوجدوه نائمًا فذبحوه ، وشدوا على هجائه فاستاقوها^(٢) .

قال ابن قتيبة : إن حِجراً لما ساءت سيرته ، جمعت له بنو أسد ، واستعان حُجر ببنى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، فقال امرؤ القيس :

تَمِيمُ بْنُ مُرٍّ وَأَشْيَاعُهَا وَكَنْدَةُ حَوْلَى جَمِيعاً صُبْرُ

فبعث بنو أسد إلى بنى حنظلة نستكفها ، ونسألها أن تخلّى بينها وبين كندة ، فاعتزلت بنو حنظلة ، والتقت كندة وأسد ، فانهزمت كندة ، وقتل حِجر ، وغنمت بنو أسد أموالهم ، وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص الأسدي :

هَلَّا سَأَلْتُ جَمُوعَ كِنْدَةَ يَوْمَ وَلَوْ هَارِينَا

وكان قاتل حِجر هو علباء بن الحارث الأسدي ، وأفلت امرؤ القيس يومئذ ، وحلف لا يغسل رأسه ، ولا يشرب خمرًا حتى يدرك ثأره ببني أسد^(٣) .

(١) المؤبلة الكثيرة المجتمعة ، الآمة العيب ، يترب مدينة بمحضرموت نزلتها كندة .

(٢) الشعر والشعراء ٥٤/١ .

(٣) الشعر والشعراء ٦٣/١ .

وقيل غير ذلك ، وأنهم أخذوه أسيراً في حرب بينهم وبينه ، فوثب عليه ابن أخت علباء فطعنه ، ولم يجهز عليه ، فأوصى ودفع كتابه إلى رجل وأمره أن ينطلق إلى أولاده ويستقرهم واحداً واحداً ، حتى يأتي امرأ القيس ، وكان أصغرهم ، فأبهم لم يجزع دفع إليه سلاحه وخيله ووصيته ، وكان بين فيها من قتله ، وكيف كان خبره ، فانطلق الرجل بوصيته إلى نافع ابنه ، فأخذ التراب ووضعها على رأسه ، ثم استقراهم واحداً واحداً ، فكلهم فعل ذلك ، حتى أتى امرأ القيس ، فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلاعبه بالزرد ، فقال له : قتل حُجر ! فلم يلتفت إلى قوله ، وأمسك نديمه ، فقال له امرؤ القيس : اضرب ، فضرب حتى إذا فرغ قال : ما كنت لأفسد عليك دستك ! ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله ، فأخبره ، فقال : الخمرُ على النساء حرام ، حتى أقتل من بنى أسد مائة ، وأجز نواصي مائة !

وكان امرؤ القيس طرده أبوه لما صنع في الشعر بغاطمة ما صنع ، وكان لها عاشقاً ، فطلبها زمانا ، فلم يصل إليها ، وكان يطلب منها غرة ، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جلجل ما كان فقال * قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل * فلما بلغ ذلك حُجراً أباه ، دعا مولى له يقال له ربيعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس ، واثنى بعينيه ، فذبح جوذراً فأثاه بعينيه ، فندم حُجر على ذلك ، فقال : أبيت إلا أني لم أقتله . قال : فأتني به ، فانطلق فإذا هو قد قال شعراً في رأس جبل ، وهو قوله :

فلا تتركني ياربيعُ لهذه وكنتُ أراني قبلها بك واثقا

فردّه إلى أبيه ، فنهاه عن قول الشعر ؛ ثم إنه قال :

* ألا انمُ صباحاً أيها الطللُ البالي *

فبلغ ذلك أباه فطرده . وروى البغدادي في خزانة الأدب أن السبب في طرد أبيه إياه أنه كان يشيب بهراً ، وهي أم الحويرث ، وكانت زوجة والده ؛ فلذلك كان طرده وهم بقتله من أجلها^(١) فبلغه مقتل أبيه وهو بدمون ؛ فقال :

تطاول الليلُ علينا دُمُونُ دَمُونُ إِنَّا معشرُ يمانونُ
وإننا لأهلنا محبُونُ

ثم قال : ضيَّعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً ، لاصحوّ اليومَ ولا سُكر غداً
اليومَ خمر ، وغداً أمر ! ثم قال :

خليليّ ما في اليومَ مَصْحَى لشاربٍ ولا في غدٍ إذ كانَ ما كانَ مَشْرَبُ
ثم آلى لا يأكل لحماً ولا يشرب خمرأ حتى يثار لأبيه ، فلما كان الليل
لاح له برق فقال :

أرقتُ لبرقٍ بليلِ أهلٍ يضيءُ سناهُ بأعلى الجبلِ
بقتلِ بني أسدٍ ربهمُ ألا كلُّ شيءٍ سواء جللُ

وأتى امرؤ القيس إلى ذى جَدَن الحِميريّ فاستمدّه فأمدّه ، وبلغ الخبر بني
أسد ، فانتقلوا عن منازلهم ، فبرزوا على قوم من بني كنانة بن خزيمة ،
والكنانيون لا يعلمون بمسير امرئ القيس إليهم ، فطرقهم في جند عظيم ،
فأغار على الكنانيين ، وقتل منهم ، وهو يظن أنهم بنو أسد ، ثم تبين أنهم
ليسوا منهم ، فقال :

ألا يالهفَ نفسي إثر قومٍ هم كانوا الشِّفاء فلم يُصَابُوا
وقام جدُّهم يبنى أبيهم وبالأشقين ما كان العقابُ

وأفلقن علباء جريضاً^(١) ولو أدركته صفير الوطاب

ثم تبع بنى أسد فأدرّ كههم ، وقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وقال :

قولا لدودان عبيد العصا ماغرّكم بالأسد الباسل

قد قرّت العينان من وائل ومن بنى عمرو ومن كاهل

نظعنهم سلكى ونحو لوجة كركك لأمنين على نابل

حلت لي الخمر وكنتُ امرأ عن شربها في شغل شاغل

فاليوم أشرب غير مستحقب^(٢) إنما من الله ولا واغل

ثم إن المنذر بن ماء السماء غزا كندة فأصاب منهم ، وأسراثنى عشر فتى من ملوكهم ، فأمر بهم فقتلوا بمكان بين الحيرة والكوفة يقال له «جفر الأملاك» وكان امرؤ القيس يومئذ معهم ، فهرب حتى لجأ إلى سعد بن الضباب الإيادى ، سيد إياد ، فأجاره .

وكان ابن السكبي يذكر أن أم سعد كانت عند حجر أبي امرئ القيس ، فتزوجها الضباب ، فولدت سعداً على فراشه ، واستشهد على ذلك قول امرئ القيس :

يفكهننا سعد وينعم بالنسا ويغدو علينا بالجفان وبالجزر

ونعرف فيه من أبيه شائلاً ومن خاله ومن يزيد ومن حجر

ثم تحول امرؤ القيس إلى جبلى طيء^(٣) ، فنزل على قوم ، منهم عامر بن

(١) أفلقن : يعنى الخيل التى كانت تطلبه فلم تدركه ، الجريض والحريض غصص الموت ، يريد أفلقن مجهودا يكاد يقضى ، صفر خلا ، والوطاب جمع وطب وهو سقاء اللبن ، يريد أنه مات فلم تملأ وطابه ، أو بقى جسمه صفرا من حيائه كما يخلو الوط من اللبن .

(٢) السلكى : الطعنة المستقيمة تلقاء الوجه ، الخلوحة : غير المستقيمة ، كركك لأمين . مثنى لأم ، يقال سهم لأم أى عليه ريش لؤام يلائم بعضه بعضاً ، والنابل : الرام بالنبل .

يريد يذهب الطعن فيهم ويرجع كما ترد سهمين على رام رى بهما .

(٣) هما جبلا أجا وسلمى .

جَوْبَن الطائي ، ولم يزل ينتقل من قوم إلى قوم بجبلى طيء ، حتى سمّت به نفسه إلى ملك الروم ، فأبى السموءل بن عادياہ اليهودي ، ملك تيماء ، وهي مدينة بين الشام والحجاز ، فاستودعه مائة درع وسلاحاً كثيراً ، ثم سار ومعه عمرو بن قبيثة ، أحد بني قيس بن ثعلبة ، وكان من خدم أبيه ، فبكى ابن قبيثة ، وقال له : غررت بنا ، فأنشأ امرؤ القيس يقول :

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأبى أن لا حقه ان بقيصراً
فقلت له : لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنمذراً
وإني أدين إن رجعت مملّكا بسير ترى منه الفرائق أزوراً
على ظهر عادي تحارب به القطا^(١) إذ أسافه العود الذيّافي جرجراً

وبلغ الحارث بن أبي شمر النعماني ، وهو الحارث الأكبر ، ما خلف امرؤ القيس عند السموءل ، فبعث إليه رجلاً من أهل بيته ، يقال له الحارث بن مالك ، وأمره أن يأخذ منه سلاح امرئ القيس وودائع ، فلما انتهى إلى حصن السموءل أغلقه دونه ، وكان لاسموءل ابن خارج الحصن يتصيد ، فأخذه الحارث ، وقال لاسموءل : إن أنت دفعت إلي السلاح وإلا قتلته ، فأبى أن يدفع إليه ذلك ، وقال له : اقتل أسيرك فإني لا أدفع إليك شيئاً ، فقتله . وضربت العرب المثل بالسموئل في الوفاء ، وقد ذكره الأعشى في قصة له .

وصار امرؤ القيس إلى ملك الروم ، فأكرمه وناداه ، واستمده فوعده ذلك ، وفي هذه القصة يقول امرؤ القيس :

(١) الأذن . الزعيم والسكفيل ، الفرائق : سبع يصيح بين يدي الأسد كأنه يندب الناس به ، ويقال إنه شبيه بأبن آوى ، وأزور : مائل العنق ، العادي : الطريق القديم ، سافه : شمه ، الذيافي : نسبة إلى الذياف ، وهي قرية بالشام تنسب إليها النجائب ، العود : الجمل المسن وفيه بقية . يقول : إذا ساف الجمل تربة هذا الطريق جرجر جزعاً من بعده وقلعائه .

ونادمتُ قيصر في مُلكِهِ فأوجّهني وركبتُ البريدا
إذا ما ازدحمتُ على سِكَةٍ سبقتُ الفُرائق سيقا بعيدا

ثم بعث معه جيشاً فيهم أبناء ملوك الروم ، فلما فصل قيل لقيصر : إنك
أمددتَ بأبناء ملوك أرضك رجلا من العرب ، وهم أهل غدر ، فإذا استمكن
مما أراد وقهر بهم عدوه غزاك ! فبعث إليه قيصر رجلا من العرب كان معه
يقال له الطماح بن قيس الأسدي ، وكان امرؤ القيس قتل أخاه ، فاندس حتى
أتى بلاد الروم ، فأقام مستخفياً ، وكان قد اتصل ببعض أصحاب القيصر ، وأتى
إليهم ما أوغر صدورهم على امرئ القيس ، وحمله القيصر إلى امرئ القيس
حلة منسوجة بالذهب مسدومة ، وكتب إليه : إني قد بعثت إليك بحلتي التي
كنت ألبسها يوم الزينة ، ليعرف فضل منزلتك عندي ، فإذا وصلت إليك
فالبسها على اليمن والبركة ، واكتب إلى من كل منزل بخبرك . فلما وصلت إليه
الحلة اشتد سروره بها ، ولبسها ، فأمرع فيه السم وتنفط جلده . والعرب تدعوه
ذا القروح لذلك ، وأقوله :

وُبدلتُ قرحاً دامياً بعد صحّةٍ فيالك نَعْمَى قد تحوّلن أبؤساً
وقال الفرزدق :

وهب القصائد لي النوايحُ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرولُ

أبو يزيد : هو الخبل السعدى ، وذو القروح : هو امرؤ القيس ، وجرول : هو
الخطيئة .

ولما صار إلى مدينة بالروم تدعى أنقرة ثقل ، فأقام بها حتى مات ، وقبره
هناك ، ورأى قبيل موته قبراً لامرأة من بنات ملوك الروم هلكت بأنقرة ، فسأل
عن صاحبها ، فخبّر بخبرها فقال :

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبٌ
أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَكُلٌّ غَرِيبٌ لِلْغَرِيبِ نَسِيبٌ
وعسيب : جبل هناك . ولما بلغ السموءل موت امرئ القيس دفع
ما خلف عنده من السلاح وغيره إلى عصبته^(١) .

وذكر صاحب كتاب « شعراء النصرانية » أن ذكر امرئ القيس جاء
في تواريخ الروم مثل نونوز وبركوب وغيرهما ، وهم يسمونه (قيساً) . وقد ذكروا
أنه قبل وروده على القيصر يوستينيانس أرسل إليه وفداً يطلب منه النجدة على
بنى أسد ، وعلى المنذر ملك الحيرة ، وكان مع الوفد ابنه معاوية سيّره امرؤ القيس
إلى قيصر ليبقى عنده كرهن ، فكتب قيصر إلى النجاشي بأمره أن يحنّد الجنود
ويسير إلى اليمن ، ويعيد الملك لصاحبه ؛ قال : ولعل هذا الوفد أرسله امرؤ القيس
لما كان عند بنى طيء وطال مكثه عندهم . ثم أخبر المؤرخون أن امرأ القيس
لم يلبث أن سار بنفسه إلى قسطنطينية فرغبه قيصر ووعدّه . وقد ذكر نونوز
المؤرخ أن يوستينيانس قلده إمارة فلسطين ، إلا أنه لم يسع في إصلاح أمره وإعادة
ملكه ، فضجر امرؤ القيس وعاد إلى بلده ، فتوفى في طريقه . أصابه مرض
كالجدري في الدرب كان سبب موته . قال : وذكر في كتاب قديم مخطوط
أن ملك قسطنطينية لما بلغه وفاة امرئ القيس أمر أن ينحت له تمثال وينصب
على ضريحه ففعلوا . وكان تمثال امرئ القيس هناك إلى أيام المأمون ، وقد شاهده
عند مروره هناك لما دخل بلاد الروم ليغزو الصائفة^(٢) .

وذكر ابن قتيبة أن امرأ القيس كان في زمن أنوشروان ملك العجم . قال
لأني وجدت الباعث في طلب سلاحه الحارث بن أبي شمر الغساني ، وهو الحارث

(١) الشعراء والنصرانية لابن قتيبة ٦٩/١ .

(٢) لويس شيخو اليسوعي : شعراء النصرانية : ٣٥/١ (مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين — بيروت ١٨٩٠ م) .

الأكبر، والحارث هو قاتل المنذر بن امرئ القيس الذي نصبه أنوشروان بالحيرة ووجدت بين أول ولاية أنوشروان وبين مولد النبي صلى الله عليه وسلم أربعين سنة^(١) وكانت وفاة امرئ القيس في نحو سنة ستين وخمسمائة الميلادية^(٢).

* * *

ذلك تاريخ امرئ القيس، أو تلك قصة حياته، قد يكون فيها بعض الثغرات التي أغفلها المؤرخون أو الرواة لعدم معرفتهم بها، ونلاحظ أن مجال الاتفاق بين الروايات واسع، وأن مجال الاختلاف ضيق، ويأتى هذا الخلاف في أمور ترجع إلى السماع أو تأتي عن الاجتهاد والاستنباط، كاختلافهم في سبب وقعة القيصر به مما كان سبباً في هلاك امرئ القيس، فمنهم من يرجع ذلك إلى شعر هجاء به بعد أن رأى امرؤ القيس منه ما ينكر، ومنهم من يرجع ذلك إلى أن امرأ القيس فتن ابنة القيصر، فهامت به وهام بها، وطبن الطماح لها، فوشى به إلى الملك، فخرج امرؤ القيس متسرعاً، فبعث قيصر في طلبه رسولا، فأدركه دون أنقرة بيوم، ومعه حلة مسمومة فلبسها في يوم صائف.. ويروى ابن الكلبي في ذلك أن الطماح قال لقيصر: إن امرأ القيس غوى عاهراً، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يرسل ابنتك ويواصلها، وهو قاتل في ذلك أشعاراً يشهرها في العرب فيفضحها ويفضحك^(٣). كما يروى خلاف هذين السببين، وأن الواشي قال لقيصر: إنك أمددت بأبناء ملوك أرضك رجلاً من العرب، وهم أهل غدر، فإذا استمكن مما أراد وقهر بهم عدوه غزاك^(٤). وفي هذه الأخبار أن امرأ القيس خرج من لدن القيصر راضياً يقود جيشاً من أبناء ملوك الروم ليعيد سلطانه ويأخذ

(١) الشعر والشعراء ١/ ٧٣.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ١/ ٩٢.

(٣) شرح ديوان امرئ القيس للسندوبى ٢٣ (مطبعة الاستقامة — القاهرة ١٩٣٩م).

(٤) الشعر والشعراء ١/ ٦٨.

بثأره ، وفي بعضها أنه كتب إلى الفساسنة ملوك الشام من العرب ليعينوه بالسلاح والرجال ، وفي بعضها أن تلك الكتابة كانت إلى النجاشي ملك الحبشة .
وفي رواية أن القيصر ولّى امرأ القيس إمرة فلسطين . ومفهوم هذه الأخبار أن امرأ القيس قد ظفر بما كان يريد من عون القيصر ، على حين تأتى رواية أخرى تقول إن امرأ القيس خرج مدمرعا خائفاً على نفسه من وشاية حسّاده ، وأنه مات بارتدائه حلة مسمومة غره بها رسول القيصر ، أو أصابه الجدرى ، أو غير ذلك من الأسباب التى أدت إلى هلاكه وموته غريباً فى أنقرة أو قريباً منها . وهذا كما يبدو اختلاف فى التفاصيل لا غير ، وأن فى هذه التفاصيل ما يمكن أن يكون مقبولا ، ومنها ما يستبعد . ولكن الذى لا خلاف فيه عند الرواة ما كان من ملك كندة ، وقتك بنى أسد بججر أبى امرئ القيس ، بتحريض ملوك الفرس أو ولاتهم على الحيرة ، وعبث امرئ القيس فى صباه وقبل مقتل أبيه ، واستنجاده بالقبائل لنصرته على الأخذ بثأره ، وأنه نجح فى بعض ذلك ، وأخفق فى الإجهاز عليهم ، وهو ما كان يشتهى لينبئ ملكاً لنفسه ، يصله بملك أبيه وأعمامه وجدّه ، وأن ذهابه إلى القيصر واستنجاده به أمر لم يشك فيه واحد من الرواة ، ولا يصح الشك فيه ، فإن رجلا من العرب كما مرء القيس لا بد أن يفتن إلى العداوة التقليدية بين الروم والفرس ، وبين المناذرة والفساسنة ، بدافع المنافسة التى أدت إلى وقائع حربية يعرفها المؤرخون ، ويعرفها العرب أيضاً ، ولا بد أن يتجه امرؤ القيس فى طلب العون إلى ملوك الروم وأشياعهم من الفساسنة ، لينال من أعدائه وأعدائهم ملوك الفرس وأتباعهم من المناذرة ملوك الحيرة .

والخلاصة أن هذه الأخبار فيها ما تضافرت الروايات عليه ، وفيها ما هو محل للخلاف ، ومجال الاتفاق كما أسلفنا أوسع من مجال الخلاف أو نقط الخلاف . ومن التعسف أن ترفض الروايات الصحيحة لأنه يوجد إلى جانبها روايات ضعيفة أو مختلف عليها . وإنما البحث الصحيح يفضى إلى قبول ما اتفق عليه ، والأخذ

من وجوه الخلاف بأقربها إلى الفهم ، وأقربها شبها بطبيعة الأشياء ، فأما أن ترفض الصحيح لأن بجانبه ما هو سقيم أو ما هو محل خلاف ، فليس من طبيعة البحث المستقيم ، وليس من الإنصاف في شيء ، وإنما هي الرغبة في الهدم لسبب أو لآخر من الأسباب التي لا تتصل بالبحث الحر ، ولا تمت إلى التحقيق بسبب من الأسباب .

فصاحب « الأدب الجاهل » على مذهبه في الشك أو الإنكار ، لا يمنع بمحاولة لإثبات انتحال الأشعار ، وإنما يحاول على عهده في الفترة التي ألف فيها كتابه لإثبات انتحال الأخبار ، لينتهي إلى نقي الشعر والتاريخ جملة وتفصيلا ، فقصه السموءل مع امرئ القيس في نظره منتحلة ، لأنه قرأ في الأغاني أن أبا الفرج يشك في نسبة إحدى القصائد إلى امرئ القيس ، ويتخذ من هذا الشك ذريعة لهدم القصة من أولها إلى آخرها ، بسبب قصيدة واحدة قيل إنها منحولة . والمعجب من أن يذهب إلى أن القول بانتحال قصيدة واحدة يكفي لإثبات زيف قصة امرئ القيس مع السموءل ، بل يذهب إلى ما هو أكثر من ذلك ، مما يتجاوز حدود تلك القصة ، فيقول : ثم كانت هذه القصة المنتحلة سببا في انتحال قصة أخرى هي قصة ذهاب امرئ القيس إلى القسطنطينية وما يتصل بها من الأشعار . . . وإذا لم يكن بد من التماس الأدلة الفنية على انتحال هذا الشعر فقد نحب أن نعرف كيف زار امرؤ القيس بلاد الروم وخالط قيصر حتى دخل معه الحمام ، وفتن ابنته ، ورأى مظاهر الحضارة اليونانية في قسطنطينية ، ولم يظهر لذلك أثر ما في شعره ؟ لم يصف القصر ولم يذكره ، لم يصف كنيسة من كنائس قسطنطينية ، لم يصف هذه الفتاة الأمبراطورية التي فتنها ، لم يصف الروميات ، لم يصف شيئا ما يمكن أن يكون روميا حقا . ثم يكفي أن تقرأ هذا الشعر لتحس فيه الضعف والاضطراب والجهل بالطريق إلى قسطنطينية .

ومهما يكن من شيء ، فإن السذاجة وحدها هي التي تعيننا على أن نتصور أن شاعراً عربياً قديماً قال هذا الشعر الذي يضاف إلى امرئ القيس في رحلته إلى بلاد الروم وقفوله منها^(١) .

وهي استنتاجات غريبة كما يبدو ، لأنها تخرج عن طبيعة الاستنتاج الذي ينبغي أن يبنى على مقدمات صحيحة موثوق بها ، لتكون أدلة منطقية في بحث علمي لا أدلة خطابية في مجال التأثير والتلاعب بالعواطف ، وأين الأدلة الفنية في إثبات انتحال هذا الشعر ، أو انتحال هذه القصص ؟ الواقع أنه لا توجد في هذا القول ولا في أمثاله المبثوثة في تضاعيف الكتاب وفي أكثر صفحاته أدلة يقينية عقلية أو مادية ، ولا توجد أدلة فنية أيضاً .

كيف زار القسطنطينية ؟ وكيف خالط القيصر ؟ وكيف فتن ابنته ؟ كان واجباً على الرواة والمؤرخين أن يصحبوا امرأ القيس في غدواته وروحاته ، ليصفوا لنا هذه التفاصيل ، وكان على امرئ القيس أن يذيع ما أجمع عليه من السفر إلى القسطنطينية لاستنجد القيصر ، حتى يتبعه الرواة ويدونوا كل صغيرة وكبيرة من أبناء هذه الرحلة ، التي يعرف أقل الناس ذكاء أنها رحلة تنسم بطابع السرية ، حتى يتحقق ما يشدها من النجاح ؛ وأيه غرابة في أن تفتن ابنة القيصر بهذا السيد العربي ضيف أبيها وجاره ، ولعلها رأت فيه من صفات العرب التي لم ترها في قومها مأخذ بلبها ، وهي تعلم أنه ملك وسليل ملوك ؟

كيف لا يصف امرؤ القيس مظاهر الحضارة اليونانية في القسطنطينية ؟ كيف لا يصف قصر القيصر ؟ كيف لا يصف كنائس القسطنطينية ؟ كيف لا يصف الروميات ؟

أسئلة عجبية جداً ! وكأن امرأ القيس ذاهب في رياضة أو سياحة إلى القسطنطينية ، ليستوحى شاعريته في وصف مظاهر الحضارة اليونانية ، ونخامة الكنائس ، وفتنة الفوانئ الروميات ، كما يفعل السراة من أولى الفراغ في أيامنا .

لم يقل واحد من الرواة بهذا أو بشيء من هذا ، وإنما قالوا جميعاً إن امرأ القيس رحل إلى القسطنطينية بعد أن أعوزه النصارى في بلاده ، وأنه ذهب يطلب النصرة على أعدائه الذين قتلوا أباه وضيعوا ملكه ، من أعداء أعدائه ، ولم يذهب لإلهياً يطلب الأنس والمسرة والمتعة في بلاد الروم ، بل ذهب يطلب العون بالرجال والسلاح والمال ليدرك ثأره ؟ فكيف يصف القصر وزينته ، ومظاهر الحضارة والمدنية في بلاد الروم ، مما لا يجد له نظيراً في أرض العرب ؟

بهذه النظرة الجادة ينبغي أن يكون النظر إلى تاريخ امرئ القيس أو تاريخ غيره من الجاهليين ليقل منه ما يستحق القبول ، ويرفض ما ينكره العقل ويأباه المنطق . فإننا لانطلب التسليم المطلق إلا بما يستقيم مع العادة ويطمئن إليه العقل . ونحن لا نتكر أنه حمل على امرئ القيس كثير من الأخبار وكثير من الأشعار ، ولكن تميز ذلك لا يخفى على أهل النظر .

وعلى هذا لا يمكن أن يقبل قول يذهب فيه إلى أن امرأ القيس شخصية خيالية أو أسطورية صنعها مؤلفو الأساطير ليلهو بها الناس ، أو أبناء القبائل ليثبتوا لقبائلهم مجداً تليداً يباهون به معاصريهم ، فهذه أخبار العرب يرويها روايتهم ، وهذه روايات الأوربيين يذكرها مؤرخوهم في تقارب واضح واتفاق كثير ، ثم تأتي الأخبار الصحاح عن الذين يعتد بكل حرف مما يقولون ، من الذين لا يعرفون اللغو ، ولا يؤمنون بالأساطير .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر امرأ القيس فيقول :

هو قائد الشعراء إلى النار . وفي خبر آخر : معه لواء الشعراء إلى النار .
وقال ابن الكلبي : أقبل قوم من اليمن يريدون النبي صلى الله عليه وسلم ،
فضلموا ووقعوا على غير ماء ، فمكثوا ثلاثاً لا يقدرّون على الماء ، فجعل الرجل
منهم يستدري^(١) بنية السمّ والطلح ، فبيناهم كذلك أقبل راكب على بعير ،
فأنشد بعض القوم بيتين من شعر امرئ القيس . فقال الراكب : من يقول
هذا الشعر ؟ قال : امرؤ القيس ، قال : والله ما كذب ، هذا ضارج^(٢) عندكم
وأشار لهم إليه ، فأتوه ، فإذا ماء غدق ، فشرّبوا منه وارتقوا ، حتى بلغوا النبي
صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه ، وقالوا : أحيانا بيتان من شعر امرئ القيس .
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ذاك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها ، منسى^(٣)
في الآخرة حامل فيها ، يحيى يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار .

وذكره عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : سابق الشعراء ، خسف لهم
عين الشعر^(٣) . ولا حاجة بنا إلى الاسترسال في ذكر امرئ القيس أو إثبات

(١) استدري بالمحاط أو بالشجر وتدري : اكتن .

(٢) ضارج : ماء بأرض طيء ذكره امرؤ القيس في معلقته كما سيأتي ، وهو جبل أيضاً
وفي هذين البيتين :

لما رأيت أن العريضة هما وأن البياض من فرائصها دام

تيممت العين التي عند ضارج بنية عليها الظل عرّضها الطامى

والعريضة مقعرة الماء ، وهي مورد الشاربة ، والعرب لا تسميها شريعة حتى لا يكون
اقتطاع له ، والفرائص جمع فريضة وهي لحة عند نفث الكتف في وسط الجنب ، وهما فريستان
ترتعدان عند الفزع ، والمرض يفتح العين والميم الطعبل ، والضمير في رأيت للجر ، يريد أن
الجر لما رأيت شريعة الماء خافت على أنفسها من الرماة وأن تدمي فرائصها من سهامهم عدلت
إلى ضارج لعدم الرماة على العين التي فيه والطامى المرتفع .

(٣) الشعر والشعراء ٧٦/١ . وفي حديث عمر أن العباس سأله عن الشعراء فقال :

امرؤ القيس سابقهم ، خسف لهم عين الشعر ، فافتقر عن معان عور أصبح بصراً . أي أنبأها
لهم وأغزرها ، من قولهم خسف البئر ، إذا حفرها في حجارة فنبعت بماء كثير ، يريد أنه
ذلل لهم الطريق إليه ، وبصرهم بمآبيه ، وفنن أنواعه وقصده ، فاحتذى الشعراء على مثاله ،
فاستعار العين لذلك .

أنه حقيقة تاريخية ؛ فإن المجال لا يتسع لأكثر من ذلك من الأدلة القاطعة والأقوال الثابتة ؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب لا يتحدثان عن خرافة أو أسطورة وإنما يتحدثان على رجل يعرفانه كما يعرفه العرب ويحكمان عليه بشعره الذي رددته البوادي والخواضر .

* * *

وقد حظى شعر امرئ القيس في سائر عصور العربية بما لم يحظ به شعر شاعر غيره ، وهذه كتب الأدب وكتب البلاغة وكتب النقد وكتب التاريخ تفيض بأخباره ، وتروى شعره ، وتتخذ من بلاغته شواهد وأمثالا يضمها البلاغيون أمام طالبي صناعة البلاغة والبيان ، ليجدوا فيها نماذج يرونها جذيرة بالاحتذاء . وقد شغل به العرب في الجاهلية ، كاشغل به المسلمون في صدر الإسلام وبعده ، وشغل به الرواة والشعراء والنقاد في كل عصر من عصور التاريخ ، وفي عصرنا هذا عظمت العناية بشخصية امرئ القيس وتحقيق أخباره وقد أشعاره ؛ وتجاوزت تلك العناية جمهور الدارسين من أبناء الأمة العربية إلى غيرهم من الأجانب والمستشرقين ، في محاولاتهم لدرس التاريخ العربي والوقوف على مصادره ، وفهم العرب وحظهم من المعرفة والفن ، ودراسة لغتهم وألفاظها وطبيعة تراكيبها ، حتى لقد يكون من الممكن أن تملأ الدراسات التي كتبت عن امرئ القيس وحده مجلدات كثيرة ، تكون مرآة للحياة العربية والفن العربي منها بصفة خاصة .

والسبب في هذه العناية الملحوظة أنهم رأوا شاعرية ناضجة مكتملة النضج في ذلك العصر المبكر ؛ ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة ، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم

ابن عبد مناف .. فن قديم الشعر الصحيح قول العنبر بن عمرو بن تميم ، وكان جلور في بهراء فراه ريب فقال :

قد رايت من دَلَوِي اضطرأها والنأي في بهراء واغترأها
إلا نجي ، ملأى بجي قرأها^(١)

.. وما يروى من قديم الشعر قول دويد بن زيد بن نهد حين حضره الموت :

اليوم يُبْنى لدؤيد بيتُهُ لو كان للدهر بلى أبلتُهُ
أو كان قرني واحداً كفتُهُ يارب نهب صالح طويتُهُ
ورب غيل حسن لويتُهُ ومهم مخضب ثذيتُهُ
وقال أيضا :

ألقى على الدهر رجلاً ويدا
والدهر ما أصلح يوماً أفسداً
يصلحه اليوم ويفسده غداً

... وأمثال هذا من الشعر القليل ، أو الأبيات القليلة التي تعبر عن انفعال خاص ، ولا تتجاوز التعبير عن غيره من الانفعالات ، ولا تحاول تصوير العواطف في غزارة واستطراد ، وانتقال من فكرة إلى فكرة ، ومن معنى إلى معنى ، كما وجدوا ذلك عند امرئ القيس . فإن معالم الشاعرية ، أو خصائص الفن الشعري عند العرب قد ظهرت في شعره الماثور ظهوراً واضحاً ، والجهود التي بذلت في سبيل استكمال تلك الخصائص قد بلغت أوجها ، وحقت أهدافها على يد ذلك الشاعر الكبير الذي وجدوا من شعره تراثاً كافياً صالحاً للبحث والدرس ؛ وأن

(١) قرأها ما قارب قدر تمامها أو امتثلها .

تلك المعالم هام بها شعراء العرب ، واتخذوها إماماً لهم ، وهاذيا يهتدون به في التعبير الشعري عن حياتهم وآلامهم وأمانيتهم ، وغيرها من الأغراض التي يريدون العبارة عنها . وقد سبقت هذا الشعراً وذلك الشاعر محاولات كثيرة ، وخطوات طويلة ، في سبيل التدرج في الفن الشعري حتى بلغت هذا المبلغ الذي أعجب به العرب وتناشدوه ، وعلقوا بعضه على السكبة .

فلا عجب أن يظفر هذا الشاعر بهذا الاهتمام في بيئات الأدب المختلفة ؛ وأن تتعدد آراء الدارسين لفنه ، وأن يشهد له أكثرهم بالبراعة والحدق ؛ وفتح أبواب ذلك الفن ، ليلججه القادرون عليه ؛ ويكون من ثمراتهم تلك الثروة الأدبية الطائلة التي يزهبها الأدب العربي بين الآداب العالمية .

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : يقول من فضل امرأ القيس : إنه أول من فتح الشعر واستوقف وبكى في الدمن ، ووصف ما فيها . ثم قال « دع ذا » رغبة عن المنسبة ، فتبعوا أثره ، وهو أول من شبه الخيل بالمصا واللقوة^(١) والسباع والغلباء والطير ، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف .. وقال أبو عبيدة : امرؤ القيس أول من قيد الأوابد ، يعنى في قوله في وصف الفرس :

وقد اغتدى والطير في وُكْنائها بنجرد قيد الأوابد هيكلاً

فتبعه الناس على ذلك . وقال الباقلاني في إعجاز القرآن : قوله « قيد الأوابد » عندهم من البديع ومن الاستعارة ، ويروونه من الألفاظ الشريفة ، وعن ذلك أنه إذا أرسل هذا الفرس على الصيد صار قيداً لها ، وكانت بحال المقيد من جهة سرعة عدوه . وقد اقتدى به الناس ، واتبعه الشعراء ، ف قيل : قيد النواظر ، وقيد

الألحاظ ، وقيد الكلام ، وقيد الحديث ، وقيد الرهان . قال ابن يعفر :
بمقلص عتد جبير شدّه قيد الأوابد والرهان جواد
وقال أبو تمام :

لها منظر قيد الأوابد لم يزل يروح ويغدو في خفارتها الحب
وقال آخر :

الحاظه قيد عيون الوري فليس طرف يتعداه
وقال آخر :

* قيد الحسن عليه الحدقان ^(١) *

وقال غيره : هو أول من شبه الثغر في لونه بشوك السّيال ، فقال :
منابته مثل السّدوس ولونه كشوك السّيال وهو عذب يفيص ^(٢)
قاتبه الناس ، وأول من قال « فمادى عدا » في بيته :
فمادى عدا بين نور ونمجة دراكا فلم ينضح بماء فيفسل
قاتبه الناس . وأول من شبه الحمار « بمقلاء الوليد » وهو عود النّلة
في قوله :

فأصدرها تلو النجاد عشية أقب كقلاء الوليد خيص ^(٣)

(١) خزانة الأدب للبغدادى ٣١٢/١ .

(٢) السدوس : النبلج الأسود ، والسّيال : شجر سبط الأغصان عليه شوك أبيض ،
أصوله مثل ثنابا العذارى ، يفيص : يقطرويسيل أو يرق .

(٣) المقلاء والقلة بضم القاف وفتح اللام مخففة : عودان يلبس بهما الصبيان ، فالمقلاء
الدود الكبير الذى يضرب به ، والقلة الخبئة الصغيرة التى تنصب ، وهى قدر خراخ ، والنجاد
المرتفعات من الأرض ، والأقب الضامر ، والخميص الضامر البطن .

و « بكر الأندري » والسكر الحبل ، والأندري الحبل الغليظ . وشبه
الطلل « بوحى الزبور فى العسيب » فى قوله :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط الزبور فى عسيب يمانى ^(١)

قال ابن سلام : فاحتج لامرىء القيس من يقدمه قال : ما قال ما لم يقولوا ،
ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها ، واستحسنها العرب ، واتبعه فيها الشعراء ،
منها : استيقاف صحبه ، والبكاء فى الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبه
النساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والمعصى ، وقيد الأوابد ، وأجاد
فى التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى ^(٢) .

وهذه الكلمات خلاصة الأقوال فى تقديم امرىء القيس ، وهى من
غير شك كلمات عاجلة ، لم تستوعب حسنات امرىء القيس كلها ، ولم تشمل كل
نواحى إبداعه فى هذا الفن الجميل . وعلى من يحاول استخلاص تلك الحسنات ،
واستخراج نواحى الإبداع عند شاعر كبير مثل امرىء القيس أن يقرأ شعره كله ،
وأن يحصى حسنات الذين سبقوه والذين اتبعوه وأفادوا مما ابتدع ، ودون ذلك
ما لا يخفى من الصعوبات ، وأهمها فقدأكثر شعر الجاهلية ، ولا سيما شعر الذين
سبقوا امرأ القيس . وفى ذلك يقول أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم
مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير ^(٣) . وامرؤ
القيس نفسه يذكر أن غيره من الشعراء قد بكى الديار فى قوله :

عوجاً على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن حذام

قال ابن سلام : وهو رجل من طيء لم يسمع شعره الذى بكى فيه ،

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٨٣/١ .

(٢) طبقات خول الشعراء لابن سلام ٤٦ .

(٣) طبقات خول الشعراء لابن سلام ٢٢ .

ولا شعر غير هذا البيت ، الذى ذكره امرؤ القيس .

والناظر فى شعر امرئ القيس يجد خصائص الشعر العربى متمثلة فيما صحّ نقله من شعره ، ويرى فى شعره صورة لحياته المتقلبة بين اللهو والجد ، وصورة المجتمع الذى عاش فيه .

وأعتقد أن نطاق هذه الدراسة المخصص للمعلقات لا يتسع للإفاضة فى تحليل شاعرية هذا الشاعر أو غيره من أصحابها ، ولعل شيئاً من ذلك يأتى فى الفصول التالية التى نعرض فيها لدراسة المعلقات جميعاً ، ونفصل فيها القول فى خصائصها الفنية ، ودلالاتها الاجتماعية والتاريخية .

معلقة امرئ القيس :

أشهر المعلقات وأولها ؛ وأهم ما خلف امرؤ القيس من الشعر ، وأصحّ رواية ، وفى استطاعة الدارس لشعر امرئ القيس أن يطمئن كل الاطمئنان إلى سلامة هذه القصيدة ، وأن يعتمد عليها فى استخلاص ما يريد من خصائص شعر الشاعر ، ودلالته على نفسه وفنّه وبيئته .

والذى يدعونا إلى الاطمئنان إلى صحة هذه القصيدة هو إجماع الرواة عليها ، وإن اختلفوا اختلافاً يسيراً فى بعض ألفاظها ، أو فى ترتيب قليل من أبياتها المتعاقبة . ويدعونا كذلك إلى الاطمئنان إلى صحتها كثرة الأبيات التى تمثلت الأجيال بها ، واتفاق أرباب الصناعات التى تتصل بهذا الفن على الاستشهاد بها فى صناعة النحو والإعراب ، واللغة والبيان ، من الثقات الذين بنوا صرح الدراسات العربية ، ثم المتكلمون والباحثون فى إيجاز القرآن الكريم ، وما وازنوا بين آيات الكتاب ونصوص من هذه المعلقة ؛ هى هذه النصوص التى بين أيدينا . وما كان أولئك جميعاً ليبنوا هذه الدراسات على أساطير أو حديث

خرافة ، وهم أهل جد ، لا يروون إلا ماصح عندهم ، ولا يقيمون دراساتهم إلا على ما وثقوا منه ، وكان لهم خصوم يتمنون لهم مثل هذه السقطة ليهدموا آراءهم بهدم الأسس التي بنيت عليها .

ثم مافى هذه القصيدة من صور صادقة للعصر الذي نظمت فيه ، والبيئة التي قيلت فيها وتصويرها للحياة المادية التي تضطرب بها الحياة في مثل البيئة التي عاش فيها امرؤ القيس .

ثم طبيعة الألفاظ والتراكيب التي تمثل الترا كيب الأدبية التي استخدمها أولئك الجاهليون في تعبيراتهم الأدبية في ذلك الزمن البعيد ، وغير ذلك من الخصائص الفنية التي نعالجها في الفصول التالية .

كل أولئك يدعوننا إلى الاطمئنان إلى هذه القصيدة ، وقبولها كما هي ، دون شك في صحتها ، أو طعن في صدق روايتها .

ومن العسير على باحث منصف أن يكفر بهذه الآيات الشاهدة ، ليستمع إلى مقالة لا تعتمد إلا على الظن ، وتتصيد كلمة من هنا أو من هناك ، لتخلق منها حجة كالسراب ، يظنه المخدوعون ماء حتى إذا جاءوه لم يجدوه شيئاً ، وتقف أمامهم الحقائق الماثلة ، والعقول الواعية ، والألسنة الصادقة ، والطبيعة المصدقة .

وقد ذكر الرواة السبب الذي من أجله نظم امرؤ القيس هذه القصيدة ،

فقالوا إنه نظمها في وصف واقعة جرت له مع حبيبتة وابنة عمه « عنيزة » بنت شرحبيل ، وكان قد حظر عليه لقاءها ، ولعلمهم ممنوعه منها لما عرفوا من رغبته في الشعر ، وخشيتهم أن يجرى ذكرها في أحياء العرب على ألسنة الرواة ؛ فيظن الناس بها الظنون ، أما هو فكان ينتهز الفرص لملاقاتها ، فاعتزم فرصة ظعن الحنّ ، وكانوا إذا ظعنوا مشى الرجال أولاً ثم النساء ، فتخلف امرؤ القيس عن الرجال ، وتربص حتى ظنعت النساء ، وكان في طريق الظاعنين غدير يسمى

« دارة جلجل » في منازل كنفدة بنجد ، فسبقهم امرؤ القيس إلى ذلك الغدير ، وفيهن عنيزة ، فزعن ثيابهن ونزلن في الماء ، فبرز هو من مخبئه وجمع الثياب وجلس عليها ، وحلف أنه لا يعطى الواحدة منهن ثيابها إلا إذا خرجت من الغدير ورآها عارية ، فحاصمته زمنا طويلا من النهار ، فأبى إلا إبرار قسمه ، فخرجت إليه أوقهمن ، فرمى بثيابها إليها ، ثم تتابعن حتى بقيت عنيزة ، وأقسمت عليه ، فقال : يا ابنة الكرام لا بد لك من أن تفعل مثل ما فعان ، خرجت إليه فرآها مقبلة ومدبرة ، فلما لبسن ثيابهن أخذن في عدله ، وقلن ، قد جوّعتنا وأخرتنا عن الحى ، فقال لمن : لو عقرت راحلتى أنا كلن ؟ قلن : نعم ! فعقر راحلته ، وجمعت الإماء الخطب ، وجملن يشوين اللحم إلى أن شعبن ، وكانت معه ركوة فيها خر فسقاهن منها ، فلما ارتحلن قسمن أمتعته ، فبقى هو ، فقال لعنيزة : يا ابنة الكرام لا بد لك من أن تحملينى ، وألحت عليها صواحبها أن تحمله على مقدم هودجها فحملته ، فجعل يدخل رأسه في الهودج يقبلها ويشمها ، فلما كان قريبا من الحى نزل فأقام حتى إذا جت الليل أتى أهله ليلا . وذكر هذه القصة في أثناء القصيدة ^(١) .

وإذا نظرنا في هذه المعلقة لم نجد ما يمكن أن يكون متصلا بهذه القصة سوى تسعة أبيات من ستة وثمانين بيتا في رواية صاحب جمهرة أشعار العرب ، وستة أبيات من واحد وثمانين بيتا في رواية الزوزنى ، وتلك الأبيات في رواية أبى زيد هى :

الأرب يوم لى من البيض صالح ولا سيما يوم بدارة جُلجل
ويوم عقرتُ للعذارى مطيبي فيا عجباً من كورها المتحمل

(١) انظر شرح المعلقات السبع للزوزنى ، طبعة حجازى — القاهرة ١٩٥٢ م
وشرح القصائد العشر للتبريزى ١٥ وانظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرى زيدان ٩٦/١
وتاريخ آداب العرب للرافعى ١٩٩/٣ .

فَظَلَّ الْمَذَارَى يَرْتَمِنُ بِإِحْمَا
وَشَحْمَ كَهْدَابِ الدَّمَقْسِ الْمَقْتَلِ
تَدَارُ عَلَيْنَا بِالسَّديفِ صَاحِفَهَا
وَيُوتِي إِلَيْنَا بِالْعَبِيطِ الْمُثْمَلِ
وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخَدَرَ خَدَرَ عُنْبِرَةٍ
فَقَالَتْ لَكَ الْوِيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجَلِي
تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الْغَبِيطُ بِنَا مَعًا
عَقَرْتُ بِعَيْرِي يَا امْرَأَ الْقَيْسِ فَانْزِلِ
فَقُلْتُ لَهَا سِيرِي وَأَرْخِي زِمَامَهُ
وَلَا تَبْعِدْنِي مِنْ جَنَّاكِ الْمُعَلَّلِ
دَعَى الْبَكْرَ لَا تَرْتِنِي لَهُ مِنْ رِدَافِنَا
وَهَاتِي أَذِيقِينَا جَنَافَةَ الْقَرَنُفْلِ
بِشْفَرِ كَشَلِ الْأَخْوَانِ مَنْوَرٍ
نَقَى الثَّنَائِيَا أَشْنَبِ غَيْرِ أَمَلٍ^(١)

ولا شك أن هذا المقدار لا يكفي لإثبات صحة هذا السبب ، أو جعله وحده علة نظم هذه القصيدة الكبيرة ، إذ لو كان هذا هو الغرض الرئيسى من نظمها اشغلت معالجته أكثر أبياتها ، ولكان هذا الغرض صالحاً ليكون مطلقاً للمعلقة ، إذ كان هو التجربة التى أثارت انفعال الشاعر ، وهى التى دفعته إلى التعبير عنها فى هذه القصيدة الطويلة ، ولذلك فنحن لا نطعن إلى كون هذه القصة كانت سبب إنشادها ؛ فإنها تشتمل على أغراض أخرى ، منحها الشاعر من عنايته أكثر مما منح ذلك الغرض الذى قيل إنه أنشدها من أجله .

على أن هذه القصة فى حد ذاتها — وعلى الرغم من تعدد روايتها — أشبه بعمل القصص وفيها حبكة القصة أو الحبكة المسرحية كما يقال ، فإن نساء قبيلة يخرجن مجتمعات ، دون رجال يحرسونهن ، ثم يتخلفن النهار أو أكثره دون أن يفتنن إلى ذلك رجالهن ، ودون أن يعودوا لاستطلاع خبرهن ، أمر لا يقابل بالتسليم المطلق . ثم كيف تخرج حرائر العرب من ذلك الغدير

(١) البيت الرابع والبيتان الثامن والتاسع لم ترد فى روايتي الروزنى والتبريزى ولا فى شرح ديوان امرئ القيس للوزير أبى بكر عاصم بن أبوب ، وتابع السندوبى فى شرحه لديوان امرئ القيس رواية صاحب الجهرة فى إضافة هذه الأبيات ، حتى لا يشذ عنه شيء مما ينسب إلى امرئ القيس .

عاريات أمام رجل عرفن عبثه ، وعرفن شعره ، ولو بقين الأيام والشهور ؟ وكيف بامرئ القيس يمتن كرامة نساء قومه ؟ وكيف يستسيغ أن يחדش حياء ابنة عمه ؟ اللهم إن هذا صنيع رجل لامرؤة له ، في بيئة تعرف الحفاظ على حرمة ، وتبذل كل غال في سبيل صيانة المرأة والذود عن كرامتها !

لقد وصف امرؤ القيس بأنه كان يتعهر في شعره ، فلم لا يكون ما ذكره في هذه الأبيات القليلة وفي بيتين بعدها من تعهره المعروف في شعره ؛ فبالغ هذه المبالغة الفاحشة ، أستغفر الله ، بل بالغ القصاص في رواية هذه القصة على هذا النحو ، الذي يعد مخزاة لشعر امرئ القيس ، بل مخزاة لرجواته ومروءته ، وشيمه وإبائه .

ثم أين وصف هذه القصة في هذا الشعر ، وهي قصة مثيرة حقاً ، أين ذكره للتقدير ولنساءه العاريات ، وملايسهن التي جلس عليهما ، ثم أين وصف أجسادهن من شاعر عرف عنه أنه لا يتعفف عن ذكر السوءات ؟ ؟

لا شيء من ذلك في هذه القصيدة ، إلا ذكره يوم دارة جلعجل ، وعقره ناقته للعدارى ، وترايبهن بلحمها ؛ ولا حديث بعد ذلك لمرى أو استحمام أو ثياب أو خروج من التدبير على هذه الصورة الخيالية ، التي رأى عليها مقبلات ومدبرات . ولعلك موافق بعد ذلك على ما قدمت أن هذه القصة أشبه بعمل القصاص ، ولعلك تجد نظيراً بل نظائر كثيرة لها في قصص « ألف ليلة وليلة » .

وعلى الرغم من كل هذا فإن في هذه القصيدة نفسها أبياتاً فيها من الخلاعة والتبذل والجون والكشف في القصة الشيء الكثير ، ولكنها لا تتصل بهذه الواقعة بالذات ، بل بوقائع أخرى ، وذكريات سابقة ماجنة لهذا الشاعر مع

عاشقات آخر ، أو فى وقائع غير تلك الواقعة التى ذكر الرواة أن امرأ القيس نظم هذه القصيدة من أجلها .

وهاك مجمل الأغراض التى اشتملت عليها معلقة امرئ القيس :

(١) وقوفه واستيقافه صاحبه أو صاحبيه عند أطلال أحبته الطاعنين ، التى لا تزال آثارها باقية ، على الرغم مما يختلف عليها من الرياح ، ولم تعف ذكريات الراحلين عنها من قلبه ، ثم وصفه بعض الآثار التى يخلفها رحيل البدو عن مضاربهم ، وما يحس من الوجد بفراقهم والبكاء لرحيلهم ، وما واساه رفاقه به ، وما يفعل البكاء من التسرية عنه والتخفيف من وجده ، ثم ما ذكر به نفسه أو صاحبه بما كان يلقي من أم الحويرث وجارتها ، وبعض ما كان يعجبه منهما . وهذا مطلع القصيدة الذى استغرق تسعة أبيات من أولها (١ - ٩) .

(٢) وانتقل بعد ذلك إلى يوم دارة جلجل ، الذى قيل إنه سبب إنشاد المعلقة ، والناظر فيما ذكر فيه ذلك اليوم أن امرأ القيس لم يذكر شيئاً عن الغدير ، أو ما كان من عبثه مع النساء فى ذلك اليوم على النحو الذى قيل فى القصة ، وإنما كل ما ذكر من أمر ذلك اليوم ، أو غيره من الأيام ، ما كان من عقره مطيته للعذارى اللأى لم يجدن طعاماً ، وترايمين بلحمها وقطع سنابها ، وركوبه مع صاحبة مطيتها ، وما كان يجرى بينهما من حديث العذل والغزل والركة والدلال ، وكل ذلك فى تسعة أبيات من المعلقة (١٠ - ١٨) .

(٣) ثم ذكر صاحبه بشيء من مغامراته مع غيرها فى شعر ماجن ووصف مكشوف ، يبدو فيه وكأنه يتحدث إلى عاهرة من الساقطات ، لا إلى حرة من بنات أعمامه ، وذلك فى أبيات ثلاثة (١٩ - ٢١) .

(٤) ثم مناجاته صاحبه فاطمة فى نسيب عف ، وصف فيه دلالة ، وما يفعل هجرها بقلبه ، ويبدو فى هذا النسيب أثر الحب الصادق ، وفعل

اللوعة وتبريح الصبابة ، في خمسة أبيات (٢٢ — ٢٦) .

(٥) وأفاض في وصف قصة من قصص مغامراته في سبيل الوصول إلى محبوبته ، ووصف ديبه إليها ، وصور ما كان بينهما من حديث العتب والإشفاق ، ثم أخذ في وصف محاسن جسدها وصفاً مادياً شبه فيه جسمها وأجزاءه تشبيهات مادية ، بما يجد في بيئته من مظاهر الطبيعة الحية ، ومظاهر الطبيعة الجامدة أيضاً . وقد استغرق وصف ديبه ووصف خليلته جزءاً كبيراً من المعلقة يبلغ واحداً وعشرين بيتاً (٢٧ — ٤٧) .

(٦) ثم وصف الليل وطوله وأحواله في خمسة أبيات (٤٨ — ٥٢) .

(٧) ويلي ذلك أربعة أبيات في وصف ما يكابد قاطع المفازة ، وما يسمع فيها من عواء الذئب ، وهذه الأبيات هي :

(٥٣) وقِرْبَة أَقْوَامِ جَعَلَتْ عَصَامَهَا عَلَى كَاهِلِ مَنْى ذُلُولٍ مُرَحَّلِ

(٥٤) وَوَادٍ كَجَوْفِ الْمَيْرِ قَفِيرٍ قَطَامَتُهُ بِهِ الذَّبُّ يَغْوِي كَالْخَلِيعِ الْمَعِيلِ

(٥٥) فَقُلْتُ لَهُ لِمَا عَوَى إِنْ شَأْنُنَا قَلِيلُ الْغِنَى إِنْ كُنْتَ لَمَّا تَمَوَّلِ

(٥٦) كَلَانَا إِذَا مَا نَالَ شَيْئًا أَقَاتَهُ وَمَنْ يَحْتَرُ حَرْنِي وَحَرْنُكَ يَهْزِلِ

وقد ذكر هذه الأبيات أبو زيد القرشي من المعلقة في هذا الموضع ^(١) كما ذكرها الزوزنى في شرح المعلقات السبع ^(٢) وذكرها التبريزي في شرح القصائد العشر ^(٣) وتابعهم السندوبى فيما جمعه من شعر امرئ القيس ^(٤) ؛ ولم يذكر هذه

(١) جهرة أشعار العرب ٥٩ .

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزنى ٣٠ .

(٣) شرح القصائد العشر للتبريزي ٣٨ .

(٤) شرح ديوان امرئ القيس للسندوبى ١٣٣ .

الآيات في المعلقة الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب في شرحه ديوان امرئ القيس^(١)
وقال البغدادي في خزانة الأدب في هذا البيت :

كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل
هذا البيت من أبيات أربعة رواها الرواة لتأبط شراً ، منهم الأصمعي ،
وأبو حنيفة الدينوري في كتاب النبات ، وابن قتيبة في أبيات المعاني . وخالفهم
أبو سعيد السكري ، وزعم أنها لامرئ القيس ، ورواها في معلقته المشهورة
بعد قوله :

كأن الثريا عقلت في مصامحها بأمراس كتانٍ إلى صمٍّ جندلٍ
ثم أورد الآيات الأربعة المذكورة ، وعلق صاحب الخزانة عليها بقوله :
وهذا الشعر أشبه بكلام اللص والصلوك ، لا بكلام الملوك^(٢) .

وهو نقد خليق بالتدبر والإعجاب ، إذ هو ينفذ إلى نفس الشاعر وطبيعة
حياته ، وأثر ذلك فيما يصدر عنه من أعمال أدبية ، والشاعر المجيد هو الذي
لا يصف إلا تجربته ، فإن الذي يحمل قرابة الأقوام على كاهله في تلك المواضع
الموحشة التي لا يسمع فيها إلا عواء الذئب ، ولا يجد من الغذاء إلا ما يجد الذئب
الطاوئ ، لا يكون ملكاً من الملوك في سمته وخصبه ، وإنما يكون من اللصوص
أو من قطاع الطريق ، الذين كان يطلق عليهم لقب « الصعاليك » وتوصف
حياتهم وأعمالهم بالصعلكة . ولعل هذا الشعر في خولته وجزالته وفي وزنه
وقافيته هو الذي أوقع أبا سعيد السكري أو غيره من الرواة في ذلك الوهم ،
فزعموا أن الآيات الأربعة من معلقة امرئ القيس . وما هي منها إلا في الوزن
والقافية .

(١) شرح ديوان امرئ القيس للوزير أبي بكر عاصم بن أيوب (مطبعة التقدم العلمية —
القاهرة ١٣٢٢ هـ) .

(٢) خزانة الأدب للبغدادي ١/ ٣٩ .

(٨) ثم يلي ذلك ثمانية عشر بيتا (٥٧ — ٧٤) ذكر فيها غدواته للصيد على ظهر حصانه ، الذى وصف جسمه وسرعة سيره وصفاً بارعاً ، فتن به الشعراء والرواة والنقاد ، الذين يعدون هذا الوصف من عيون الأوصاف الشعرية فى الأدب العربى ، ثم يتبع ذلك بوصف أسراب البقر الوحشية فى سرعة فرارها ومطاردة حصانه لها ؛ فى تصوير فنى أخاذ ، وفى مبالغات ساحرة هام بها النقاد وعلماء البلاغة والبيان .

(٩) وآخر أغراض المعلقة اثنا عشر بيتا (٧٥ — ٨٦) وصف فيها البرق والمطر بمنظرهما الساحر فى تلك البادية ، ووصف مجلسه وأصحابه فى مشاهدة تلك الطبيعة ، ومراقبة سقوط المطر على الوهاد وعلى سفوح الجبال ، ووصف الطيور وهى المسكاكى من شدة سرورهن بصفاء السماء بعد المطر الذى غرقت فى أقاصيه السباع ، كأنما شربن رحيقاً مفللاً .

ويتضح من ذلك أن هذه المعلقة قد تعددت أغراضها بين وقوف واستيقاف وبكاء على الأطلال ، وذكر لعدد من النساء ، ووصفهن ، ومغامراته فى سبيل الوصول إليهن ، وذكر الخلوة بهن ، ووصف الليل والبادية ، والحصان ، والصيد والبرق ، والمطر .

وتلتقى تلك الأغراض فى أنها تعالج فى مجموعها لونا أو ألوانا من الحياة التى كان يحياها بعض المترفين من أبناء العرب فى الجاهلية ، من الذين كان لا يشغلهم العيش والسكد فى طلبه فى رعى أو تجارة ، بل جلّ حياتهم للهو والعبث وتزجية أوقات الفراغ فى طلب الصيد ، وتفجر ينابيع الشاعرية عند الذين أوتوا حظاً منها ، بوصف الليل الذى كانوا يجدون فيه ألم الوحدة ، أو يستشعرون لذعة الفراق ، ووصف الراحلة التى كانت تعينهم على بعض ما يطلبون من المتعة أو الرحلة ، ومشاهد الطبيعة التى كانت تفتنهم لقلة ما يرونها فى مواطنهم وديارهم .

ولست قصيدة امرئ القيس وحدها من بين الشعر الجاهلى هى مظهر هذا اللون من الحياة ، بل إن أكثر الشعر الجاهلى ، معلق منه وما لم يعلق ، زاهر بأمثال هذه الفنون التى اشتملت عليها معلقة امرئ القيس .

وعلى هذا فإن تلك الأغراض ، وإن بدا تعددها ، تدور حول هذه الحياة ، وعبرية الشاعر تسير نظراته المتقلبة ، وحياته المتقلبة ، وخواطره المتتابعة ، فلاطلاع تذكره بالذين كانوا يعمرونها ثم طعنوا عنها ، وهذا يذكر بنسائهم أوفتياتهم ، ومن يشبهن ممن علق القلب بهن ، ومثل ذلك يستدعى التمدح بما قد يراه الشاعر مظهر فخر له من الفروسية أو نحوها ، وبالحصان وبأسراب البقر الوحشية ، وبذلك المناظر البرية التى هى مرتع لوهوم وصيدهم وحلهم ومرحلهم . ولست أريد فى هذا المقام أن أثبت أصالة تلك القصيدة أو صحة نسبتها إلى امرئ القيس بالأدلة العلمية التى تخضع للمنطق وأحكامه ، وأهم هذه الأدلة فى نظرى طبيعتها وصدق دلالتها على البيئة التى قيلت فيها ، وعلى نفسية صاحبها فإن للبيئة ومظاهرها فى شعر المعلقات ، موضوعاً آخر فى هذه الدراسة ؛ وأعتقد أن خير الأسباب لإثبات ذلك أو نفيه ، الرجوع إلى الطبيعة فإن سائر الشعر أو غيره من الفنون تلك الطبيعة فلا مجال لإنكاره .

ومعنى الطبيعة الذى أقصده هنا أوسع معنى ، ولا يقتصر على مشاهدتها أو كوائنها ، فتلك ناحية لا يقل عنها فى الأهمية البحث فى طبيعة اللغة التى استعملت فى هذا الفن التعبيرى ، وهل هى تلك اللغة الأدبية السائدة فى الأعمال الأدبية الممتازة ؟ ثم طبيعة الحياة التى عاشها أصحاب هذا الفن ، وطبيعة النفس التى صدر عنها ، وطبيعة التجارب التى عبر عنها ، والأحداث التى لعبت دورها فى حياة أصحاب الفن ، أو الذين كان فنههم مرآة تنعكس على سطحها صورة تلك الأحداث ..

وإذا كان موضع دراسة تلك الطبيعة لم يأت بعد ؛ فإننا نسرع إلى تسجيل

ما استخلصناه من هذه الدراسة ، وهى أنه لا مناقاة مطلقاً بين هذا الفن الذى نجده فى هذه المعلقة ، والطبيعة التى أملت ما فيها من نظم وأسلوب وفكرة ومعنى ومضمون .

وفى هذا اليقين ما يبدد كل شبهة بدت فى كلام الغير ، وينسکر كل طعن فى صدق هذا التراث أولاً ، وهذه المعلقة بالذات ثانياً .

ولا أعرف من أنكرها من أدباء العرب غير الدكتور طه حسين الذى يقول عن معلقة امرئ القيس : لسنا نعرف قصيدة يظهر فيها التكلف والعمل أكثر مما يظهران فى هذه القصيدة ولكننا نلاحظ أن القدماء أنفسهم يشكون فى بعض هذه القصيدة .. وهم بعد هذا يختلفون اختلافاً كثيراً فى رواية القصيدة : فى ألفاظها وترتيبها ، ويضعون لفظاً مكان لفظ ، وبيتاً مكان بيت وليس هذا الاختلاف مقصوراً على هذه القصيدة ، وإنما يتناول الشعر الجاهلى كله ، وهو اختلاف شنيع يكفى وحده لملنا على الشك فى قيمة هذا الشعر « وهو اختلاف قد أعطى للمستشرقين صورة سيئة كاذبة من الشعر العربى ، تخيل إليهم أنه غير منسق ولا مؤتلف ، وأن الوحدة لا وجود لها فى القصيدة ، وأن الشخصية الشعرية لا وجود لها فى القصيدة أيضاً ، وأنتك نستطيع أن تقدم وتؤخر ، وأن تضيف إلى الشاعر شعر غيره دون أن تجد فى ذلك حرجاً أو جناحاً ، مادمت لم تخل بالوزن ولا بالقافية .

« وقد يكون هذا صحيحاً فى الشعر الجاهلى ، لأن كثرة هذا الشعر متحلة مصطنعة . فأما الشعر الإسلامى الذى صحت نسبته لقائليه ، فأنا أتحدى أى ناقد أن يعث به أقل عبث دون أن يفسده . وأنا أزعم أن وحدة القصيدة فيه بيئة ، وأن شخصية الشاعر فيه ليست أقل ظهوراً منها فى أى شعر أجنبى . إنما جاء هذا الخطأ من اتخاذ هذا الشعر الجاهلى نموذجاً للشعر العربى مع أن هذا الشعر

الجاهل لا يمثل شيئاً ، ولا يصلح إلا نموذجاً لعبث القصاص وتكلف الرواة .
ونظن أن أنصار القديم لا يخالفون في أن هذين البيتين قلقان في القصيدة ، وهما :

وليل كموج البحر أرخى سُدوله على أنواع المموم ليلتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكل كل

فقد وضع هذان البيتان للدخول على البيت الذي يليهما ، وهو :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وهذان البيتان أشبه بتكلف المشرط والخمس منهما بأى شيء آخر^(١) .

فأى تعليق على هذه الأحكام الجريئة التي تترادف سرية ؟ وكأنها أحكام
مسلّمة في نظر قائلها الذي يظن أن في استطاعته أن يقود قارئه إلى التسليم
المطلق . في حين أن هذه الأحكام جميعاً يعوزها الدليل والبرهان ، ولا دليل
ولا برهان ! بل إن الدليل ينقض هذه الدعاوى من أساسها ..

فإذا كانت الحجة ما ذهب إليه بعضهم — كما يقرر الدكتور طه — من
الشك في صحة هذين البيتين :

ترى بحر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حبُّ فلفل

كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل

فقد قال التبريزي بعد البيت الأول منهما : هذا البيت وما بعده مما يزداد
في هذه القصيدة . ثم روى قول الأصمى : والأعراب ترويهما^(٢) .

وعلى هذا ينبغي أن يكون الفهم ، وأن ينصرف الشك أو الإنكار إلى
خبر زيادتهما ، لا إلى وجودهما ، ومنزلة الأصمى بين النقاد من الرواة لا تحتاج

(١) في الأدب الجاهل ٢١٥ .

(٢) شرح القصائد العشر للتبريزي ٧ .

إلى بيان ، وقول الأصمعي إن الأعراب ترويهما ، لا يحتاج فوقه إلى دليل على صحتهما ؛ فإذا كان الأعراب يروونها بالنقل والسماع عن أهل البادية ففي ذلك الحجة وفصل الخطاب .

أما الأبيات الأربعة « وقربة أقوام ... الأبيات » فقد أسلفنا القول فيها ، وهي أبيات أربعة مجموعة متوالية ، تنبه إليها الرواة ، وفطنوا إلى أنها حشرت في القصيدة حشراً وأقحمت عليها إقحاماً ، وأيد بعضهم هذا الرأي بنقد معجب في قولهم إن هذه الأبيات أشبه بكلام قطاع الطرق من الصعاليك منها بكلام الملوك أو أبناء الملوك ، وقد عرفوا أن صاحب هذه الأبيات هو « تأبط شرّاً » فلم يبق للحاجة موضع .

وهذا كل ما في القصيدة من الوهم الذي بان واتضح ، ولم يبق وراء ذلك إلا خلاطات لفظية لا تسكاد تذكر ولا يقام لها وزن ، لأنها لا تتجاوز ألفاظاً معدودة ، أو حروفاً قليلة . إذن ليس هذا الاختلاف شنيعاً كما يرى الدكتور طه ، وعلى هذا فقد بطل ما يرى الدكتور طه أنه يكفي لحمله على الشك في قيمة هذا الشعر .

وأعجب من هذا ذهابه إلى أن « هذا الاختلاف قد أعطى المستشرقين صورة سيئة كاذبة من الشعر العربي ، فخيّل إليهم أنه غير منسق ولا مؤتلف ، وأن الوحدة لا وجود لها في القصيدة ، وأن الشخصية الشعرية لا وجود لها في القصيدة أيضاً ، وأنك نستطيع أن تقدم وتؤخر ، وأن تضيف إلى الشاعر شعر غيره دون أن تجد في ذلك حرجاً أو جناحاً ما دمت لم تخل بالوزن ولا بالقافية » .

إن هذا الاختلاف الضئيل في الواقع ، والشنيع في نظر الدكتور طه ، لم يعط للمستشرقين صورة سيئة كاذبة عن الشعر العربي كما يقول ، وبين أيدينا ما كتب أحد كبار المستشرقين الذين تصدوا لتاريخ أدبنا العربي ، وهو الأستاذ

نيكلسون الذى يقول فى صفحته ١٠٥ من كتابه عن معلقة امرىء القيس : أما معلقة امرىء القيس ، فقد تسابق النقاد الأوربيون إلى التغنى بجمال تعبيرها ، والتحدث بفاخر تصويرها ، وحلاوة مدق أبياتها ، وسحر تمثيلها المتنوع . ومما زاد إعجابهم بها ذلك الشعور بأفراح الحياة ، وتمجيد الشباب الذى أوحى إلى الشاعر معانيها الخلابه ، ومباينها البالغة أعلى درجات الفصاحة^(١) .

فهذا عالم كبير لا يذكر رأيه فى الإعجاب بهذه المعلقة لحسب ، ولكنه يؤكّد أن النقاد الأوربيين يتغنّون بما يمجّدون فيها من الخصائص الفنية التى ذكرها . ويقول الأستاذ أرنست رينان فى صفحته ٣٦٠ من كتاب تاريخ اللغات السامية عن الخلاقات اللفظية التى وصفها الدكتور طه بأنها شنيعة ، مانصه : « إن الخلاقات اللفظية الطفيفة فى رواية الشعر الجاهلى نشأت عن ضعف الذاكرة ، ولكنها لا تمس جوهر الفكرة . وهذه الخلاقات قد تكون ضمائنا لصحة الرواية التى تلقاها الرواة^(٢) . واعتقد أن فى هذين النصين الكفاية للدلالة على حظ هذه المعلقة وغيره من التقدير فى نظر المستشرقين ، كما كان لها من الحظ عند رواة العرب وعلمائهم ونقادهم .

أما قوله : إنك تستطيع أن تقدم أو تؤخر ، وأن تضيف إلى الشاعر شعر غيره دون أن تجرد فى ذلك حرجاً أو جناحاً ، مادمت لم تخل بالوزن ولا بالقافية . فإن الكلام عن التقديم والتأخير لا يحكم العقل باستحالته بالنسبة إلى شعر الجاهليين والإسلاميين والعباسيين ، بل والمعاصرين ، على السواء ، وليس ذلك فى الشعر فقط ، بل هو ممكن فى سائر الفنون الأدبية ، لكل من يريد التزييف والخداع ، وكان فى استطاعته هذا التزييف أو التضليل ، وذلك بأن يتقمص روح

(١) نقلاً عن كتاب (الشهاب الراسد) ٢٩٢ .

(٢) المصدر السابق ٣٠٣ .

هذا الأديب أو ذاك ، وينسج على منواله ، في الأسلوب والأفكار ، أما الوزن والقافية فهما أيسر الأشياء عند من يملك غيرهما من آلات الخدق الفنى فى الأدب .

ولا شك فى أن القادرين على مثل هذا التضليل لا يحصى عددهم من الشعراء المجيدين والشار المبرزين فى سائر عصور الأدب . وأعتقد أن الذين يسعهم بذل هذا العناء ليقدموه إلى غيرهم ثمرة ناضجة ، كان أولى بهم أن يجعلوه لأنفسهم ، ليعرفوا به بين الناس ، وليبلغوا به من المنزلة فى عالم الأدب ، ما بلغ أولئك الفحول فى مختلف البيئات من المجد وذىوع الصيت .

والمسألة أولاً وأخيراً لا تعدو مسألة الضمير ، بل هى مشكلة الضمير . وهذا أمر لا تستطيع البشرية أن تحكم عليه إلا بالدليل الواضح ، لا بالفروض والظنون .

ولست أدري كيف ظن الدكتور أن أنصار القديم لا يخالفون فى أن هذين البيتين « وليل كموج البحر ... البيتين » قلقان فى القصيدة وأنهما وضعا للدخول على البيت الذى يليهما ؛ وهو « ألا أيها الليل . . . البيت » وهو قول لم ينسبه الدكتور إلى أحد من القدامى أو المحدثين من الرواة أو العلماء ، فهو رأيه الخاص إذن ، وأنى له أن أنصار القديم ، بل وأنصار الجديد أيضاً ، لا يخالفون فى قلق هذين البيتين ؟

ولا نجد من الأسباب المادية أو الأسباب الفنية دليلاً على هذا القلق المزعوم ؛ بل العكس هو الصحيح ، والإجماع منعقد على الإعجاب بهما وبما يليهما من الأبيات الخمسة التى وصف فيها امرؤ القيس الليل ، وبرمه به ، وضجره منه . ولم أسمع ولم أقرأ غير ذلك الإعجاب من أنصار القديم وأنصار الحديث أيضاً .

حقاً لقد ذكر بعض نقاد الأدب العربى أن افتقار البيت من الشعر إلى ما يليه

من الأبيات عيب من عيوب الشعر سماه قدامة بن جعفر « المبتور » وسماه غيره « التضمين » ، وذلك موجود في هذه الأبيات ، فإن مقول القول في البيت الثاني من الأبيات الثلاثة يأتي في البيت الثالث منها . ولكنه مقياس لا يعتد به عند الباحثين عن وحدة القصيدة أو الذين يعنيههم أمر هذه الوحدة ، والدكتور طه ينشد هذا المقياس في هذه القصيدة أو غيرها من الشعر الجاهلي فلا يجده ، كما يقول في كلامه السابقة .

ثم يقول : فإذا فرغنا من هذا الشعر الذي لا نكاد نختلف في أنه دخيل في القصيدة ، فقد نستطيع أن نرد القصيدة إلى أجزائها الأولى : وهذه الأجزاء هي أولا وقوف الشاعر على الدار وما يتصل بذلك من بكاء وإعوال ، ثم ذكره أمام لهوه مع العذارى ، ثم عتابه لصاحبه وما يتصل بذلك من وصف خليلته ، ثم ذكر الليل ، والاستطراد منه إلى الصيد ، وما يتوصل به إلى الصيد من وصف الفرس ، ثم ذكر البرق ، وما يتبعه من السيل (ص ٢١٥) .

فهل نفهم من هذا الكلام أن صاحبه قد استبعد من هذه المعلقة ، ما شك فيه ، أو ما نقل الشك فيه عن غيره ، ثم سلم بما بقي بعد ذلك ، وهو كثير ، بل أكثر من الكثير ؟ فإن مجموع الأبيات التي تناولتها الكلمات السابقة ثمانية أبيات من مجموع القصيدة الذي يبلغ ستة وثمانين بيتا في رواية أبي زيد في الجهرة ، وبكون ما سلم له من القصيدة ثمانية وسبعين بيتا ، وحينئذ يكون مجال الخلاف ضيقا ، إذ أن دائرته بيننا وبينه لا تتجاوز أربعة أبيات ، منها البيتان :

نرى بحر الآرام في عرصاتها وقيعانها كما أنه حبّ فلعل
كأن في غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل

وقد نسب الشك فيهما إلى بعض القدماء ، والبيتان :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الموم لم يبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أمجازاً وناء بكل كل

وهما البيتان اللذان يرى أنهما قلقان ، وأنها وضعا للدخول على البيت الذي يليهما . أما الأبيات الأربعة « وقربة أقوام . . . » فقد عُرِف أنها لتأبط شرا وليست لامرئ القيس ؛ وقد تنبه لذلك العلماء والرواة من قديم ونهوا إليه ؛ فلا محل للخلاف فيها ؛ ونوافق نحن على استبعادها من المعلقة . وبذلك ينحصر الخلاف في الأبيات الأربعة ، وهو خلاف ضئيل كما قدمنا .

ليت الأمر كان كذلك ؛ إذن لحسم الخلاف ولكن الدكتور يسرع إلى نقضه بعد أن فهم من كلامه الإبقاء على ما يطمأن إليه ، ويرضى عنه ، وهو الباقي من القصيدة الذي تناول الأغراض التي ذكرها — بقوله : ولنسرع القول بأن وصف اللومع العذاري ، وما فيه من فحش ، أشبه بأن يكون من انتحال الفرزدق منه بأن يكون جاهلياً . فالرواة يحدثننا أن الفرزدق خرج في يوم مطير إلى ضاحية البصرة ، فاتبع آثاراً حتى انتهى إلى غدير ، وإذا فيه نساء يستحممن ، فقال : ما أشبه هذا اليوم بيوم دارة جلجل ، وولى منصرفاً ، فصاح النساء به : يا صاحب البغلة ، فعاد إليهن ، فسألته ، وعزمن عليه ليحدثهن . ديث دارة جلجل ، فقص عليهن قصة امرئ القيس ، وأنشدن قوله :

ألا ربّ يوم لك منهنّ صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

قال : والذين يقرءون شعر الفرزدق ويلاحظون فحشه وغلظته ، وأنه قد ليم على هذا الفحش وعلى هذه الغلظة ، لا يحدون مشقة في أن يضيفوا إليه هذه الأبيات ، فهي بشعره أشبه . وكثيراً ما كان القدماء يتحدثون بمثل هذه الأحاديث يضيفونها إلى القدماء ، وهم ينتحلونها من عند أنفسهم . ومهما يكن من شيء

فلغة هذه الأبيات كافة القصيدة كلها عدنانية قرشية ، يمكن أن تصدر عن شاعر إسلامي اتخذ لغة القرآن لغة أدبية^(١) .

فقد نقض هذا القول ماسلف ، وظهر منه أن الكلام السابق لم ينبه الخلاف ، ولم يصل بنا إلى نقطة نلتقي عندها . ومحاولة إثبات انتحال الفرزدق هذا الشعر محاولة ضعيفة ، بل لعلمها أضعف تلك المحاولات ، فقد كان الفرزدق في بيئة إسلامية كثريها الشعر وكثريها الشعراء ، وذاع فيها حديث الجاهليين وشعرهم ، وبرزت أحكام النقاد في تقدير القيم الفنية فيه ، ولم يكن علم الفرزدق بهذا الشعر أوفر من علم غيره به . وكان أخرى بالفرزدق أن ينسب شعر امرئ القيس إلى نفسه لو أراد ، لا أن ينفحل شعره امرأ القيس لغير ما سبب ظاهر أو خفي ؛ ولم يتجه الظن إلى الفرزدق وحده في ذلك الانتحال ؟ فإن القياس لا يمنع أن يكون صانعه أبا تمام ، أو بشاراً ، بل لا يمنع أن يكون صانع هذا البارودي أو غيره من شعراء هذا العصر الحديث ؛ إذا كان المراد مجرد إلصاق هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس إلى أي شاعر غيره . . . فليكن !

ولقد كان للفرزدق خصوم من أنداده نالوا منه — كما نال منهم ، وكان في وسعهم أن يفتنوا إلى مads — على امرئ القيس الذي يعرفون شعره ، وأن يكون ذلك — لوصح — مادة للنيل من الفرزدق وسبباً من أسباب التشهير به .

ثم محاولة تأييد هذا الظن بلامح في شعر الشاعرين ، ومشابه من الفحش في ذكر السوءات ، والنيل من الحصنات في معلقة امرئ القيس ، وفي بعض شعر الفرزدق ، فإن ذلك لا يؤيد هذا الظن فما أكثر من تشابهت أخلاقهم في الفضائل وفي الرذائل ، وفي العمق وفي الفحش ؛ بل في أسلوب التعبير عن المعاني

والأفكار ، وهذا التشابه لا يمكن أن ينهض دليلاً على أن هذا صنع شعر ذاك أو نحله إياه . والذي قد يقبله العقل قد يكون عكس هذا الظن ، فإن المتأخر هو الذى قد يحذو حذو المتقدم ، وقد يسرق معانيه وأفكاره ، وقد كان الفرزدق قوى الذاكرة يحفظ من شعر العرب وأخبارها وأيامها الشيء الكثير ، ضمن كل ذلك شعره الذى كان يزهو فيه بنفسه ويفخر فيه بآبائه وأجداده . ومن خصائص أسلوبه الميل إلى التعرابة ، ومداخلة بعض الكلام فى بعض ، وقد قالوا فيه إنه أحياناً لث اللغة فى شعره ؛ بما استعمل فيه من ألفاظ الجاهليين وأساليبهم ، بعد أن عدل كثير من الشعراء عن غريبها ووحشيتها متأثرين بالإسلام وبأسلوب القرآن الكريم . ولذلك قالوا فى الموازنة بين الفرزدق وجريز : إن الفرزدق ينحت من صخر ، وإن جريزاً يغرف من بحر . وذلك إشارة إلى ما كان يتكلفه الفرزدق فى ألفاظه وأساليبه من التشبه بالجاهليين .

ومثل ذلك يقال فيما حاول صاحب الكتاب من إلصاق بعض شعر المطلقة بعمر بن أبى ربيعة فى قوله : أما وصف امرئ القيس لخليلته ، وزيارته إياها ، وتجشمه ما تجشم للوصول إليها ، وتخوفها الفضيحة حين رآه ، وخروجها معه وتعفيتهما آثارهما بذيل مرطها ، وما كان بينهما من لهو ، فهو أشبه بشعر عمر بن أبى ربيعة منه بأى شيء آخر ، فهذا النحو من القصص الغرامية فى الشعر فن عمر بن أبى ربيعة قد احتكره احتكاراً ولم ينازعه فيه أحد . وقد يكون غريباً حقاً أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن ويتخذ فيه هذا الأسلوب ويعرف عنه هذا النحو ثم يأتى ابن أبى ربيعة فيقلده فيه ، ولا يشير أحد من النقاد إلى أن ابن أبى ربيعة قد تأثر بامرئ القيس ، مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرئ القيس فى طائفة من الشعراء فى أنحاء من الوصف ، فكيف يمكن أن يكون امرؤ القيس هو منشىء هذا الفن من الغزل الذى عاش عليه ابن أبى ربيعة ،

والذى كوّن شخصية ابن أبى ربيعة الشعرية ، ولا يعرف له ذلك ؟

نم يقول : وأنت إذا قرأت قصيدة أو قصيدتين من شعر ابن أبى ربيعة لم تسكد تشك في أن هذا الفن فنه ابتكره ابتكاراً ، واستغله استغلالاً قويا ، وعرفت العرب له هذا . وقل مثل هذا في هذا القصص الغرامى الذى تجده في قصيدة امرئ القيس الأخرى « ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالى » . ففي هذا القصص الفاحش فن ابن أبى ربيعة وروح الفرزدق . ونحن نرجح إذن أن هذا النوع من الغزل إنما أضيف إلى امرئ القيس ، أضافه رواية متأثرون بهذين الشاعرين الإسلاميين^(١) .

وهذا الذى وصف به عمر بن أبى ربيعة صحيح لا شك في صحته ، فهو شاعر الغزل الذى وقف عليه شعره أو أكثر شعره ، ولم يوصف بذلك امرؤ القيس ، وإنما وصف بقدرته على التصرف في فنون الشعر ، وقد عالج هذا الفن ، فن الغزل ، فيما عالج من تلك الفنون ؛ فامرؤ القيس هو الذى سبق إلى هذا الفن في بعض قصائده أو في أجزاء منها . والطبيعة لا تسكذب هذا لحياة امرئ القيس الحرّة التى كان ينتهب فيها اللذات انتهاباً لا تمنع أن يصف ذلك في شعره ، وأن يوجد فيه ذلك القصص الغرامى ، الذى افتتن به ابن أبى ربيعة ، وافتن فيه حتى أصبح إماماً فيه .

والقضية كما سبق معكوسة تماماً ، والذى ينبغي أن يقل هو أن ابن أبى ربيعة اقتدى بامرئ القيس حتى برع في فن الغزل براءة فاق فيها أستاذه ؛ وقد كانت التحريات أحد الفنون التى عالجها شاعران كبيران في الجاهلية هما عمرو بن كلثوم والأعشى ، وشاعر إسلامى هو الأخطل ، وجاء في العمر

(١) في الأدب الجاهلى ٢١٧ .

المباسبى أبونواس ، وهو الشاعر الذى فاق أولئك الفحول فى وصف النحر ومجالسها وصناعاتها وفعلها بشاربيها ، حتى أصبح فى هذه الصنعة إماما ، فهل نستطيع أن نستنتج قياساً على هذا أن شعر عمرو بن كلثوم والأعشى والأخطل فى نعت النحر مصنوع ، وأن الذى صنعه ونحله إليهم هو أبونواس ، أو أحد الرواة الذين عرفوا منهجه فى التعبير عن هذا الفن ، وخصائص شعر النحر عنده ١٩ .

لِمَ هذا الظن ؟ بل لِمَ هذا الإسراف فى الظن ؟ والحجج كما ترى لا يؤيدها منطق فى الطبيعة ، ولا يعضدها سند من رواية ، أو علم عن يقين !! .

لقد كان الأولى أن يوجه أبناءنا الذين نريد لهم الخير ، ونحملهم عليه ، ونعوذهم البحث ، ونعدهم لحل رسالة الأدب والنقد ، على نحو آخر ينبههم إلى تلك الملامح من التشابه فى المصور المختلفة ، وفى أعلام الأدب ومناهجهم ، وفى فنون الأدب التى خلفوها ، ويوقفهم على ماسبق إليه القدماء وما احتداهم فيه اللاحقون حتى يعرفوا الجهود الفنية التى تضافرت على ذلك الفن أو ذلك حتى بلغ مكائته بين الفنون ، ويعرفوا أثر ذاك العصر وأثر الحياة والمعرفة فى تطور الفكرة الأدبية ، وأن نضع أمامهم الحقائق ليدرسوها ، ويصلوا منها إلى التمييز الفنى الصحيح الذى نشده لهم فى الحياة وفى العلم والفن .

ثم اقرأ هذا الكلام ، وأكبر الظن أنك لن تجد فيه الإنكار الذى رأيته ، ولكنك لن تجد فيه أيضاً ، الإثبات إن كنت طالباً له ، يقول الدكتور طه : بقى الوصف ، ولا سيما وصف الفرس والصيد ، ولكننا نقف فيه موقف التردد أيضاً . واللغة هى التى تضطرنا إلى هذا الموقف . فالظاهر أن امرأ القيس كان قد نبغ فى وصف الخيل والصيد والسيول والمطر . والظاهر أنه قد استحدث فى ذلك أشياء كثيرة لم تكن مألوفاً من قبل ، ولكن أقال هذه الأشياء فى هذا

الشعر الذى بين أيدينا ؟ أم قالها فى شعر آخر ضاع وذهب به الزمان ، ولم يبق منه إلا الذكر ، وإلا لجل مقتضبة أخذها الرواة فنظموها فى شعر محدث أنشئوه ولقّوه وأضافوه إلى شاعرنا القديم ؟ هذا مذهبنا الذى نرجحه . فنحن نقبل أن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد وشبه الخيل بالعصى والعقبان التى يرويه الرواة . وأكبر الظن أن هذا الوصف الذى نجده فى المعلقة وفى اللامية الأخرى فيه شيء من ربح امرئ القيس ، ولكن من ربحه ليس غير (ص ٢١٧) .

وإذا تدبرت هذا الكلام فأكبر الظن أنك لن تخرج منه شيء ، بل هو كلام لا يحصل له ، وكأنه يقول « الظاهر أن امرأ القيس كان قد نبغ فى وصف الخيل والصيد والمطر » ويقول : « والظاهر أنه قد استحدث فى ذلك أشياء كثيرة لم تكن مألوقة من قبل » . فمن أين هذا الظاهر الذى وضع أمامه ، ونادى على نفسه بالظهور والوضوح ؟ إنها الكلمات التى ردّها الرواة والإخباريون والتى سبق أن تعمد تكذيبها ، واتهامهم بالوضع والانتحال والتلفيق ، وأولئك الرواة فى هذا المقام هم النقاد الناظرون فى الأدب لم يخترعوا هذا الكلام ، ولم ينشئوا هذه الأفكار والمعانى — التى ذهبوا إلى أن امرأ القيس أول من ابتكرها — من خيالهم ، ولكنهم من غير شك استخلصوها من شعر امرئ القيس نفسه ، ومن معلقته بالذات ، بعد أن سمعوها ، واستقرّوا الشعر الجاهلى الذى عاصر شعرا مرئ القيس أو الذى سبقه ، حتى بان لهم أن تلك المعانى لم يسبق إليها فأصدر واحكمهم بأنه أول من ... وأول من ... الخ

فهذا الشعر الذى هو موضع الشك ، هو ذلك الشعر المشتمل على تلك المعانى التى عُدَّ امرؤ القيس بها سابقاً للشعراء ، وهى المعانى التى لا يتردد الكاتب فى قبولها ، وإن كان يحاول نفي الشعر الذى تضمنها واحتواها ، واستخلصت منه تلك المعانى .

وبعد فهذا جهد بذلناه فى التعقيب على هذا رأى ، كنا فى حاجة إلى بذله

في ناحية أخرى من نواحي هذه الدراسة ، لولا أن صاحب هذا الرأي أستاذ كبير ملاً صيته الآفاق ، وكتبه من الآثار التي يحرص عليها ، وأراؤه لها اعتبارها في نفوس القراء في بلاد العروبة وغيرها . والذين يحملون رسالته من تلاميذه عدد ليس بالقليل ، ثم إن صاحبه كان صاحب أول صوت جهر بهذه الآراء الجريئة التي لفتت الأنظار بفرابتها في عالم الدراسات العربية وفي بيئات التفكير الأدبي . فكان لابد من تناول رأيه والفحص عنه لوثيق صلته بالموضوع الذي هو مادة هذه الدراسة وجوهرها .

ونجتزئ الآن بهذا القدر من الدراسة في توثيق المعلقة وشرح أغراضها ، مدخرين دراستها الفنية ودلالاتها الاجتماعية والتاريخية إلى موضع آخر ، حيث نقرنها بأخواتها ، ونستخلص منها صورة واضحة للشعر الجاهلي .

نص المعلقة*

- | | |
|---|---|
| (١) قَهَّانِيكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ | بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوَّلِ |
| (٢) فَتَوَضَّحَ فَلِمِ قَرَأَ لَمْ يَمْفُ رَسْمُهَا | لَمَّا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالِ |
| (٣) تَرَى بَعَرَ الْأَرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا | وَقِيَعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبٌّ فَلَقُلْ |
| (٤) كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحْمَلُوا | لَدَى سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفٌ حَنْظَلِ |
| (٥) وَقُوفًا بِهَا صَخْبِي عَلَى مَطِيَّهِمْ | يَقُولُونَ لَا تَهْلِكِ أَسَى وَتَجْمَلِ |
| (٦) وَإِنْ شِفَائِي عِبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ | فَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مُعْوَلِ |
| (٧) كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا | وَجَارِئِهَا أُمُّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ |

(*) جملنا لكل بيت من أبيات هذه المعلقة وغيرها رقاً للرجوع إليه فيما يأتي من الفرع والدراسة .

- (٨) إِذَا قَامَتَا تَصَوَّغَ الْمِسْكَ مِنْهُمَا
 (٩) — فِقَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ مَنَى صَبَابَةً
 (١٠) أَلَا رَبُّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٌ
 (١١) وَيَوْمَ عَقَرْتُ لَلْعَذَارَى مَطِيقِي
 (١٢) فَظُلُّ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا
 (١٣) تُدَارُ عَلَيْنَا بِالسَّدِيفِ صِحَافُهَا
 (١٤) وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخِدرَ خِدرَ عُنْزِرَةٍ
 (١٥) تَقُولُ وَقَدْ مَالَ النَّبِيطُ بَنَا مَعًا
 (١٦) فَقُلْتُ لَهَا سِيرِي وَأَرْخِي زِمَامَهُ
 (١٧) دَعِيَ الْبَكْرَ لَا تَرْنِي لَهُ مِنْ رِدَافِنَا
 (١٨) بِشَفْرِ كَنْثِلِ الْأَقْحُوَانِ مُنَوَّرِ
 (١٩) فَتِلْكَ حُبْلَى
 (٢٠)
 (٢١) وَيَوْمَ أَطَى ظَهْرَ الْكَثِيبِ تَعَذَّرْتُ
 (٢٢) أَطَاطِمَ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّ
 (٢٣) أَغْرَكِ مِنِّي أَنْ حُبِّكَ قَاتِلِي
 (٢٤) وَأَنَّكَ قَسَمْتَ الْفُؤَادَ فَنِصْفُهُ
 (٢٥) وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكَ مِنِّي خَلِيقَةٌ
 (٢٦) وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ إِلَّا لَتَضْرِبِي
- نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بَرِيًّا الْقَرْنُفُلِ
 عَلَى التَّخْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِي نَحْمَلِي
 وَلَا سِبَا يَوْمَ بِدَارَةِ جُلْجُلِ
 فَيَا عَجَبًا مِنْ كُورِهَا الْمُتَحَمَّلِ
 وَشَحْمِ كَهْدَابِ الدَّمَقْسِ الْمُفْتَلِ
 وَيُؤْتِي إِلَيْنَا بِالنَّبِيطِ الْمُشْمَلِ
 فَقَالَتْ لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي
 عَقَرْتَ بَعِيرِي يَا امْرَأَ الْقَيْسِ فَاَنْزِلِ
 وَلَا تُبْعِدْنِي مِنْ جَنَّاكَ الْمُعَمَّلِ
 وَهَانِي أَذِيقُنَا جَنَاحَ الْقَرْنُفُلِ
 بَقِيَّ الثَّنَايَا أَشْنَبِ غَيْرِ أَثْمَلِ

 عَلَى وَآلَتِ حَلْفَةٍ لَمْ تَحْمَلِ
 وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَرَمْتَ صَرْمِي فَأَنْجِلِي
 وَأَنَّكَ مِنْهُمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ
 قَتِيلٌ وَنِصْفٌ بِالْحَدِيدِ مُكْبَلِ
 فَسَلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِ
 بِسَهْمَيْكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبِ مُقَتَّلِ

- (٢٧) وَبِيضِهِ خِذِرٌ لَا يُرَامُ خَبَاؤُهَا
(٢٨) تَجَاوَزْتُ أَحْرَاسًا إِلَيْهَا وَمَعْشَرًا
(٢٩) إِذَا مَا الثَّرِيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ
(٣٠) لِحَيْثُ وَقَدْ نَضَتْ لَنَوْمٍ ثِيَابَهَا
(٣١) فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّهِ مَالِكٌ حِيلَةٌ
(٣٢) خَرَجْتُ بِهَا أَمْشِي تَجْرُ وَرَاءَنَا
(٣٣) فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاعَةً الْحَيَّ وَانْتَعَى
(٣٤) هَمَزْتُ بِقَوْدَى رَأْسِهَا فَمَا بَلَتْ
(٣٥) مُهْمَةً بِيضَاهُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ
(٣٦) كَبِكْرُ الْمَقَانَةِ الْبِيضِ بُصْفَرَةٌ
(٣٧) تَصُدُّ وَتُبْدِي مِنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِي
(٣٨) وَجِيدٍ كَجِيدِ الرَّثْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ
(٣٩) وَفَرَعٍ يَزِينُ الْمَقْنَ أَسْوَدَ فَا حِمٍ
(٤٠) غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزَرَاتٌ إِلَى الْعَلَا
(٤١) وَكَشَحٍ لَطِيفٍ كَالْجَدِيدِ مُخَصَّرٍ
(٤٢) وَتَضْجِي فَتَيْتُ الْمِسْكِ فَوْقَ فَرَاثِهَا
(٤٣) وَتَغْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَتْنٍ كَأَنَّهُ
(٤٤) تُضِيهِ الظَّلَامُ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَُا
- تَمَتَّتْ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُفْجَلٍ
عَلَى حِرَاصًا لَوَيْسَرُونَ مَقْتَلِي
تَعَرَّضَ أَثْنَاءِ الْوِشَاحِ الْمَفْصَلِ
لَدَى السَّيْرِ إِلَّا لِبَسَةِ الْمَتَفَصَّلِ
وَمَا إِنْ أَرَى عَنْكَ الْغَوَايَةَ تَنْجَلِي
عَلَى أَثَرَيْنَا ذَيْلٍ مِرْطٍ مُرَحَّلِ
بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ
عَلَى مَضِيمِ الْكَشْحِ رِيًّا الْمُخْلَخَلِ
تَرَأَتْهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ
غَذَاها تَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرُ الْحَلَلِ
بِنَظَرَةٍ مِنْ وَحْشٍ وَجَرَةٍ مُطْفَلِ
إِذَا هِيَ نَصْتُهُ وَلَا بِمُطَلِ
أُنَيْثٍ كَقِنُو النَّخْلَةِ التَّمَشْكِلِ
تَفْصِلُ الْعِقَاصُ فِي مَثْنَى وَمُرْسَلِ
وَسَاقٍ كَأَنْبُوبِ السَّقْيِ الْمَذَلِّ
نُثُومُ الضُّحَالِمِ تَنْتَطِقُ عَنْ تَفْصَلِ
أَسَارِيعُ خَلْبِي أَوْ مَسَاوِيكِ إِنْجَلِ
مَنَارَةٌ مُنْسَى رَاهِبٍ مُتَبَتَّلِ

- (٤٥) إِلَىٰ مِثْلِهَا يَرْتُوءُ الْحَلِيمُ صَبَابَةً
(٤٦) تَسَلَّتْ عَمَائَاتُ الرَّجَالِ عَنِ الصَّبَا
(٤٧) أَلَا رَبُّ خَصِمٍ فِيكَ أَلْوَىٰ رَدَدْتُهُ
(٤٨) وَلَيْلَ كَمُوجِ الْبَحْرِ أَرْخَىٰ سُدُولَهُ
(٤٩) فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَطَأَىٰ بِصُلْبِهِ
(٥٠) أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ الْأَنْجَلُ
(٥١) فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَانَتْ نَجُومُهُ
(٥٢) كَانَتْ الثُّرَيَّا عَلِقَتْ فِي مَصَامِهَا
(٥٣) وَقَرِيبَةً أَقْوَامٍ جَعَلَتْ عِصَاهَا
(٥٤) وَوَادٍ كَجَوْفِ الْعَبْرِ قَفَرٍ قَطَعْتُهُ
(٥٥) فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا عَوَىٰ إِنَّ شَأْنَنَا
(٥٦) كِلَانَا إِذَا مَا نَالَ شَيْئًا أَفَاتَهُ
(٥٧) وَقَدْ اغْتَدَىٰ وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
(٥٨) مِكْرًا مِفْرًا مُّقْبِلٍ مُّذْبِرٍ مَّعًا
(٥٩) كُفَيْتَ يَزِيلُ اللَّبْدُ عَنْ حَالٍ مَّتْنِهِ
(٦٠) عَلَىٰ الذَّبْلِ جَيَّاشٍ كَأَنَّ اهْتِزَامَهُ
(٦١) مَسَحَ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَىٰ الْوَتَى
(٦٢) يَزِيلُ الْعَلَامُ الْخِيفَ عَنْ صَهْوَاتِهِ
- إِذَا مَا اسْتَبَسَّكَ رَتْ بَيْنَ دِرْعٍ وَنَجْوَلٍ
وَلَيْسَ فَوَادِي عَنْ هَوَاكِ بِمُذَلِّ
نَصِيحٍ عَلَىٰ تَعَذَّالِهِ ذَيْرٍ مُّؤَنِّلٍ
عَلَىٰ بِأَنْوَاعِ الْمُهْمُومِ لِيُذَبِّلِي
وَأَرْذَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكُلِّكَ لِكَلِّ
بِصُْبُحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمَثَلِ
بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلِ شَدَّتْ بِمِذْبُلِ
بِأَمْرَاسٍ كَتَّانٍ إِلَىٰ مُمْ جَنْدَلِ
عَلَىٰ كَاهِلٍ مِّنِّي ذُلُولٍ بُرَحْلٍ
بِهِ الذَّبُّ يَعْوِي كَالْخَلِيعِ الْمُعِيلِ
قَلِيلُ الْغِنَىٰ إِنْ كُنْتَ لَمَّا تَمُولُ
وَمِنْ يَخْتَرْتُ حَرْنِي وَحَرْنُكَ يَهْزُلُ
بِمُنْجَدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ
كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عَلِ
كَأَنَّ زَأْتَ الصَّفْوَاهِ بِالْمُتَنَزِّلِ
إِذَا جَاشَ فِيهِ حَمِيهِ غَلَىٰ مِرْجَلِ
أَثَرَنَ الْفَبَارَ بِالسَّكْدِيدِ الْمَرَكَلِ
وَبُلُوبِي بِأَنْوَاعِ الْعَنِيفِ الْمُثْقَلِ

- (٦٣) دَرِيرٍ كَخُذْرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ
(٦٤) لَهُ إِيظَلًا ظَنِيٍّ وَسَاقًا نَعَامَةً
(٦٥) ضَالِيعٍ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ
(٦٦) كَانَ عَلَى الْمُتَمَنِّينِ مِنْهُ إِذَا انْتَجَى
(٦٧) كَانَ دِمَاءُ الْمَادَايَةِ بَنَحْرِهِ
(٦٨) فَعَنْ لَنَا سِرْبٌ كَانَ نِجَاحُهُ
(٦٩) فَأَذْبَرْنَ كَالْجُزْعِ الْمَفْصَلِ بَيْنَهُ
(٧٠) فَالْحَقْنَا بِالْمَادَايَةِ وَدُونَهُ
(٧١) فَعَادَى عِدَاءَهُ بَيْنَ ثَوَرٍ وَنَمِجَةٍ
(٧٢) فَظَلَّ طُهُمَةُ الْأَخْمِ مِنْ بَيْنِ مَنْضُجٍ
(٧٣) وَرُحْنَايَكَادِ الطَّرْفِ يُقَصِّرُ دُونَهُ
(٧٤) فَبَاتَ عَلَيْهِ مَرْجُهُ وَلِجَامُهُ
(٧٥) أَصَاحُ تَرَى بَرْقًا أَرِيكَ وَمِیْضُهُ
(٧٦) يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مِصَابِيحُ رَاهِبٍ
(٧٧) فَعَدْتُ لَهُ وَصُحْبَتِي بَيْنَ ضَارِجٍ
(٧٨) عَلَى قَطَنِ بِالشِّمِّ أَيْمَنُ صَوْبِهِ
(٧٩) فَأَضْحَى يَسُحُّ الْمَاءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ
(٨٠) وَمَرَّ عَلَى الْقَنَانِ مِنْ نَفْيَانِهِ
تَتَابَعُ كَفَيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلٍ
وَأَزْخَاهُ سِرْحَانٍ وَتَقَرِّبُ تَتَقَلُّ
بِضَافٍ فَوْقَ الْأَرْضِ لَيْسَ بِأَغْزَلٍ
مَدَاكَ عَرُوسٍ أَوْ صَلَابَةِ حَنْظَلٍ
عُصَارَةُ حِنَاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَلٍ
عَذَارَى دَوَارٍ فِي مُلَاهُ مُذَيَّلٍ
بِحِمْدٍ مَعِمَّةٍ فِي الْعَشِيرَةِ مُخَوِّلٍ
جَوَاحِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزَيَّلٍ
دِرَاكَا فَلَ يَنْضَخُ بِمَاءٍ فَيُفْسَلِ
صَفِيفَ شَوَاهٍ أَوْ قَدِيرٍ مُعْجَلِ
مَتَى مَا تَرَقَّى الْعَيْنُ فِيهِ تَسْقَلِ
وَبَاتَ بَعِیْنِي قَائِمًا غَيْرَ مُرْصَلِ
كَلَمْعِ الْيَدَيْنِ فِي حَيٍّ مُكَلَّلِ
أَمَالِ السَّلِيطِ بِالذُّبَالِ الْمُفْتَلِ
وَبَيْنَ الْعُذِيبِ بُمْدَ مَا مُتَأَمَّلِي
وَأَبْسَرُهُ عَلَى السَّتَارِ فَيَذُبُلِ
يَكْبُ عَلَى الْأَذْقَانِ دَوَّحَ الْكَتَنِبَلِ
فَانْزَلَ مِنْهُ الْمُصَمَّ مِنْ كُلِّ مَنَزَلِ

- (٨١) وَتَيْمَاهُ لَمْ يَتْرُكْ بِهَا جَذَعَ تَخْلَعُ
 (٨٢) كَانَ ثَمِيرًا فِي عَرَائِينَ وَبَلَهْ
 (٨٣) كَانَ ذَرَارَاسِ الْمُجْتَمِيرِ غُدُوَّةُ
 (٨٤) وَأَلْقَى بِصُخْرَاءِ الْغَبِيْطِ بِمَاعَهُ
 (٨٥) كَانَ مَسْكَكِي الْجَوَاهِ غُدِيَّةُ
 (٨٦) كَانَ السَّبَاعَ فِيهِ غَرَفِي عَشِيَّةُ
 وَلَا أَطْمَأ إِلَّا مَشِيدًا بِجَنْدَلِ
 كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بَحَادٍ مُزْمَلِ
 مِنَ السَّيْلِ وَالْفُتَاهِ فَلَسَكَةُ مِفْزَلِ
 نُزُولِ الْيَمَانِي ذِي الْعِيَابِ الْمُحْمَلِ
 صُبْحَنَ سُلَاقًا مِنْ رَحِيْقٍ مُفْقَلِ
 بِأَرْجَائِهِ الْفُصُوَى أَنَايِشُ غُضْلِ

طرفة

عده ابن سلام رأس الطبقة الرابعة من فحول الجاهليين ، وهم عنده أربعة
 رهط فحول : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وطلحة بن عبدة ،
 وعدى بن زيد . قال ابن سلام : موضعهم مع الأوائل ، وإنما أخل بهم قلة
 شعرهم بأيدي الرواة . وقال : أما طرفة فأشعر الناس واحدة ، وهي قوله :
 لخولة أطلالٌ بيرة شهيدٍ وقفتُ بها أبكي وأبكي إلى الغد^(١)

وتليها أخرى مثلها ، وهي :

أصحوّت اليومَ أمّ شاتك هِرّ ومن الحبّ جنونٌ مستقرّ
 ومن بعده قصائد حسان جِياد^(٢) . . .

ووصفه ابن قتيبة بأنه أجودهم طويلاً ، وهو القائل * لخولة أطلالٌ
 بيرة شهيد * وله بعدها شعر حسن ، وليس عند الرواة من شعره وشعر
 عبيد إلا القليل^(٣) .

(١) هكذا روى ابن سلام عجز البيت ، وفي الرواية المتداولة : تلوح كباقي الوشم في
 ظاهر اليد . (٢) طبقات فحول الشعراء ١١٦ . (٣) الشعر والشعراء ١/١٣٧ .

وتقل عن أبي عبيدة قوله : طرفه أجودهم واحدة ، ولا يلحق بالبحور ،
يعنى امرأ القيس ، وزهيراً ، والناخبة . ولكنه يوضع مع أصحابه : الحارث
ابن حلزة ، وعمر بن كلثوم ، وسويد بن أبي كاهل^(١) .

وسئل ليبد عن أشعر الشعراء ؛ فقال : الملك الضليل « يعنى امرأ القيس »
ثم الغلام القتيل « يعنى طرفه » ثم الشيخ أبو عقيل « يعنى نفسه »
وعند صاحب الخزانة أن طرفه أشعر الشعراء بعد امرئ القيس ، ومرتبته
ثانى مرتبة ، ولهذا ثنى بمعلقته^(٢) .

والذى يبدو من هذه الآراء وغيرها أنهم يعدون طرفه من متقدمى الفحول
بل هو أسبقهم إلى الإجابة فى الفن الشعرى ، والإبداع فيه ، لا يفضلون عليه
فى ذلك إلا شيخ الشعراء امرأ القيس ، ينظرون فى ذلك إلى الخصائص الفنية
التي يجدونها فى معلقة طرفه على نحو يدعو إلى الإعجاب بما يتوافر فيها من سمات
الشاعرية وملاحها . حتى أولئك الذين جعلوه فى الطبقة الرابعة يشعرون أنها
ليست منزلته من حيث الإجابة والإبداع ، وإنما من حيث وفرة النتاج ،
وهو معنى قول ابن سلام عنه وعن فحول طبقة إن « موضعهم مع الأوائل ،
وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة » . والسك عند ابن سلام وغيره أهم
المقاييس التي يقاس بها الشعراء ، ويفضل بعضهم بعضاً ؛ ولذلك قدموا هذا
المعذر الذى يدل على تقديرهم لما وجدوا من شعره ، وهو قليل بالقياس إلى
ما وجدوا من شعر أولئك الذين قدموهم عليه .

* * *

ولا يعرف من أمر نشأة طرفه وحياته إلا القليل ، وليس مصدر ما عرف

(١) الشعر والشعراء ١/١٤٣ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٢/١٨٢ .

من أمر حياته وطبعه ومزاجه كلام الرواة والإخباريين ؛ بل هو شعره الذي ذكر فيه عن هذه الحياة شيئاً ليس بالقليل ، ثم نجد شيئاً عن هذه الحياة في أخبار غيره من الشعراء الذين فصلوا القول فيهم ، وكانت تصلهم بطرفة صلات من النسب أو غيره ؛ وإن كان الرواة قد ذكروا شيئاً عن صلته بعمر بن هند ملك الحيرة وأخيه قابوس ، وقصة طويلة تتصل بنهايته ومصرعه .

وهو طرفة بن العبد بن سفيان بن مالك .. البكري ، أحد فتيان بكر بن وائل ، وبكر من ربيعة ، كان قومه يعيشون في البحرين على الخليج الفارسي . ويبدو من أخباره أنه نشأ في بيئة شاعرة ، فخاله جرير بن عبد المسيح (المتلمس) شاعر ، وعمه ربيعة بن سفيان (المرقش الأصغر) شاعر ، وأخته الخرق شاعرة .

وقد ظهرت ملامح الشاعرية عنده مبكرة شأنه في ذلك شأن الموهوبين الذين يثير شاعريتهم ما يمرّ بهم من الأحداث والمشاهد ، فينطلقون في التعبير عنها في شعر ترى فيه آثار الطبع ، على الرغم مما فيه من آثار البديهة والارتجال . وقد رووا أن أول شعر قاله طرفة أنه خرج مع عمه في سفر ، فنصب فخاً للصيد وأخطأه الأمل أكثر نهاره ، فلما أراد الرحيل جمع شبابه ، فهبطت قبرة لم يستطع صيدها ، فأنشد :

يَالكِ مِنْ قُبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ خِلَالَكِ الْجَوِّ قَبِيضِي وَاصْفِرِي
وَنَقَرِي مَا شَتَّ أَنْ تَدْرِي قَدْ رَحَلَ الصَّيَادُ عَنْكَ فَابْشِرِي
وَرَفَعَ الْفَتْخُ فَمَاذَا تَحْذَرِي لَا بَدْ يَوْمًا أَنْ تَصَادِي قَاصِرِي

وكان أبو طرفة مات ، وطرفة صغير ، فأبى أعمامه أن يقسموا ماله ، فبدت حمية هذا الصبي في أبيات نظمها في الإنكار على أعمامه ما كان منهم من ظلم أمه وردة ، واحتجان تركه صفارها ، وينذر بمغبة هذا الظلم الذي

يفترق بين العشرة ، ويقطع أواصر الرحم ، في عتاب هو أشبه شيء بالهجاء ،
وفي تنبيه هو أشبه شيء بالتهديد :

ما تنظرونَ بِحقِّ وردةٍ فيكمُ صغرَ البنونَ ورَهْطُ وردةٍ غُيِّبُ
قد يبعثُ الأمرَ العظيمَ صغيرُهُ حق تظلُّ له الدماء تصدِّبُ
والظلمُ فرَّق بين حَيٍّ وائلٍ بكرُ تساقبها المنايا تغلبُ
والصدقُ يألُفه الكريمُ المرتجى والكذبُ يألُفه الدنيءُ الأخيبُ
أدوا الحقوقَ تفرِّلُكم أعراضكمُ إنَّ الكريمَ إذا محرَّبُ يغضبُ

وهذه معالم شاعرية ناصجة في مثل هذه السن المبكرة ، مما يجعل هذا
الشاعر أجدر الشعراء أن يلقب النابغة ، لا أولئك الذين عرف الناس شعرهم
بعد أن جاوزوا عصر الشباب ، وبعد أن طال تمرسهم بهذا الفن ، وبعد أن
نضجت ملكاتهم ، واتسعت دائرة تجاربهم في الحياة والفن .

ولم يقف مظهر الشاعرية الناصجة عند هذا الفتى في أمثال تلك الأبيات
القليلة التي تثيرها الأحداث والتجارب القليلة في حياته ؛ بل إنها تتخذ مظهراً
آخر في قدرة هذا الفتى على الشعر ، وقدرته على تمييز جيده من رديئه ، والاهتداء
إلى مواضع الإصابة ، ومواطن الضعف والتهافت ، والشاعر أقدر الناس
على الحكم على هذا الفن ، وهو الذي يعرف أسباب الإجابة فيه ، ومصدق
ذلك ما روى الرزباني عن أبي عبيدة قال : مرَّ السيِّبُ بنَ عَمَسٍ بمجلس بني
قيس ابن ثعلبة ، فاستنشدوه فأنشدهم :

ألا انعم صباحاً أيُّها الربعُ واسلمَ نحْيِيكَ عن شَحْطٍ وإن لم تكلمَ

فلما بلغ قوله :

وقد أتناشى الممَّ عندَ أدِّكارِهِ بناجٍ عليه الصَّيْفِيرَةُ مُكَدَّمِ

كَيْتِ كَنَازِ لِحْمَا خَيْرِيَّةٍ مواشِكَة ترمى الحصى بِمَلَّثَمٍ
كَأَنَّ عَلَى أَنْسَاهَا عَذَقَ خَصْبِيَّةٌ ^(١) تدلّنى من الكافور غير مُكَمِّمٍ

فقال طرفه ، وهو صَبِي يَلْبَس مع الصبيان ، : « استنوق الجبل ^(٢) »
فقال المَسِيبُ : يا غلام ، اذهب إلى أمك بمؤيدة ، أى داهية . فقال طرفه :
لوعاينت فعل أمك خالياً هناك ! فقال المَسِيبُ : من أنت ؟ قال : طرفه
ابن العبد . قال : ما أشبه الليلة بالبارحة . يريد ما أشبه بعضكم في الشر
ببعض ^(٣) .

قال ابن قتيبة : وكان طرفه في حسب من قومه ، جريئاً على هجائهم
وهجاء غيرهم . وكانت أخته عند عبد عمرو بن بشر بن مرثد ، وكان عبد
عمرو سيد أهل زمانه ، فشكت أخت طرفه شيئاً من أمر زوجها إليه ^(٤)
فأشد طرفه يهجوهُ :

لقد علم الأقوامُ أَنَا بنجوة علتُ شرفاً من أن تُضَامَ وتُشْتَمَا
لنا هَضْبَةٌ لَا يَدْخُلُ الذِّلُّ وَسْطَهَا وَيَأْوِي إِلَيْهَا الْمُسْتَجِيرُ فَيُعْصَمَا
تَرَى جَارَنَا فِينَا بِخَيْرٍ وَعِيسَةٍ وَجَارَتَنَا بُسْلًا عَلَى النَّاسِ تَحْرَمَا
وَأَرَعَنَ مِثْلَ اللَّيْلِ تَجَرُّ يَقُودُهُ أَرِيبٌ إِذَا مَا صَوَّرَ الْأَمْرَ أَرْمَا
شَدِيدَ الْقَوَى ضَخَمَ الدَّسِيعَةُ مَقُولٌ أَبَى إِذَا مَا مَمَّ بِالْفَتَكِ أَلْجَمَا

(١) الصيعيرية سمة من سمات النوق في أعناقها ، والمكدم الغليظ أو الصلب ، والكَيْتِ
الذى يخالط حرته قنوه ، وفاقة مواشكة سريعة ، يقال أم البعير الحجارة بخفة يلثمها كسرهما ،
والخصبة النخلة .

(٢) الجبل بالنصب مفعول ، أى جملة كالثاقة ، ويؤيده تفسير الأغاني ، أى وصفت الجبل
بوصف الناقة وخلطت ، وضبط في اللسان بالرفع ، وفسره عن ابن سيده : « استنوق الجبل
صار كالثاقة في ذلها » .

(٣) الموشح في مآخذ المطاوع على الشعراء ٨٦ (المطبعة السلفية — القاهرة ١٣٤٣ هـ) .

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٣٧ .

وردنا وقد هابت معداً شداته وقد رفع الرايات فيها وسوّا
 بطعن يزيل الهام عن سكفاته وطعن إذا ما مارى الجوف أنجما
 فأى خيس لا أفانا نهابةً وأسيافنا يقطرن من كبشه دما
 أبى أنزل الجبار عامل رُحمه وعمى الذى أردى الرئيس المعمّا
 فيا عجباً من عبد عمرو وبغيه لقد رام ظلى عبد عمرو فأنعمّا
 ولا خير فيه غير أن له غفً وأن له كشحا إذا قام أهضما
 يظل نساء الحى يعكفن حوله يقطن عسيبٌ من سرارة ملهّمّا
 له شربتان بالنهار وأربعٌ من الليل حتى آص سُخْداً مورّما
 ويشرب حتى يعمر المحض قلبه^(١) وإن أعطه أترك لقلبي مجنّما

وقد نشأ طرفة مسرفاً على نفسه فى شرب الخمر وانهاب المذات ، شأن
 الذين لا يجدون من يردعهم عن شهواتهم ويكبح جماح نزواتهم ، حتى أدى
 به الأمر ، إلى إتلاف ما كسب وماورث ، ففقد الطارف والتلبد من ماله ، حتى
 تحامته عشيرته ، ونفر منه أولياؤه ، وفى ذلك يقول :

وما زال تشرابى الخمرَ ولدتى ويبيعى وإفناقى طربى ومُتلى
 إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردتُ إفرادَ البعير المعبّد^(٢)

ومن الطبيعى أن تتحامى العشيرة فتى مثل هذا الفتى الذى بدد أمواله وسلط
 لسانه ينال به من أهله وأوليائه ، ولا يكفه عن الكبير والصغير ينال به منهم ؛
 ويصرح بما ينسك من فعلهم ، وينقده حياتهم وفنهم . فكان أن هام على وجهه

(١) الحجر الجيىس العظيم ، الدسيعة العطية الجزيلة ، والشداة القوة ، والكشع المنصر ،
 والأهضم الضامر ، والمسيب : جريدة من النخل مستقيمة ، وسرارة الشىء وسطه ، وملمهم
 موضع باليمامة كثير النخل ، والسخذ ماء الرحم الذى يخرج مع الولد .
 (٢) المعبد الأجرب ، وقيل هو المنهوء الذى سقط وبره فأفرد عن الإبل .

في أحياء العرب وفلوات الصحراء ، وبعد أن كان يعيش في حسب من قومه ، أصبح يخالط الصعاليك وقطاع الطريق ، حتى عرفهم وعرفوه ، وأصبحوا يعدونه واحداً منهم ، وهو لا يجد غضاضة في أن يذكر ذلك في قوله :

رأيت بنى غبراء^(١) لا ينكروننى ولا أهلُ هذاكَ الطَّرافِ المددُ

حتى ترميه الصحراء إلى بلادالين ، ثم يتجاوزها إلى النجاشي في الحبشة . وما كان لهذه النفس الحائرة والروح الثائرة أن تستقر على حال ، أو ترضى بوطن ، أو تطمئن إلى صديق . فيعود إلى أهله خالي الوفاض ؛ ولعلَّ سبل العيش قد ضاقت مذاهبها أمامه ، فلم يجد في مضارب قومه مايقوم بمحاجاته أو يشبع نزواته ، ولم يكن أمامه من أبواب العمل إلا أن يرعى لغيره إبله أو غنمه . ومثل هذا الذي شب على الإسراف وارتياذ اللذات كثير عليه أن يعود إلى وطنه أجيراً لغيره ، فطلب أبواب الملوك لعله يجد عندها مايطمح إليه نفسه وما يرضى هواه ، ولعل خاله المتلمس هو الذي أغراه بذلك وشجعه عليه ، وصحبه إلى بلاط الحيرة ، وملسها يومئذ عمرو بن المنذر .

وقدحكى المفضل بن سلمة في كتابه « الفاخر » أن عمرو بن المنذر كان يرشح أخاه قابوس بن المنذر ليملك بعده ، فقدم عليه المتلمس وطرفة ، فجعلهما في صحابة قابوس وأمرهما بلزومه . وكان قابوس شاباً يعجبه اللهو ، وكان يركب يوما في الصيد ، فيركض ، يتصيد ، وهما معه يركضان ، حتى يرجعا عشية وقد تعبوا ، فيكون قابوس من الغد في الشراب ، فيقفان بباب سرادقه إلى العشي .

وكان قابوس يوماً على الشراب ، فوقفا ببابه النهار كله ، ولم يصلإ إليه ، فضجر طرفة ، وأنشد قصيدة في هجائه ، يقول فيها :

(١) بنو غبراء هم الفقراء أو الصعاليك ، والطراف قبة من آدم يتخذها الميسر والأغنياء ، والمدد الذي مد بالأطناب .

فليت لنا مكانَ الْمَلِكِ عمرو رَغَوْنَا حَوْلَ قَبْتِنَا تَخْوَرُ
 من الزُّمِرَاتِ أُسْبِلَ قَادِمَاهَا وَضَرَّتْهَا مَرْكَنَةٌ نَدُورُ
 بِشَارِكِنَا لَنَا رَخِلَانِ فِيهَا وَتَعْلُوهَا الْكَبَاشُ فَمَا تَنُورُ
 لِعَمْرُكَ إِنَّ قَابُوسَ بْنِ هَنْدٍ لِيَخْلُطُ مُلْكَهُ نُوْكَ كَثِيرُ
 قَسَمَتِ الدَّهْرَ فِي زَمَنِ رَخِي كَذَاكَ الْحَكْمُ يَصِيدُ أَوْ يَجُورُ
 لَنَا يَوْمٌ وَلِلْكَرَوَانِ يَوْمٌ تَطِيرُ الْبَائِسَاتُ وَلَا يَطِيرُ
 فَأَمَّا يَوْمُهُنَّ فَيَوْمٌ سَوَاءٌ تَطَارِدُهُنَّ بِالْحَدَبِ^(١) الصَّقُورُ
 وَأَمَّا يَوْمُنَا فَتَنْظَلُ رَكَبًا وَقُوفًا مَا نَحُلُّ وَمَا نَسِيرُ

وروى يعقوب بن السكيت في شرح ديوان طرفة قال : إن طرفة لما هجا عمرو بن هند بالأبيات المتقدمة لم يسمعها عمرو بن هند ، حتى خرج يوما إلى الصيد ، فأمن في الطلب فانقطع في نفر من أصحابه حتى أصاب طريقه ، فنزل وقال لأصحابه : اجمعوا حطبًا ، وفيهم ابن عم طرفة ، عبد عمرو بن بشر ، فقال لهم : أوقدوا ، فأوقدوا ناراً وشوى ، فبينما عمرو يأكل من شوائه ، وعبد عمرو يقدم إليه ، إذ نظر إلى خصر قيصه منخرقاً فأبصر كشحه ، وكان من أحسن أهل زمانه جسماً ، وقد كان بينه وبين طرفة أمر ، وقع بينهما منه شر ، فهجاه طرفة بأبيات . فقال له عمرو بن هند ، وكان سمع تلك الأبيات : يا عبد عمرو لقد أبصر طرفة حسن كشحك فقال :

(١) الرغوث : النعجة المرضع ، وأصل الحوار للبقر لجملة طرفة للنعجة ، الزمرات القليلات المصوف ، وخصها لأنها أغزر ألباناً ، والقادمان الحلفان ، وأصل القادمين للنافقة لأن لها أربعة أخلاف قادمين وآخرين ، فاستعار القادمين للشاة ، أسبل طال وكل ، الضرة الضرع ، المركنة التي لها أركان أي جوانب وأصل ، الرخل الأنتى من أولاد الضأن ، تنور تنفر ، النوك الحق ، الرخي السهل اللين ، والكروان بكسر فسكون : جم كروان بفتحين ، الحدب بفتحين ما ارتفع من الأرض وغلط .

ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كسحا إذا قام أخضيا

فغضب عبد عمرو مما قاله وأنف ، فقال : لقد قال الملك أقبح من هذا ! قال عمرو : وما الذى قال ؟ فندم عبد عمرو وأبى أن يسمعه ، فقال عمرو بن هند : أسمعني وطرفة آمن . فأسمعه القصيدة التى هجاء بها . فسكت عمرو بن هند على ما قرأ فى نفسه ، وكره أن يعجل عليه لمكان قومه ، فأضرب عنه ، وبلغ ذلك طرفة ، وطلب غرته والاستمکان منه ، حتى آمن طرفة ولم يخف على نفسه ، فظن أنه قد رضى عنه .

وقد كان المتلمس ، وهو جرير بن عبد المسيح ، هجا عمرو بن هند ، وكان قد غضب عليه ، فقدم المتلمس وطرفة على عمرو بن هند ، يتعرضان لفضله ، فمكتب لهما إلى عامله على البحرين وهجر ، وكان عامله فيهما يزعمون ربيعة ابن الحارث العبدى ، وهو الذى كتب إليه فى شأن طرفة والمتلمس ، وقال لهما : انطلقا إليه ، فاقبضا جوائزكما ، فخرجا .

فلما هبطا النجف قال المتلمس لطرفة : إنك غلام فرّ حديث السن ، والملك من قد عرفت حقه وغدره ، وكلانا قد هجاء ؛ فلست آمنا أن يكون قد أمر فينا بشر ، فهلم ننظر فى كتابنا ، فإن يكن أمر لنا بخير مضيئنا فيه ، وإن يكن أمر فينا بغير ذلك لم نهلك أنفسنا . فأبى طرفة أن يفك خاتم الملك ، وحرص المتلمس على طرفة فأبى ، وعدل المتلمس إلى غلام من غلمان الحيرة عبادى ، فأعطاه الصحيفة فقرأها ، فلم يصل إلى ما أمر به فى المتلمس ، حتى جاء غلام بعده فأشرف فى الصحيفة لا يدري من هو ، فقرأها ، فقال ثكلت المتلمس أمه ، فانتزع المتلمس الصحيفة من يد الغلام ، واكتفى بذلك من قوله ، وأتبع طرفة فلم يدركه ، وألقى الصحيفة فى نهر الحيرة ، ثم خرج هاربا . وقد كان المتلمس فيما يقال قال لطرفة حين قرأ كتابه : تعلم أن فى صحيفتك لمثل الذى فى صحيفتى ،

فقال طرفة : إن كان اجترأ عليك ، فما كان ليجترئ على ولا ليغترنى ولا ليقدم على . فلما غلبه سار المتلمس إلى الشام ، وسار طرفة حتى قدم على عامل البحرين وهو بهجر ، فدفع إليه كتاب عمرو بن هند فقرأه ، فقال : هل تعلم ما أمرتُ به فيك ؟ قال نعم ! أمرت أن تجيزنى وتحسن إلى ! فقال لطرقة : إن بينى وبينك لخثولة أنا لها راع ، فاهرب من ليلتك هذه فإنى قد أمرت بقتلك ، فاخرج قبل أن تصبح ويعلم بك الناس ، فقال له طرفة : اشتدت عليك جائزتى ، وأحببت أن أهرب ، وأجعل لعمرو بن هند على سبيلا ، كأنى أذنت ذنبا ، والله لا أفعل ذلك أبداً . فلما أصبح أمر بحبسه ، وجاءت بكر بن وائل فقالت قدم طرفة ، فدعا به صاحب البحرين ، فقرأ عليهم كتاب الملك ؛ ثم أمر بطرفة فحبس ، وتسكروا عن قتله ، وكتب إلى عمرو بن هند أن ابعث إلى عمك ، فإنى غير قاتل الرجل ، فبعث إليه رجلا من بنى تغلب ، يقال له عبد بن هند بن جرذ ، واستعمله على البحرين ، وكان رجلا شجاعاً وأمره بقتل طرفة وقتل ربيعة بن الحارث العبدى ، فقدمها عبد بن هند ، فقرأ عهده على أهل البحرين ، ولبث أياما ، واجتمعت بكر بن وائل فهمت به ، وكان طرفة يحضهم ، وانتدب له رجل من عبد القيس ، ثم رجل من الحواري ، يقال له أبو ريشة ، فقتله ، فقبره اليوم معروف بهجر ^(١) .

قال ابن قتيبة : وكان طرفة ينادى عمرو بن هند ، فأشرفت ذات يوم أخته ، فرأى طرفة ظلها في الجمام الذى فى يده فقال :

ألا يا بَابِي الظُّفِيُّ الـ لَذِي يَزْمِقُ ^(٢) شَنْفَاهُ
ولولا الملكُ القواءُ دُ قَدِ الثَّيِّ فَاهُ

فقد ذلك عليه ، وكان قال أيضاً :

وليت لنا مكانَ الملكِ عمرو رَعُوْنَا حولَ قبْننا تَدُورُ

(١) خزانة الأدب للبغدادى ٢/ ١٨٥ .

(٢) الشنف الذى يلبس فى أعلى الأذن ، والذى فى أسفلها القرط ، وقيل ما سواه .

لعمرُك إنَّ قابوسَ بنَ هَندٍ لِيُخلطُ مَلَكُهُ نُوكُ كَثِيرُ .
وقابوس هو أخو عمرو بن هند ، وكان فيه لين ، وبسْمَى قَيْنَه العُـس ،
فكتب له عمرو بن هند إلى الربيع بن خَوْثَرَة عامله على البحر ين كتاباً أُوهمه
أنه أمر له فيه بِجائزَة ، وكتب للمتلّس بِمثل ذلك .. وأما طَرَفَة ففَضَى بِالكُتاب ،
فأخذَه الربيع فسقاه الخمر حتّى أثلّمه ، ثم فصداً كُله ، فقبره بِالبحرين ، وكان
لطرفَة أخ يُقال له معبد بن العبد ، فطلب بديته ، فأخذها من الحوائر^(١) .

وكان طَرَفَة أحدث الشعراء سَنًا وأقلهم عَمَرًا ، قتل وهو ابن عشرين سنة ،
فيقال له « ابن العشرين » ورُوِيَ أَنه عاش ستاً وعشرين سنة ، واستدلوا على
ذلك بقول أخته في رثائه :

عَدَدُ نَالَه سِتًّا وَعَشْرِينَ حَبَّةً فَلَمَّا تَوَفَّاهَا اسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمًا
فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَّاهُ عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا قَحْصًا

و يُقال إن ذلك كان سنة ٥٥٢ بعد الميلاد ، وقيل ٥٦٤^(٢) وذكر جرجي
زيدان أن وفاة طَرَفَة كانت سنة ٥٠٠ بعد الميلاد^(٣) ، أى أنه في رأيه كان أقدم
من امرئ القيس الذي ذكر أن وفاته كانت سنة ٥٦٠ بعد الميلاد .

قلت : والذي أرجحه من هذه التواريخ الثلاثة هو أقربها ، وهو سنة ٥٦٤ بعد
الميلاد ، وذلك لارتباط قصة مصرعه بِملك عمرو بن هند الذي تبوأ ملك الحيرة
سنة ٥٥٤ م ، فيمتنع أن تكون وفاة طَرَفَة سنة ٥٠٠ كما ذكر جرجي زيدان ،
و يستبعد أن تكون سنة ٥٥٢ كما ذكر الرافعي في إحدى روايتيه ، ولا يُقال إنه
من المحتمل أن يكون ذلك قبل أن يلى عمرو بن هند الملك ، فإن شعر طَرَفَة في
هجائه وهجاء أخيه قابوس يصرح فيه بأن عمرًا كان ملكاً في قوله « فليت
لنا مكان الملك عمرو » .

(١) الشعر والشعراء ١/١٤٢ .

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ٣/٢٣٨ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ١/١٠٧ .

معلقة طرفة :

ذكر بعض الرواة أن السبب الذي حمل طرفة على قولها هو أنه كان لطرفة ولأخيه معبد إبل يريعيانها يوماً ويوماً ، فأغبتها طرفة في المرعى ، فلامه أخوه على فعله ، وقال : أرايت إذا ذهب إبلنا أكننت تردها بشعرك ؟ قال : فإني لأخرج أبداً حتى تعلم أن شعري سيردّها إن أخذت ! وأخذها ناس من مضر .

وقيل بل إن الإبل التي ضلّت هي إبل معبد ، فسأل طرفة ابن عمه مالكاً أن يعينه في طلبها ، فلامه وقال : فرطت فيها ثم أقبلت تتعب في طلبها ، فقال قصيدته . وإذا نحن اجتهدنا في طلب ذلك السبب في أنحاء القصيدة ، والفحص عنه بين أبياتها ؛ فلن نجد على صورة واضحة بارزة بين أبياتها الكثيرة ، إلا في أبيات قليلة منها ، وهي قوله :

فألى أَرَانِي وابنَ عَمِّي مالِكا
مقَى أذنُ منه يُنَا عَمِّي وَيَبْءِدُ
يلومُ وما أدري علامَ يلومُنِي
كلامُنِي في الحَيِّ قُرْطُبْنُ أَعْبَدُ
وَأَيَّاسِنِي من كُلِّ خَيْرٍ طَلَبْتُهُ
كَأَنَّا وَضَعْنَاهُ إلى رَمْسٍ مُلْحَدُ
على غير ذنبٍ قلته غير أني
نشدتُ فلم أغفل حَمُولَةَ مَعْبَدُ

ثم أبيات يختلط فيها العتب بالفخر ، والهجاء بالتهديد ؛ ولا يختص بالإبل التي ضيعها ، وطلب العون على ردّها . وفي هذا ما يحمل على القول بأن هذه القصيدة الطويلة لم تصنع في وقت واحد ، وأن الشاعر قد استكمل لها الخصائص الفنية في روية وتؤدة ، حتى بلغ بها ذلك المبلغ الذي عدت به من غرر الشعر الجاهلي ، وعدت به طرفة من أئمة الشعراء ، وسلكه به النقاد في سلك الفحول المتقدمين من شعراء الجاهلية .

ومن التعسف في الظن الذهاب إلى أن تلك الأبيات الكثيرة التي وصف فيها طرفة الناقة في أوائل المعلقة وثيقة الصلة بذلك السبب ؛ إذ ليس فيها

مباشر إلى تضييع الإبل ، ولوم الشاعر على التفريط في صياتها والتقصير في رعايتها وإهمال طلبها ، وإنما هو وصف قتي خالص لناقته ، ذلك الوصف الذي عدّ به طرفة إماما ، كما عدّ امرؤ القيس في وصف فرسه إماما . ولم يقل أحداً السبب في معلقة امرؤ القيس إرادة التعبير عن صفات ذلك الفرس ، وكذلك لا يقال إن السبب في معلقة طرفة هو وصف الناقة لما قيل من تضييع الإبل ، والتقصير في طلبها .

وقد بدأ طرفة معلقته بذكر الأطلال ، أطلال حبيبته خولة ، ببرقة شهيد ، ووقوف صحبه مطيهم ، ومواساتهم له على نحو ما صنع امرؤ القيس في بيته الذي لم يغير طرفة فيه إلا لفظ القافية . ولم يستغرق ذكر حبيبته وأطلالها أكثر من بيتين ، ثم انتقل إلى وصف مركب خولة فشبهه بالسفينة التي كان يراها كثيراً في موطنه بالبحرين على الخليج الفارسي ، وقد استغرق هذا الوصف ثلاثة أبيات ؛ ولم تشغل المرأة وما يتعلق بها مكاناً ظاهراً في القصيدة على النحو المنصل الذي وجدناه عند امرؤ القيس ، ولعل ذلك يرجع إلى أن طرفة لم يتعلق فؤاده بهواها ، إلى درجة يطغى معها ذكرها على أغراض القصيدة ، ولانكاد نلمس في هذه الأبيات حرارة العاطفة التي تدل على فرط صباغته بخولة وهيامه بها ، ولعل طرفة لم يكن من رجال العشق والغرام ، وإن كان من طلاب المتعة واللهو ، كما يبدو من بعض الأجزاء الأخرى في ثنايا القصيدة ، وهذا ما يدعونا إلى القول بأن ذكر المرأة في مطلع معلقة طرفة كان تقليداً وضعه امرؤ القيس أو من سبقه من الشعراء ، وأن هذا التقليد أعجب الرأي الأدبي في ذلك العصر البعيد ، ولذلك فسح الشعراء في صدور قصائدهم مكاناً للمرأة ، وكأنهم يستلهمون من وحيها ، ويستعينون بذكرها على بلوغ ما يرجون من الغرض الذي يقصدون إليه . وقد كان ذكر ناقة خولة تمهيداً لما يريد أن يذكر من أمر ناقته ، التي وصفها ، وأطنب في وصفها على نحو لم يسبق إليه ، ولم يلحق به بعده أحد الشعراء .

وقد استغرق وصف الناقة ثمانية وعشرين بيتاً من المعاقبة ، تناول فيه كل عضو من أعضائها ، واخترع له تشبيهاً من التشبيهات المادية التي كان يمجدها في بيئته ، أو رآها في المواطن التي زارها في رحلاته التي كانت لاتنقطع . فشبّه عرض عظامها بألواح الإران ، وهو تابوت كان العرب يحملون فيه ساداتهم وكبراءهم ، وشبه طريقها بالكساء المخطط ، وشبهها بالجل في وثاقه الخلق واكتناز اللحم ، وبالنعامة في شدة العدو ، وشبه فخذيها بمصرعى قصر عال ، وفقارها المتداخلة بالقسي ، وعلوها بقنطرة الرومي ، وعنقها إذا رفعته بسكان سفينة تجري في نهر دجلة ، وجهجتها بالعملة في الصلابة فكأنما انضم بعضها إلى حد عظم يشبه المبرد في الحدة والصلابة ، وخدها بقرطاس الشامي ، ومشفرها بسبت المياني ، وعينيها بمرآتين ، إلى غير ذلك من الأوصاف الدقيقة التي تناولت كل عضو من أعضائها ، والتشبيهات المتتابعة بما يعرفه الشاعر في رحلاته أو بما يقع تحت حسّه في بيئته . ثم ذكره خلائقه ومفاخره في البأس والندى وعراقه الأصل ، ووصف نداهم ومجالس لهوه واعترف بعكوفه على اللذات ، وتضييع ماله من طريف وتالد إلى أن تحامته العشيرة وأفرد أفراد البعير المعبود .

ثم ذكر أمانيه في الحياة ، التي لا يحفل إلا بها ، ولا يحرص على الحياة إلا من أجلها . وقرن ذلك بأن الموت لا يبقى ولا يذر ، وأنه يسوّى بين الأجواد والبخلاء ، ويأتى على ماخلف الحريصون من مال ومتاع ؛ وينتهب الأعمار كما ينتهب الأموال .

وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن مالك ابن عمه الذي كان يبعد عنه بتقدير ما يقرب طرفه منه ، حتى يئس من قرابته ، مع أنه لم يقترب ذنباً سوى طلب العون على إعادة إبل أخيه معبد التي ضلت ، ومع أن طرفه وهب حياته وفنوته لقومه إذا أغار عليهم مغير ، أو نال منهم هجاء . ثم يأسف لأن تكون تلك خلائق أهله وعشيرته الذين وصف ظلمهم بأنه أشد وقعا على نفسه من وقع الحسام المهند ،

وأشار إلى سيدين من سادات العرب مذكورين بوفور المال ونجابة الأبناء وشرف النسب ، وهما قيس بن خالد ، وعمرو بن مرثد ، وكان عمرو كثير الولد ، فلما بلغه قول طرفة وجه إليه وقال له : أما الولد فאלله يرزقك ، وأما المال فسنجعلك فيه أسوتنا ، وأمر سبعة من ولده فدفنوا إليه كل واحد منهم عشراً من الإبل ، وأمر ثلاثة من بنى بنيه فدفنوا إليه كل واحد عشراً .

ثم عاد إلى فخره وذكر قوته وفتوته ، وذكر الناقة في مقام عقرها والجود بلحمها ، وذكر أنه جدير بأن يُبكي إذا ما قضى ، وعرض بغيره بمن يرضون بالدون ويحرصون على الحياة ، وأنبغ ذلك بشيء من الحكمة التي تُنفقها من مشاهداته وتجاربه في الحياة .

تلك خلاصة الأغراض التي عالجها طرفة في معلقته . وربما كان موقف الدكتور طه حسين من هذه المعلقة يختلف عن موقفه من معلقة امرئ القيس ، فإنه لا يكاد يشك إلا فيما وصف فيه طرفة الناقة ، ويرى أن أكثر هذه الأوصاف أقرب إلى أن يكون من صنعة العلماء باللغة منه إلى أي شيء آخر . ولا دلائل يقدمه على هذا الشك إلا قوله إنك تقرأ هذه الأبيات فلا تفهم منها شيئاً دون أن تستعين بالمعاجم .

وهذا الدليل لا يقوم بهذا الشك الذي ذهب إليه ، فإن اللغة تسير العصر وروحها ، ولغة الجاهلية والصحراء تختلف عن لغة الإسلام ولغة الحواضر . وليس هذا الشعر وحده ، وليست أبيات طرفة في وصف الناقة وحدها ، هي لا نفهمها إلا بالرجوع إلى معاجم اللغة ، بل إن في شعر الإسلاميين والعباسيين ، بل وفي القرآن الكريم وحديث الرسول بعض ما لا نفهمه دون الرجوع إلى هذه المعاجم . وإن كان ذلك بالطبع يختلف قلة وكثرة بين العصور والرجال .

وإن كانت طبيعة الألفاظ في وصف الناقة تختلف عن طبيعة الألفاظ التي استعملت في غيره ، فليس الاختلاف في رأينا كبيراً . أضف إلى هذا أن لغة الشعر تختلف من غرض إلى غرض ، وفي هذه اللغة الألفاظ الجزلة والتراكيب الرصينة ، وفيها

الألفاظ التي تتميز بسلاستها وعذوبتها ، ولكل منها موضوع ، وما ينهض بفرضه لا ينهض بغيره ، بل إن ذلك الاختلاف قد يوصف بالبلاغة لرعاية المطابقة لمقتضى الحال .
وقد استشهد الدكتور طه على صحة ما ذهب إليه ببعض الأبيات التي تتصل بالخمر والندامى والقينة التي تروح بين الشرب بين برد ومجدد . فرأى في هذه الأبيات ليثا ولسكن في غير ضعف ، وشدة ولسكن في غير عنف ، ورأى كلاما لا هو بالغريب الذي لا يفهم ، ولا هو بالسوقى المبتذل ، ولا هو بالألفاظ التي رصفت رصفا دون أن تدل على شيء . وهى طبيعة الغرض الذي لا يعالج إلا بمثل هذا النوع من الألفاظ ، والشاعر يتفاوت أسلوبه بين قصيدة وأخرى . ويتباين في أجزاء القصيدة الواحدة إذا تباينت أغراضها ؛ فلا ينهض الاختلاف وحده دليلاً على أن الشعر لأكثر من شاعر .

ويعني هنا ما أبرزه من أن شعر المعلقة — عدا ما وصف فيه الناقة — فيه شخصية بارزة قوية ، لا يستطيع من يلحها أن يزعم أنها متكلفة أو منتحلة أو مستعمارة . وهذه الشخصية ظاهرة البداوة واضحة الإلحاد بينة الحزن واليأس والميل إلى الإباحة في قصد واعتدال . هذه الشخصية تمثل رجلاً فكرياً والتمس الخير والهدى فلم يصل إلى شيء ، وهو صادق في يأسه ، صادق في حزنه ، صادق في ميله إلى هذه اللذات التي يؤثرها . ثم يقول : وليست أدري أهذا الشعر قد قاله طرفة أم قاله رجل آخر ؟ وليس يعني أن يكون طرفه قائل هذا الشعر ، بل ليس يعني أن أعرف اسم صاحب هذا الشعر ، وإنما الذى يعني هو أن هذا الشعر صحيح لا تسكف فيه ولا اتحل ، وأن هذا الشعر لا يشبه ما قدمنا في وصف الناقة ، ولا يمكن أن يتصل به ، وأن هذا الشعر النادر الذى نعت به من حين إلى حين في تضاعيف هذا الكلام الكثير الذى يضاف إلى الجاهليين ، فنحس حين نقرؤه أننا نقرأ شعراً حقاً ، فيه قوة وحياة وروح . إلى أن يقول : فأما صاحب القصيدة فيقول الرواة إنه طرفة . وليست أدري أهو طرفة أم غيره ؟ بل لست أدري

أجاهليّ هو أم إسلاميّ ؟ وكل ما أعرفه هو أنه شاعر بدويّ ملحدٌ شاكٌّ^(١) ..
 إن هذا البدويّ الملحد الشاكّ قالت الرواية وقال التاريخ إنه طرفه ، ولم يقل
 أحد إنه شخص سواه ، ولم يستطع الدكتور طه في هذه الكلمات كما رأيت
 أن ينكر أنه طرفه ، ولم يقم الدليل على أنه شخص آخر ؛ فلم هذا الإمعان
 في الإيهام الذي لا يخرج القارئ منه بشيء ، ولا يصل التحقيق العلميّ به إلى غاية
 من الغايات المنشودة من البحث المنطقيّ السليم ؟
 وفيما يلي نصّ معلقة طرفه ، مدّخرين دراسة فنيّتها ودلائلها التاريخية
 والاجتماعية واللغوية إلى مواضعها من هذا البحث .

- (١) لَحَوْلَةٌ أَطْلَلْتُ بِبُرْقَةٍ نَهْمَدِ تَلُوحُ كِبَاقِي الْوُثْمُ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
- (٢) وَقَوْفًا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطْبِعِهِمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَلَّدِ
- (٣) كَانَ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوءَ خَلَايا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ
- (٤) غُدُوءِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنْ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
- (٥) يَشْقُ حَبَابَ الْمَاءِ حَبِزُومَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُغَالُ بِالْيَدِ
- (٦) وَفِي الْحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ الْمَرْدَشَادِنُ مُظَاهِرُ سِنْمَطَى لُؤْلُؤُ وَزَبَرْجَدِ
- (٧) خَذُولُ تُرَاعِي رَبِّرَبًا بِخَمِيلَةٍ تَنَاقُلُ أَطْرَافَ الْبَرِيرِ وَتَرْتَدِي
- (٨) وَتُبْسِمُ عَنْ أَلْمَى كَانَ مُنُورًا تَخْلُلُ حُرَّ الرَّمْلِ دِغْصٌ لَهُ نَدِ
- (٩) سَقَمْتُهُ إِيَاءَ الشَّمْسِ إِلَّا لِمَاتِهِ أَسِفٌ وَلَمْ تَكْدِمِ عَلَيْهِ بِأَيْمِدِ
- (١٠) وَوَجْهٌ كَانَ الشَّمْسُ حَلَّتْ رِدَاءَهَا عَلَيْهِ نَقَى اللَّوْنِ لَمْ يَتَّخَذِ
- (١١) وَإِنْ لَأَمْضَى الْمَهْمُ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بَعَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَقْتَدِي
- (١٢) أُمُونِ كَأَلْوَاكِحِ الْإِرَانِ نَصَاتِهَا عَلَى لَاحِبِ كَأَنَّهُ ظَهَرُ بُرْجَدِ

- (١٣) جُبالِيَّةٌ وَجَنَاءُ تَرْدِي كَأَنَّهَا
(١٤) تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتَبَعَتْ
(١٥) تَرَبَّعَتِ الْفُقَّيْنِ فِي الشُّوْلِ تَرْتَعِي
(١٦) تَرِيحُ إِلَى صَوْتِ الْمُهَيْبِ وَتَتَقَي
(١٧) كَأَنَّ جَنَاحِي مَضْرَحِي تَنَكَنَّفَا
(١٨) فَطَوْرًا بِهِ خَلْفَ الزَّمِيلِ وَتَارَةً
(١٩) لَهَا فُحْدَانٌ أَكْمَلُ النُّخْضِ فِيهِمَا
(٢٠) وَطَى تَحَالٍ كَالْحَنِيِّ خُلُوفُهُ
(٢١) كَأَنَّ كِنَاسِي ضَالَّةٍ يَكْنُفَانِهَا
(٢٢) لَهَا مِرْفَقَانِ أَفْتَلَانِ كَأَنَّهَا
(٢٣) كَقِنطَرَةِ الرُّومِيِّ أَقْسَمَ رَبُّهَا
(٢٤) مُهَابِيَّةُ الْمُتَشَوِّنِ مُوجَدَّةُ الْقَرَا
(٢٥) أُمِرَتْ يَدَاهَا فَتَلَّ شَرْزِرُ وَأُجْنِحَتِ
(٢٦) جَنُوحٌ دِفَاقٌ عِنْدَلُ ثُمَّ أَفْرِغَتْ
(٢٧) كَأَنَّ عُلُوبَ الدَّسَمِ فِي دَأْيَاتِهَا
(٢٨) تَلَاقَى وَأَحْيَانًا تَبِينُ كَأَنَّهَا
(٢٩) وَأَتْلَعُ نَهَاضٌ إِذَا صَعِدَتْ بِهِ
(٣٠) وَجُجْجَمَةٌ مِثْلُ الْعَلَاةِ كَأَنَّمَا
(٣١) وَخَذَتْ كَقِرطَاسِ الشَّامِيِّ وَمِشْفَرٍ
(٣٢) وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَّتَيْنِ اسْتَكَنَّتَا
سَقَنَجَةٌ تَبْرِي لِأَزْعَرَ أَرْبَدِ
وَضِيفًا وَضِيفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعْبِدِ
حَدَائِقِ مَوْلَى الْأَمِيرَةِ أَغْيَدِ
بَذَى خُصَلِ رَوَعَاتِ أَكْلَفِ مُلْبِدِ
حِفَافِيهِ شُكَّا فِي الْعَسِيدِ بِمَسْرِدِ
عَلَى حَشَفٍ كَالشَّنِّ ذَاوٍ مُجَدِّدِ
كَأَنَّهَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدِ
وَأُجْرِنَةٌ لَزَتْ بِدَأْيٍ مُنْضِدِ
وَأَطَرَ قَيْسٍ نَحْتِ صُلْبِ مُؤَبِّدِ
تَمَرُ بِسَلْمَى دَالِجٍ مُنْشَدِّدِ
لِتَكْتَنِفَنَ حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدِ
بَعِيدَةٍ وَخَذِ الرَّجُلِ مَوَارِدَ الْيَدِ
لَهَا عَضْدَاهَا فِي سَقِيفِ مُسَدِّدِ
لَهَا كِتِفَاهَا فِي مُعَالَى مُصْعَدِّ
وَوَارِدُ مَنْ خَلَقَاءَ فِي ظَهْرِ قَرَدِّدِ
بَنَاتُ غُرٍّ فِي قَيْصِ مُقَدِّدِ
كُسُكَّانِ بُوصَى بِدَجَلَةٍ مُضْعَدِ
وَعَى الْمُلْتَقَى مِنْهَا إِلَى حَرْفِ مِبْرَدِ
كَسِبَتْ الْيَمَانِي قَدَّهُ لَمْ يَجْرَدِ
بَكَهْفِي حِجَاجِي صَخْرَةٍ قَلْتِ مَوْرَدِ

- (٣٣) طَحُورَانِ عُوَارَ الْقَذَى فتراهما كمكحولتي مذعورة أم فرقد
- (٣٤) وصادقة تسمع التوجس للشرى لهجس خفي أو لصوت مُدَد
- (٣٥) مؤلّتان تعرف العنق فيهما كسامتي شاة بحومل مفرد
- (٣٦) وأروع نباض أحد ملسم كِرْدَاة صخر في صفيح مصد
- (٣٧) وأعلم مخروث من الأنف مارن تتيق متى ترجم به الأرض تزد
- (٣٨) وإن شئت لم تُرقل وإن شئت أركلت * مخافة ملوى من القدّ محصد
- (٣٩) وإن شئت سامى واسط الكور رأوها * وعامت بضبعها نجاء الخفيد
- (٤٠) على مثلها أمضى إذا قال صاحبي ألا ليتني أفديك منها وأفتدي
- (٤١) وجاشت إليه النفس مخوفاً وخاله مصاباً ولو أمتى على خير مرصد
- (٤٢) إذا القوم قالوا من فتى خلت أنى غيت فلم أكسل ولم أنبلد
- (٤٣) أحلت عليها بالقطيع فأخذمت وقد خب آل الأمعر المتوقد
- (٤٤) فذالت كما ذالت وليدة مجلس ترى ربها أذبال سحل ممّد
- (٤٥) ولست بجلال التلاع مخافة ولكن متى يستزف القوم أزد
- (٤٦) فإن تبغيني في حلقة القوم تذكيني * وإن تلمسني في الحوانيت تصطد
- (٤٧) وإن يلتقى الحى الجميع تلاقني إلى ذروة البيت الرفيع المصد
- (٤٨) ندأ ماى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برود ومجسد
- (٤٩) رحيب قطاب الجيب منها ريقة بحس الندامى بضّة المتجرد
- (٥٠) إذا نحن قلنا أسمعنا انبرت لنا على رسلها مطروقة لم تشدد
- (٥١) إذا رجعت في صوتها خلت صوتها تجاوب أظفار على ربع ردى

- (٥٢) وما زال تَشْرَابِي الحَمُورَ وَلَدَتِي
(٥٣) إِلَى أَنْ تَحَامَنِي العَشِيرَةُ كُلُّهَا
(٥٤) رَأَيْتُ بَنِي غَبْرَاءُ لَا يُنْكِرُونَنِي
(٥٥) لَا أَهْذَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضَرَ الوَغَى
(٥٦) فَبِنْ كُنْتُ لَا نَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي
(٥٧) وَلَوْلَا ثَلَاثُ هُنَّ مِنْ عِدْشَةِ الْفَتَى
(٥٨) فَهِنَّ سَبَقِي الْعَاذِلَاتِ بِشَرِبَةٍ
(٥٩) وَكَرَّمِي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحَنَّبًا
(٦٠) وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالِدَجْنِ مُعْجِبٌ * بِهِ كُنَّةٌ تَحْتَ الْخِلَابِ الْمَعْمَرِ
(٦١) كَانَ الْبَرِّينَ وَالِدَالْبَيْجِ عُلَّتْ
(٦٢) فَذَرَّنِي أَرَوِّى هَامَتِي فِي حَيَاتِهَا
(٦٣) كَرِيمٌ يَرَوِّى نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ
(٦٤) أَرَى قَبْرَ نَحْمَامٍ بِخَيْلٍ بِمَالِهِ
(٦٥) تَرَى جُثُوثَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا
(٦٦) أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَلِي * نَقِيلَةً مَالٍ الْفَاحِشِ الْمُنْشَدِّ
(٦٧) أَرَى الْعَيْشَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ
(٦٨) لَعَمْرُكَ إِنْ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْآتِي
(٦٩) مَتَى مَا بَشَأُ يَوْمًا يَقْدَهُ لِحَتْفِهِ
(٧٠) فَهَالِي أَرَانِي وَابْنَ عَمِّي مَالِ السَّكَا
- وَبَيْنِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتَلَدِّي
وَأَفْرَدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ
وَلَا أَهْلُ هَذَاكَ الطَّرَافِ الْمُدَّدِ
وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ تُخْلِدِي
فَدَغْنِي أُبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي
وَجَدَّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عَوْدِي
كَمَيْتٍ مَتَى مَا تَعْمَلُ بِالمَاءِ تُزِيدِ
كَسِيدِ النِّعْصَا نَبْهَتَهُ الْمُتَوَرِّدِ
(٦٠) * بِهِ كُنَّةٌ تَحْتَ الْخِلَابِ الْمَعْمَرِ
عَلَى عُشْرِ أَوْ خِرْوَعٍ لَمْ يُخْضَدِ
مُخَافَةً شَرِبَ فِي الْحَيَاةِ مُصَرَّدِ
سَتَعْلَمُ إِنْ مُتَنَاعَدًا أَتَيْنَا الصَّدِي
كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسِدِ
صَفَاحُ صُمٍّ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضَدِ
(٦٦) * نَقِيلَةً مَالٍ الْفَاحِشِ الْمُنْشَدِّ
وَمَا تَنْقُصُ الْأَيَّامُ وَالْدَهْرُ يَنْفَدِ
لِكَالطَّوْلِ الْمُرْخَى وَثَنِيَاهُ بِالْيَدِ
وَمَنْ يَكُ فِي حَبْلِ النِّيَّةِ يَنْفَدِ
مَتَى أَدْنُ مِنْهُ يَنْأَعْنِي وَيَبْعُدِ

- (٧١) يَـلُومُ وما أدرى علامَ يَـلُومُنِي
كأَلامِي في الحَيِّ قُرْطُ بنُ أُعْبِدِ
- (٧٢) وَأَيَّاسِنِي من كُلِّ خَيْرٍ طَلِبَتُهُ
كَأَنَّا وَضَعْنَاهُ إِلَى رَمْسٍ مُلْحَدِ
- (٧٣) عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ قَلْتُهُ غَيْرَ أَنَّنِي
نَشَدْتُ فَلَمْ أَغْفِلْ حَوَلَةَ مَعْبِدِ
- (٧٤) وَقَرَّبْتُ بِالْقُرْبَى وَجَدَّكَ إِنَّنِي
مَنْ بَيْكُ أَمْرٍ لِلنَّكِيثَةِ أَشْهَدِ
- (٧٥) وَإِنْ أَدْعُ لَاجِلِي أَكُنْ مِنْ حَمَاتِهَا
وَإِنْ يَأْتِيكَ الْأَعْدَاءُ بِالْجَهْدِ أَجْهَدِ
- (٧٦) وَإِنْ يَقْذِفُوا بِالْقَذَعِ عِرْضَكَ أَسْقِيهِمْ *
بِكَاسِ حِيَاضِ الْمَوْتِ قَبْلَ التَّهْدِيدِ
- (٧٧) بِلَا حَدَثٍ أَحَدْتُهُ وَكَمَحَدَثِ
هَجَانِي وَقَذَنِي بِالشَّكَاةِ وَمُطَرَدِي
- (٧٨) فَلَوْ كَانَ مَوْلَايَ أَمْرًا هُوَ غَيْرُهُ
لَفَرَّجَ كَرْبِي أَوْلَا نَظَرَنِي غَدِي
- (٧٩) وَلَكِنْ مَوْلَايَ أَمْرُهُ هُوَ خَانِقِي
عَلَى الشُّكْرِ وَالنَّسَالِ أَوْ أَنَا مُفْتَدِ
- (٨٠) وَظَلُمْتُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدَّ مَضَاضَةً
عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحَسَامِ الْمَهْنَدِ
- (٨١) فَذَرْنِي وَخُلُقِي إِنَّنِي لَكَ شَاكِرُ
وَلَوْ حُلَّ بَيْتِي نَائِيًا عِنْدَ ضَرْغَدِ
- (٨٢) فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدِ
وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عُثْمَانَ بْنَ مَرْثَدِ
- (٨٣) فَأَصْبَحْتُ ذَامَالٍ كَثِيرٍ وَزَارِنِي
بَنُونَ كَرَامٍ سَادَةٌ لِمَسْوَدِ
- (٨٤) أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ
خَشَّاشُ كُرَاسِ الْحَيَّةِ الْمُنَوَّقِ
- (٨٥) فَأَيَّتُ لَإِيْنُكَ كَشَحِي بِطَانَةٍ
لَمَضْبِرٍ رَفِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ مَهْنَدِ
- (٨٦) حُسَامٍ إِذَا مَاقَتْ مُنْتَصِرًا بِهِ
كُنِيَ الْعَوْدُ مِنْهُ الْبَدَ لَيْسَ بِمُعْضَدِ
- (٨٧) أَخِي ثِقَةٌ لَا يَنْثَنِي عَنْ ضَرِيَّةِ
إِذَا قِيلَ مَهْلًا قَالَ حَاجِزُهُ قَدِي
- (٨٨) إِذَا ابْتَدَرَ الْقَوْمُ السَّلَاحَ وَجَدْتَنِي
مَنْعِيًا إِذَا بَلَّتْ بَقَائُهُ يَدِي
- (٨٩) وَبَرَكَ هُجُودٍ قَدْ أَثَارَتْ مَخَافَتِي
نَوَادِيهَا أُمِّشِي بِمَضْبِرِ مُجَرَّدِ

- (٩٠) فَرَّتْ كَهَاءَ ذَاتٍ خَيفٍ جُلَالَةٍ * عَقِيلَةَ شَيْخٍ كَالْوَبِيلِ يَلْمَنَدُ
(٩١) يَقُولُ وَقَدْ تَرَّ الوَظِيفُ وَسَاقَهَا أَلَسْتَ تَرَى أَنْ قَدْ أَتَيْتَ بِمُؤَيِّدِ
(٩٢) وَقَالَ أَلَا مَاذَا تَرَوْنَ بِشَارِبِ شَدِيدٍ عَلَيْنَا بَغْيُهُ مُتَعَمِّدِ
(٩٣) وَقَالَ ذَرُّوهُ إِنَّمَا نَفْعُهَا لَهُ وَإِلَّا تَسْكُفُوا قَاصِيَ الْبَرَكِ يَزْدَدِ
(٩٤) فَظُلَّ الْإِمَامُ يَمْتَلِنَ حُورَاهَا وَيُسْعَى عَلَيْنَا بِالسَّيْفِ الْمُسْرَهْدِ
(٩٥) فَإِنْ مُتْ فَاثَعَيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشَقَى عَلَى الْجَلِيبِ يَا ابْنَةَ مَعْبَدِ
(٩٦) وَلَا تَجْعَلِينِي كَامِرِيهِ لَيْسَ هَمُّهُ كَهَمِّي وَلَا يُبْنِي غَنَائِي وَمَشْهَدِي
(٩٧) بَطِيءٌ عَنِ الْجَلِيِّ سَرِيعٌ إِلَى الْخَنَاءِ ذَلُولٍ بِأَجَاعِ الرِّجَالِ مُلْهَدِ
(٩٨) فَلَوْ كُنْتُ غَوْلًا فِي الرِّجَالِ لَضَرَنْتِي * عِدَاوَةُ ذِي الْأَصْحَابِ وَالْمُتَوَحِّدِ
(٩٩) وَلَكِنْ نَفَى عَنِّي الرِّجَالُ جَرَاءَتِي عَلَيْهِمْ وَإِقْدَامِي وَصِدْفِي وَنَحْتَدِي
(١٠٠) لَعَمْرُكَ مَا أَمْرِي عَلَى بَغْيَةٍ نَهَارِي وَلَا لَيْلِي عَلَى بَسْرَمَدِ
(١٠١) وَيَوْمَ حَبَسْتُ النَّفْسَ عِنْدَ عِرَاكِهِ * حِفَظًا عَلَى عَوْرَاتِهِ وَالتَّهْدِيدِ
(١٠٢) عَلَى مَوْطِنٍ يَخْشَى الْفَتَى عِنْدَهُ الرَّدَى * مَتَى تَعْتَرِكُ فِيهِ الْفَرَاثِصُ تُرْعَدِ
(١٠٣) وَأَصْفَرَ مَضْبُوحَ نَظَرَتْ حِوَارُهُ عَلَى النَّارِ وَاسْتَوْدَعَتْهُ كَفَّ مُجْمَدِ
(١٠٤) أَرَى الْمَوْتَ أَعْدَادَ النَّفُوسِ وَلَا أَرَى * بَعِيدًا غَدًا مَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ غَدِ
(١٠٥) سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ
(١٠٦) وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبِيعْ لَهُ بَتَاتًا وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ
(١٠٧) لَعَمْرُكَ مَا الْأَيَّامُ إِلَّا مُعَارَةٌ فَمَا اسْطَغَمْتَ مِنْ مَعْرُوفِهَا فَتَزَوِّدِ
(١٠٨) عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَأَبْصِرْ قَرِيبَهُ فَإِنَّ الْقَرِينَ بِالْمُقَارِنِ مُقْتَدِ

زهير

من فحول الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية عند ابن سلام ، ووضعه مع امرئ القيس ، ونابغة بنى ذبيان ، والأعشى ميمون بن قيس . وروى ابن سلام عن يونس بن حبيب أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس بن حجر ، وأهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأن أهل الحجاز يقدمون زهيراً . قال : وأخبرني يونس كالمعجب أن ابن أبي إسحق كان يقول : أشعر أهل الجاهلية مرقش ، وأشعر أهل الإسلام كثير . ولم يقبل هذا القول ولم يشع^(١) .

وذكر أبو عبيدة عن الشعبي يرفعه إلى عبد الله بن عباس ، قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه في سفر ، فبينما نحن نسير قال : ألا تاملون ؟ أنت يا فلان زميل فلان ، وأنت يا فلان زميل فلان ، وأنت يا ابن عباس زميلي . وكان لى محباً مقرباً ، وكان كثير من الناس ينفسون على لمكانى منه ، قال : فسأيرته ساعة ثم ثنى رجله على رجله ، ورفع عقيرته ينشد :

وما حملت من ناقةٍ فوق رحلها أبرّ وأوفى ذمة من محمد

ثم وضع السوط على رحله ، ثم قال : أستغفر الله العظيم ، ثم عاد فأنشد حتى فرغ . ثم قال : يا ابن عباس ألا تنشدنى لشاعر الشعراء ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ومن شاعر الشعراء ؟ قال : زهير . قلت : لم صيرته شاعر الشعراء ؟ قال : لأنه لا يعاقل بين الكلامين ، ولا يتتبع وحشى الكلام ، ولا يمدح أحداً بغير مافيه — والمعاظلة أن يردد الكلام فى القافية بمعنى واحد^(٢) — قال أبو عبيدة :

(١) انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٤٣ — ٤٤ .

(٢) المعاظلة والعتال والتعاقل التراكب والنشوب . وانظر كتابنا (البيان العربى) ص ٢٩٧ وكتابنا (قدامة بن جعفر والنقد الأدبى) ص ١٨٣ لتقف على معناها عند التقاد وأهل البيان .

صدق أمير المؤمنين ، ولشعره ديباجة إن شئت قلت شهد إن مسسته ذاب ، وإن شئت قلت صخر لوردت به الجبال لأزالها . . . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه جالساً في أصحابه يتذاكرون الشعر والشعراء ، فيقول بعضهم : فلان أشعر ، ويقول آخر : بل فلان أشعر ، فقيل ابن عباس بالباب ، فقال عمر رضى الله عنه : قد أتى من يحدث عن أشعر الناس ، فلما سلم وجلس ، قال له عمر : يا ابن عباس من أشعر الناس ؟ قال : زهير يا أمير المؤمنين ! قال عمر : ولم ذلك ؟ قال ابن عباس : لقوله يمدح هرمًا وقومه بنى مُرَّة :

لو كان يقعدُ فوق الشمس من كرمٍ قومٌ بأولهم أو مجدم قعدوا
قومٌ أبوم سينانٍ حين تنسبهم ظابوا وطابَ من الأولاد من ولدوا
حين إذا فزعوا إنسٌ إذا أمنوا مرزءونَ بهاليلٍ إذا جهدوا
محسدون على ما كان من نعيم لا ينزعُ الله عنهم مابه حُسدوا

قال عمر : صدقت يا ابن عباس ^(١) . وعن ابن سلام : أخبرني عمر بن موسى الجمحي عن أخيه قدامة بن موسى ، وكان من علماء أهل المدينة ، أنه كان يقدم زهيراً ، قلنا : فأى شعره كان أعجب إليه ؟ قال : التي يقول فيها :

قد جعلَ المبتغونَ الخيرَ في هَرَمٍ والسائلونَ إلى أبوابه طُرُقاً
مَنْ يلقَى يوماً على عِلَّاته هَرَمًا يلقى السَّماحة منه والندى خُلُقاً
وقال أهل النظر : كان زهير أحصفهم شعراً ، وأبعدهم من سُخْفٍ ،
وأجهمهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، وأشدَّهم مبالغة في المدح ،
وأكثرهم أمثالا في شعره .

وحدث عن عكرمة بن جرير ، قال : قلت لأبي : يا أبة من أشعر الناس ؟

(١) انظر جهرة أشعار العرب لأبي زيد ٣٢ .

قال : أعن أهل الجاهلية نسأني أم أهل الإسلام ؟ قلت : ما أردت إلا الإسلام ،
فإذ ذكرت الجاهلية فأخبرني عن أهلها . قال : زهير شاعرهم . قال : قلت :
فالإسلام ؟ قال : الفرزدق نبعة الشعر ، قلت : فالأخطال ؟ قال : يجيد مدح
الملوك ، ويصيب صفة الخمر ، قلت : فما تركت لنفسك ؟ قال : دغني فإني نمحرت
الشعر نمحراً^(١) .

والحديث عن شاعرية زهير يطول ؛ والآراء في تقديرها وتفضيلها كثيرة .
في مختلف العصور وعند أكثر النقاد ، ومع هذه الوفرة في الأحاديث المأثورة
عن شعر زهير ، والأحكام النقدية المختلفة فيه ، والموازنة بين نتاجه ونتاج غيره
من الشعراء الجاهليين أو الإسلاميين أو غيرهم . فإن الحقائق التاريخية عن هذا
الشاعر قليلة . وأنت إذا رجعت إلى كتب الأدب والتاريخ فإنك لن تجد فيها
من تلك الحقائق ما يرسم صورة مفصلة عن حياته الطويلة التي يعدّ بطولها من
المعمرين ، وإن كنت تجد حديثاً لا بأس به عن معلقته وظروفها التاريخية
والأحداث التي عبر زهير عنها فيها .

وقد ذكر ابن سلام نسب زهير : زهير بن أبي سُلمى — واسم أبي سُلمى
ربيعة — بن رياح بن قُرْط بن الحارث بن مازن بن ثعلبة بن ثور بن هذيمة
بن لاطم بن عثمان بن مُزَيْنَة (ص ٤٣) .

أما ابن قتيبة فيقول في إحدى ترجمتيه^(٢) : هو زهير بن ربيعة بن قُرْط ،
والناس ينسبونه إلى مُزَيْنَة ، وإنما نسبه في غَطَفَان . وليس لهم بيت شعر ينتمون
فيه إلى مُزَيْنَة إلا بيت كعب بن زهير ، وهو قوله :

همُ الأصلُ مِنِّي حيثُ كنتُ وإِثني من المزيّنين المصنّفين بالكرمِ .

(١) انظر طبقات خول الشعراء لابن سلام ٥٤ .

(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٨٦/١ .

وقال في ترجمته الأخرى (١ / ٩٠) : هو زهير بن أبي سُلمى ، واسم أبي سُلمى ربيعة ، بن رياح المُرَني ، من مزينة مضر ، وكان زهير جاهلياً لم يدرك الإسلام ، وأدركه ابنه كعب وزهير .

ففي الرواية الأولى ترى شكه في نسبته إلى مزينة ، على حين يؤيد تلك النسبة في الترجمة الأخرى . وفي هذا ما يدل على عدوله عن شكه الأول ؛ بما اطمأن إليه بعد السؤال من العارفين بالأنساب . وبذلك يزول ذلك الشك في نسبة زهير إلى مزينة . وقد علق على الشك الأول البغدادى صاحب خزنة الأدب بقوله في ترجمة زهير : وزهير هو زهير بن أبي سُلمى ربيعة بن رياح المزني ، من مزينة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ، وكانت محلاتهم في بلاد غطفان ، فيظن الناس أنه من غطفان ، أعني زهيراً ، وهو غلط ، كذا في الاستيعاب لابن عبد البر ، وكان هذا رد لما قاله ابن قتيبة في كتاب الشعراء ، فإنه قال : زهير هو ابن ربيعة بن قرط ، والناس ينسبونه إلى مزينة ، وإنما نسبه في غطفان . وسُلمى بضم السين ، قال في الصحاح : ليس في العرب سُلمى بالضم غيره ^(١) .

كان زهير وقومه يقيمون في بلاد غطفان ، وكان زهير من بيت كثير شعراؤه ، فكان «بشامة بن الغدير» خال أبيه شاعراً ، وكان أحزم الناس رأياً ، فكانت غطفان إذا أرادوا أن يغزوا أتوه فاستشاروه ، وصدروا عن رأيه ، فإذا رجعوا قسموا له مثل ما يقسمون لأفضلهم ، فمن أجل ذلك كثر ماله ، فلما حضره الموت جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين بنى إخوته ، فأتاه زهير ، فقال : يا أخاه ، لو قسمت لى من مالك ؟ فقال . والله يا ابن أختي . لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله ، قال : وما هو ؟ قال : شعري ورثتيه ! وكان زهير قبل ذلك قال الشعر وكان أول ما قاله . فقال له زهير : الشعر شيء لا ما قلته ، فكيف نعتد به على ؟ فقال له بشامة : ومن أين جئت بهذا الشعر ؟ لعلك ترى أنك جئت به من

مزينة ؟ وقد علمت أن حصاتها وعين مائها في الشعر لهذا الحى من غطفان ،
ثم لى منهم ، وقد رويته عنى ا .

ويتحدث الرواة أن زهيراً كان رواية « لأوس بن حجر » ، وهو زوج
أمه ، وكان يصطنع مذهبه فى تمثيل مظاهر البرية العربية فيما يتناول الشعر من
التشبيه والوصف .

وكان أبوه « أبو سلمى » أيضاً شاعراً . وهو القائل فى خاله أسعد المرئى ،
وهو أسعد بن الغدير ، وابنه كعب بن أسعد ، وكان حمل أمه وفارقهما :

لَتَضَرَقَنَّ إِبِلٌ مَّحَبَّةً مِنْ عِنْدِ أَسْعَدَ وَابْنِهِ كَعْبُ
الْأَكْلَيْنِ صَرِيحٌ قَوْمَهُمَا أَكَلَ الْحُبَارَى بُرْعُمُ^(١) الرُّطْبِ

وكانت أخته « سلمى » شاعرة وكان ابناء « كعب » و « بحير » شاعرين ، وأنى
بحير النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم ، فكتب اليه كعب أبياتا يعاتبه فيها على ما كان
من إسلامه ، فبلغ ذلك النبى فتوعده ونذر دمه ، فكتب بحير إلى كعب يخبره
أن الرسول قتل رجلا ممن كان يهجوهم « فإذا كانت لك فى نفسك حاجة
فاقدم عليه ، فإنه لا يقتل أحداً أتاه تائباً ، وإن أنت لم تفعل فأنج بنفسك »
فلما ورد الكتاب ضاقت عليه الأرض برحبها ، وأرجف به من كان بمحضرتة
من عدوه ، فقال قصيدته التى أولها :

بانت سعادٌ فقلبى اليوم مَتَّبُولٌ مُتَيَّمٌ لِمَثَرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولٌ
وفىها يقول :

نَبَّشْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده فى يده ، وأنشد شعره ،
فقبل توبته وعفا عنه ، وكساه برداً ، فاشتراه منه معاوية بعشرين ألف درهم .

(١) الحبارى طائر ، والبرعم كم نمر الشجر والنور .

وكان لسكعب ابن يقال له «عقبة بن كعب» شاعر ، ولقبه «المضرب» وذلك أنه شُبَّ بامرأة من بنى أسد ، فضر به أخوها مائة ضربة فلم يمِت ، فسُمِّي «المضرب» . وولد لعقبة «العوام» ، وهو شاعر . فهؤلاء خمسة شعراء فى نسق : العوام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبى سلمى . ولذلك كان يقال إنه لم يتصل الشعر فى ولد أحد من الفحول فى الجاهلية ما اتصل فى ولد زهير ، وفى الإسلام ما اتصل فى ولد جرير .

ويبدو من أخبار زهير أنه كان رجلاً عَفَّ القلب واللسان ، ولذلك أحبَّه قومه ، وتقرب إليه السادة بالهدايا والألطف ، وقد ذكر البغدادى فى خزائن الأدب (١١ / ٢) فى ترجمة سالم بن دارة أن اسمه سالم بن مسافع بن عقبة .. بن عبد الله غطفان ، وأن دارة أمه ، وكانت أخيدة أصابها زيد الخيل من بعض غطفان وهى حبلى وهى من بنى أسد ، فوهبها زيد الخيل لزهير بن أبى سلمى ، فربما نسب سالم بن دارة إلى زيد الخيل .

كما كان زهير إنساناً يعترف بالجيل لمن أولاه ولا ينسى يداً أسداها إليه إنساناً ، وكان يهود على غيره ، كما يجاد عليه ، ويهدى كما يهدى إليه . وآية ذلك ما رواه أبو عمرو بن العلاء قال : خرج بجير بن زهير بن أبى سلمى فى غلة يمتنون جنى الأرض ؛ فانطلق الغلة ، وتركوا ابن زهير ، فرَّ به زيد الخيل الطائى فأخذه ، ودار طيء متاخة لدور بنى عبد الله بن غطفان ، فسأل الغلام من أنت ؟ قال : أنا بجير بن زهير ، فحمله على ناقه ، وأرسل به إلى أبيه ، فلما أتى الغلام أباه أخبره أن زيداً أخذه وحمله . وكان لسكعب بن زهير فرس من جباد خيل العرب . فقال زهير ما أدرى ما أثيب به زيداً إلا فرس كعب ، فأرسل به إليه وكعب غائب ، فلما جاء كعب سأل عن الفرس ، فقيل له : قد أرسل به أبوك إلى زيد . فقال كعب لأبيه : كأنك أردت أن تقوى زيداً على قتال

غطفان ! فقال له زهير : هذه إبلى فخذ منها عن فرسك ماشئت^(١) .

وذلك الشعور لا شك شعور رجل من السادة يعرف لنفسه كرامتها ، ويعرف موضعه من سادة عشيرته وصفوة صحابته ؛ وليس شعور رجل يتطلع إلى ما في أيدي الناس ، ويقف فيهم موقف المستجدي بشعره من الذين يأخذون كل شيء ولا يمتطون شيئاً ، ويتخذون من فئهم سبيلاً لإشباع أطماعهم التي لا تنتهي .

ولذلك كان من الإسراف أن يعدّ مثل هذا الشاعر الكريم الأبى في المتكسبين بشعرهم ، فقد عرفنا أولئك المتكسبين يمدحون ويفرقون في الفناء لمن مدّ إليهم يده بالعطاء ، في الوقت الذي يهجون فيه ويسرفون في الحقد على من ضنّ عليهم بالنوال ، وحرّمهم من العطاء . ولكن زهيراً يختلف عن أولئك كل الاختلاف ، فهو يمدح أفعالاً ويمجّد أعمالاً ، ويثني على رجال استحقوا المديح بما تمثل فيهم من مثل رفيعة ، يمجدها هذا الشاعر الأبى بفنه الرفيع وبنفسه الشاعرة ، وينشدها لبيثته ، ولا عليه بعد ذلك أن يترادف عليه العطاء ، أو تترادف الهدايا تقديراً لذلك الرجل الذي خلد تلك المثل وأشاد بها ورفع مزارتها في ذلك العالم الذي طحنته النائبات ، وشملته الفوضى وفارقه الأمن والاستقرار .

وغالب هذا المديح في رجل من أجواد العرب الذين عمّ فضاهم قومهم ، واتخذوا من ماله وسيلة لتسكين الفتنة ، ونشر ألوية المحبة والسلام في البيئة التي عاشوا فيها ، وكان مثل هرم بن سنان جديراً بالثناء من مثل هذا الشاعر الذي يفسد المحبة والسلام ، ويمقت الحرب والخصام أشد المقت ، مما سيظهر أثره واضحاً في معلقته كما سيأتى . ومن شعر زهير في هرم قصيدته التي مطلعها هـ صحا القلبُ

(١) ذيل الأمال والنوادر للقالى ص ٢٤ (مطبعة دار الكتب المصرية — القاهرة

١٩٢٦ م) .

عن سلمى وقد كاد لا يسألوه . قال صاحب الأغاني : هذه القصيدة أول قصيدة مدح بها زهير هرماً ، ثم تتابع بعده . وكان هرم حلف ألا يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه : عبداً ، أو وليدة ، أو فرساً . فاستحيا زهير منه . فكان زهير إذا رآه في ملا قال : أنعموا صباحاً غير هرم ، وخيركم استثنيت !

وقال عمر بن الخطاب لبعض ولد هرم : أنشدني بعض مدح زهير أباك ، فأنشده ، فقال عمر : إنه كان ليحسن فيكم المدح ، قال : ونحن والله كنا نحسن له العطية . قال عمر : قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم ! وفي رواية عمر بن شبة قال عمر لابن زهير : ما فعلت الحلل التي كساها هرم أباك ؟ قال : أبلاها الدهر . قال عمر : لسكن الحلل التي كساها أبوك هرماً لم يبلها الدهر !

ومن أخبار زهير ما روى أنه رأى في منامه في أواخر عمره أن آتيا آتاه فحملاه إلى السماء حتى كاد يمتسها بيده ، ثم تركه فهوى إلى الأرض ، فلما احتضر قص رؤياه على ولده كعب ، ثم قال : إن لا أشك أنه كائن من خبر السماء بعدى ، فإن كان فتمسكوا به وسارعوا إليه ، ثم توفى قبل المبعث بسنة ، فلما بعث صلى الله عليه وسلم خرج إليه ولده كعب بقصيدته « بانت سعاد » وأسلم . وروى أيضاً أن زهيراً رأى في منامه أن سببا تدلى من السماء إلى الأرض ، كأن الناس يمسكونه ، وكلما أراد أن يمسكه تقلص عنه ، فأوتله بنبي آخر الزمان ، فإنه واسطة بين الله وبين الناس ، وأن مدته لا تصل إلى زمن مبعثه ، وأوصى بنيه أن يؤمنوا به عند ظهوره (خزانة الأدب ٢ / ١٣٠) .

أما شعر زهير فقد أسلفنا بعض الآراء فيه من المشهود لهم بالدراية والبصر بالأدب ، الذين لا يختلفون في وضعه مع أوائل الفحول المقدمين عندهم ، وإن

اختلفوا في جعله أولا . وقد اجتمعت في شعر زهير الصفات التي يتطلبها النقاد لتقديم العمل الأدبي وتقديم صاحبه على غيره من الأدباء . فالذين يحكمون على الشاعر بمدى قدرته على التصرف في فنون الشعر والإفادة في أكثرها يجدون أثر هذا في المأثور من شعر زهير ، الذي مدح فيه وهجا ، فأصاب المدح كما أصاب الهجو والتهكم والازدراء ، ووصف فأجاد الوصف ، وأودعه من ضروب الحكمة مالا يزال معناه يدور في الأذهان ، وألفاظه تجري على اللسان . وقد كان زهير أستاذ الخطيئة ، وسئل عنه الخطيئة فقال : ما رأيت مثله في تكفييه على أكناف القوافي ، وأخذه بأعنتها حيث شاء ، من اختلاف معانيها امتداحاً وذمّاً .

والذين يبحثون عن كثرة الأعمال الأدبية ، ووفرة النتاج ، وطول النفس في العمل الأدبي الواحد ، لن يخطئوا ذلك في المأثور من شعر زهير ، ففي ديوانه كثير من القصائد الطوال ، أولها معلقته المشهورة وعدد أبياتها ثلاثة وستون بيتاً . ومن شعره قصيدته التي أولها :

سَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلَمَى وَقَدْ كَادَ لَا يَسْلُو وَأَقْفَرُ مِنْ سَلَمَى التَّعَانِيقِ وَالنَّقْلِ

التي مدح بها هرم بن سنان ، وعدد أبياتها في شرح الأعلام الستمرى ثلاثة وأربعون بيتاً^(١) : ومنها قصيدته التي مطلعها :

سَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلَمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ وَعُرِّيْ أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَاحِلُهُ

وعدد أبياتها سبعة وأربعون بيتاً . ثم قصيدته التي أولها :

إِنَّ الْخَلِيطَ أَجْدَّ الْبَيْنَ فَانْفَرَقَا وَعَلَّقَ الْقَلْبُ مِنْ أَسْمَاءَ مَا عَلِقَا

وهي في ديوانه ثلاثة وثلاثون بيتاً ثم قصيدته :

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى للأعلام الستمرى ١٥ (طبعة التجارية —

بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا وزودوك اشتياقا أية سلكوا
 وهى التى قالها حينما أغار الحارث بن ورقاء على بنى عبد الله بن غطفان وأخذ
 إبل زهير وراعيه يساراً ، وهى كسابقتها ثلاثة وثلاثون بيتاً . وقصيدته التى أولها :
 رَفَّ بِالْأَبَارِ التَّى لَمْ يَعْقُهَا الْقَدَمُ بَلَى وَغَيْرَهَا الْأَرْوَاحُ وَالْدَّيْمُ
 وعدد أبياتها سبعة وثلاثون بيتاً . وغير ذلك من قصائده الكثيرة التى
 تنفّات فى عدد أبياتها مع اتساق الجودة وحسن السبك وقوة المعانى ، فى كل
 بيت فكرة ، من غير ترديد ، وترى القصيدة وقد اتحدت معانيها وأفرغت
 فى قالب واحد ، لا تجد فيه ما قد تجد فى غيره من النفات ، أو الثغرات التى
 تكون سمة من سمات الارتجال والبديهة . لأنك واحد فى شعر زهير الإتقان
 الفنى الذى ترى فيه الوحدة وتتابع الأفكار فى تناسق وانسجام .

وفى ذلك ما يدل على عناية زهير بشعره ، وحرصه على عدم إذاعته فى الناس
 إلا بعد تنقيحه وتهذيبه ، ليبدو فى الإطار الذى يرتضيه مثل هذا الشاعر المجيد
 لفته الذى عرف به بين الناس .

وقد روى أن زهيراً كان ينظم القصيدة فى شهر ، وينقحها ويهذبها فى سنة ،
 وكانت تسمى قصائده (حَوَلِيَّاتِ زَهْرٍ) وقد أشار إلى هذا البهاء زهير فى قوله
 من قصيدة :

هَذَا زَهْرُكَ لَا زَهْرُ مُزَيْنَةٍ وَأَفَاكَ لَا هَرِمًا عَلَى عِلَاتِهِ
 دَعَاهُ وَحَوْلِيَّاتِهِ ثُمَّ اسْتَمِعْ لَزَهْرِ عَصْرِكَ حُسْنَ أَيْلِيَّاتِهِ

والمعجب أن بعض الرواة يسم هذا التنقيح والتهذيب بالتكاف . ومن
 هؤلاء ابن قتيبة الذى يقسم الشعراء إلى متكافين ومطبوعين ، ويصف المتكاف
 منهم بأنه هو الذى يقوم شعره بالثقاف ، وينقحه بطول التفطيش ، ويعيد فيه

النظر بعد النظر . ويمثل ابن قتيبة للمتكلفين من الشعراء بزهير والخطيئة وأشباههما . وينقل قول الأصمى : زهير والخطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر ، لأنهم تقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . والمطبوع من الشعراء عند ابن قتيبة هو من سمح بالشعر واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فائمه قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الفريزة ، وإذا امتحن لم يتلغم ولم يتزحر^(١) .

ويؤخذ على ابن قتيبة والأصمى وغيرهما من الذين يذهبون هذا المذهب في فهم المطبوع والمتكلف من الشعراء أو الحكم على الشاعر بالطبع أو التكلف أنهم يصفون الشعر المطبوع بنعوت تدل على أنهم يقصدون بالشاعر المطبوع من كان قادراً على الارتجال وقول البداة ، في مواقف لم يعد لها نفسه « وإذا امتحن لم يتلغم ولم يتزحر » ولا يمكن أن نجاريهم في رأيهم هذا ، وأن نفهم الشاعر المطبوع على هذا النحو من الفهم ، ذلك أن الشعر تعبير عن شعور ، ومواقف الامتحان التي تختبر فيها قدرة الشاعر على إرسال القول لا يمكن أن تكون مقياساً لصدق العاطفة أو حقيقة الشعور ، لأن الإحساس لا يتكلف ولا يتطلب . والإجادة في هذا المضمار إن دلت فإنما تدل على شيء واحد هو القدرة على النظم في أي معنى من المعاني العارضة وفي أي غرض ، وقد لا يكون ذلك الغرض مما يسير عاطفة الشاعر أو يجري مع هواه . وقد لا يكون في المقام الذي استحث على القول فيه ما يثير انفعاله . وحينئذ يكون الشعر ضرباً من الصناعة اللفظية ، وهو الجدير أن يحسب من الشعر المتكلف . أما الارتجال الذي تبعثه قوة التجربة وحرارة العاطفة والانفعال فلا نشك أنه من أولى علامات للطبع .

(١) الشعر والشعراء ٣٧/١ ، والتزحر هو إخراج الصوت أو النفس بأقن عند جماعة عمل أو شدة .

ويؤخذ على أولئك أيضاً عدم كثير من فحول الشعراء كزهير والخطيئة وأشباههما في التكلفين ، لا لأنهم رأوا في أشعارهم فجوات أو آثاراً تدل على شدة العناية ورشح الجبين وكثرة الضرورات ، ولكن لأنهم علموا أنهم قوموا شعرهم بالثقاف ، وتقحوه بطول التفتيش ، وأعادوا فيه النظر بعد النظر . .

ورأينا الذي نظمنا إليه أن الطبع لا يعارض التنقيح والتهديب بحال ، بل إنه يزداد جمالا ورونقا بإعادة النظر فيه ، وسد ما عساه يكون فيه من ثغرات ، واستبدال بعض الألفاظ ببعض على حسب ما يرتضيه ذوق الشاعر ومدى حذقه لصناعته . ولهذا رأينا ابن قتيبة يناقض نفسه بهذا الزعم حين يقرر أن هذا اللون من الشعر المنقح المهدب جيد محكم ، ثم يصفه بكثرة الضرورات وحذف ما يحتاج المعاني إليه وزيادة ما تستغنى عنه . مع أن للتنقيح والتهديب زيلا ن بطبيعتهما تلك العيوب التي لولاها لم تكن هناك من حاجة إلى الروية والتهديب ، بل قد نرى أكثر من ذلك فنقرر أن الفجوات وفقد التلاؤم بين الأبيات إنما يقع في الشعر المرتجل على غير إعداد وروية ، وشتان بين موقف المستعد المتهي وموقف المدفوع إلى القول دفعا^(١) .

وعلى هذا فإن تنقيح الشاعر شعره وتهذيبه لا يعد تسكفاً ، ومن ثم لا يعد عيباً ، فإن الإجابة والإبداع وتنقية الأعمال الأدبية من الشوائب من واجب أولئك الذين يحترمون أنفسهم ، ويحترمون فنههم ، ويحترمون أذواق الناس ، فلا يقدمون إليهم إلا فنا يرضى عنه الشاعر أولاً ويطمئن إلى جودته ، ليرضى عنه ذور الأذواق المستنيرة في بيئات الفن والأدب ، وكان ذلك هو السر في تلك الأحكام

(١) انظر كتابنا (دراسات في نقد الأدب العربي) ١٦٢ (الطبعة الثانية — القاهرة .

الكثيرة التي اجتمعت على الاعتراف لزهير ، وعلى اعتباره في السابقين من الفحول وهذا عمر يصف زهيراً بأنه شاعر الشعراء الذي لم يعاظم بين القوافي ولم يتبع وحشى الكلام ولم يمدح الرجل إلا بما فيه ، ويستنشد ابن عباس شعره ، فلا يزال ينشده إلى أن يبرق الصبح ، ويسأل عبد الملك بن مروان قوماً من الشعراء عن أى بيت من الشعر العربى أمدح ، فيفتقون على بيت زهير :

تراه إذا ما جثته متملاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ويستحسن الرواة تشبيه زهير امرأة في الشعر بثلاثة تشبيهات في بيت واحد ، وهو قوله :

تنازعتِ المهاً شهباً ودُرّاً أو بحُورٍ وشاكتِ فيها الظباء
ثم قوله مفسراً بعد ذلك :

فأما ما فوق العقد منها فمن أدماء^(١) مرتها الخلاء
وأما المقلتان فمن مَهَاقٍ وللدُرِّ الملاحه والصفاء

وقال بعض الرواة : لو أن زهيراً نظر في رسالة عمر بن الخطاب في القضاء إلى أبى موسى الأشعرى ما زاد على ما قال :

فإن الحقّ مقطعه ثلاثٌ يمينٌ أو نفارٌ أو جلاء

يعنى يميناً ، أو منافرة إلى حاكم يقطع بالبينات ، أو جلاء — وهو بيان وبرهان يحلوه به الحق وتتضح الدعوى .

وتلك أمثلة يسيرة من شواهد إبداع زهير في شعره الذى اجتمع له نبل

(١) شاكت شاكت وشابكت ، وأراد بأدماء الظبية البيضاء . ومعنى الشعر : فيها عبه من البقر فى الميون ، ومن الدر فى المفاء ، ومن الظباء فى طول العنق .

الغرض وغمامة المعنى وصفاء الديباجة ، ولذلك لم يقدم أهل الحجاز شاعراً على زهير ، ووصفه أهل البصر بصناعة الشعر والمعرفة بنقده بأنه كان أحصف الشعراء شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، وأشدّهم مبالغة في المدح ، وأكثرهم أمثالا في شعره .

ولا شك أن تلك الأسباب التي قدموا زهيراً بها أسباب موضوعية ، تعتمد على طبيعة الفن ، ومعرفة خصائص الأدب الرفيع الذي يبعد عن الغرابة وينفرد من الحوشية ومن التعقيد ، ويبعث عن جودة المضمون ، كما يعنى بصفاء الإطار والشكل . ويعنى إلى جانب ذلك كله بالصدق الفني ، وبالعبرة الجميلة عن العاطفة الصادقة والشعور الصادق .

معلقة زهير :

اشتعلت في بلاد غطفان نار عداوة شديدة وحرب ضروس بين قبيلتين من قبائلها ، وهما قبيلتا عبس وذبيان . وقد قال الرواة في سبب إنشاد زهير معلقته إن زهيراً مدح بهذه القصيدة الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ، المرءيين ، وذكر سعيهما بالصلح بين عبس وذبيان وتحملهما الحاملة .

وكان « ورد بن حابس العبسى » قتل « هرم بن ضمضم المرئى » في حرب عبس وذبيان ، وهى حرب داحس قبل الصلح ، ثم اصططح الناس ، ولم يدخل « حصين بن ضمضم » أخو « هرم بن ضمضم » في الصلح . وحلف لا يفسل رأسه حتى يقتل « ورد بن حابس » أو رجلاً من بنى عبس ، ثم من بنى غالب . ولم يطلع على ذلك أحداً .

وقد حمل الحاملة الحارث بن عوف بن أبى حارثة ، وهرم بن سنان

ابن أبي حارثة . فأقبل رجل من بني عبس ثم من بني غالب حتى نزل بمحصين بن ضمضم ، فقال: من أنت أيها الرجل ؟ فقال: عيسى ، فقال ، من أي عبس ؟ فلم يزل ينتسب ، حتى انتسب إلى غالب . فقتله حصين ، فبلغ ذلك الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، فاشتد عليهما ، وبلغ بني عبس ، فركبوا نحو الحارث . فلما بلغ الحارث ركوب بني عبس ، وما قد اشتد عليهم من قتل صاحبهم — وإنما أرادت بنو عبس أن يقتلوا الحارث — بعث إليهم بمائة من الإبل معها ابنه ، وقال للرسول : قل لهم آللبن أحب إليكم أم أنفسكم ؟ فأقبل الرسول حتى قال ما قال . فقال لهم الربيع بن زياد : إن أخاكم قد أرسل إليكم الإبل أحب إليكم أم ابنه تقتلونه ؟ فقالوا : نأخذ الإبل ونصالح قومنا ويتم الصلح . فقال زهير في ذلك هذه القصيدة ، وبعد أن تغزل في خمسة عشر بيتا قال :

سعى ساعيا غيظَ بنِ مُرَّةَ بعدما تبزَّل ما بين العشيرة بالدمِ

الساعيان هما الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، وقيل خارجة بن سنان ، وهو أخو هرم بن سنان ، وهما ابنا عم للحارث بن عوف ، لأنهما ابنا سنان بن أبي حارثة ، والحارث هو ابن عوف بن أبي حارثة^(١) .

وهذا السبب يظهر ظهورا واضحا في ثنايا هذه المعلقة وفي أكثر أبياتها . ولعل هذه المعلقة من أهم المعلقات التي يتصل غرضها بأكثر المعاني المبثوثة فيها . وهي في هذه الناحية تختلف عن معلقتي امرئ القيس وطرفة السابقتين ، وقد بينا أن الغرض الذي قيل إن كلا منهما أنشدت بسببه يضيع بين ثناياها ، ويضل الباحث في الفحص عنه بين الأغراض الكثيرة التي تزدهم بها كلتا المعلقتين .

وقد بدأ زهير معلقته بالتشبيب ومساءلة الدُّمْن ، وسلك في مطلعها مسلك امرئ القيس وطرفة في مطلع معلقتهما .

وقد عرف عن زهير العفة والحياء ، على العكس من امرئ القيس الذي كان يتعهر في شعره ، وطرفة الذي ذكر في أمانيه تهتكه في العبث وانهماكه في الشهوات ، وقد برئت معلقة زهير من أثر العبث والمجون . ولكن يبدو أن ذكر المرأة والتشبيب بها في مطالع القصائد كان تقليداً جرى عليه فحول الشعراء في الجاهلية ، ولهذا وحده ذكر زهير المرأة في مطلع قصيدته اتباعاً لذلك التقليد الذي جروا عليه ، ولم يكن زهير من العشاق الذين يجرون في أثر المرأة ، ويجهدون في البحث عنها ، ويصفون ديبهم إليها ، ويبرزون محاسنها . ولكنه ذكر « أم أوفى » ، التي لم تكن عشيقة أو حبيبة له ، بل كانت زوجة له أولدها بنين ماتوا صغاراً ، ثم غضب عليها مرة فطلقها ، وندم وأراد أن يردّها فأبى ، فبكأها وبكى ديارها في خمسة عشر بيتاً من مطلع قصيدته .

ولا نجد في هذه الأبيات الخمسة عشر ما يعبر تعبيراً صادقاً واضحاً عن لوعة الحب والوجد ، بل لا يتجاوز ذكر « أم أوفى » البيت الأول منها بين الطلول ومواضعها أما بقية الأبيات فكلها في ذكر الديار وما بقي فيها من الآثار التي تشبه الوشم في المعصم ، وما يرتع فيها من الظباء وبقر الوحش ، ووصف وقوفه بها ، واهتدائه إليها بعد جهد ومشقة لبعده عهده بها ، وما وجد من الأثافي والنوى^(١) ، ووصف توله الذي جعله يسأل رفيقه : هل يرى الظمآن اللاتي هجرن موضعهن منذ عشرين حجة؟ وأخذ في وصف تلك الظمآن وكأنه يراهن في سيرهن ، ويصف حلّهن ومرتحلّهن ، وورودهن الماء حتى وضعن الخيام عنده .

(١) الأثافي جمع أنفية وهي المجارة التي تنصب عليها المراحل أو القدور ، والنوى هو الحفير حول الحيمة يمنع الطر من التسرب داخلها .

ثم انتقل إلى الغرض الذى أنشد من أجله قصيدته ، وهو مدح عظيمى عطفان لسيهما فى الصلح وتحملمهما ديات القتل فى أموالهما فى عشرة أبيات مجّد فيها هذين العظيمين ، وتداركهما عبساً وذبيان بعد أن أوشكتا على الفناء ، حتى شهد لهما العرب بالجد والعظمة والبذل والتضحية ، مع برائتهما من جريرة الحرب ، وبعدهما عن الخصومة فيها .

ثم أقبل على الأحلاف أسد وغطفان وطبيّ يبنذرهم أن يحنثوا فيما تحالفوا عليه من السلم ، أو يكتموا الله ما فى صدورهم ، وأتبع ذلك بذكر رزايا الحرب ، وهول من شأنها ، وعظم من مصائبها ، وذكر ما أراقته من دماء أشرافهم وسادتهم ، وشبهها مرة بالسباع الضارية ، وأخرى جعلها كالرحى تعرك ثفالها ، وأنها تحمل ثم تلد لهم ذرارى شؤم ..

ثم عرض لخصين بن ضمضم وفعله الذى قتل به العبسىّ ، وكاد يشعل بذلك نار الحرب ، بعد أن كانت عبس وذبيان تنأهبان للصلح وحقن الدماء . ثم أخذ فى حكمة وأمثلة التى هى ثمرة تجاربه وخوضه معركة الحياة ، وتدل على بصره بأخلاق الناس وأحوال المجتمعات ، فى أبيات تفيض بالحكمة التى تقبلتها الأجيال فحرت على أسنة الناس ، بما اجتمع فيها من آيات الصدق ، والفتنة لطبيعة الحياة وطبيعة الأحياء .

وفى إلى النص الكامل لمعلقة زهير :

- (١) أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةُ لَمْ نَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةَ الدَّرَاجِ فَلَمْتَسَلِّمْ
(٢) وَدَارُهَا بِالرَّقَّتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَّاجِيْعُ وَشَمِّ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ
(٣) بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خِيفَةً وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْمَمِ

- (٤) وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عَشْرِينَ حِجَّةً
(٥) أَثَافِي سُمْعاً فِي مُعَرَّسٍ مِرْجَلٍ
(٦) فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا
(٧) تَبَصَّرْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَلَمَاتِنِ
(٨) جَعَلْنَا الْقَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزَنَهُ
(٩) عَلَوْنَ بِأَنَامَطٍ عِتَاقٍ وَكَلِمَةٍ
(١٠) وَوَرَّ كُنْ فِي الشُّوبَانِ يَعْلُونَ مَتْنَهُ
(١١) بَكْرَنَ بُسْكُوراً وَاسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ * فَهِنَّ وَوَادَى الرَّسِّ كَالِيدٍ لِلْقَمِّ
(١٢) وَفِيهِنَّ مَلَهَى لِلطَّيْفِ وَمَنْظَرٌ
(١٣) كَأَنَّ فِتَاتِ الْعِمْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ
(١٤) فَلَمَّا وَرَدْنَ الْمَاءَ زُرْقاً جِأَمَهُ
(١٥) ظَهَرْنَ مِنَ الشُّوبَانِ ثُمَّ جَزَّ عَنْهُ
(١٦) سَعَى سَاعِيَا غِيْظَيْنِ مُرَّةً بَعْدَ مَا
(١٧) فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ
(١٨) يَمِيناً لِنِعْمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا
(١٩) تَدَارَكْتُمَا عَبْدًا وَذُيَّانَ بَعْدَ مَا
(٢٠) وَقَدْ قَلَّمَا إِنْ نُدْرِكُ السَّلْمَ وَاسْمَعَا
(٢١) فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ
(٢٢) عَظِيمَيْنِ فِي عُلْيَا مَعْدَّةٍ هُدَيْتُمَا
- فَلَأَيَّاءَ عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ
وَنُؤْيَاءَ كَجِذْمِ الْخَوْضِ لَمْ يَتَنَلَّمِ
أَلَا انْعَمَ صَبَاحاً أَثَبَّ الرِّبْعِ وَسَلَّمِ
تَحْمَلْنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْتُمِ
وَكَمْ بِالْقَنَانِ مِنْ مُحِلٍّ وَمُحْرِمِ
وَرَادِ حَوَاشِيهَا مُشَاكِمَةَ الدَّمِ
عَلَيْهِنَّ دَلُّ النَّاعِمِ الْمُتَنَعِمِ
(١١) بَكْرَنَ بُسْكُوراً وَاسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ * فَهِنَّ وَوَادَى الرَّسِّ كَالِيدٍ لِلْقَمِّ
أُنِيقُ لَعَيْنِ النََّاظِرِ الْمُتَوَسِّمِ
نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحْطَمِ
وَضَعْنَ عِصَى الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ
عَلَى كُلِّ قَيْئَنِيٍّ قَشِيبٍ وَمُفْنَامِ
تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالْدَّمِ
رِجَالُ بَنَوُهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْتُهُمْ
عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ
تَفَاوَا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ خَطَرَ مَنْشَرِهِمْ
بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ نَسْلَمِ
بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عُتُوقٍ وَمَأْتَمِ
وَمِنْ يَسْتَنِيخُ كَنْزاً مِنَ الْجَدِّ يَعْظَمِ

- (٢٣) تُعْقَى السَّكُومُ بِالْمِثْلَيْنِ فَأَصْبَحَتْ
(٢٤) يَنْجِبُهَا قَوْمٌ لِقَوْمٍ غَرَامَةٌ
(٢٥) فَأَصْبَحَ يَجْرِي فِيهِمْ مِنْ تِلَادِ كُمْ
(٢٦) أَلَا أُبْلِغَ الْأَحْلَافَ عَنِّي رَسُولًا
(٢٧) فَلَا تَسْكُتُمُنَّ اللَّهَ مَا فِي نَفْسِكُمْ
(٢٨) يُؤْخَرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ
(٢٩) وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَاعْلَمْتُمْ وَذُقْتُمْ
(٣٠) مَتَى تَبْعُوهَا تَبْعُوهَا ذَمِيمَةٌ
(٣١) فَتَعْرُكُكُمْ عَرَكُ الرِّحَى بِشِقَائِهَا
(٣٢) فَتَنْتَبِجْ لَكُمْ غِلْمَانُ أَشْنَامُ كُلِّهُمْ
(٣٣) فَتَقْتُلُ لَكُمْ مَا لَا تُقِلُّ لِأَهْلِهَا
(٣٤) لَعَمْرِي لَنِعْمَ الْحَيُّ جَرٌّ عَلَيْهِمْ
(٣٥) وَكَانَ طَوْى كَشْحًا عَلَى مُسْتَكْنَةً
(٣٦) وَقَالَ سَأُقْضَى حَاجَتِي ثُمَّ أَتَنِي
(٣٧) فَشَدَّ فَلَمْ يُفْرِغْ بَيوتًا كَثِيرَةً
(٣٨) لَدَى أَسَدٍ شَاكِيَ السَّلَاحِ مُقْدَفٍ
(٣٩) جَرَى مَتَى يُظْلَمَ يَعَاوِبُ بِظُلْمِهِ
(٤٠) رَعَوْا ظِمَامَهُمْ حَتَّى إِذَا تَمَّ أَوْ رَدُّوا
(٤١) فَفَضُّوا مَنَايَا بِيَدِهِمْ ثُمَّ أَصْدَرُوا
- يُنْجِمُهَا مَنْ لَيْسَ فِيهَا بِمُجْرِمٍ
وَلَمْ يَهْرَبُوا بَيْنَهُمْ مِلَّةً مُنْجِمٍ
مَقَامُ شَيْءٍ مِنْ إِبَالٍ مُزَنِّمٍ
وَذُبْيَانِ هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلَّ مُقَسِّمٍ
لَا يَخْفَى وَمَهْمَا يَكْتُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ
لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يَعْجَلُ فَيُنْقِمُ
وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجُمِ
وَتَضُرُّ إِذَا مَا ضَرَّتْ يَتَمَوَّهَا فَتَضَرُّمُ
وَتَلْهَجُ كِشَافًا ثُمَّ تَنْتَبِجُ فَتَنْتَبِجُ
كَأَجْرِ عَادٍ نَمَّ تُرْضِعُ فَتَنْفَطِمُ
قَرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيرٍ وَدِرْهَمُ
بِمَالَا يَوَاتِبُهُمْ حُصَيْنُ بْنُ ضَمَّةَ ضَمُ
فَلَا هُوَ أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَقَدَّمْ
عَدُوِّي بِأَلْفٍ مِنْ وَرَائِي مُلْجِمُ
لَدَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمَّ قَشْعَمُ
لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقْلَمْ
سَرِيعًا وَإِلَّا يَبْدُ بِالظُّلْمِ يَظْلِمُ
غِمَارًا تَفَرَّى بِالسَّلَاحِ وَبِالدَّمِ
إِلَى كَلَاةٍ مُسْتَوْبِلٍ مُتَوَحِّمُ

- (٤٢) لَعَمْرُكَ مَا جَرَتْ عَلَيْهِمْ رِمَاحُهُمْ دَمَ ابْنِ زَهْرِكٍ أَوْ قَتِيلِ الْمَثَلِمْ
- (٤٣) وَلَا شَارَكَتْ فِي الْمَوْتِ فِي دَمِ نَوْفَلٍ وَلَا وَهَبٍ مِنْهُمْ وَلَا ابْنِ الْحَزْمِ
- (٤٤) فَكُلًّا أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا يَعْتَمِلُونَهُ عُلَّالَةَ أَلْفٍ بَعْدَ أَلْفٍ مُصْتَمِمْ
- (٤٥) نَسَاقَ إِلَى قَوْمٍ لِقَوْمٍ غَرَامَةٌ صَحِيحَاتِ مَالٍ طَالَعَاتٍ بِمَخْرِمِ
- (٤٦) لِحَيٍّ حِلَالٍ بَعِثَ النَّاسَ أَمْرُهُمْ إِذَا طَرَقَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمُعْظَمِ
- (٤٧) كِرَامٍ فَلَاذُو الضُّغْنِ يُذْرِكُ تَبْلَهُ وَلَا الْجَارِمُ الْجَانِي عَلَيْهِمْ بِمُسْلَمِ
- (٤٨) سَمِعْتُ نَسْكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ بَعِثَ * ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالِكَ يَسْأَلِ
- (٤٩) وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ
- (٥٠) رَأَيْتُ الْمُنَايَا خَبِطَ عَشَوَاءُ مَنْ نُصِبَ * تَمَتُّهُ وَمَنْ تَخَطَّى يُعَمَّرُ فَيَهْرَمِ
- (٥١) وَمَنْ لَمْ يَصْنَعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يُضَرَّرُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَذْنَمِ
- (٥٢) وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مَنْ دُونَ عِرْضِهِ يَفْرُهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشُّتْمَ يُشْتَمِ
- (٥٣) وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيُبْخَلُ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَمَنَّ عَنْهُ وَيُذَمِّمِ
- (٥٤) وَمَنْ يُؤْفٍ لَا يُذَمِّمُ وَمَنْ يَهْدِ قَلْبُهُ إِلَى مَطْمَنٍ الْبِرِّ لَا يَتَجَمِّمِ
- (٥٥) وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمُنَايَا يَفْلَنَهُ وَإِنْ يَرَقَّ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمِ
- (٥٦) وَمَنْ يَحْمِلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَكُنْ جَدُّهُ ذِمًّا عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ
- (٥٧) وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزَّجَاجِ فَإِنَّهُ يَطِيعُ الْعَوَالِي رُكْبَتِ كُلِّ لَهْذَمِ
- (٥٨) وَمَنْ لَمْ يَذْذَعْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يَهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمِ
- (٥٩) وَمَنْ يَغْتَرِبُ بِحَبِيبِ عَدُوٍّ أَصْدِيقُهُ وَمَنْ لَا يَكْرَهُمْ نَفْسَهُ لَا يَكْرَهُمِ
- (٦٠) وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخَفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

- (٦١) وَكَأَنَّ زَرَى مِنْ صَامَتٍ لِكَ مُعْجِبٍ * زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكْلُمِ
(٦٢) لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فَوَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَاللَّحْمِ
(٦٣) وَإِنْ سَفَاةَ الشَّيْخِ لَاحِلٌ بَعْدُهُ وَإِنْ الْفَتَى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمُ
(٦٤) سَأَلْنَا فَأَعْطَيْتُمْ وَعُدْنَا فَعُدْتُمْ وَمَنْ أَكْثَرَ الذَّنَّالِ يَوْمًا سَيُخْرَمُ

ليبد

هو لَيْبِدُ بْنُ رِبِيعَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ كِلَابِ بْنِ رِبِيعَةَ بْنِ عَامِرٍ . وقد جعله ابن سلام^(١) في الطبقة الثالثة من فحول الشعراء الجاهليين ، في طبقة نابغة بني جمدة ، وأبي ذؤيب الهذلي ، والشمّاح بن ضرار^(٢) .

قال ابن سلام . وكان لبيد بن ربيعة ، أبو عقيل ، فارساً شاعراً شجاعاً ، وكان عذب المنطق ، رقيق حواشي الكلام ، وكان مسلماً رجل صدق (ص ١١٣) وقال : وعمر لبيد عمراً طويلاً ، وكان في الجاهلية خير شاعر لقومه : يمدحهم ، ويرثيهم ، ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم (ص ١١٤) وكان يقال لأبيه « ربيع المقرين » لسخائه ، وقتلته بنو أسد في حرب بينهم وبين قومه^(٣) . وقد ورث لبيد من أبيه ربيعة حلة الجود . وكان قومه أصحاب غارات ، وفيهم بأس وتعرض للترات فوقع فيهم القتل ، وألحت عليهم المصائب ، وكان ذلك من عوامل تفجير شاعريته ، وبروزها في سن مبكرة ، وقد^١ النابغة لبيداً وهو غلام جاء مع أعمامه إلى النعمان بن المنذر ، فتوسم فيه الشا

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١٠٣ (٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة

فسأل النابغة عنه فنسبوه ، فقال له : يا غلام ، إن عينيكَ لعينا شاعر ، أفترض من الشعر شيئاً ؟ قال : نعم يا عم . قال : فأنشدني ، فأنشده لييد قصيدته التي أولها * ألم ترجع على الدمن الخوالى * فقال له : يا غلام ، أنت أشعر بنى عامر ، زدني ! فأنشده قوله * طلل نخولة في الرسيس قديم * فضرب بيده على جبينه ، وقال : اذهب فأنت أشعر من قيس كلها !

وكان أبين بنى عبس وبين بنى عامر رهط لبيد عداوة أثارها أن خاله ابن جعفر أجد سادتهم وقوادهم قتل زهير بن جذيمة أبا قيس بن زهير صاحب « داحس والغبراء » وخلص قومه وسائر بطون هوازن من ذل الإناوات التي كان يجيئها منهم بالعسف والقسر ، وكان العامريون يفدون كل سنة على قصور الحيرة عند النعمان بن المنذر ، وكان الربيع بن زياد العبسي مخصوصاً به أثيراً عنده ، يستخلصه لنفسه ويناديه ، فكان يسمى إليهم ويتنقصهم ويؤخر إذهابهم . واتفق أنهم عادوا ليلة من عند الملك إلى رحالم غضابا ، فقدموا ياتمرون فيما بينهم ، ولبيد معهم ، فسألم ما بهم ، فلم يجيبوه استصغاراً لشأنه ، فحلف لا يحفظ لهم متاعاً ولا يرى لهم راحلة إن لم يخبروه بشأنهم ، فقال له عمه « عامر بن مالك — ملاعب الأسنة » وهو زعيم الوفد ورئيسهم : خالك الربيع يسمى إلينا عند الملك ! فقال له : أنتقدرون أن تجمعوا بيني وبينه ؟ قالوا : وما تصنع ؟ قال : أزجره عنكم بقول ممض مؤلم لا يلتفت إليه الملك بعده أبداً . قالوا : فإننا نبلك بشتم هذه البقلة — وقدامهم بقلة دقيقة القضبان ، قليلة الورق ، لا صقة بالأرض ، تدعى التربة — فقال : هذه التربة التي لا تنوهل داراً ، ولا تذكي ناراً ، ولا تسرّ جاراً ، عودها ضئيل ، وفرعها قليل ، وخيرها قليل ، نبتها خاشع ، وآكلها جائع ، والمقيم عليها ضائع ، أخبث البقول مرعى ، وأقصرها فرعاً ، فتمسأ لها وجدعاً . ألقوا بني أخا عبس ، أردت

عنكم بتمس ، وأتركه من أمره في لبس » . فلما أصبحوا حلّقوا رأسه وألبسوه حلة ، وغدّوا به معهم على باب الملك ، والدار والمجالس مملوءة بالوفود وجماعات الناس ، والربيع مع الملك يطاعمه ، فتقدم ليبيد ، فلما كان بحيث يسمعه الملك رجز بالربيع ، وتناول بهجاء مقذع في مقطوعة له مروية ، فصرف عنه وجه الملك ، وأذن لبني عامر ، فأكرم وفادتهم وقضى حوائجهم ، وكان هذا أول ما عرف من كفاية ليبيد ونجابتة ^(١) .

ولما أغار الربيع بن زياد العبسي ، واستفاء سروح بني جعفر والوحيد ابني كلاب ، وذكر جعفر والوحيد في شعره ^(٢) ، ثار ليبيد وأنشد يهدد ربيعا وقومه :

واستُ بغافر لبني بغيضٍ سفاهتهم ولا خَطَلَ اللسانِ
سأخذ من مَراتهمُ بعِرضي وليسوا بالوفاء ولا المدانى
فإن بقيّة الأحساب منا وأصحاب الحِلمة والطَّعانِ
جرائم مَنَعَنَ بياضَ نجد وأنت تُعد في الزَّمع الدوانِ

وهكذا نشأ ليبيد شاعر قوم ، يدافع عن أحسابهم ويذكر أيامهم . وكان ليبيد قد اتصل بالنساسة ملوك الشام ، ونال الحظوة لديهم بعدما وثقوا به ، وعداوتهم لملوك الحيرة معروفة ، فقد روى أن الحارث النسائي ، وهو الحارث الأعرج ، وجّه إلى المنذر بن ماء السماء مائة فارس ، وأمر ليبيداً عليهم ، فساروا إلى عسكر المنذر ، وأظهروا أنهم أتوه داخلين في طاعته ، فلما تمكّنوا منه قتلوه وربكوا خيلهم ، فتعقبهم التبع والجند حتى قتلوا أكثرهم ، ونجا ليبيد فيمن نجا ،

(١) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ٩٥/١ .

(٢) انظر خزائن الأدب للبغدادي ٢٨٩/١ .

ووقع بسبب ذلك يوم حليلة المضروب به المثل في قولهم « ما يوم حليلة بسرّ ». ولكن لببداً كان على مودة مع النعمان فقد رثاه بقصيد طويلة تزيد على خمسين بيتاً ، وإن كان أكثر ما فيها من المعاني بدور على ما تصنع الأيام والليالي واستخلاص العبرة من أحداثها ، وأولها :

ألا تسألان المرء ماذا يحاولُ	أنحبّ فيقضى أم ضلال وباطل
حباله مبثوثة في سبيله	ويَفنى إذا ما أخطأته الحبال
إذا المرء أسرى ليلة خال أنه	قضى عملاً والمرء ما عاش عامل
فقولاً له إن كان يقسم أمره	ألمّا يعظك الدهر ؟ أمك هابل
فتعلم ألا أنت مدرك ماضى	ولا أنت مما تحذر النفس وائل
فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب	أهلك تهديك القرون الأوائل
فإن لم نجد من دون عدنان والدأ	ودون معد فلتزعك العوازل
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم	بلى كل ذى رأى إلى الله واسل
ألا كل شيء ما خلا الله باطل	وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم	دويهيّة تصفر منها الأنامل
وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه	إذا كشفت عند الإله الحصائل

وهذا كلام من يؤمن بالبعث والنشور ، وتلك طبيعة النفس الصافية ، التي لا تلبث إذا وجدت داعياً إلى الله أن تسرع إلى الإيمان به ؛ وقد كان كذلك فإن لببداً حين سمع بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، ذهب إلى قومه فأسلموا وأسلم معهم ، ثم عادوا إلى باديتهم ، ويفقد لببداً على الرسول يسأله عما خفى عليهم من أمور الدين ليحدث قومه بما يرى . ولقد حسن إسلامه ، ودخل نور الإيمان إلى قلبه ، وهجر الشعر الذى كان من أعلامه ، وأقبل على القرآن يحفظه ويتدبر

آياته ، ولذلك وصف بأنه كان مسلماً رجل صدق ، وقد ذكروا أنه لم ينشد في إسلامه إلا بيتاً واحداً وهو قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلى حتى كسانى من الإسلام سر بالاً
وقيل : بل هو قوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفه والمرء يصلحه الجليس الصالح
وكتب عمر بن الخطاب إلى عامله « المغيرة بن شعبة » بالكوفة — وكان
ليبيد قد اتخذها وطناً في خلافة عمر — أن استنشد من عندك من شعراء مصر
ما قالوه في الإسلام ، فأرسل المغيرة إلى الأغلب العجلي أن أنشدني ، فقال :
لقد طلبت هيناً موجوداً أرجزاً تريدُ أم قصيداً

ثم أرسل إلى ليبيد أن أنشدني ، فقال : إن شئت ما عُني عنه ، يعني الجاهلية .
قال : لا ، ما قلت في الإسلام ، فانطلق إلى بيته فكتب سورة البقرة في صحيفة ،
ثم أتى بها ، فقال : أبداني الله هذه في الإسلام مكان الشعر . فكتب بذلك
المغيرة إلى عمر ، فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة وزادها في عطاء ليبيد ، فكان
عطاؤه ألفين وخمسمائة . فكتب الأغلب إلى عمر : يا أمير المؤمنين تنقص عطائي
أن أطعك ؟ فردّ عليه خمسمائة ، وأقر ليبيداً على ألفين والخمسمائة . وروى أن
عمر رضى الله عنه قال يوماً لليبيد : أنشدني شيئاً من شعرك ، فقال : ما كنت
لأقول شعراً بعد أن علمني الله البقرة وآل عمران ^(١) .

قالوا : وكان ليبيد شريفاً في الجاهلية والإسلام ، وكان نذر ألا تهب الصبا
إلا نحر وأطعم ، وأن الصبا هبت يوماً وهو بالكوفة مقتر ملقى ، فعلم بذلك

(١) مطالع البدور في منازل السرور ٥٣/١ (مطبعة الوطن — القاهرة ١٢٩٩ هـ)
والشعر والشعراء ٢٣٣/١ .

الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وكان أميراً عليها لعثمان ، فخطب الناس فقال :
إنكم قد عرفتم نذر أبي عقيل وما وكد على نفسه فأعينوا أخاكم ، ثم نزل إليه
بمائة ناقة ، وبعث الناس إليه ، ففضى نذره ، فاجتمعت عنده ألف راحلة ،
وكتب إليه الوليد :

أرى الجزار يشخذ شفرتيه إذا هبت رياح أبي عقيل
أغرّ الوجه أبيض عامري طويل الباع كالسيف الصقيل
وفي ابن الجعفرى بحلفتيه على العلات والماء القليل
بنحر السكوم إذ سحبت عليه ذبول صبا تجاوب بالأصيل
فقال لييد لابنته : أجيبه ، فقد رأيتنى وما أعيا بجواب شاعر ،
فأنشأت تقول :

إذا هبت رياح أبي عقيل دعونا عند هبتها الوليد
أشم الأنف أضيّد عبثميّا أعان على مروته لييد
بأمثال الهضاب كأن ركبا عليها من بنى حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيراً نحرناها وأطعمنا الوفودا
فعد إن الكريم له معاد وظنى يا ابن أروى أن تعودا

فقال لها لييد : قد أحسنت لولا أنك استزدته ، فقالت : والله ما استزدته
إلا أنه ملك ولو كان سوقة لم أفعل . وكانت وفاة لييد فى أول خلافة معاوية ،
وهو معدود من المعمرين ؛ وقد ذكروا أنه عاش مائة وسبعا وخسين سنة . وزعم
بعضهم أن وفاته كانت فى خلافة عثمان وأن وفاته كانت بالكوفة أيام ولاية
الوليد بن عقبة ، وهو وهم ، والصحيح ما ذكر من وفاته أيام معاوية فقد تواترت
الروايات أن معاوية أراد أن يحمل عطايا الناس ألقين ، وأنه قال للييد : هذان

الفودان^(١) ، فما هذه العلاوة ؟ يعنى بالفودين الألفين ، وبالعلوة الخمسمائة ، وأراد أن يحطه بإها ، فقال لبيد : أموت ويبقى لك الفودان والعلوة ، وإنما أنا هامة اليوم أو غد ، فرق له معاوية ، وترك عطاءه على حاله ، فمات بعد ذلك حيسر ولم يقبضها ، ويروى أن معاوية قال له : يا أبا عقيل ، عطائي وعطاؤك سواء ، لا أراى إلا سأحطك ! قال لبيد : أو تدعنى قليلا ثم تضم عطائي إلى عطائك فتأخذه أجمع^(٢) .

أما شعر لبيد فإن الناظر فيه يستطيع أن يحصر أغراضه في غرضين هما الفخر والثناء ، ومعانيه في كليهما معان جاهلية ، ففخره بفتوته وترفعه وإنجاده المستنجد به وقرى الضيف الذى ينزل عليه ، والمباهاة بقومه وعشيرته ، وهو فى هذا الغرض كثيراً ما يقرنه بالوصف ، ولا سيما وصف ناقته التى يرحل عليها . أو يعقدها لأضيافه ، مع تشبيهها بأصناف من حيوان البادية كالبقرة أو الأتان أو النعام . ومعانيه فى الرثاء هى معانى الحكمة المستفادة من الحياة التى تمخض بزيتها وزخرفها ، ثم لا تلبث أن ينطفىء شعاعها مع ما يدع ذلك من الحسرة والكدر فى أنفس الآل والصحب ، ولكن أسلوبه فى فخره يختلف تمام الاختلاف عن أسلوبه فى رثائه ، فهو يختار للفخر ، وما قد يكون فى ثنائه من الأوصاف والألقاظ الغريبة التى ترى عليها مسحة البادية وخشونة الصحراء ، على درجة لا تسكاد تجمد لها نظيراً فى شعر غيره من الجاهليين ، على أنه فى فن الرثاء يمدب ويرق ، فلا ترى فى ألقاظه إلا كل سمح من الكلام وكل مأنوس فى الاستعمال . وأعتقد أن ما وصفه به ابن سلام الجحى فى قوله فى نعت لبيد بأنه كان رقيق حواشى الكلام إنما كان يقصد به الحكم على شعره الذى قاله فى الرثاء ، فإن

(١) الفودان العدلان ، كل واحد منهما فود ، وكل منهما نصف حمل يكون على أحد

جنبي البعير .

(٢) انظر طبقات فحول الشعراء ١١٣ والشعر والشعراء ٢٢٣/١ وخزانة الأدب ٢/٢٤٠ .

هذا الوصف لا ينطبق بأى حال على شعره فى الفخر أو فى الوصف ، كذلك الذى نجده فى شعر المعلقة مما لا يكاد يفهم إلا بالاستعانة بمعاجم اللغة ، ولعله بعد تلك الاستعانة على حلّ الألفاظ الغريبة تظل الحاجة إلى فهم الأسلوب والتركيب ، حتى يمكن تذوق الفن الشعرى الذى فيه .

معلقة لبید :

والدارس لمعلقة لبید يجدها قد خلت من ذكر المرأة ووصف الشغف بها والصبابة بهواها ، وقد خلا مطلعها تماماً عما عهدناه عند السابقين من أصحاب المعلقات ، فقد وجدنا معلقة امرئ القيس تفيض بذكر المرأة ووصف مفاتها والديب إليها فى أكثر من موضع ، ووجدنا فى معلقة طرفة ذكرها فى أول كلمة منها ، كما وجدناه يعد اللهو بها من أهم أمانيه القليلة التى لا يحرص على الحياة إلا من أجلها ، ورأينا زهيراً مع تعففه وجدّه يحرص على ذكر « أم أوفى » زوجته هوّى أو تقليداً . ولكن لبيداً يختلف عن هؤلاء أجمعين ، فإنه لا يبدأ قصيدته بذكر « نوار » وإنما بدأها بذكر الأطلال والدمع التى أفقرت من أناسها ، ووصف الطبيعة والرعد والمطر والسحاب فى مجموعة من التشبيهات الجيدة ، فى خمسة عشر بيتاً ذكر بعدها « نوار » وذكر بأسه من لقاءها لبعده منازلها فى شعر فيه الطبيعة وفيه أثر العقل ، وليس فيه من وصف عاطفة الحب كثير أو قليل :

بل ما تذكرُ من نوارٍ وقد نأتْ وتقطّعتْ أسبابُها ورمائمُها

نمّ يأمر نفسه بقطع حبها بعد إذ تعذر وصلها ، ويؤثر عليها بوصف ناقته التى تعينه على أسفاره ، وتعينه على قطع المفازات ، وتعلو به التلاع وتهبط به الوهاد فى أبيات كثيرة تتعاقب فيها الأوصاف وتترادف التشبيهات ؛ ثم يعود إلى ذكر

« نوار » في بيت واحد ، هو أشبه بالكيد والتشفي منه بالتعبير عن الود والحب ،
إذ هو يصف نفسه بالحزم وإجماع الرأي ، والقدرة على النسيان :

أو لم تكن تدري نوار بأني وصَالُ عَقْدِ حَبَائِلِ جَذَائِمِهَا
تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أو يَعتَلِقُ بَعْضَ النَفُوسِ حَمَاهَا

ولذلك كان من الممكن القول بأن هذه المعلقة خالية من ذكر المرأة أو من
وصفها ووصف الغرام بها .

وقد ذكر الرواة نكل معلقة سبباً دعا إلى إنشادها ، وتجربة أثارت انفعال
الشاعر ، فانطلق يعبر عن هذا الانفعال ، ولكنهم لم يذكروا سبباً خاصاً أو تجربة
خاصة لهذا الشاعر كانت هذه المعلقة تعبيراً عنها . ولكن الذي يدل عليه هذا
الشعر لا يتعدى الانفعال بحياة البداوة ، وما فيها من مظاهر الطبيعة والحيوان ؛
وما يتمجد به سراة العرب وأجوادهم من النجدة وقرى الضيف ، وقد وصف طرفة
تلك المشاهد الطبيعية من الأطلال التي يخلفها الظاعنون ، وفعل الأمطار والسيول
بها التي لا تبقى من آثارها إلا مثل ذلك الذي يبدو من أثر الكتابة على الحجر ،
لا يبصره إلا من يتأمله . ثم يصف ناقته في أبيات كثيرة ، يصف فيها ما يعتمد
عليه منها ، ويذكر سرعتها ، ويكثر من تشبيهها ، فهي تارة كالسحاب ترفعه
ريح الجنوب ، وتارة كالأتان الوحشية ، وطوراً كالبقرة الوحشية التي أضاعت
ولدها فهي تسرع في تعقبه وطلبه ، ويصف فضائل نفسه ، وهي من المثل التي
يقدمها العرب ، ويلتمسونها في فتيانهم ورجالهم ، فهو أبي كل الإباء ، كريم
كل الكرم ، يلعب الميسر على الجزور ثم ينحرفها ويطعمها الناس ، وهو رجل
أمانة وعقل ونجدة ، لأنه نسل من قوم يهيمون بهذه الفضائل ؛ وكل ذلك
في ألفاظ تغلب عليها خشونة الصحراء التي كان يعيش فيها ، وهالك نص
معلقة لمبيد :

- (١) عَفَتَ الدِّيارَ محلَّها فَمُقامُها
- (٢) فَمَدافِيعُ الرِّيانِ عُرِّيَ رِسمُها
- (٣) دِينَ مَجَرَّمٍ بَعْدَ عَهْدِ أُنيسِها
- (٤) رُزِقَتْ مَرابِيعَ النُّجومِ وَصابِها
- (٥) مِنْ كُلِّ سارِيَةٍ وَغادِ مُذْجِنِ
- (٦) فَعَمَلًا فُرُوعُ الْأَنيْهقانِ وَأُطْفَلَتِ
- (٧) وَالْعَيْنُ ساكِنةٌ عَلَى أَطْلالِها
- (٨) وَجَلَّ السَّيولُ عَنِ الطُّلولِ كَأَنَّها
- (٩) أَوْ رَجَعُ واثِمَةٍ أُسِفَ نَثورُها
- (١٠) فَوَقَفْتُ أَسأَلُها وَكَيْفَ سَوالُنا
- (١١) عَرِيتْ وَكانَ بِها الجَميعُ مُفابِكرُوا
- (١٢) شاقَتَكَ ظَمَنُ الحَيِّ حِينَ تَحْمَلُوا
- (١٣) مِنْ كُلِّ مُحْفوفٍ يُبْطِلُ عِصِيَّهٗ
- (١٤) زُجَلًا كانَ نَماجُ تَوْضِيحِ فَوْقِها
- (١٥) حُمَزَتْ وَزِيلَها السَّرابُ كَأَنَّها
- (١٦) بَلْ ما نَدَّ كَرُومُ نَوارٍ وَقَدَناتُ
- (١٧) مُرِّيَّةٌ حَلَّتْ بِفَيْدٍ وَجاورَتِ
- (١٨) بِمِشارِقِ الجَبَلينِ أَوْ بِمِجْجَرِ
- (١٩) فَصُوائِقِ إِنْ أَيْمَنَتْ فَمَظِنَّ
- (٢٠) فاقطَعِ لُبائِنَةَ مَنْ تَعَرَّضَ وَصلُها
- بِمَنى تَأْبُدُ غَوَملُها فَرِجامُها
- خَلَقًا كما ضَمِنَ الوَحْيَ سِلامُها
- حَبَجَّ خَلَوْنَ حَلالُها وَحَرامُها
- وَذَقُ الرِّواءِعِ جَوْدُها فَرهاُمُها
- وعِشيَّةٌ مَتجاوِبِ إِرْزامُها
- بِالْجَلْمَتينِ ظَبائِها وَنَعامُها
- عُودًا تَأْجُلُ بِالْفَضاءِ بِهاُمُها
- زُبُرٌ مُجِدُّ مُتَوَنِّها أَقلامُها
- كِفَفًا تَعَرَّضَ فَوْقَها وَشامُها
- صُيَّما خوالِدَ ما يَبينُ كَلامُها
- مِنها وَغُودِرَ نُؤيُها وَنَمامُها
- فَتَكْذَبُوا قُطُنًا تَصِرُ خِيامُها
- زَوْجٌ عَلَيْهِ كِلَّةٌ وَقَرامُها
- وِظباءُ وَجَرَّةٌ عَظَمًا أَرامُها
- أَجْزاعُ بَيْدَةٍ أَثْلُها وَرِضامُها
- وَتَقَطَعَتْ أَسبابُها وَرِمامُها
- أَهْلَ الحِجازِ فَإِنَّ مِنْكَ مَرامُها
- فَتَضَمَّنْها فَرْدَةٌ فَرخامُها
- مِنها وَحافُ القَهْرِ أَوْ طِائِخامُها
- وَلَشَرُّ واصلِ خُلَّةٍ صَرامُها

- (٢١) واخْبُ الْجَامِلَ بِالْجَزْبِ وَصَرْمُهُ
 (٢٢) بِطَلِيحِ أَصْفَارٍ تَرَكْنَ بَقِيَّةَ
 (٢٣) وَإِذَا تَغَالَى لِحْمُهَا وَنَحْمَرَتْ
 (٢٤) فَلَهَا هَبَابٌ فِي الزَّمَامِ كَأَنَّهَا
 (٢٥) أَوْ مُلْمَعٌ وَسَقَتْ لِأَحْقَبَ لَاحَهُ
 (٢٦) يَلُوبِهَا حَدَبُ الْإِكَامِ مُسَخَّجًا
 (٢٧) بِأَحْزَةِ النَّابُوتِ رَبًّا فَوْقَهَا
 (٢٨) حَتَّى إِذَا سَلَخَا جُمَادَى سِتَّةَ
 (٢٩) رَجَعَا بِأَمْرِهَا إِلَى ذِي مِرَّةٍ
 (٣٠) وَرَمَى دَوَابِرَهَا السَّمَاءُ تَهَيَّجَتْ
 (٣١) فَتَنَازَعَا سَبْطًا بِطَيْرٍ ظِلَالُهُ
 (٣٢) مَشْمُولَةٌ غُلَّتْ نَبَاتٍ عَرَفَجٍ
 (٣٣) فَمَضَى وَقَدِّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً
 (٣٤) فَتَوَسَّطَا عُرْضَ السَّرِيِّ وَصَدَّعَا
 (٣٥) مَحْفُوفَةً وَسَطَ الْبِرَاعِ يُظْلِمُهَا
 (٣٦) أَفْتَلَاكَ أُمٌ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوءَةٌ
 (٣٧) خَذَّاهُ ضَمِيمَتِ الْفَرِيرِ فَلَمْ يَرِمِ
 (٣٨) لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوُهُ
 (٣٩) صَادَفَنَّ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصْدَبْنَاهَا
 (٤٠) بَانَتْ وَأُسْبِلَ وَكَفَّ مِنْ دِيمَةٍ
- بَاقٍ إِذَا ضَلَمَتْ وَزَاغَ قَوَامُهَا
 مِنْهَا فَأَحْنَقَ صُلْبُهَا وَسَنَامُهَا
 وَتَقَطَّعَتْ بَعْدَ الْكَلَالِ خِدَامُهَا
 صَهْبَاهُ خَفَّ مَعَ الْجَنُوبِ جَهَامُهَا
 طَرَدُ الْفَحُولِ وَضَرْبُهَا وَكِدَامُهَا
 قَدْ رَابَهُ عَصِيَانُهَا وَوِحَامُهَا
 قَفَرِ الْمَرَاقِبِ خَوْفُهَا آرَامُهَا
 جَزَاءُ فَطَالِ صِيَامِهِ وَصِيَامُهَا
 حَصِيدٍ وَنَجْحٍ صَرِيمةٍ إِبْرَامُهَا
 رِيحُ الْمَصَافِ سَوْمُهَا وَمَهَامُهَا
 كَدْحَانِ مُشْعَلَةٍ يُشْبُ ضِرَامُهَا
 كَدْحَانِ نَارِ سَاطِعٍ أَسْنَامُهَا
 مِنْهُ إِذَا هِيَ عَرَّدَتْ إِقْدَامُهَا
 مَسْجُورَةٌ مُتَجَاوِرًا قُلَامُهَا
 مِنْهُ مُصْرَعٌ غَايَةِ وَقِيَامُهَا
 خَذَلَتْ وَهَادِيَةَ الصَّوَارِ قَوَامُهَا
 عُرْضَ الشَّقَاقِ طَوْفُهَا وَبُعَامُهَا
 غُبْسٌ كَوَائِبُ لَا يُمْنُ طَعَامُهَا
 إِنَّ لِلنَّايَا لَا تَطْيِشُ سِهَامُهَا
 يُرْوَى الْخَمَلُ دَائِمًا تَسْجَامُهَا

- (٤١) يعلو طريقةً مَتْنِهَا متواترٌ
 (٤٢) تجتاف أصلاً لصاً مُتَذَبِّذاً
 (٤٣) وتُضَيُّ في وَجْهِ الظلامِ مُشِيرَةً
 (٤٤) حتى إذا حَسَرَ الظلامُ وأسْفَرَتْ
 (٤٥) عَلِمَتْ تَرَدُّدُ فِي نِهَاءِ صُعَاعِدِ
 (٤٦) حتى إذا يَدَسَتْ وأَسْحَقَ حَالِقُ
 (٤٧) وتَسَمَّتْ رِزَّ الأُنَيْسِ فِرَاتِهَا
 (٤٨) فَعَدَّتْ كِلَالَ الْفَرْجَيْنِ نَحْسَبُ أَنَّهُ
 (٤٩) حتى إذا يَدُسُ الرُّمَاءُ وأَرْسَلُوا
 (٥٠) فَلَحِقْنَ وَاعْتَكَرَتْ لَهَا مَذْرِبَةٌ
 (٥١) لَنُذودَ مَنْ وَأَبْقَتْ إِنْ لَمْ تَذُدْ
 (٥٢) فَتَقْصِدَتْ مِنْهَا كَسَابَ فَضْرَجَتْ
 (٥٣) فَبَلَكَ إِذْ رَقَصَ اللُّوَامِعُ بِالضُّحَا
 (٥٤) أَقْضَى اللَّبَانَةَ لَا أَفْرِطُ رِيبةً
 (٥٥) أَوْ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي نَوَارِ بَأَنِّي
 (٥٦) تَرَاكَ أَمْسَكْنَةُ إِذَا لَمْ أَرْضَها
 (٥٧) بَلْ أَنْتِ لَا تَدْرِينَ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ
 (٥٨) قَذَبْتُ سَامِرَهَا وَغَايَةَ تاجرِ
 (٥٩) أَغْلَى السَّبَاءِ بِكُلِّ أَذْكَنَ عَاتِقِ
 (٦٠) بِصُبُوحِ صَافِيَةٍ وَجَذَبِ كَرِينَةٍ
 فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ ظِلَامُهَا
 بِعُجُوبِ أَنْقَاءِ يَمِيلُ هَيَامُهَا
 كَجَمَانَةِ الْبَحْرِىِّ سُلِّ نِظَامُهَا
 بَكَرَتْ تَزَلُّ عَنْ التَّمْرِى أَرْزَامُهَا
 سَبْعًا تَوَامًا كَامِلًا أَيَّامُهَا
 لَمْ يُبْلِهِ إِرْضَاعُهَا وَفِطَامُهَا
 عَنْ ظَهْرِ غَيْبِ وَالْأُنَيْسِ سَقَامُهَا
 مَوْلَى الْخُفَاةِ خَلْفُهَا وَأَمَامُهَا
 غُضْفًا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَعْصَامُهَا
 كَالسَّمَرِيَّةِ حَدَّهَا وَتَمَامُهَا
 أَنْ قَدْ أَحَمَّ مِنَ الْحَتُوفِ حَمَامُهَا
 بِدَمٍ وَغُودَرٍ فِي الْمَكْرِ سَحَامُهَا
 وَاجْتَابَ أَرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا
 أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحَاجَةِ لَوَامُهَا
 وَصَالُ عَقْدِ حَبَائِلِ جَذَامُهَا
 أَوْ يَمْتَلِقَ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا
 طَلَقَ لَدِيدَ لُحُوهَا وَنِدَامُهَا
 وَافَيْتُ إِذْ رُفِعَتْ وَعِزُّ مَدَامُهَا
 أَوْ جَوْنَةَ قُدِحَتْ وَفُضَّ خِتَامُهَا
 بِمَوْتِ تَنَائُلِهِ إِنِّهَا مُهَا

- (٦١) وَغَدَاقٍ رِيحٍ قَدَوَزَعْتُ وَقِرَّةٍ
 (٦٢) بَادَرْتُ حَاجَتَهَا الدَّجَاجَ بِسُحْرَةٍ
 (٦٣) وَاقْدَحَيْتُ الْخَيْلَ نَحْمَلُ شِكَايَتِي
 (٦٤) فَعَلَوْتُ مُرْتَقِبًا عَلَى ذِي هَبْوَةٍ
 (٦٥) حَتَّى إِذَا أَلَقْتُ يَدًا فِي كَافِرٍ
 (٦٦) أَشْهَلْتُ وَانْتَصَبْتُ كَجِدْعٍ مُنِيفَةٍ * جَرَدَاءُ يَحْصَرُ دُونَهَا جُرَامُهَا
 (٦٧) رَفَعْتُهَا طَرَدَ النَّعَامِ وَسَلَّهُ
 (٦٨) قَلَيْقَتٍ رِحَالُهَا وَأَسْبَلَ نَحْرُهَا
 (٦٩) تَرَقَّى وَتَطْمَنُ فِي الْعِنَانِ وَتَنْتَحِي
 (٧٠) وَكَثِيرَةٍ غُرْبَاوُهَا مَجْهُولَةٍ
 (٧١) غُلَبٍ تَشْدُرُ بِالذُّحُولِ كَأَنَّهَا
 (٧٢) أَنْكَرْتُ بَاطِلَهَا وَبُؤْتُ بِحَقِّهَا
 (٧٣) وَجَزُورٍ ابْتَارَ دَعْوَتُ لِحَفْنِهَا
 (٧٤) أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفَلٍ
 (٧٥) فَالضَّيْفُ وَالْجَارُ الْجَنِيبُ كَأَنَّمَا
 (٧٦) تَأْوِي إِلَى الْأَطْنَابِ كُلِّ رَذِيئَةٍ
 (٧٧) وَيُكَلِّلُونَ إِذَا الرِّيَّاحُ تَنَاوَحَتْ
 (٧٨) إِنَّا إِذَا التَقَتِ الْجَامِعُ لَمْ يَزَلْ
 (٧٩) وَمُقَسَّمٌ يُعْطَى الْعَشِيرَةُ حَقُّهَا
 (٨٠) فَضْلًا وَذُكْرًا يُعِينُ عَلَى النَّدَى
 قَدْ أَصْبَحْتُ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا
 لِأَعْلَى مِنْهَا حِينَ هَبَ نِيَامُهَا
 فُرْطٌ وَشَاخِي إِذَا غَدَوْتُ لِجَامُهَا
 حَرَجٍ إِلَى أَعْلَامِهِنَّ قَتَامُهَا
 وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّنُورِ ظَلَامُهَا
 * جَرَدَاءُ يَحْصَرُ دُونَهَا جُرَامُهَا
 حَتَّى إِذَا سَخِنَتْ وَخَفَّ عِظَامُهَا
 وَابْتَلَّ مِنْ زَبَدِ الْحَمِيمِ حِرَامُهَا
 وَرَدَّ الْحَمَامَةِ إِذَا أُجِدَّ حَمَامُهَا
 تُرْجَى نَوَافِلُهَا وَيُخْشَى ذَامُهَا
 جِنُّ الْبَدِيِّ رَوَاسِبًا أَقْدَامُهَا
 عِنْدِي وَلَمْ يَفْخَرْ عَلَى كِرَامُهَا
 بِمَقَالَتِي مُتَشَابِهٍ أَعْلَامُهَا
 بُذِلَتْ لَجِيرَانِ الْجَمِيعِ لِحَامُهَا
 هَبَطًا تَبَالَةً مُخْصِبًا أَهْضَامُهَا
 مِثْلَ الْبَلِيَّةِ قَالَصِ أَهْدَامُهَا
 خُلِجًا تُمَدُّ شَوَارِعًا أَيْتَامُهَا
 مَنَّا لِرِزَازٍ عَظِيمَةٍ جَشَامُهَا
 وَمُعْذَمِرٍ لِحَقْوَقِهَا هَضَامُهَا
 سَمَحٌ كَدُوبٌ رَغَائِبُ غَنَامُهَا

- (٨١) من معشرٍ سَدَتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا
 (٨٢) لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يُبَوِّرُ فَعَا لَهُمْ إِذْ لَا يَمِيلُ مَعَ الْهَوَىٰ أَحْلَامُهَا
 (٨٣) فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ الْمَلِيكُ فَإِنَّمَا قَسَمَ الْخَلَائِقَ بَيْنَنَا عَلَامُهَا
 (٨٤) وَإِذَا الْأَمَانَةُ قَسِمَتْ فِي مَعْشَرٍ أَوْفَىٰ بِأَوْفَرِ حَظِّنَا قَسَامُهَا
 (٨٥) فَبَنَىٰ لَنَا بَيْتًا رَفِيعًا سَمَكُهُ قَسَمًا إِلَيْهِ كَرِهَلُهَا وَغُلَامُهَا
 (٨٦) وَهُمْ السُّعَاةُ إِذَا الْعَشِيرَةُ أَفْطَمَتْ وَهُمْ فَوَارِسُهَا وَهُمْ حُكَّامُهَا
 (٨٧) وَهُمْ رَبِيعٌ لِلْمَجَاوِرِ فِيهِمْ وَالْمُرْمِلَاتِ إِذَا تَطَاوَلَ عَامُهَا
 (٨٨) وَهُمْ الْعَشِيرَةُ أَنْ يُبْطِئَ حَاسِدٌ أَوْ أَنْ يَمِيلَ مَعَ الْعَدُوِّ لِثَامُهَا

عمرو بن كلثوم

رأس الطبقة السادسة من فحول الشمرء في الجاهلية عند ابن سلام الجمحي ،
 قال : وهم أربعة رهط ، لكل واحد منهم واحدة : أولهم عمرو بن كلثوم ،
 والحارث بن حِلْزَة ، وعنترة بن شداد ، وسُوَيْد بن أبي كاهل^(١) .

وكان عمرو بن كلثوم بن مالك بن عَتَاب بن سعد بن زهير من بني تغلب ،
 شاعراً فارساً شجاعاً ، وهو أحد فُتَاك العرب ، ساد عشيرته بشجاعته ولسانه
 وحسن بلائه في مطلع شبابه ، وقد ورث تلك الصفات عن أبيه وأجداده ، فأبوه
 كلثوم بن مالك فارس العرب ، وجدّه لأمه مهلهل بن ربيعة المعروف بشعره
 وشجاعته وبأسه ، وعمّ أمه كليب وائل أعزّ العرب .

ولا يعرف من أمر نشأته إلا هذا النسب ؛ وإلا ما كان من العداوة الشديدة

(١) طبقات فحول الشمرء لابن سلام ١٢٧ .

بين قومه بنى تغلب وإخوتهم بنى بكر ، التي جرت إلى حرب ضروس أكلت الأخضر واليابس ، وهي حرب البسوس المشهورة في تاريخ عرب الجاهلية . وقد انتهت قيادة بنى تغلب ورياستهم إلى عمرو بن كلثوم ، وتدخل في الصلح بين بنى تغلب وبنى بكر المناذرة ملوك الحيرة ، حتى كان عمرو بن هند الذي جمع بكراً وتغلب فأصلح بينهم ، وأخذ من الحيين رهناً من كل حيّ مائة غلام ، ليكف بعضهم عن بعض ، وكان أولئك الرهن يسيرون ويفزون مع الملك ، فأهاب غلمان تغلب ما قضى على أكثرهم ، وسلم البكر يون ، فطالب التغلبيون البكرين بديات أبنائهم ، فأبت بكر ، واختصما وتحاكما إلى عمرو بن هند ، وكان سيد تغلب هو عمرو بن كلثوم ، وشاعر بكر هو الحارث بن حلزة . وتفاخرت القبيلتان بين يديه . وفي هذا الموقف قال عمرو بن كلثوم بعض معلقته يفخر فيها بقبيلته ، وقال الحارث بن حلزة جزءاً من معلقته يفخر فيها ببكر ، كما سيأتى في ترجمة الحارث .

هذا ما رواه الرواة من أخبار عمرو بن كلثوم ، وليس فيه شئ من التفصيل عن حياته ونشأته ، وإن كان المفهوم أنها حياة لا تختلف عن حياة أمثاله من فتيان العرب الذين ترعرعوا في مثل بيته وفي مثل بيئته ، من اللهو وانهاب الذات ، وضروب البسالة التي يتميز بها الأحرار من شبانهم ومراتهم ، حتى إذا جدّ الجد طاروا إلى الحرب زرافات ووحدانا ؛ فإذا عادوا اقتسموا أسلابهم أو غنائمهم ، أو فكروا في النار من أعدائهم إذا نالوا منهم .

ويروون في تاريخ عمرو حدثاً من الأحداث الكبرى التي انتهت بمصرع ملك الحيرة عمرو بن المنذر على يد عمرو بن كلثوم في قصة طويلة ، ملخصها أن عمرو بن المنذر ، وهو عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه : هل تعلمون أن أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي ؟ فقلوا : لا نعلمها إلا ليلي أم عمرو بن كلثوم ، قال : ولم ذلك ؟ قالوا لأن أباه مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل

أعزَّ العرب ، وبعلمها كلثوم بن مالك بن عتاب أفرس العرب ، وابنها عمرو ابن كلثوم سيّد من هومنه . فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيه ويسأله أن يزير أمّه أمّه ، فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب ، وأقبلت ليلى بنت مهمل في ظعن من بني تغلب ، وأمر عمرو ابن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا ، وأتاه عمرو بن كلثوم في وجوه بني تغلب ، فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه ، ودخلت ليلى بنت مهمل أم عمرو بن كلثوم على هند في قبة في جانب الرواق ، وقد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحى الخدم إذا دعا بالطرف . فقالت هند : ياليلي ناويلني ذلك الطبق ! فقالت ليلى : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت عليها وألحت ، فصاحت ليلى : واذا لآه ! يا لتغلب ! فسمعهما عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه ، ونظر إلى عمرو بن هند ، فعرف الشر في وجهه ، فقام إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ، وليس هناك سيف غيره ، فضرب به رأس عمرو بن هند حتى قتله ، ونادى في بني تغلب ، فانتهبوا جميع مافي الرواق ، وساقوا نجايبه ، وساروا نحو الجزيرة^(١) .

وهذه القصة قد استفاضت بها أخبار التاريخ العربي في مصرع عمرو بن هند ، وليس لدينا من المصادر الأخرى ما نستطيع به نفي هذه الرواية أو تأييدها ؛ ولذلك أثبتنا خلاصتها حتى يقوم الدليل الثابت على دحضها ، فإننا نستكثر من ناحية العادة أن يقتل ملك من ملوك الحيرة يحميه ملوك الفرس ، لأنه حارس تخومهم من غارات سكان الجزيرة من غير أن تتبع جنوده وجنودهم القاتل ويقتصوا منه ومن عشيرته ، وإن كان العقل لا يمنع جواز وقوع مثل ذلك ، لضعف أولئك الملوك في أخريات دولتهم ، وللظالم وضروب العسف التي ارتكبوها قبل رعاياهم الذين أصبحوا يتمنون الخلاص من سيادتهم .

وقد كانت وفاة عمرو بن كلثوم في نحو سنة ٦٠٠ م بعد أن عمّر عمراً طويلاً .
أما شعره فقد اشتهر منه معلقته التي سنأتى على وصفها وشرح أغراضها ،
وهي أهم ما أثر من شعره ، وأكثر كتب الأدب وموسوعاته لا تروى له من
الشعر غيرها ، وقد روى له أبو تمام في حماسه أربعة أبيات له في الشجاعة والفخر
وهي قوله :

مَعَاذَ الْإِلَآهِ أَنْ تَنُوحَ نَسَاؤُنَا	عَلَى هَالِكٍ أَوْ أَنْ نَضِجَ مِنَ الْقَتْلِ
قِرَاعُ السَّيُوفِ بِالسَّيُوفِ أَحْلُنَا	بَارِضٍ بَرَّاحٍ ذِي أَرَاكِ وَذِي أَثْلٍ
فَمَا أَبَقَتِ الْأَيَّامُ مِنْ مَالٍ عِنْدَنَا	سِوَى جِذْمٍ أَذْوَادٍ مُحَذِّقَةِ النَّسْلِ
ثَلَاثَةُ أَثْلَاثٍ ، فَأَتَمَّانُ خَيْلُنَا ^(١)	وَأَقْوَاتُنَا ، وَمَا نَسُوقُ إِلَى الْقَتْلِ

معلقة عمرو بن كلثوم :

وهي التي اشتهر بها عمرو بن فحول شعراء الجاهلية ، وقد قالوا إن هذه
المعلقة كانت تزيد على ألف بيت ، وإنما وصل إلينا بعضها ، وقد أنشد هذه
القصيدة في الحماسة والفخر ، وكان الذي أثاره لتنظيمها غضبه لامتهان أمه في بيت
عمرو بن هند ، ذلك الغضب الذي جعله ينتفضي السيف ويهوى به على رأس
عمرو فيصرعه ، ويغلب على الظن أن هذه المعلقة لم تنظم في وقت واحد ، فإن
بعضها يشير إلى الخلاف الذي كان بين قومه بني تغلب وبني بكر واحتكام
الفريقين إلى عمرو بن هند هذا . وقد وقف عمرو بن كلثوم به — هذه القصيدة

(١) الراح الأرض التي لا بناء فيها ولا عمران ، ملال أي من المال ، الجذم الأصل ،
الأذواد جمع ذود يقيم على ما دون العشرة من الإبل ، المحذقة النسل المقطوعة . ومعنى البيت
الرابع : أموالنا ثلاثة أثلاث ، ثلث نشترى به الخيل ، وثلث نشترى به أقواتنا ، وثلاث نمطيه
في الديات — وانظر ديوان الحماسة لأبي تمام ١ / ١٨٩ (طبعت صبيح — القاهرة) .

في سوق عكاظ فأنشدها في الموسم ، وكانت تغلب تعظم هذه القصيدة وتحتفل لإنشادها ، ويفتخرون بها حتى غيرهم بذلك بعض الشعراء في قوله :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قلها عمرو بن كلثوم
يفخرون بها منذ كانت أولهم يالدرجال لفخر غير مشثوم

قال ابن قتيبة : وعمرو بن كلثوم هو القائل * الألهى بصحنك فاصبحينا * وكان قام بها خطيبا فيما كان بينه وبين عمرو بن هند ، وهي من جيد شعر العرب القديم ، وإحدى السبع^(١) .

وتبدو في هذه المعلقة ظاهرة جديدة تختلف بها عن غيرها من المعلقات ، فهي لا تبدأ بذكر الدمن والأطلال ، ولا بذكر الأحبة الذين رحلوا عنها ، ولكنها تبدأ ، على غير المهود من ذلك في الشعر الجاهلي بخاصة بذكر الخمر ومباكرة شربها في الصباح ، ووصف ما تفعل بشاريها إذا كانوا كراماً أو كانوا أشعة بما تبعث فيهم من الارتياح إلى البذل والسخاء ، والتب على الساقية التي لم تعدل في توزيع شرابها على الذين عزفوا أصول السقي وقواعد المنادمة في مختلف بيئاتها .

ثم ينتقل بعد هذا المطلع إلى ذكر الظامئين ومساءتهما عن سر الرحيل ، ثم يأخذ في وصف المرأة وتشبيه أجزاء جسمها بما يشتهي من الأوصاف ؛ حتى يأخذ في موضوع المعلقة الذي أشأه أيام التحاكم أمام عمرو بن هند في الخلاف بين بنى تغلب وبنى بكر ، وفي هذا الجزء من القصيدة يفلو عمرو بن كلثوم في الفخر بنفسه وقومه ، والتباهي بشجاعتهم وأيامهم التي امتلأت بالقتل والدماء ، وعصيائهم الملوك والثورة عليهم وقتلهم ، حتى هابتهم الجزيرة وخشيت سطوتهم قبائلها . ويصف في أثناء ذلك وقائعهم وما أنزلوا بأعدائهم من الهزائم ، ومجد

قبيلته الموروث الذي تعترف لهم به قبائل معد ، والغارات التي كانوا يقومون بها ،
 مما يصور حياة الجاهلية التي فقدت الأمن والسلام ، وعمتها الفوضى والحروب ،
 ولا يزال يهدد العرب بقومه الذين لا يزالون على عهدهم أهل نخوة وبأس ،
 ويحذرهم محاولة الاعتداء عليهم بالقول والفعل .

ثم ينتقل إلى الجزء الثاني من موضوعي المعلقة ، وهو الذي يتصل بقصة أمه
 ليلي التي حاولت أم عمرو بن هند أن تحطم كبرياءها وتستخدمها ؛ وما جرّ ذلك
 من نورة عمرو بن كلثوم ومقتله الملك . وفي هذا الجزء يصل الفخر ويهدد الملك ،
 ويذكر آباءه وأجداده الذين عرف تاريخ العرب بساتهم وبلاءهم ، ثم يخاطب
 بني بكر مذكرا لإيام بما عرفوا من وقائعهم ، ويصف كتائب قومه وما تدجبت
 به من السلاح والدروع ، وما فعلت في جيوش الأعداء ، والخيل السكريمة
 التي ورثوها عن آبائهم السكرام ، وأشار إلى ما كان يفعل العرب الذين كانوا
 يشهدون نساءهم الحروب ، وقيمونهن خلف الرجال ، ليقاتل الرجال ذبا عن
 حرمهم ، فلا يفشلون مخافة العار بسبي الحرم ، ويذكر ما أخذن على رجالهن من
 العهود ، وما يستترن به نخوتهم وبساتهم .

ثم يعود إلى مفاخر العرب فيجعلها لقومه ، فهم في الذروة والسنام من العزة ،
 وهم المطمعون في الحل ، والمتنصرون في الحرب ، وهم الذين يغيرون ولا يغير الناس
 عليهم ، يدعون ما سخطوا ، ويأخذون ما رضوا ، ويحمون من أطاعهم ،
 ويفتكون بمن عصاهم ، لا يسكتون على ثأر ، ولا ينامون على ذل .

هذا مجمل أغراض المعلقة التي نجد فيها غلوا في الفخر ، واعتداداً بالنفس
 والقبيلة ، كما نجد في ألفاظها وتراكيبها سهولة ورقة ، لا نكاد نجد لها نظيراً
 في الشعر الجاهلي ، ومرجع هذا طبيعة الشاعر ، ولا شك أن لتلك الطبيعة أبعد
 الأثر فيما يصدر عنه من قول . وهذا يدلنا على تباين الشعر الجاهلي ، وقد مرت

بنا معلقة لبيد ، وما أودع فيها من غريب اللفظ الذى لا يوقف على معناه بسهولة ؛
وهذه المعلقة على عكسها ، قلما نجد فيها ما يحتاج إلى شيء من العنت في فهمه ،
وفى هذا ما يؤكد طبيعة هذا الشعر الذى يختلف باختلاف أذواق أصحابه وتباين
أمزجتهم بين الغلظة واللين ، والجزالة والسلاسة .

قال الذين قدموا عمرو بن كلثوم : هو من قدماء الشعراء ، وأعزهم نفساً ،
وأكبرهم امتناعاً ، وأجودهم واحدة . وقال عيسى بن عمرو : لله در عمرو بن
كلثوم ، أى حنس شعر ، ووعاء علم ، لو أنه رغب فيما رغب فيه أصحابه من
الشعراء ، وإن واحدته لأجود سبعهم .

وذكر أبو عمر بن العلاء إن عمرو بن كلثوم لم يقل غير واحدته ، ولولا أنه
افتخر فى واحدته وذكر مآثر قومه ما قالها . وكان عيسى بن عمر يقول :
لو وضعت أشعار العرب فى كفة وقصيدة عمرو بن كلثوم فى كفة لمالت
بأكثرها^(١) .

وفى آتى النص الكامل لمعلقة عمرو بن كلثوم :

- (١) أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي خَوَرَ الْأَنْدَرِينَا
- (٢) مُشْمَعَةً كَانَ الْحُصَّ فِيهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا مَخِينَا
- (٣) تَجَوَّرُ بَذَى اللَّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَازَقَهَا حَتَّى يَلِينَا
- (٤) تَرَى الْأَجِزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِرْتُ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينَا
- (٥) صَبَّزَتِ الْكَأْسَ عَنَّا أُمُّ عَمْرٍو وَكَانَ الْكَأْسُ نَجْرَاهَا الْهَمِينَا^(٢)

(١) جهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ٤٠ — ٤١ .

(٢) يُروى هذا البيت والبيتان اللذان يليانه لعمرو بن عدى الاعمى ابن أخت جذيمة
الأبرش ، قيل : إن رجلين خرجا يريدان مدح جذيمة الأبرش والتمرض اصلته ومعهما قينة لها ،

- (٦) وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عمرو
بصاحبكِ الذي لا تصبِحِينَا
(٧) وكأسٍ قد شربتُ بِيَعْلَبَكْ
وأُخْرَى في دِمَشْقَ وقاصِرِينَا
(٨) وإِنَّا سوفَ تُذَرِكُنَا المنايا
مقدَّرةً لنا ومقدَّرينَا
(٩) ففى قبل التفرُّقِ ياظْمِينَا
نُخَبِّرُكِ اليقينَ ونُخْبِرِينَا
(١٠) ففى نسألكِ هل أُحْدِثْتِ صَرَمًا
لَوْشِكِ البينِ أو خُنْتُ الأَمِينَا
(١١) بيومِ كَرِهَةٍ ضَرَبَا وطَمْنَا
أَقْرَ به مَوَالِيكِ العيونا
(١٢) وإِن غداً وإِنَّ اليومَ رَهْنٌ
وبعدَ غدٍ بما لا تعلمِينَا
(١٣) تُرِيكِ إِذَا دَخَلْتَ على خَلَاهِ
وقد أَمِنْتَ عيُونَ الكَاشِحِينَا
(١٤) ذِرَاعَى عَيْطَلٍ أَدْمَاءَ بِيَكْرٍ
هَجَانِ اللونِ لم تَقْرَأْ جَنِينَا
(١٥) ونُذِيًا مِثْلَ حُقِّ العَاجِ رَخَصَا
حَصَانًا من أَكْفِ اللامِسِينَا
(١٦) وَتَنَنِي لَدَنَةٍ سَمَعَتْ وطَالَتْ
رَوَادِفُهَا تَنُوهُ بِمَا وَلِينَا
(١٧) وَمَأْكَمَةٌ يَضِيقُ البابُ عنها
وكشْحًا قد جُنِنْتُ به جُنُونَا
(١٨) وسَارِيقِي بِلِنَطٍ أَوْ رُخَامٍ
يَرِنُ خَشَّاشُ حَلِيمِهَا رَيْنَا
(١٩) فمَا وَجَدْتَ كَوَجْدِي أَمْ مُتَقَبِّ
أَضْلَمْتُهُ فَرَجَعْتَ الحَنِينَا
(٢٠) ولا شَمَطَاهُ لم يَتْرُكْ شَقَاهَا
لها من نَسَقٍ إِلا جَنِينَا
(٢١) تَذَكَّرْتُ الصَّبَا واشتَقْتُ لَمَّا
رَأَيْتُ حُومَهَا أَصْلًا حُدِينَا
(٢٢) فَأَعْرَضْتَ إِلَيَّ وَاشْمَخْتَ
كَأَسَافٍ بَأَيْدِي مُضْلِمِينَا
(٢٣) أَبَاهُ هَذِي فلا تَعَجَّلْ عَلَيْنَا
وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرُكِ اليقينَا

== فلما كانا في بعض الطريق قعدا يشربان ، فإذا هما بعمرو قد وقف عليهما ، فلما صبت القدر صرفته عنه إليهما فقال هذه الأبيات .

- (٢٤) بَأَنَّا نُورِدُ الرِّايَاتِ بِيضًا
وَنُضْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوَيْنَا
- (٢٥) وَأَيَّامٍ لَنَاغُرَةً طَوَالَ
عَصَيْنَا الْمَلَكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا
- (٢٦) وَسَيِّدٍ مَفْشَرٍ قَدْ تَوَجَّوْهُ
بِتَاجِ الْمَلِكِ يَحْمِي الْمُحْجَرِينَ
- (٢٧) تَرْكْنَا الْحَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ
مَقْلَدَةً أَعْنَتَهَا صُفُونَا
- (٢٨) وَأَنْزَلْنَا الْبُيُوتَ بَذَى طُلُوحٍ
إِلَى الشَّامَاتِ تَنَفَّى الْمُؤَعَّدِينَ
- (٢٩) وَقَدِ هَرَّتْ كِلَابُ الْحَيِّ مِنَّا
وَشَذَّبْنَا قَتَادَةً مَنْ يَلِينَا
- (٣٠) مَتَى نَنْقُلْ إِلَى قَوْمٍ رَحَانَا
يَكُونُوا فِي اللَّقَاءِ لَهَا طَاحِينَا
- (٣١) يَكُونُ نَفَاكُهَا شَرْقِيَّ نَجْدٍ
وَلَهْوَتِهَا قَضَاعَةُ أَجْمَعِينَا
- (٣٢) نَزَاؤُـ مَنْزِلِ الْأَضْيَافِ مِنَّا
فَأَعْجَلْنَا الْقَرِيَّ أَنْ تَشْتَمُونَا
- (٣٣) قَرَيْنَاكُمْ فَعَجَّلْنَا قِرَاكُمُ
قُبَيْلَ الصُّبْحِ مِرْدَاةً طَحُونَا
- (٣٤) نَعْمُ أَنْاسَنَا وَنَعِمُ عَنْهُمْ
وَنَحْمِلُ عَنْهُمْ مَا حَمَلُونَا
- (٣٥) نَطَاعِنُ مَا تَرَاحَى النَّاسُ عَنَّا
وَنَضْرِبُ بِالسُّيُوفِ إِذَا غَشِينَا
- (٣٦) بِسُمْرٍ مِنْ قَنَا الْخَطِيئُ لُدُنِ
ذَوَابِلِ أَوْ بِيْضٍ يَعْثَلِينَا
- (٣٧) كَانَ جَاهِجَ الْأَبْطَالِ فِيهَا
وُسُوقُ بِالْأَمَاعِزِ يَرْتَمِينَا
- (٣٨) نَشَقُّ بِهَارُؤُسُ الْقَوْمِ شَقًّا
وَنُخْلِيهَا الرِّقَابَ فَتَخْتَلِينَا
- (٣٩) وَإِنَّ الضَّغْنَ بَعْدَ الضَّغْنِ يَبْدُو
غَلِيكَ وَنُخْرِجُ الدَّاءَ الدَّافِينَا
- (٤٠) وَرَرْنَا الْجِدَادَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدَّةُ
نَطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يَدِينَا
- (٤١) وَنَحْنُ إِذَا عِمَادُ الْحَيِّ خَرَّتْ
عَلَى الْأَحْقَاصِ نَمْنَعُ مَنْ يَلِينَا
- (٤٢) نَجْذُرُهُمْ فِي غَيْرِ بَرٍّ
فَمَا يَدْرُونَ مَاذَا يَتَقَوُّنَا
- (٤٣) كَانَ سِيُوفُنَا فِيْنَا وَفِيهِمْ
نَخَارِقُ بِأَيْدِي لَاعِينَا

- (٤٤) كَانَ ثِيَابَنَا مَنَا وَمِنْهُمْ
(٤٥) إِذَا مَا عَى بِالْإِسْنَابِ حَى
(٤٦) نَصَبْنَا مِثْلَ رَهْوَةٍ ذَاتَ حَدٍّ
(٤٧) بِشَبَّانٍ يَرَوْنَ الْقَتْلَ مَجْدًا
(٤٨) حُدَيَّا النَّاسِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا
(٤٩) فَأَمَّا يَوْمَ خَشِيتُنَا عَلَيْهِمْ
(٥٠) وَأَمَّا يَوْمَ لَانْخَشَى عَلَيْهِمْ
(٥١) رَأْسٍ مِنْ بَنِي جُشَمَ بْنِ بَكْرِ
(٥٢) أَلَا لَا يَعْلَمُ الْأَقْوَامُ أَنَا
(٥٣) أَلَا لَا يَجْهَلُونَ أَحَدٌ عَلَيْنَا
(٥٤) بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَوِ بْنِ هَنْدٍ
(٥٥) بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَوِ بْنِ هَنْدٍ
(٥٦) تَهْدِدُنَا وَأَوْعِدُنَا رُوَيْدًا
(٥٧) فَإِنْ قَنَانَا يَا عَمْرُو أَغَيْتَ
(٥٨) إِذَا عَصَّ الثَّقَافُ بِهَا اشْمَازَتْ
(٥٩) عَشَوَزَنَةً إِذَا انْقَلَبْتَ أَرَنْتَ
(٦٠) فَهَلْ حَدَّثْتَ فِي جُشَمَ بْنِ بَكْرِ
(٦١) وَرِثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بْنِ سَيْفٍ
(٦٢) وَرِثْتُ مُهْلَهْلًا وَالْخَيْرَ مِنْهُمْ
(٦٣) وَعَتَابًا وَكُلْنُومًا جَمِيعًا
- خُضَيْنَ بِأَرْجَوَانَ أَوْ طَلِينَا
مِنْ الْهَوْلِ الْمَشْبِيِّ أَنْ يَكُونَا
مَحَافِظَةً وَكُنَّا السَّابِقِينَ
وَشِدْبٍ فِي الْحُرُوبِ مَجْرِبِينَ
مُقَارَعَةً بَيْنَهُمْ عَنْ بَنِيْنَا
فَتَصْبِحُ خَيْلُنَا عُصْبًا ثُبِينَا
فَنُفِئُ غَارَةً مُتَلَبِّينَا
نَدَقُ بِهِ السُّهْلَةَ وَالْحَزُونََا
تَضَمُّعُنَا وَأَنَا قَدْ وَنِينَا
فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ
نَكُونُ لِقَيْلِكُمْ فِيهَا قَطِينَا
تُطِيعُ بِنَا الْوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا
مَتَى كُنَّا لِأَمَلِكِ مَقْتَوِينَا
عَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا
وَوَلَّتْهُمْ عَشَوَزَنَةً زَبُونَا
تَشِجُّ قَفَاً الْمُثَقَّفِ وَالْجَبِينَا
بِنَقْصٍ فِي خُطُوبِ الْأَوَّلِينَا
أَبَاحَ لَنَا حِصُونََ الْمَجْدِ دِينَا
زَهِيرًا زَمَّ ذُخْرُ الدَّخْرِينَا
بِهِمْ نَلْنَا تَرَاثَ الْأَكْرَمِينَا

- (٦٤) وَذَا الْبُرَّةِ الَّذِي حَدَّثَتْ عَنْهُ
 (٦٥) وَمَنَا قَبْلَهُ الدَّاعِي كَلِيبُ
 (٦٦) مَتَى نَعْقِدُ قَرِينَتَنَا بِجَلِيلِ
 (٦٧) وَنُوجِدُ نَحْنُ أَمْنُهُمْ ذِمَاراً
 (٦٨) وَنَحْنُ دَاةَ أُوقِدَ فِي خَزَازَى
 (٦٩) وَنَحْنُ الْحَابِسُونَ بِذَى أَرَاطَى
 (٧٠) وَكُنَّا الْأَيْمَنِينَ إِذَا التَقِينَا
 (٧١) فَصَالُوا صَوْلَةً فِيمَنْ بَلِيهِمْ
 (٧٢) فَأَبَوْا بِالْهَكَبِ وَالسَّبَايَا
 (٧٣) إِلَيْكُمْ يَابْنَى بَكْرِ إِلَيْكُمْ
 (٧٤) أَلْمَا تَعْرِفُوا مَنَا وَمَنْكُمْ
 (٧٥) عَلَيْنَا الْبَيْضُ وَالْيَلْبُ الْيَمَانِي
 (٧٦) عَلَيْنَا كُلُّ سَابِقَةٍ دِلَاصِ
 (٧٧) إِذَا وُضِعَتْ عَنِ الْأَبْطَالِ يَوْمًا
 (٧٨) كَانَ غُضُونُهُنَّ مُتُونُ غُدْرِ
 (٧٩) وَتَحْمِلُنَا غَدَاةَ الرَّوْعِ جُرْدُ
 (٨٠) وَرَدْنَ دَوَارِعًا وَخَرَجْنَ شُعْمًا
 (٨١) وَرِثْنَاهُنَّ عَنْ آبَاءِ صِدْقِ
 (٨٢) عَلَى آثَارِنَا بَيْضُ حِسَانِ
 (٨٣) أَخَذْنَ عَلَى بُعُوثِهِنَّ عَهْدًا
- بِهِ نَحْمَى وَنَحْمَى الْمُخَجَرِينَا
 فَأَيُّ الْحَدِيدِ إِلَّا قَدْ وَلِينَا
 نَجُذُّ الْحَبْلَ أَوْ نَقِصَ الْقَرِينَا
 وَأَوْفَاهُمْ إِذَا عَقَدُوا يَمِينَا
 رَفَدْنَا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافِدِينَا
 تَسَفُّ الْجِلَّةُ الْخُورُ الدَّرِينَا
 وَكَانَ الْأَيْسَرِينَ بَنُو أَبِيْنَا
 وَصَلْنَا صَوْلَةً فِيمَنْ بَلِيهِمْ
 وَأَبْنَا بَالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا
 أَلْمَا تَعْرِفُوا مَنَا الْيَقِينَا
 كِتَابَ بَطْنِ بَرْتَمِينَا
 وَأَشْيَافُ يُقَمِّنَ وَيَنْحَنِينَا
 تَرَى فَوْقَ النَّجَادِ لَهَا غُضُونَا
 رَأَيْتَ لَهَا جُلُودَ الْقَوْمِ جُونَا
 تُصَفِّقُهَا الرِّيحُ إِذَا حَرَيْنَا
 عُرْفَنَ لَنَا نَقَائِدَ وَافْتُلِينَا
 كَأَمْثَالِ الرِّصَائِعِ قَدْ بَلِينَا
 وَنُورِئُهَا إِذَا مُتْنَا بَنِينَا
 نَحْذِرُ أَنْ تُقَسِّمَ أَوْ تَهُونَا
 إِذَا لَاقُوا كِتَابَ مُعَلِّمِينَا

- (٨٤) لَيْسَتْ لُبُنْ أفراساً وبيضا وأمرى في الحديد مقرّيننا
- (٨٥) ترانا بارزين وكلّ حى قد اتخذوا مخافتنا قرينا
- (٨٦) إذا مارحن يمشين الهوىنى كما اضطربت متون الشاربينا
- (٨٧) يفتن جيانا ويقن لستم يعلتنا إذا لم نتمنعونا
- (٨٨) إذا مالم نحمهن فلا بقينا لشيء بعدهن ولا حيننا
- (٨٩) ظمان من بنى جشم بن بكر خلطن عيسم حسبا ودينا
- (٩٠) وما منع الظمان مثل ضرب وما من السواعد كالقلمينا
- (٩١) كأننا واليؤف مسلمات ولدنا الناس طرا أجمعينا
- (٩٢) يدهدون الروس كما تدهدى حزاررة بأبطحها الكرينا
- (٩٣) وقد علم القبائل من معدة إذا قبب بأبطحها مبينا
- (٩٤) بأننا المطعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا ابتلينا
- (٩٥) وأنا المانعون لما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
- (٩٦) وأنا التاركون إذا سخطنا وأنا العارمون إذا أطمنا
- (٩٧) ونشرب إن وردنا الماء صفوا وأنا العارمون إذا أطمنا
- (٩٨) ألا أبلغ بنى الطمّاح عنا وإذا ما اللأك سام الناس خسفا
- (٩٩) لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبتش حين نبتش قادرينا
- (١٠٠) نسّمى ظالمين وما ظلمنا ولكنّا سنبدأ ظالمينا

(١٠٣) مَلَأْنَا الْبِرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَمَاءَ الْبَحْرِ تَمَلُّوهُ سَفِينَا

(١٠٤) إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخَرَّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَ

عنزة

وهو من فحول الطبقة السادسة من شعراء الجاهلية عند ابن سلام ، وقد وضعه مع عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وسويد بن أبي كاهل ، قال : ولكل واحد منهم واحدة . . وعنزة هو ابن شداد بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قُطَيْمة بن عيس ، وله قصيدة ، وهي :

لَمَادَارَ عَيْلَةٍ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي وَعِمَى صَبَاحًا دَرَّ عَيْلَةً وَاسْلَمِي

وله شعرٌ كثير ، إلا أن هذه نادرة ، فألحقوها مع أصحاب الواحدة^(١)...

وقال ابن قتيبة في نسب عنزة : هو عنزة بن عمرو بن شداد بن عمرو بن قراد بن مخزوم . . . ونقل عن ابن الكلبي أن شدادًا هو جدُّه أبو أبيه ، غلب على اسم أبيه ، فنُسب إليه ، وإنما هو عنزة بن عمرو بن شداد . وقال غيره : شداد عمه ، وكان عنزة نشأ في حجره ، فنُسب إليه دون أبيه .

وإنما ادَّعاه أبوه بعد الكبر ، وذلك أنه كان لأمّة سوداء ، يقال لها « زَرِيْبِيَّة » . وكانت العرب في الجاهلية إذا كان للرجل منهم ولد من أمة استعبده ، وكان لعنزة إخوة من أمه عبيد .

وكان سبب ادَّعاه أبي عنزة إياه أن بعض أحياء العرب أغاروا على قوم من

بنى عبس ، فأصابوا منهم ، فتقبهم العبسيون ، فلحقوهم فقاتلهم عما معهم ،
وعنترة فيهم ، فقال له أبوه : كُرْ يا عنترة ! فقال عنترة : العبد لا يحسن الكرَّ ،
إنما يحسن الحلاب والصَّرَّ^(١) ! فقال : كُرْ وأنت حرٌّ ! . فكرَّ وقاتل يومئذ
فأبلى ، واستنقذ ما كان بأيدي عدوهم من الغنيمة ، فادعاه أبوه بعد ذلك ، وألحق
به نسبه .

وعنترة أحد « أغربة العرب »^(٢) وكان من أشدَّ أهل زمانه وأجودهم بما
ملك يده ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتى ساءه رجل
من بني عبس ، فذكر سواده وسواد أمه وإخوته ، وعيره بذلك ، وبأنه لا يقول
الشعر ، فقال له عنترة : والله إن الناس ليتراقدون بالطَّعْمة ، فما حضرت مرَّ قد
الناس أنت ولا أبوك ولا جدك قط ، وإن الناس ليدَّعون في الغارات فيعرفون
بتسويهم ، فما رأيُناك في خيل مغيرة في أوائل الناس قط ، وإن اللبس ليسكون
بيننا ، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطه فيصل ، وإنما أنت فقَّعُ نبت
بقرَّقر ، وإني لأحتضر البأس ، وأوفي المغنم ، وأعفَّ عن المسألة ، وأجود بما
ملك يدي ، وأفصل الخطَّة الصمماء ، وأما الشعر فستعلم . . .
فكان أول ما قال قصيدة : * هلْ غادرَ الشعراء من مُترَدِّمٍ * وهي أجود
شعره وكانوا يسمونها (المذْهَبَةُ)^(٣) .

(١) الصرشد الضرع برباط ، وكان من عادة العرب أن تصر ضروع الحلوبات إذا
أرسلوها إلى المرعى سارحة ، ويسمون ذلك الرباط الصرار ، فإذا راحت عشياً حلت تلك
الأصرة وحلبت .

(٢) أغربة العرب سودانهم ، شهبوا بالأغربة في لونهم ، وهم ثلاثة : عنترة وأمه زبيبة
سوداء ، وخفاف بن عمير الشريدي من بني سليم وأمه نذبة وإليها ينسب وكانت سوداء ،
والسليك بن عمير السعدي وأمه سلكة وإليها ينسب وكانت سوداء .

(٣) الفصل القضاء بين الحق والباطل ، واسم ذلك القضاء الذي يفصل بينهما فيصل =

وكان عنقرة قد شهد حرب « داحس والغبراء » فحسن فيها بلاؤه ، وحدث مشاهدته .

قال أبو عبيدة : إن عنقرة بعد ما تأوت^(١) عبس إلى غطفان بعد يوم جبلة ، وحملت الدماء ، احتاج ، وكان صاحب غارات ، فكبر فمعجز عنها ، وكان له بـسكر على رجل من غطفان ، فخرج قِيْلَه يتجازاه ، فهاجت رائحة من صَيِّف ، وهبت ناختة ، وهو بين شَرَج وناظرة ، فأصاب الشيخ فهرأته ، فوجدوه ميتا بينهم^(٢) .

وكان عنقرة يلقب « عنقرة الفلحاء » لتشقق في شفته ، وأنثوا اللقب اتباعاً لتأنيث اسمه ، أو لتأنيث الشفة التي وصفت بالفَاح ، وكان يكنى « أبا المغلس » والمغلس هو السائر في الغلس ، والسير في الظلام من أمارات الجرأة والشجاعة ، أو أن ذلك إشارة إلى سواد لونه .

وقد عاصر عنقرة الخطيئة وعمرو بن معد يكرب ، وكلاهما أدرك الإسلام ، ووصفه يوما الخطيئة لعمر بن الخطاب ، حين سأله : كيف كنتم في حربكم ؟ فقال : كان قيس بن زهير فينا ، وكان حازماً فكنا لا نعصيه ، وكان فارسنا عنقرة ، فكنا نحمل إذا حمل ، ونحجم إذا حجم . وذكره عمرو بن معد يكرب

= والقعق بالفتح والكسر الرخو من السكأة وهو أردوها ، والقرقر : الأرض الطمثة اللينة ، وهذا مثل ، يقال : أذل من ققع بقرقر ، لأن الدواب تنجله بأرجلها ولا أصول له ولا أغصان ، والصحاء الماضية ، والمتروك من قولهم ردمت الثوب أى أصاحته . والمعنى هل أبقى الشعراء لأحد معنى إلا وقد سبقونا إليه ، فلم يدعوا مقالاً لفاثل (انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٠٦/١) .

(١) تأوت عادت ، أوى وتأوى بمعنى .

(٢) الصيف بتشديد الياء المكسورة الماء الذى يجىء فى الصيف ، والريح الناختة الباردة ، وشرج وناظرة ماء ان لعبس .

في قوله : ما أبالي من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقني حرُّها وعبداها ، يعني بالحرِّين : عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب . ويعني بالعبدین : عنزة ، والسَّيِّك بن السَّلَكَة . وفي نحو سنة ٦٥٠ م (٣٠ هـ) مات الحطيئة ، وقبله في سنة ٦٤٢ م (٢١ هـ) مات عمرو بن معد يكرب . وقبل هذا بأعوام كانت «حرب داحس والغبراء» التي خبت نارها بين سنتي ٦٠٨ م وسنة ٦١٠ م . وقد رجح صاحب كشف الظنون وفاة عنزة سنة ٦١١ م وروى غيره أن وفاته كانت سنة ٦١٥ م . وفي رواية أن عنزة مات مقتولا ، وكان أغار على بني طيء ، وهو شيخ ، فرماه ابن سلمى ، وقاتل عنزة حتى أتى قومه وهو مجروح ، فقال : وإن ابنَ سلمى عنده فاعلموا دمي وهيهات لا يُرَجِّي ابنُ سلمى ولا دمي وعاش ابن سلمى قاتل عنزة إلى ما بعد الهجرة ، وكان أحد الوافدين من طيء على النبي صلى الله عليه وسلم^(١) .

وكان عنزة قد عشق في شبابه (عبلة) ابنة عمه ، قبل أن يحرره أبوه ويدعيه ، فأبى عمه أن يزوجه ابنته وهو عبد ، فخفزه ذلك إلى طلب المعالي ونشدان المجد ، وأثار شاعريته . فاجتمع له الشعر السلس القوي ، والشجاعة النادرة ، والمروءة والبذل ، حتى إذا أصبح سيداً حرّاً زوجه عمه ابنته عبلة .

وإنك لو اجد في شعره آثار تلك العظمة النفسية التي وهبها ذلك الفارس العربي ، الذي أصبح اسمه علما على الشجاعة والنجدة ، وعنوانا على الحب الصادق ، والبذل والسخاء ، وجرى ذكره في المصور يتغنى به العاشقون والسكران والشجعان ، وقد أضيف إلى أخباره كثير ، وحمل عليه من الشعر كثير ، حتى أصبح عنزة قصة تروى في الأجيال .

(١) انظر شرح ديوان عنزة بن شداد : ل تحقيق عبد المنعم شاي ، وتقديم إبراهيم الإياري (شركة فن الطباعة — القاهرة)

وفى شعره الموثوق بصحته وصدق نسبته إليه معالم شاعرية ناضجة ، تعبّر
عن تجاربها فى قوة وفخولة ، وفى لغة تجمع الجزل والسهل على حسب ما يقتضيه
كل غرض من الأغراض المختلفة التى عالجها . ففيه الفخر بشجاعته وسخائه ،
وفيه الوصف ، وفيه النسيب الصادق . كل ذلك فى معان تجدد فيها الشخصية
بارزة ، والجدّة ظاهرة ، فقد خلط الحياة التى عاشها والبيئة التى عاش فيها ،
والأحداث التى شهداها ، بهمسات قلبه ، وذوب عواطفه ، ونجوى فؤاده ، حتى
كان ذلك الشعر الصادق المتين الذى يشهد لصاحبه بالفخولة ، كما شهدت له الوقائع
والأحداث بالبسالة والبطولة .

معلقة عنزة

أشرنا فيما سبق إلى السبب الذى أثار عنزة لإنشاد معلقته ، وهو ما كان
بينه وبين رجل من بنى عبس سابه ، وعيّر بسواد أخوته وسواد أمه ، وأنه
لا يقول الشعر ، فكان ذلك هو الذى أثار شاعريته ، وأطلق لسانه
بتلك المعلقة التى كانت أول مقال الشعر ، كما ذكر ذلك ابن قتيبة وغيره .

واست أطمئن إلى هذا السبب ، الذى يوحى بأن عنزة قد ارتجل هذه
المعلقة ارتجالاً بسببه ، ليدل على أن فى استطاعته أن يقول الشعر . فقد بلغ المأثور
من هذه المعلقة حدّاً كبيراً من الجودة والإتقان والابداع الفنى وطول النفس ،
يصبح معه القول بأن تلك المعلقة كانت أول مقال عنزة من الشعر ضرباً
من الخيال ، فليس الشعر الذى نقرؤه فى تلك المعلقة شعر شاعر مبتدىء ، بل
هو شعر ناضج كل النضج ، وهو فى الذروة من شعر الفحول الذين راضوا
أنفسهم طويلاً على تلك الصناعة ، وفيها أغراض أخرى عبر عنزة فيها ،

إشارة إلى ذلك الحديث ؛ بل إن تلك الأغراض من الممكن أن تكون أو يكون واحد منها سبباً لإنشادها .

وقد بدأها عنقرة بذلك المطلع الخالد الذي عثر فيه عن نضج الشعر الجاهلي قبله ، وسبق الشعراء إلى معانيه ، وكأنه يتهيب القول ، لأن السابقين لم يدعوا مقالاً لقائل ، وأكمل ذلك المطلع بذكر الديار التي عرفها بعد توهم ؛ ثم أعقب ذلك بمناجاة دار عبلة وتحيتها واستنطقها علماً تخبره عن أهلها الطاعنين عنها ، فتخفف من لوعته ووجده . وقد ذهب بعض الرواة إلى أن بيت عنقرة .

يادار عبلة بالجواء تسكلمى وعى صباحاً دار عبلة واسلمى

هو مطلع القصيدة ، وكأنهم ينكرون أن يكون البيت الأول من شعر عنقرة ولا حجة لهم في هذا الإنكار ، ومن ذهب هذا المذهب ابن سلام الجحى صاحب الطبقات ، وابن عبدربه صاحب العقد ، وغيرها . وهذا البيت الذي اختاروه مطلقاً يقع ثلثي أبيات المعلقة في بعض الروايات ويقع رابعاً في غيرها ، كما سيأتى فيما ثبت من شعر المعلقة ، والبيتان اللذان أغفلهما أكثر الرواة هما :

(٢) أعيك رسمُ الدار لم يتكلم - حتى تكلم كالأصم الأعجم -

(٣) ولقد حبستُ بها طويلاً ناقى أشكو إلى سفع رواكد جُثم -

ثم أخذ يصف دار عبلة متغزلاً بها ، ويذكر منازلها ومنازل قومه ، ويوازن بين حالها وحاله ، ويذكر صعوبة طلابها وبعد مزارها ، ويصف حبة لها ، وحلاوة ثمرها ، وما ينبعث من نشرها ، فشبه ثمرها بفأرة المسك مرة ، وبالروضة الأنف التي تجود عليها السحب فلا تخلو من الرى مرة أخرى . وهو في كل مرة لا ينسى أن

يذكر ما هي فيه من أمن ودعة ، وما يقاسى هو في غدوه ورواحه من العناء ، ثم أخذ في وصف الناقة التي قد تبلغه دارها ، على نحو ما فعل طرفة ، ولكنه لم يسرف ، وانتقل إلى وصف فرسه الذي يخوض به معامع القتال ، ليذكر بلاءه فيها ، وأنه لم يستطع أن ينساها وهو في غمراتها ، والرماح تنهل منه ، والسيوف تقطر من دمه ، وكيف كان يصارع الأبطال فيصرعهم ، ويحرق بسيفه دروعهم ، ثم يطعنهم برمح ، ويعلمهم بسيفه ، ثم يستريح من ذلك قليلا ليناجي حبيبته التي حرمت عليه ، ويذكر إرساله جاريته لتجسس أخبارها ، ثم يعاود ما كان فيه من وصف بلائه في الحرب ، ويذكر ما كان من استحثاث قومه له ودعائهم إياه ليقدم الصفوف ويشنت جموع الأعداء ، ويصل ذلك بالاعتذار إلى حبيبته عن عدم استطاعته زيارتها بسبب تلك الأهوال التي كان يخوضها ، وختم قصيدته بماسقه من الوعيد لابن ضمضم اللذين كان عنتره قد قتل أباهما فتوعدها ونذراده .

ويتضح من هذا أن الغرض الغالب على معلقة عنتره هو الفخر ببيئته في ميادين القتال ، وصبره على لقاء الأبطال ، وذلك الغرض مشوب بالفرل ومشوب بالوصف . ومن الممكن الذهاب إلى أن الغرض الأصلي من القصيدة الفرل ، وأن ما أسرف فيه عنتره من ذكر بطولته ووصف وقائعه قد تذرع به ليفزو قلب حبيبته بشجاعته الفائقة ، ليعوّض بذلك ما فقده من جمال اللون ونسب الأم ، لتكون تلك الشجاعة مفخرته التي فقدتها كثير من حسان الوجوه وكرام أعراق الأبوين .

وفيما يلي نص معلقة عنتره :

- (١) هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهم .
- (٢) أغياك رسم الدار لم يتكلم حتى تكلم كالأهم الأعجم .

- (٣) ولقد حَدَّثْتُ بها طويلاً ناقتي
(٤) يادارَ عُبْلَةَ بالجِوَاهِ تَكَلَّمِي
(٥) دارُ لَانَسَةِ غَضِيضٍ طَرْفُهَا
(٦) فَوَقَفْتُ فِيهَا ناقتي وَكَانَها
(٧) وَنَحَلْتُ عُبْلَةَ بِالْجِوَاهِ وَأَهْلُنَا
(٨) حَيَّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ
(٩) حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ
(١٠) عُلَّةً تَهْتَ عَرَضًا وَأَقْبَلُ قَوْمُهَا
(١١) وَلَقَدْ نَزَلَتْ فَلَا تَظُنِّي غَيْرَهُ
(١٢) كَيْفَ الْمَزَارُ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا
(١٣) إِنْ كُنْتَ أَرْمَعْتَ الْفِرَاقَ فَإِنَّمَا
(١٤) مَا رَاعَى إِلَّا حَمُولَةَ أَهْلِهَا
(١٥) فِيهَا اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ حَلُوبَةً
(١٦) إِذْ تَسْتَبِيدُكَ بَدَى ذُرُوبٍ وَاضِحٍ
(١٧) وَكَأَنَّمَا نَظَرْتَ بِعَيْنِي شَادِنٍ
(١٨) وَكَأَنَّ فَارَةَ تَاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ
(١٩) أَوْ رَوْضَةَ أَنْفَا تَضْمَنَ نَبَتُهَا
(٢٠) جَادَتْ عَلَيْهَا كُلُّ عَيْنٍ تَرْفٍ
(٢١) سَحًا وَنَسَّ كَابًا فَسَكَلَ شَيْئُهُ
(٢٢) وَخَلَا الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِأَرْحٍ
- أَشْكُو إِلَى سُنْعٍ رَوَاكِدَ جُثْمٍ
وَعِي صَبَاحًا دَارَ عُبْلَةَ وَالْمِي
طَوَّعَ الْعِنَاقِ لَذِيذَةَ التَّبَسُّمِ
فَدَنْ لَأَقْضِيَ حَاجَةَ الْمَلُومِ
بِالْحَزَنِ فَالْصَّمَانِ فَالْمَتَلَمِ
أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْمِ
عَسِرًا عَلَى طِلَابِكَ ابْنَةَ تَخْرَمِ
زَعَمًا لَعَنُ أَيْكَ لَيْسَ بِمَزْعَمِ
مِنِّي بِمَنْزِلَةِ الْمُحَبِّ الْمَكْرَمِ
بِعُسَيْرَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بِالْمَيْلِ
زُمْتُ رِكَابُكُمْ بَلِيلِ مُظْلِمِ
وَسَطَ الدِّبَارِ تَسْفُ حَبِّ الْخُجَمِ
سُودًا كَحَفِيَةِ الْغُرَابِ الْأَسْحَمِ
عَذِبَ مُقْبَلُهُ لَذِيذِ الْمَطْعَمِ
رَشَاءٍ مِنَ الْفِزْلِ لَآنَ لَيْسَ بِتَوَامِ
سَبَقَتْ عَوَارِضُهَا إِلَيْكَ مِنَ الْقَمِ
غَيْثٌ قَلِيلُ الدَّمَنِ لَيْسَ بِمَعْلَمِ
فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارٍ كَالدَّرْهَمِ
يَجْرَى عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ
غَرْدًا كَفَعَلَ الشَّارِبِ الْمُتَرَّمِ

- (٢٣) هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعُهُ بِذِرَاعِهِ
(٢٤) تَمَسَّى وَتَضَبَّحَ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةِ
(٢٥) وَحَشِيَّتِي سَرَجٌ عَلَى عَيْلِ الشَّوَى
(٢٦) هَلْ تُبْلَغَنِي دَارَهَا شَدْنِيَّةُ
(٢٧) خَطَّارَةٌ غِبِّ الْمَرَى مَوَارِدُ
(٢٨) فَكَأَنَّمَا أَقْصَى الْإِكَّامِ عَشِيَّةُ
(٢٩) تَأْوَى لَهُ قُلُوصُ النِّعَامِ كَمَا أَوَتْ
(٣٠) يَنْبَغُنَ قَلَّةَ رَأْسِهِ وَكَأَنَّهُ
(٣١) صَعْلٌ يَعُودُ بِذَى الْعَشِيرَةِ بَيْضَهُ
(٣٢) شَرِبَتْ بِمَاءِ الدُّخْرَيْنِ فَاصْبَحَتْ
(٣٣) وَكَأَنَّمَا تَنَأَى بِجَانِبِ دَفْئِهَا
(٣٤) هَرَّتْ جَنِيْبٌ كُلَّمَا تَطَلَّعَتْ لَهُ
(٣٥) أَتَقَى لَهَا طَوْلُ السِّفَارِ مُقَرَّمَدًا
(٣٦) بَرَكْتَ عَلَى مَاءِ الرِّدَاعِ كَأَنَّمَا
(٣٧) وَكَانَ رُبًّا أَوْ كَحَيْلًا مُعَقَّدًا
(٣٨) بَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَيْنِ غَضُوبٍ جَمْرَةٍ • زِيَّافَةٍ مِثْلِ الْقَنْبِقِ الْمُسَكَّدِ
(٣٩) إِنْ تُعَدِّ فِي دُونِ الْقَنَاعِ فَإِنِّي
(٤٠) أَتَنِي عَلَىٰ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي
(٤١) فَإِذَا ظَلَمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بِأَسِلُ
- قَدَحَ الْمِكْبُ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ
وَأَبَيْتُ فَوْقَ سَرَاةٍ أَذْهَمَ مُلْجَمِ
نَهْدِ مَرَاكِلهُ نَبِيلِ الْمَحْزَمِ
لَعْنَتُ بِمَحْرُومِ الشَّرَابِ مُصَرَّمِ
تَطْلِسُ الْإِكَّامَ بِوَحْدِ خَفِّ مَيْتَمِ
بِقَرِيبِ بَيْنِ الْمَفْسَمِينَ مُصَلَّمِ
حِزْقُ بِمَانِيَّةٍ لَا تُعْجِمُ طَمِطَمِ
حَرَجٌ عَلَى نَمَشٍ لَهْنٌ مُحْجِمِ
كَالْعَبْدِ ذِي الْفَرَوِ الطَّوِيلِ الْأَصْلَمِ
زَوْرَاءُ تَنْفِرُ عَنْ حِيَاضِ الدَّيْلَمِ
وَحَشِيٌّ مِنْ هَزَجِ الْعَشَى مُؤَوَّمِ
غَضَبِي أَتَقَاهَا بِالْيَدَيْنِ وَبِالْقَلَمِ
سَنْدًا وَمِثْلَ دَعَائِمِ الْمُتَخَيَّمِ
بَرَكَتُ عَلَى قَصَبِ أَجَشِّ مُهْضَمِ
حَسَّ الْوُقُودُ بِهِ جَوَانِبَ نَقْمِ
(٣٨) بَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَيْنِ غَضُوبٍ جَمْرَةٍ • زِيَّافَةٍ مِثْلِ الْقَنْبِقِ الْمُسَكَّدِ
(٣٩) إِنْ تُعَدِّ فِي دُونِ الْقَنَاعِ فَإِنِّي
(٤٠) أَتَنِي عَلَىٰ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي
(٤١) فَإِذَا ظَلَمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بِأَسِلُ

- (٤٢) ولقد شربت من المدامة بعدما
 (٤٣) بزجاجة صفراء ذات أصرية
 (٤٤) فإذا شربت فإني مستهلك
 (٤٥) وإذا صحوت فاقصر عن ندى
 (٤٦) وحليل غانية تركت مجذلاً
 (٤٧) سبقت يداي له بعاجل طعنة
 (٤٨) هلاً سألت الخليل يا ابنة مالك
 (٤٩) إذلا أزال على رحالة ساج
 (٥٠) طوراً يجرد للطمان وتارة
 (٥١) يخبرك من شهيد الواقعة أتى
 (٥٢) فأرى مغام لو أشاه حوتيتها
 (٥٣) واقذ كرتك والرماح نواهل
 (٥٤) فوددت تقبيل السيوف لأنها
 (٥٥) ومُدجج كره الكمأة نزاله
 (٥٦) جادت له كفى بعاجل طعنة
 (٥٧) برحمة الفرعني يهدي جرماً
 (٥٨) فشككت بارئ منح الأصم ثيابه
 (٥٩) فتركته جزر السباع يذشنه
 (٦٠) وميك سافنة هتكت فزوجها
 (٦١) ربذ يده بالقداح إذا شتا
- رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمَعْلَمِ
 قُرِنَتْ بِأَزْهَرَ فِي الشَّمَالِ مُقَدَّمِ
 مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
 وَكَأَ عَلِمَتْ شِمَالِي وَتَكَرَّمِي
 نَمَكُو قَرِيبَتَهُ كَشِدْقِ الْأَعْلَمِ
 وَرَشَاشٍ نَافَذَةٍ كَلُونِ الْعَنْدَمِ
 إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
 نَهَيْدِ تَعَاوَرَهُ الْكُمَاءُ مُكَلِّمِ
 يَأْوِي إِلَى حَصَدِ الْقَيْسِيِّ عَرْمَرَمِ
 أَغْشَى الْوَغَى وَأَعْفَى عِنْدَ الْمَغْنَمِ
 فَيَصُدُّنِي عَنْهَا الْحَيَا وَتَكَرَّمِي
 مَنَى وَيَبْضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي
 لَمَعَتْ كِبَارِقِ تَفْرِكِ الْمَتَبَسِّمِ
 لَا تَمْعِنِ هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمِ
 بِمُشَقِّ صَدَقِ الْكُعُوبِ مُقَوِّمِ
 بِاللَّيْلِ مُعْتَسِّ الذَّنَابِ الضَّرَمِ
 لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمَحْرَمِ
 يَقْضُنَ حُسْنَ بَنَانِهِ وَالْمِعْصَمِ
 بِالسَّيْفِ عَنْ حَامِي الْحَقِيقَةِ مُعْلِمِ
 هَتَاكَ غَايَاتِ الْعَجَّارِ مُلَوِّمِ

- (٦٢) لَمَّا رَأَى قَدْ نَزَلْتُ أُرِيدُهُ
(٦٣) فَطَمَنَتُهُ بِالرَّمْحِ ثُمَّ عَلَوْتُهُ
(٦٤) عَنَيْدٍ بِهِ مَدَّ النَّهَارَ كَأَنَّمَا
(٦٥) بَطَلُ كَانَ ثِيَابَهُ فِي سَرَحَةٍ
(٦٦) يَا شَاةَ مَا قَنَصَ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ
(٦٧) فَبَعَثْتُ جَارِيَتِي فَقُلْتُ لَهَا ذَهَبِي
(٦٨) قَالَتْ رَأَيْتُ مِنَ الْأَعَادَى غِرَّةً
(٦٩) وَكَأَنَّمَا التَّفْعَتُ بِجِيدٍ جَدَايَةٍ
(٧٠) نُبِذْتُ عَمْرًا غَيْرَ شَاكِرٍ نِعْمَتِي
(٧١) وَلَقَدْ حَفَظْتُ وَصَاةَ عَمِّي بِالضُّحَا
(٧٢) فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ الَّتِي لَا تَشْتَكِي
(٧٣) إِذْ يَقْتُونُ بَنَى الْأُسْنَةَ لَمْ أُخِمْ
(٧٤) وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِغَارَةٍ فِي لَيْلَةٍ
(٧٥) لَمَّا سَمِعْتُ نَدَاءَ مُرَّةٍ قَدْ عَلَا
(٧٦) وَتَحَلَّمُ يَسْمُونَ نَحْتَ لَوَائِهِمْ
(٧٧) أَيْفَتُ أَنْ سَيَكُونُ عِنْدَ لِقَائِهِمْ
(٧٨) لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعَهُمْ
(٧٩) يَدْعُونَ عَنَتَ الرِّمَاحِ كَأَنَّمَا
(٨٠) مَازَلْتُ أُرْمِيهِمْ بِشُفْرَةٍ نَحْرِهِ
(٨١) فَازْوَرَّ مِنْ وَقَعِ الْقَنَاءِ بَلْبَانِهِ
أُبْدَى نَوَاجِذَهُ لَغَيْرِ تَبَسُّمِ-
بِمُهْنَدٍ صَافِي الْحَدِيدَةِ مَخْذَمِ-
خُضِبَ الْبَنَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعَظِيمِ-
يُحْذِي نَعَالَ السَّبْتِ لَيْسَ بِتَوَامِ-
حَرَمْتُ عَلَى وَائِيهَا لَمْ تَزُومِ-
فَتَجَسَّسِي أَخْبَارَهَا لِي وَاعْلَمِي
وَالشَّاةُ مُمَكِّنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمِي
رَشَاءٍ مِنَ الْفِزْلَانِ حُرَّةً أَرْثَمِهِم
وَالسَّكْفَرُ مَخْبِيَةٌ لِنَفْسِ الْمُنْعَمِ-
إِذْ تَقْلِصُ الشَّفَتَانِ عَنْ وَضَحِ الْقَمِ-
عَمْرَاتِيهَا الْأَبْطَالُ غَيْرَ تَفَنُّمِ-
عنها وَلَكِنِّي تَضَاقِقَ مُقَدِّمِي
سُودَاءَ حَالِكَةٍ كَلَوْنِ الْأَذَلِ-
وَابْنِي رَبِيعَةَ فِي الْعُبَّارِ الْأَقْتَمِ-
وَالْمَوْتُ نَحْتَ لَوَاءِ آلِ الْمُحَلِّمِ-
ضَرَبْتُ يُطِيرُ عَنِ الْفِرَاحِ الْجُسَمِ-
يَتَذَامِرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمِّمِ-
أَشْطَانُ بَرٍّ فِي لَبَانِ الْأَذْهِمِ-
وَلَبَانِهِ حَتَّى تَمَرَّ بِلَ بِالْذَّمِ-
وَشَكَا إِلَى بَعْبَرَةٍ وَتَحْمَحُمِ

- (٨٢) لو كان يَدْرِى ما المحاورَةُ اشْتكى
ولكان لو عَلِمَ الكلامَ مُكَلِّمى
- (٨٣) ولقد شَفَى نَفْسى وَأَبْرَأُ سَقَمَهَا
قِيلَ الفوارسِ وَبِكَ عَنَتِ أَقْدِمِـ
- (٨٤) والخليلُ تَقْتَحِمُ الخَبَارَ عوايساً
ما بين شَيْطَمَةٍ وَأَجْرَدَ شَيْطَمِـ
- (٨٥) ذُلُّ رِكا بى حيثُ شِئتُ مُشَايِعِى
لِئى وَأَخْفِزُهُ بِأَمْرِ مُبْرَمِـ
- (٨٦) إِنِّى عَدَانِى أَنْ أَزُورَكَ فَاعْلَمِى
ما قد عِلِمْتُ وَبَعْضُ ما لم تَعْلَمِى
- (٨٧) حَالَتِ رِمَاحُ ابْنِى بَغِيضِ دُونِكُمْ
وَزَوَتْ جَوَانِى الحَرْبِ مَنْ لَمْ يُجْرِمِـ
- (٨٨) ولقد كَرَزْتُ المَهْرَ بِدَمِى نَحْرُهُ
حَتَّى اتَّقَتْنِى الخيلُ يا ابْنَةَ حَذِيمِـ
- (٨٩) ولقد خَشِيتُ بَأْنَ أُمُوتَ وَلَمْ تَدُرْ
لِلحَرْبِ دَائِرَةَ عَلَى ابْنِى ضَمَمِـ
- (٩٠) الشَّائِئِ عِرْضِى وَلَمْ تُشْتَمَهَا
وَالنَّاذِرِينَ إِذَا لَمْ الْفَهْمَا دَمِى
- (٩١) إِنْ يَفْعَلْ فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهَا
جَزَرَ السَّبَاعِ وَكُلُّ نَسْرِ قَشَمِـ

الحارث بن حلزة

من شعراء الطبقة السادسة الجاهلية عند ابن سلام ، وموضعه عنده مع عمرو
ابن كلثوم ، وعنزة بن شداد ، وسويد بن أبي كاهل . وهم الذين قال فيهم إن
لكل واحد منهم واحدة . . . وقال عن الحارث بن حلزة : وله قصيدة ،
التى أولها :

أَذْنَنَّا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبِّ نَارٍ يُبْلَى مِنْهُ الثَّوَاءُ

وله شعر سوى هذا ، وهو الذى يقول فى شعره :

لَا تَسْكَعُ الشُّوْلَ بِأَغْبَارِهَا إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَنِ النَّامِجُ^(١)

وهو الحارث بن حلزة من بني يشكر ، من بكر بن وائل . قال أبو عبيدة : أجود الشعراء قصيدة واحدة جيدة طويلة ثلاثة نفر : عمرو بن كلثوم ، والحارث ابن حلزة ، وطرفة بن العبد . وزعم الأصمعي أن الحارث قال قصيدته هذه وهو ابن مائة وخمس وثلاثين سنة^(٢) . ويقال إنه ارتجلها ارتجالاً في شيء كان بين بكر وتغلب بعد الصلح ، بين يدي عمرو بن هند ، وكان ينشده من وراء السجف للبرص الذي كان به ، فأمر برفع السجف بينه وبينه ، استحساناً لها ، وكان الحارث متوكفاً على عنزة ، فارتزت في جسده وهو لا يشعر^(٣) .

وقد كان الحارث شاعر بكر سيدياً من ساداتها ، كما كان عمرو بن كلثوم سيد تغلب وشاعرها ؛ وقد مرَّ في ترجمة عمرو بن كلثوم ذكر الظروف التي أنشد فيها عمرو بعض معلقته « ألاهي . . » وهي الظروف نفسها التي أوحى إلى الحارث بن حلزة أن يرتجل معلقته « آذنتنا بيننا أسماء » فإن عمرو بن هند لما ملك ، وكان جباراً عظيم السلطان ، جمع بكرأ وتغلب فأصلح بينهم ، وأخذ من الحيين رهناً من كل حي مائة غلام فكف بعضهم عن بعض ، وكان أولئك الرهن يكتنون معه في مسيره ويفزون معه ، فأصابهم سموم في بعض مسيرهم ،

(١) البيت مثل سائر ، الشول جمع شائلة ، وهي من الإبل ما أتى على حملها أو وضعها سبعة أشهر ، نجف لبنها فلم يبق في ضرعها إلا شول أي بقية ، والأغبار جمع غبر وهي بقية اللبن في الضرع ، وكسم الناقة بغيرها تركه في خلفها ليغزر لبنها ويشدد ، وربما نضحوا ضرعها بالماء البارد فيرتد اللبن في ظهرها ، فيكون ذلك أسمن لأولادها التي في بطونها وأقوى لها . يقول : لا تفعل ذلك رجاء أن تستجير نتاج إبلك ، فإنك لا تدري أتموت فيرثها وارث أو يغير عليها مفير ، فيأخذها منك . يحضه على الكرم ، وأن يحلب لأضيافه ولا يبخل . وانظر طبقات خول الشعراء ١٢٨ .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى ٢٢٣/١ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٠/١ ، والعنزة بفتح النون عصا في قدر بصفه الرمح ، فيها سنان أو زوج كرج الرمح يتوكأ عليها ، ارتزت ثبتت في جسده مثل رز السكين في الحائط .

فهلك عامة التغلبيين ، وسلم البكر يون ، فقالت تغلب لبني بكر : أعطونا ديات
أبنائنا ، فإن ذلك لازم لكم ، فأبت ذلك بكر . فاجتمعت تغلب إلى عمرو بن
كلثوم ، فقال عمرو بن كلثوم لتغلب : بمن ترون بكرا تعصب أمرها اليوم ؟
قالوا : بمن عسى إلا برجل من أولاد ثعلبة ؟ قال عمرو : أرى الأمر والله سينجلي
عن أحمر أصلع أصم من بني يشكر . فجاءت بكر بالنعمان بن هرم أحد بني ثعلبة
ابن غنم بن يشكر ، وجاءت تغلب بعمر بن كلثوم . فلما اجتمعوا عند الملك قال
عمرو بن كلثوم للنعمان بن هرم : يا أصم ! جاءت بك أولاد ثعلبة تناضل عنهم ،
وهم يفخرون عليك . فقال النعمان : وعلى من أظلت السماء يفخرون ! قال عمرو
ابن كلثوم : والله لو لطمتك لكمة ما أخذوا لك بها ! قال : والله لو فطمت ما أفلت
بها . . . فغضب عمرو بن هند ، وكان يؤثر بني تغلب على بني بكر . فكانت
بين عمرو بن هند والنعمان بن هرم مشادة غضب بسببها غضبا شديداً ، حتى هم
بالنعمان ، فقام الحارث بن حنظل ، وهو أحد بني كنانة بن يشكر ، فارتجل قصيدته
ارتجالاً ، وتوكل على قوسه ، فزعموا أنه انتظم بها كفه وهو لا يشعر من الغضب .
وكان عمرو بن هند شريراً لا ينظر إلى أحد به سوء ، وكان الحارث إنما ينشده
من وراء حجاب ، فلما أنشده هذه القصيدة أدناه حتى خلص إليه ^(١) .

ولا يكاد يعرف من تاريخ الحارث بن حنظل إلا هذا القدر ، وقد رأينا
كما تقدم أنه كان ملوك الحيرة أعظم الأثر في تعريفنا بشيء من تاريخ أكثر شعراء
الجاهلية ، ولولا انتجاع أولئك الشعراء قصورهم بالحيرة ، والأحداث التي اتصلوا بها
ما عرفنا من أمرهم شيئاً . ولعل مرجع ذلك أن العلماء والرواة كانوا هم أيضاً
يقصدون أولئك الملوك ، وهم الذين رووا من تلك الأحداث ما رووا ، وليس
يعزب عن البال أن التاريخ في أكثر ما كتب فيه تاريخ ملوك وساسة أكثر مما

(١) انظر خزائن الأدب ١/٢٢٣ وشرح القصائد العشر للبريزي ٢٥١ .

هو تاريخ رعية وشعوب ، ولم يثبت في أكثره من تاريخ الرجال إلا ما كان له صلة بتاريخ أولئك الملوك والساسة والقادة ، فأهم مراحل حياة طرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة والنايفة الذيباني وغيرهم من فحول الشعر في العصر الجاهلي ، إنما عرف منها ذلك الشطر الذي وفدوا فيه على أولئك الملوك مختصمين أو محتكين أو طالبي عطاء وصلة ، وكان هذا هو الذي وجه إليهم الأنظار ، ولولا ذلك لضاعت أخبارهم وغفت آثارهم ، كما غفت آثار الديار في صحراء العرب وباديتها .

معلقة الحارث :

وهي واحدة التي اشتهر بها ، وقد عرفنا من القصة السابقة وحدة الظروف التي جمعت بينها وبين معلقة عمرو بن كلثوم ، ووحدة الهدف أيضا ، فكلا الشاعرين كان محامى قبيلته المدافع عنها ما رميت به من الظلم والاعتداء ، وهو الناطق بمفاخرها ، المسجل لأمجادها ، المباهى بأيامها ووقائعها ونجدتها وسخائها ولذلك قال معاوية بن أبي سفيان في وصف المعلقين : قصيدة عمرو بن كلثوم وقصيدة الحارث بن حلزة من مفاخر العرب ، كانتا معلقتين بالكعبة دهرأ .

ويروى أن الحارث قال لقومه بنى بكر بن وائل : إني قد قلت قصيدة ، فمن قام بها ظفر بحجته وفلج على خصمه . فرواها ناسا منهم ، فلما قاموا بين يديه لم يرضهم ، فحين علم أنه لا يقوم بها أحد مقامه ، قال لهم : والله إني لأكره أن آتى الملك فيكلمني من وراء سبعة ستور ، وينضح أثرى بالماء إذا انصرفت عنه . وذلك لبرص كان به - غير أنى لا أرى أحدا يقوم بها مقامى ، وأنا محتمل ذلك عنكم ، فانطلق حتى آتى الملك ، فلما نظر إليه عمرو بن كلثوم قال للملك : أهذا يناطقنى وهو لا يطيق صدر راحلته ؟ ، فأجابه الملك حتى أخفه ، وأنشد الحارث معلقته ، وهو من وراء سبعة ستور ، وهند تسمع ، فلما سمعتها قالت : تالله ما رأيت كالיום قط رجلا يقول مثل هذا القول يكلم من وراء

سبعة ستور! فأمر الملك بالستور فرفعت ، حتى صار مع الملك على مجلسه ،
ثم أطعمه في جفنته . وليس ذلك إلا من أثر إعجابه بقصيدته ، وما ساق من
الثناء لآبائه في ثناياها .

وقد بدأها على عادة الشعراء بذكر المرأة ، فشَبَّبَ بأسماء ، التي آذنته بفراقها
مع شدة شغفه بها وحرصه على الدنو منها ، مع أن في القيمين من يكره مقامه ،
وأخذ يعدد ديارها ومنازلها التي كان يلقاها بها ، ويبيكي فقدها ، وبعد أن مضى
في هذا التشبيب قليلا أخذ في وصف ناقته التي يستعين بها على الهم ، فيشبهها
بالنعامة في السرعة والخفة ، وقد أفرعها الصوت . ثم جعل يذكر تجنى بنى تغلب
على قومه بنى بكر . الذين يخلطون بريثهم بمسيثهم ، ويلصقون بهم الأخطاء
القافية ، ويسرعون إلى إعداد جيوشهم لحربهم . ثم وجه الخطاب إلى رجل
تغلب عمرو بن كلثوم الذي يزين كلامه بالباطل ويسرف في النيل من بنى بكر أمام
عمرو بن هند ، وبين أنهم لا يعبتون بهذه السعايات فطالما وشى بهم لو شاة
فلم ينالوا من كيدهم شيئا ؛ بل ثبتوا أمام الأحداث التي لم تزعزع عزتهم الثابتة ،
كانها الجبال الشاخنة لا تلين للأحداث ولا تنال منها الرياح . وأخذ يذكر
ما قومه من المنعة والأيام والمآثر ، ويصل ذلك بمدح الملك وتذكيره بأيامهم
وأياديهم . وتعد هذه المعلقة سجلا لكثير من الأحداث السياسية والتاريخية
ففيها حديث الحرب بين بكر وتغلب وما كان بينهم من صلح ، وما قدم فيه
من العهود والكفلاء ، وأيام انتصرت فيها تغلب ، وأخرى انتصرت فيها بكر
وذكر للعداء القديم الذي كان بين المنذر ملك الحيرة والتغلبيين لما امتنعوا عن
نصرته ، ووصف ولاء بنى بكر للملك الحيرة . وقد استطاع الحارث بهذه القصيدة
أن يجذب الملك إلى صفه ، وأن يقنعه بالحجة والتاريخ والمنطق ، فكسب
الموقف لقبيلته ، وغلب بنى تغلب الذين وقف شاعرهم قصيدته على الفخر

والمباهاة والمبالغة الظاهرة التي تدعو إلى الاعتقاد بأن ذلك خيال شاعر أكثر مما هو حق يراد تأييده والانتصار له ، في موقف هو أشبه المواقف بموقف الخطيب الذي يقرع الحجة بالحجة ، ويؤيد الدليل بالدليل ، ويؤثر في عقول سامعيه ، ليقنعهم بصدق مايقول ، وذلك كان أهم أسباب نجاح الحارث وإخفاق ابن كلثوم .

ومع هذا المنطق المقنع والحجة المؤيدة بالوقائع والأحداث لم تلن قناة الحارث ، ولم ينسه جلال الموقف وحرصه على النجاح في اجتذاب الملك إلى قومه ، أن يفخر بأجداد قبيلته ، ويهدد الوشاة الساعين بالوقعة بن بنى بكر وعمرو بن هند ، بأن سمائهم باطلة ، وهى وإن أصابت من الملك أذنا صاغية ، فلن تنال من بنى بكر الذين سبقت أعمالهم في حماية الملوك وفك أغلالهم ، مما لا يستطيعه إلا السادة الأقوياء ، ولم يكن لعمر بن هند أن ينال منهم ، حتى لو وقعت السعاية موقعها من نفسه ، بل ينكر أن بنى بكر تبع ورعايا عمرو بن هند « هل نحن لابن هند رعاء » إلى غير ذلك مما شمخ فيه بأنفه وباهى فيه بقومه .

أما أسلوب المعلقة فإنه يختلف تماماً عن أسلوب عمرو بن كلثوم في معلقته ؛ فإن معلقة الحارث تبدو فيها أمارات القوة ، في جزالة ألفاظها وجودة تراكيبها ، التي تسير بها روح العصر الذي أنشئت فيه ، وطبيعة الموضوع الذي عالجته . وفيما يلي نص معلقة الحارث :

- (١) آذَنْدَنَا بِدِينِهَا أَسْمَاءُ رُبُّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الشَّوَاهُ
- (٢) بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَةٍ شَمَاءُ ، فَادْنَى دِيَارِهَا الْخَلَصَاءُ
- (٣) فَالْمُحَيَّاةُ فَالصَّفَاحُ فَأَغْنَا قُ فِتَاقٍ فَعَاذِبُ فَاوْفَاةُ
- (٤) فَرِيَاضُ الْقَطَا فَاوْدِيَةُ الشَّرُّ بُبِ فَالشُّعْبَتَانِ فَلَا بِلَاهُ

- (٥) لَا أَرَى مِنْ عَهْدَتُ فِيهَا فَا بَكِي ۥ
 (٦) وَبِعَيْنِكَ أَوْ قَدَتْ هَنْدُ النَّا
 (٧) أَوْ قَدَتِ ۥ بَيْنَ الْعَقِيقِ فَشَخْصِي
 (٨) فَتَمَوَّرَتْ نَارَهَا مِنْ بَعِيدِ
 (٩) غَيْرَ أَنِّي قَدْ أَسْتَعِينُ عَلَى الْمَمِّ
 (١٠) بِزُفُوفٍ كَأَنَّهَا حِقْلَةٌ
 (١١) آتَسَتْ نَبَاةً وَأَفْزَعَهَا الْقُدُّ
 (١٢) فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَفِّ
 (١٣) وَطِرَاقًا مِنْ خَلْفِهِنَّ طِرَاقُ
 (١٤) أَتَلَهَّى بِهَا الْمَوَاجِرَ إِذْ كُلُّ
 (١٥) وَأَنَا مِنْ الْحَوَادِثِ وَالْأَنْبَا
 (١٦) أَنْ إِخْوَانَنَا الْأَرَاقِمَ يَغْلُو
 (١٧) يَخْطِطُونَ الْبَرَى مَنَابِذِي الذِّهْنِ
 (١٨) زَعَمُوا أَنْ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ الْعَمِي
 (١٩) أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا
 (٢٠) مِنْ مُنَادٍ وَمِنْ مَجِيبٍ وَمِنْ تَصَدُّ
 (٢١) أَيُّهَا النَّاطِقُ الْمَرْقُشُ عَنَّا
 (٢٢) لَا تَخْلُفْنَا عَلَى غِرَاتِكَ إِنَّا
 (٢٣) فَبَقَيْنَا عَلَى الشُّنَاءِ تَنْمِي
 (٢٤) قَبْلَ مَا الْيَوْمَ بَيَّضَتْ بُعْيُونَ النَّ
- يَوْمَ دَلَمَّا وَمَا يُجِيرُ الْبَكَاءِ
 إِرَ أَخِيرًا تُلَوِي بِهَا الْعَمَلِيَاءِ
 نِ بِعُودٍ كَمَا يُلُوحُ الضِّيَاءِ
 بِخَزَازِي هِيَهَاتَ مِنْكَ الصَّلَاةِ
 إِذَا خَفَّ بِالْمُورِيِّ النَّجَاهِ
 أُمُّ رِثَالٍ دَوْبَةٌ سَقَفَاهِ
 أَصْبُ عَصْرًا وَقَدَدْنَا الْإِمْسَاءِ
 مَعَ مَنِينًا كَأَنَّهُ إِهْبَاءِ
 سَاقَطَاتُ أُلُوتَ بِهَا الصَّخْرَاهِ
 ابْنِ هَمٍّ يَلِيَّةٌ عَمِيَاءِ
 خَطْبٌ نَفَقَى بِهِ وَنَسَاءِ
 نَ عَلَيْنَا فِي قَيْلِهِمْ إِخْفَاهِ
 بِ وَلَا يَنْفَعُ الْخَلِيَّ الْخَلَاءِ
 رَ مَوَالٍ لَنَا وَأَنَا الْوَلَاءِ
 أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاهِ
 هَالِ خَيْلٍ خِلَالَ ذَاكَ رُغَاهِ
 عِنْدَ عَمْرِو وَهَلْ لَذَاكَ بَقَاهِ
 قَبْلُ مَا قَدْ وَشَى بِنَا الْأَعْدَاهِ
 نَا حِصُونُ وَعِزَّةٌ قَعَسَاهِ
 اسَ فِيهَا تَعَيَّطُ وَإِبَاهِ

- (٢٥) وَكَأَنَّ الْمَثُونَ تَرَدَى بِنَا أَرُ
(٢٦) مُكْفَهَرًا عَلَى الْحَوَادِثِ لَا تَرُ
(٢٧) أَيْمًا خُطَّةٍ أَرَدْنَاهُمْ فَأَذُو
(٢٨) إِنْ نَبَشْتُمْ مَا بَيْنَ مِلْحَةٍ فَالْصَّا
(٢٩) أَوْ تَقَشْتُمْ فَالْغَشْمُ يَجْشُمُهُ النَّا
(٣٠) أَوْ سَكْتُمْ عَنَّا فَكُنَّا كَمَنْ أَغْ
(٣١) أَوْ مَنَعْتُمْ مَا نُسْأَلُونَ فَمِنْ حُدِّ
(٣٢) هَلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يُنْتَهَبُ النَّا
(٣٣) إِذْ رَفَعْنَا الْجِبَالَ مِنْ سَعَفِ الْبَحْرِ
(٣٤) ثُمَّ مِلْنَا عَلَى نَمِيمٍ فَأَحْرَمَ
(٣٥) لَا يَقِيمُ الْعَزِيزُ بِالْبَلَدِ الدَّهْرِ
(٣٦) لَيْسَ يُنْجَى مُوَالِدًا مِنْ حِذَارِ
(٣٧) فَلَكُنَّا بِذَلِكَ النَّاسَ حَتَّى
(٣٨) وَهُوَ الرَّبُّ وَالشَّهِيدُ عَلَى يَوْمِ
(٣٩) مَلِكٌ أَضْلَعُ الْبَرِّيَّةِ لَا يُؤْ
(٤٠) فَاتَرَكُوا الطَّيْنُخَ وَالتَّعَاشِيَّ وَإِمَّا
(٤١) وَاذْكُرُوا حِلْفَ ذِي الْحِجَازِ وَمَاقِدْ
(٤٢) حَذَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعَدَّى وَهَلْ يَنْ
(٤٣) وَاعْلَمُوا أَنَّنَا وَإِيَّاكُمْ فِيهِ
(٤٤) أَعْلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةٍ أَنْ يَنْ
- عَنْ جَوْنًا يَنْجَابُ عَنْهُ الْعَمَاءُ
نُوهُ لِلدَّهْرِ مُؤَيَّدُ صَمَاهُ
هَآ إِلَيْنَا تَمْتَشِي بِهَا الْأُمْلَاءُ
قَبِ فِيهِ الْأَمْوَاتُ وَالْأَحْيَاءُ
سُرُ فِيهِ الصَّلَاحُ وَالْإِبْرَاهُ
مَضَ عَيْنًا فِي جَفْنِهَا أَقْدَاهُ
تَمُوتُهُ لَهُ عَلَيْنَا الْعَمَلَاءُ
مِنْ ذَوَارًا لِكُلِّ حَيٍّ عُوَاهُ
رَبِّ سَبْرًا حَتَّى نِيَهَاهَا الْحِسَاءُ
نَا وَفِينَا بَنَاتُ مُرَّةٍ إِمَامَاهُ
لِ وَلَا يَنْفَعُ الدَّلِيلَ النَّجَاهُ
رَأْسُ طَوْدٍ وَحُرَّةٌ رَجْلَاهُ
مَلَكُ الْمُنْذِرُ بْنُ مَاهِ السَّمَاءِ
مِ الْحَيَّارَيْنِ وَالْبَلَاءُ بِلَاهُ
جَدُّ فِيهَا لَمَّا لَدَيْهِ رِيفَاءُ
تَتَعَاشَوْا فِي التَّعَاشِي الدَّاءِ
مَ فِيهِ الْعُهُودُ وَالْكَفَلَاءُ
مَقْضُ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءُ
مَا اشْتَرَطْنَا يَوْمَ اخْتَلَفْنَا سَوَاءُ
نَمَ غَازِيَهُمْ وَمَنَا الْجَزَاءُ

- (٤٥) أُم عَلِينَا جَرِي حَنِيفَةَ أُوَمَا
(٤٦) أُم جَنَافَا بَنِي شَتِيقٍ فَمِنْ يَدِهِ
(٤٧) أُم عَلِينَا جَرِي الْعِبَادِ كَمَا نِي
(٤٨) أُم عَلِينَا جَرِي قُضَاعَةَ أُم لَيْذٍ
(٤٩) أُم عَلِينَا جَرِي إِيَادٍ كَمَا فِيهِ
(٥٠) لَيْدِرَ مِنَّا الْمُضَرَّبُونَ وَلَا قِيَدَ
(٥١) عَنَّا بَاطِلًا وَظُلْمًا كَمَا تَعْلَمُ
(٥٢) وَتَمَّائُونَ مِنْ تَمِيمٍ بِأَيْدِيهِ
(٥٣) لَمْ يُخْلُوا بَنِي رِزَاحٍ يُبْرِقًا
(٥٤) تَرَكُوهُمْ مُلْحَجِينَ وَأَبَا
(٥٥) ثُمَّ جَاءُوا وَاسْتَرْجِعُونَ فَلَمْ تَرَ
(٥٦) ثُمَّ فَأَءُوا مِنْهُمْ بِقَاصِمَةِ الظِّمِّ
(٥٧) ثُمَّ خَيْلٌ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ مَعَ الْفَلَاحِ
(٥٨) مَا أَصَابُوا مِنْ تَفَلْسِيٍّ فَمَطَلُوا
(٥٩) كَسْكَالِيْفٍ قَوْمًا إِذْ غَزَا الْمُنَافِقُ
(٦٠) إِذْ أَحَلَّ الْعَلِيَاءُ قُبَّةً مَيَسُو
(٦١) فَتَأَوَّتْ لَهُ قَرَاضِيَةٌ مِنْ
(٦٢) فَهَذَا هُمْ بِالْأَسْوَدَيْنِ وَأَمْرُ اللَّهِ
(٦٣) إِذْ تَمَنَّوْهُمْ غُرُورًا فَسَاقَتَ
(٦٤) لَمْ يَغْرُوكُمْ غُرُورًا وَلَكِنْ
- جَمَعَتْ مِنْ مُحَارِبٍ غَبْرَاءُ
لَدُرْ فَإِنَّا مِنْ حَرَبِهِمْ بُرْآه
طَ بِمَجُوزِ الْحَمَلِ الْأَعْبَاءُ
مِنْ عَلِينَا فِيمَا جَنَوْا أُنْدَاءُ
لَنْ لَطَنُكُمْ أَخُوكُمْ الْأَبَاءُ
سُ وَلَا جَنْدَلٌ وَلَا الْخُدَاءُ
تَرُ عَنْ حَجَرَةِ الرَّيْضِ الْغُبَاءُ
بِهِمْ رِمَاحٌ صُدُورُهُنَّ الْقَضَاءُ
و نَطَاعٍ لَمْ عَلَيْهِمْ دُعَاءُ
بِنَهَابٍ يَصْمُ مِنْهَا الْخُدَاءُ
جِيعٌ لَمْ شَامَةٌ وَلَا زَهْرَاءُ
رِ وَلَا يَبْرُدُ الْغَلِيلُ الْمَاءُ
قِ لَا رَأْفَةٌ وَلَا إِبْقَاءُ
لِ عَلَيْهِ إِذَا تَوَلَّى الْقَفَاءُ
لَدِرْ هَلْ تَحْنُ لَابِنِ هِنْدٍ رِعَاءُ
نَ فَادَنِي دِيَارِهَا الْعَوَصَاءُ
كُلُّ حَيٍّ كَانَهُمْ أَلْقَاءُ
و بَلِغٌ تَشْقَى بِهِ الْأَشْقِيَاءُ
هُمْ إِلَيْكُمْ أُمْنِيَّةٌ أَشْرَاءُ
رَفَعَ الْآلُ جَمْعَهُمْ وَالضَّحَاءُ

- (٦٥) أَيُّهَا الشَّانِي الْمُبْلَغُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لَدَاكَ انْتِهَاءُ
(٦٦) إِنَّ عَمْرَأَ لَنَا لَدَيْهِ خِلَالٌ غَيْرَ شَكٍّ فِي كُلِّهِنَّ الْبَلَاءُ
(٦٧) مَلِكٌ مُقْسِطٌ وَأَكْمَلُ مَنْ يَمُ شَيْءٌ وَمِنْ دُونِ مَالِدَيْهِ الثَّنَاءُ
(٦٨) لِمَرِيٍّ بِمِثْلِهِ جَالَتْ الْخَلِيَّةُ لُ فَآبَتْ تَلْخِصُهَا الْأَجْلَاءُ
(٦٩) مَنْ لَنَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ آيَا تٌ ثَلَاثٌ فِي كُلِّهِنَّ الْقَضَاءُ
(٧٠) آيَةُ شَارِقُ الشَّقِيقَةِ إِذْجَا مَوَا جَمِيعًا اِكْلُ حَيَّ لَوَاهُ
(٧١) حَوْلَ قَيْسٍ مُسْتَلِثِمِينَ بِكَبْشٍ قَرَضَى كَأَنَّهُ عِبْلَاءُ
(٧٢) وَصَدِيتِ مِنَ الْعَوَاكِ لَاتِنَ هَاهُ إِلَّا مُبَيَّضَةً رَعْلَاهُ
(٧٣) فَرَدَدْنَاهُمْ بَطْمَنٍ كَمَا يَخْ رُجٌ مِنْ خُرْبَةٍ الْمَزَادِ الْمَاءُ
(٧٤) وَحَمَلْنَاهُمْ عَلَى حَزْمٍ نَهْلَا نَ سِلَالًا وَدُمَى الْأَنْسَاءُ
(٧٥) وَجَبَّهْنَاهُمْ بَطْمَنٍ كَمَا تَنُ هَزُ فِي جَمَّةِ الطَّوِيِّ الدَّلَاءُ
(٧٦) وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلَّمَ اللَّهُ مَا إِنْ لِلْعَائِنِينَ دِمَاءُ
(٧٧) نَمَّ حُجْرًا أُغْنِي ابْنَ أُمِّ قَطَامٍ وَلَهُ فَارِسِيَّةٌ خَضْرَاءُ
(٧٨) أَسَدٌ فِي اللَّقَاءِ وَرَدُّ هُمُوسٍ وَرَبِيعٌ إِنْ شَمَرَتْ ذَهَبَاءُ
(٧٩) وَفَكَكْنَا غُلَّ امْرِئٍ الْقَيْسِ عَنْهُ بَعْدَ مَا طَالَ حَبْسُهُ وَالْعَنَاءُ
(٨٠) وَأَقْدَنَاهُ رَبَّ غَسَّانَ بِالْمُنَى ذِرَ كَرْمًا إِذْ لَا تُكَالُ الدَّمَاءُ
(٨١) وَأَتَيْنَاهُمْ بِدِسْعَةٍ أَمْلَا لِكَ كَرَامٍ أَسْلَابُهُمْ أَغْلَاءُ
(٨٢) وَمَعَ الْجَوْنِ آلِ بَنِي الْأَوْ سِ عَنُونٌ كَأَنَّهُا دَفَوَاهُ
(٨٣) مَا جَزَعْنَا نَحْتِ الْعَجَاجَةِ إِذْوَا تَ بَاقِفَاهَا وَحَرَ الصَّلَاءُ

- (٨٤) وَوَلَدَنَا عَمْرَو بْنَ أُمِّ أَنْكَسٍ مِنْ قَرِيبٍ لَمَّا أَنَا الْحَبَاءُ
(٨٥) مِثْلَهَا يُخْرِجُ النَّصِيحَةَ لِلْقَوِّ مَ فَلَاةٍ مِنْ دُونِهَا أَفْلَاهُ

* * *

تلك هي المعلقة السبع التي انعقد الإجماع على سِتٍّ منها ، ولم يخالف في السابعة، وأغنى بها معلقة الحارث بن حلزة ، إلا أبو زيد القرشي صاحب جمهرة أشعار العرب كما سبق ، الذي أغفل ذكر الحارث بين أصحاب المعلقة ، مع موافقته في الست السابقة ، وإضافته إليها قصيدة النابغة الذبياني التي أولها « عوجوا فحيوا النعم . . . »^(١)

وقصيدة الأعشى التي مطلعها « ما بكاء الكبير . . . »^(٢)

وقد وافقه في اعتبار النابغة والأعشى أبو جعفر أحمد بن محمد إسماعيل النحوي الذي ذكر التبريزي أنه أضاف إلى السبع الطوال المشهورة قصيدة النابغة الدالية التي مطلعها « يادارمية . . . »^(٣)

وقصيدة الأعشى التي أولها « ودّع هريرة . . . »^(٤)

وأضاف التبريزي قصيدة عبيد بن الأبرص « أفقر من أهله ملحوب » . . . ولم يذكر سنداً لهذه الإضافة .

ولذلك اقتصرنا من تلك القصائد على ما انعقد عليه الإجماع في القصائد الست الأولى ، وما لم يخالف فيه غير واحد في الحارث. أما ما كان من هذه القصائد موضع شك عند أكثر الرواة فقد آثرنا عدم التعرض له ، لا سيما وأن قصيدة الأعشى (ودّع هريرة . . .) وقصيدة النابغة الدالية لم تذكر على أنهما معلقتان ، بل

(٢) الجمهرة ٨٧ .

(١) الجمهرة ٧٧ .

(٣) شرح القصائد المشر ٣٠٨ . (٤) شرح القصائد العشر ٢٨٨ .

على أنهما من قصائد الجاهلية المشهورة . أما قصيدة الأعشى (مابكاء الكبير . .)
وقصيدة النابغة الرائية فقد انفرد بهما من المعلقات أبو زيد القرشى ، ولم يتابعه
واحد من الرواة فيما نعلم ، ويبدو لأول وهلة أنه اعتمد في ذلك على قول أبي
عبيدة : أشعر الناس أهل الوبر خاصة ، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة ، فإن
قال قائل إن امرؤ القيس من أهل نجد فاعمرى إن هذه الديار التي ذكرها
ديار بنى أسد بن خزيمة ، وفي الطبقة الثانية الأعشى ولييد وطرفة . . . وقال
الكثير : عمرو بن كلثوم أشعر الناس ، قال أبو زيد : والقول عندنا ما قال
أبو عبيدة : امرؤ القيس ، ثم زهير ، والنابغة ، والأعشى ، ولييد ، وعمرو ، وطرفة ^(١) .
ومضمون هذا الكلام وجوهه المفاضلة بين الشعراء ، وليس في هذا الكلام
ما يدل أية دلالة على حصر أصحاب المعلقات في أولئك السبعة . لولا أن أبا زيد
قل بعد ذلك عن المفضل قوله فيهم : هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها
العرب السموط ، فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم
والعرفة (الجهرة ٤٥) .

ولكن أبا زيد نفسه يخالف إذ يجعل من أصحاب المعلقات - وهم الذين
وصفوا بأنهم أصحاب السبع الطوال - عنقرة بن شداد ، ويجعل قصيدته ثامن
المعلقات ؛ فكأنه لم يقيد نفسه بكلام أبي عبيدة ، ولا بكلام المفضل ، وإن كان
يوافقهما في إغفال ذكر الحارث بين أصحاب السبع عندهما ، وبين أصحاب
المعلقات عنده .

وهذه القصائد التي كتبنا نصوصها هي التي خُصَّت باسم (المعلقات) والتي
احتفظت بهذا اللقب الذي صرح به أكثر الرواة ، ولذلك اقتصرنا عليها ،

(١) جهرة أشعار العرب لأبي زيد ٤٥ .

وذكرنا من أخبار أصحابها ما رأينا فيه الكفاية ؛ أما ما سواها من القصائد المأثورة عن شعراء الجاهلية فهي أكثر من أن تحصر ، وقد انتظمتها مجرعات أخرى ، وانفردت بتسميات أخرى عند بعض الرواة ، ولم نجد من الأسباب الوجيهة ما يحملنا على إثارة بعضها وإضافته إلى المعلقة دون بعض ، فإن موضع ذلك دراسة عامة في الشعر الجاهلي ، لا تمتاز فيها المعلقة عن غيرها من الشعر الجاهلي ، ونعتقد أن التعرض لتلك القصائد يخرج بنا عن مجال هذه الدراسة المختصة لمعلقة العرب دون سواها من مأثور شعر الجاهلية .

الفصل الثالث

المجتمع العربي كما صورته المعلقات

يستطيع الناظر في تلك القصائد أن يتخذ من مجموعها صورة كاملة للشعر العربي في أقدم عصوره ، وهي الصورة التي انتهت إليها محاولات الشعراء ، واطمأنت إليها أذواقهم الفنية ، وأقرتهم عليها الذوق الأدبي العام .

ويستطيع كذلك أن يجد في تلك القصائد ما يعينه على تبين معالم البيئة الجاهلية التي عاش فيها أولئك الشعراء ، والتعرف إلى طبيعة العرب وميولهم وتقاليدهم ، وما كانوا يزاولون من أعمال في تلك البيئة في ذلك الزمان البعيد . فلقد صورت تلك المعلقات ذلك الجنس العربي الذي سكن الجزيرة قبل الإسلام ، تصويراً يتم بسمات الصدق والصراحة والحرية ، وهي الصفات التي كان أولئك العرب يحرصون عليها في حياتهم الخاصة ، وفي حياتهم العامة التي كانوا يتصلون فيها بغيرهم من القبائل أو الأمم الغريبة عنهم . فإن أولئك القوم - إن عاشوا أفراداً أو جماعات - كانوا أقرب إلى الطبيعة ، وكانوا على وفاق مع تلك الطبيعة ، ولذلك وصف شعرهم هذه الطبيعة بكل ما فيها من أسباب الرغد ، وظواهر الخشونة والشظف ولذلك كان أخص ما يوصف به ذلك الشعر هو صفة الصدق .

وإنك لتنظر إلى شعر المترفين الناعمين منهم كما تنظر إلى شعر الذين قاسوا مرارة الحرمان ، وخاضوا غمرات القتال ، ونالت من دماهم السيوف والرماح ؛ فلا تجد الفرق كبيراً بين شعر هذا وشعر ذاك ، وإنما تجد صوراً كثيرة للحياة العربية ، تتلاقى في مجموعها ، ويتم بعضها بعضاً ، حتى نستطيع أن نحصل على الصورة الكاملة التي

تنشدها ، ولا يحل ذلك بسمات الشخصية التي تبدو بكل جلاء في كل قصيدة من تلك المعلقات على حدة .

فشخصية امرىء القيس بارزة في معلقته في ذلك الغزل الذي عرف به ، وفي الفروسية التي كان يهيم بها .

وشخصية طرفة في فتوته وغروره ورحلاته وتحمله من القيود لا يخفى على الناظر في معلقته

والشخصية الوادعة التي تنفر من الحرب وتعشق الدعة والأمن والسلام تعلن عن نفسها في معلقة زهير .

والبادية بأخلاقها ومثلها واضحة المعالم في معلقة ليبيد التي تدل معانيها وألفاظها على لون متميز من الحياة ، هو ذلك اللون الذي عاش فيه ليبيد في جاهليته .

كما تجمد الفخر الفاخر الذي يشعر بطيش الشبان الذين يتجاوزون حد المعقول في زهوم ومباهاتهم ومبالغاتهم ، تجده بارزاً في معلقة عمرو بن كلثوم .

وتجمد العقل والمنطق والحجة المقنعة في حكمة الشيوخ وحلمهم وحنكتهن ، وهي الصفات التي كان يتحلى بها الحارث بن حلزة ، والتي ظهرت معالمها بكل وضوح في معلقته .

كما تجمد شخصية عنزة ، وقد تنازعها الحب المشبوب والشجاعة والفداء ، كما تبدو في معلقته التي ترى فيها أثر ذلك التنازع قوياً بارزاً .

ولكنك مع هذه الشخصيات البارزة في المعلقات ، تراها جميعاً وقد تلاقت عند التصوير الصادق للطبيعة بأجلى معانيها ، وبأوسع ما تدل عليه تلك الكلمة ، من غير محاولة للزويق الذي يخرج بها عن معنى الطبيعة . وها أنت ترى قصيدة واحدة مثل معلقة امرىء القيس ، وقد جمعت المتناقضات ، فأنت ترى فيها الأطلال والعدنان وبعر الآرام ، إلى جانب فتيت المسك فوق فراش نثوم الضحى ،

وترى فيها جذع النخلة إلى الأطم المشيد بالجندل . ولكنها ليست متناقضات في الحقيقة بل هي الطبيعة التي يعيش فيها الشاعر ، ويقع عليها حسه وبصره . ولو أراد الشاعر أن يعمل ويتكلف لاختار ما يعجبه ، وألف بين ما يستحسن من المفاخر والأحوال . ولكنه كما قلنا صادق في العبارة عما يجد ، وعما يحس وعما يرى ويسمع . ولن ترى في هذه القصائد الطوال ما يخرج عن نفس العربي وعواطفه وانفعالاته بالحياة ومظاهرها وأحداثها . كما يتضح ذلك من الإشارات الآتية التي نلم فيها إلاماً بما اشتملت عليه البيئة الجاهلية من مواقع وجبال ومياه وأرض وسماء ، وأخلاق ومثل ، وحروب ووقائع صورها أصحاب المملكات .

(١) المواقع والجبال :

وإنك لتنظر إلى المملكات فتراها وقد زحرت بالمعاهد والمواقع التي ألفها الشعراء في أحداثهم وشبابهم ، والتي كانت مرتع لهوهم ، ومواطن أحبتهم في ظعنهم وإقامتهم ، وموضع حروبهم وأيامهم وقد خللت تلك المواضع في هذا الشعر الفحل الذي احتوته المملكات ، فسارت أسماءها في العصور ، ولانت بها الألسنة ، مع ما قد يكون فيها من الغرابة ، والسر على للنطق الذي يحسه من يقرأها للمرة الأولى ، حتى صارت تلك المملكات مصادر لتلك المواضع والجبال والوهاد ، ولم تخل من ذلك معلقة من المملكات :

ففي معلقة امرئ القيس^(١) : سقط اللوى بين الدخول فحوّمل (١)
فتوضّحَ فالحقارة (٢) وهي منازل بني كلاب الذين منهم أم الحويرث ، وهي هرّة ،
أم الحارث بن حصين بن ضمضم السكبي ، وأم الرباب من كلب أيضاً ، وهما
اللذان ذكرهما امرؤ القيس ، وذكر مقامهما بمأسّل (٧) وفيها دارة جُلجل (١٠)

(١) وضنا بجانب كل علم رقاً يدل على البيت الذي ورد فيه في كل معلقة إشاراً للايجاز ،
وبعداً عن التكرار . وكذلك فعلنا في سائر نقاط البحث

التي ذكر لهوه فيها من العذارى ، وقال هشام الكلبي : دارة جلجل عند غمر كندة ^(١) وقال الأصمعي وأبو عبيدة : « دارة جلجل » في الحمى ^(٢) . وفيها وَجْرَة (٣٧) التي اشتهرت بوحشها ، وهي موضع بين مكة والبصرة أربعون ميلاً ما فيها منزل أبداً فهي مساكن للوحوش ^(٣) . وفيها ضارج والمذيب (٧٧) اللذان قعد الشاعر بينهما يرقب البرق الذي يضيء سناه ، وضارج موضع باليمن والمذيب موضع بالعراق يشير إلى سناه الذي بعد تأمله إياه ، ويروى « بين حامز وبين أكام » وهو من بلاد غطفان . وفيها قطن والشَّيْ والسَّتار وَيَذْبُل (٧٨) قال البكري في معجم ما استعجم : « قطن » جبل بنجد في بلاد بني أسد على يمينك إذا فارقت الحجاز ، والشيم جبل أيضاً ، والستار جبل بالحجاز ، ويذبل جبل بالحجاز أيضاً ، ويقال له « يذبل الجوع » لأنه أبداً مجذب . وفيها كثيفة (٧٩) وهي موضع . والقنان (٨٠) وهو اسم جبل لبني أسد . وتيماء (٨١) وهي مدينة كثيرة النخل والتين والعنب بين حوران ومدينة الرسول عليه السلام . وثبير (٨٢) وهو جبل بمكة ، وهي أربعة أثيرة بالحجاز : ثبير الأثيرة وهو بمكة ، والثاني ثبير غينا ، والثالث ثبير الأعرج ، والرابع ثبير الأحذب ، أراد الشاعر واحداً منها . والحجير (٨٣) وهو جبل لبني فزارة . وصحراء الغبيط (٨٤) وهي أرض بني يربوع والغبيط أكمة يرتفع طرفاها ويطمئن وسطها وفي معلقة طرفه من أسماء البلاد والمواضع والجبال : برقة تهمد (١) التي ذكر أن بها أطلال خولة ، التي تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد ، والبرقة الأرض ذات الحجارة المختلفة الألوان ، والتهمد السميعة ، وهما علم على جبل في الحمى حوله أبارق كثيرة في ديار غنى ، وموضع في ديار بني عامر . ودد (٣) اسم موضع .

(١) غمر كندة موضع وراء وجرة ، بينه وبين مكة مسيرة يومين (انظر مراد الاطلاع على أسماء الأماكن والباق : ص ١٠٠٠ .
(٢) شرح القصائد العشر للتبريزي ١٣ .
(٣) نهاية الأرب في شرح مطلق العرب ١٨ .

وعَدَ وَلِي (٤) وهى قرية بالبحرين . وذكر التبريزى أنها جزيرة من جزر البحر من أوال وأوال أسفل من عُحْمَان . والقَفْطَان (١٥) وهما ثنية «قَف» وهو ماغلظ من الأرض ولارتفع ، فلم يبلغ أن يكون جبلا ، والقَفْ واد من أودية المدينة ، ثَمَاء على عادتهم فى ثنية المفرد، وجمعه لإتمام النظم . وضر غد (٨١) وهى أرض لبني هذيل وبني غاضرة وبني عامر بن ثعلبة ، وقيل هى حرة بأرض غطفان ، وقيل اسم جبل . وفى معلقة زهير : حومانة الدراج والمثلث (١) التى ذكر أنهما موضع دمن أم أوفى ، والحومانة المكان الغليظ ، أو القطعة من الرمل ، والدراج والمثلث موضعان بالعالية . والرقتان (٢) قال الأصمعى : الرقتان إحداهما قرب المدينة والأخرى قرب البصرة ، والمعنى أن دارها بينهما . وقال الكلبي : الرقتان بين جرثم وبين مطلع الشمس بأرض بني أسد ، وهما أبرقان مختلطان بالحجارة والرمل ، والرقتان أيضاً حذاء «ساق الغرو» ، وساق الغرو جبل فى أرض بني أسد ، والرقتان أيضاً «بشط فلج» أرض بني حنظلة . والعلياء وجرثم (٧) والعلياء بلد ، وجرثم ماء لبني أسد . والقنان (٨) وهو جبل لبني أسد . والسؤبان (١٠) وهو واد ، وهو أيضاً اسم جبل أو أرض . ووادى الرّسّ (١١) وهو ماء ونخل لبني أسد ، والرئيس حذاء . والعراق (٣٣) الذى كان لأرضه غلات عظيمة تضرب بها الأمثال . والمثلث (٤٢) وهو موضع بين اللوى وجهرم .

وفى معلقة ابيد : مِئى ، والقول ، والرّجام (١) ومئى اسم موضع غير الذى فى الحرم ، وهو قريب من طخفة بالحِمْي «حمى ضرية» ، وطخفة موضع بعد النجاج وبعد اسرة فى طريق البصرة إلى مكة ، و«ضرية» قرية لبني كلاب على طريق البصرة إلى مكة ، وهى إلى مكة أقرب . والريان (٢) وهو واد بالحِمْي ، قال ياقوت فى معجم البلدان : «الريان» اسم جبل فى بلاد بني عامر ، وإياه عنى لبيد بقوله «فدافعُ الريان عُرميَ رسمها» والريان جبل فى طريق البصرة إلى مكة ، والريان أيضاً جبل فى بلاد طيء ؛ وقال صاحب اللسان : «وربان» اسم جبل ببلاد بني عامر ،

قال ليبد « فدافع الريان عُرَى رسمها » . والجلهتان (٦) وهما في الأصل تشفية جلته ، وهى ناحية الوادى ، ثم جعلت علما على موضع بعينه . وتوضح ووجرة (١٤) وقد سبق هذا الموضعان في معلقة امرئ القيس . وبيشة (١٥) واد من أودية تهامة . وفيد ، والحجاز (١٧) وفيد موضع في نصف المسافة بين مكة وبغداد ، وهى منزل من منازل الحاج . ومشارق الجبلين ، وبحجر وفردة ورُخام (١٨) أراد بالجبلين أجاً وسلمى ، والحجر وفردة ورُخام أسماء مواضع متقاربة . وصوائق وو حاف القهر وطلخام (١٩) أسماء مواضع ، والقهر اسم جبل . وأحزة الثلبوت (٢٧) والأحزة جمع حزيز ، وهو المكان النليظ ، والثلبوت واد أو أرض بين طيء وذيان . وصُعائد (٤٥) اسم موضع . وتبالة (٧٥) اسم موضع كثير الخصب ، ومن أمثالهم ، « ما نزلت تبالة لتحرم الأضياف » ، وهى بلد مشهور بتهامة فى طريق اليمن ، وهى مما يضرب المثل بخصبها ، وذكروا أن عبد الملك ولى الحجاج عليها ، فلما أتاها استمقرها ، فلم يدخلها فقالوا « أهون من تبالة على الحجاج »

وفى معلقة عمرو بن كلثوم : الأندرين (١) وهى قرية بالشام كثيرة الطمر جيدته . واليامة (٥) وهى مدينة بنجد . وذو طُلوح ، والشامات (٢٨) موضعان . ونجد (٣١) فى قوله « يكون ثفالها شرق نجد » وفى رواية أخرى « شرق سلمى » وهو اسم أحد جبلى طيء : أجاً وسلمى . ورهوة (٤٦) اسم جبل . وخزازى (٦٨) وهو اسم جبل وموضع ، وخزازى ، وكير ، ومتالع ، أجيال ثلاثة بطخفة ما بين البصرة إلى مكة ، وقيل بخزاز جبل لبني غاضرة خاصة . وذو أراطى (١٩) اسم مكان ، وهو واد لبني أسد . والأبطح (٩٣) وهو واد فيه دقاق الحمى ، وأراد به « أبطح مكة » لأن الناس يجتمعون فيه من كل وجه .

وفى معلقة عنتره : الجواء (٢) بلد فى نجد يسميه أهل نجد « جواء عذنة » . والحزن ، والعصمان ، والمتنلم (٧) الحزن وموضع لبني يربوع ، والعصمان جبل وموضع لبني تميم ، والمتنلم مكان . وعنيزتان ، والغيل (١٢) وعنيزة موضع بين

البصرة ومكة ، وهى أيضاً بئر على ميلين من القريتين ، يبطن الرمة ابنى عامر ابن كرىز ، وعنيزة من أودية اليمامة قرب سَواج ، وقرى عنيزة بالبحرين^(١) ، والغنيم اسم موضع . والدُّخْرُضان والديلم (٣٢) والدحرضان اسم موضع ، وقيل هما دُخْرُض ووشيم ، فغلب أحدهما على الآخر ، وهما ماءان بين سعد وقشير ، وقيل : هما وراء الدهناء ، قيل : ودحرض ماء لآل الزبرقان ، والديلم ماء من مياه بنى سعد . والرداع (٣٦) وهو اسم ماء .

وفى معلة الحارث بن حلزة : بُرْقَة شماء ، والخُلصاء (٢) والبرقة والأبرق والبرقاء رابية فيها رمل وطين ، أو طين وحجارة مختلطان ، وشماء هضبة فى حِمَى ضَرِيَّة وهى أرض بنجد ، والخُلصاء بلد بالدَّهْناء ، وقيل أرض بالبادية ، فيها عين ماء لعبادة بالحجاز . والحياة ، والصفاح ، وفتاق ، وعاذب ، والوفاء (٣) والحياة هضبة أسفل من أبان الأسود غير بعيد ابني أسد ، والصفاح أسماء هضاب مجتمعة وموضع بين حُنين وأنصاب الحرم على يسرة الداخل إلى مكة من مُشاش ، وفتاق اسم جبل ، وعاذب اسم واد أو جبل قريب من رَهْمَى ، وهى فى الصمان فى ديار بنى نعيم ، والوفاء أرض . ورياض القطا وأودية الشَّرْبُوب والشعبتان والأبلاء (٤) ورياض القطا رياض بعينها يكثر فيها استنقع الماء ودوامه فقعشب فتأمنها الطير لذلك ، والشَّرْبُوب واد فى ديار بنى سليم ، قال الأصمعى إنما أراد فوادى الشرب فاضطره الشعر إلى الجمع ، وقال غيره : العرب توقع الجمع على الواحد ، من ذلك قوله تعالى « فنادته الملائكة » أى فناداه جبريل عليه السلام ، والشعبتان أكمة لها قرنان ناتثان ، والأبلاء اسم بئر . والعلياء (٦) المسكان المرتفع من الأرض ، وإنما أراد العالية ، وهى الحجاز وما يليه من بلاد قيس . والعقيق وشخصان (٧) وفى ديار العرب أعقَّة ، منها عقيق عارض اليمامة ، واد واسع ، وفيه قرى ونخل كثير ، يقال له عقيق تمر ، ومنها عقيق المدينة فيه عيون .

(١) انظر مرادد الاطلاع على أسماء الأماكن والباق ٩٦٨/٢ .

ونخل ، وشخصان تثنية شخص موضع ، ويقال أكمة لها شعبتان . وخرزاي
(٨) جبل بين العقيق وشخصين . وملحة والصاقب (٢٨) والصاقب جبل ضخم
تلقاء ملحة . والبحرين والحساء (٣٣) والبحرين واسم جامع لبلاد على ساحل
بحر الهند بين البصرة وعمان من جزيرة العرب ، وعمان آخرها ، ومدينتها هَجَر ،
وبينها وبين البصرة خمسة عشر يوماً ، وبينها وبين عُمان مسيرة شهر ؛ والحساء
مياه لبنى فزاة بين الرَبْذة ونخل يقال لمساكنها ذو حِساء . والحياران (٣٨) وهما
بلدان غزا فيهما المنذر بن ماء السماء ومعه بنو يشكر ، فأبلاوا بلاء حسناً . وذو المجاز (٤١)
موضع بمكة ، وهو الموضع الذي أخذه عمر بن هند الملك على تغلب اليهود ، وأصلح
فيه بين الحثيين ، وأخذ منهم دهنًا من أبنائهم من كل حي مائة غلام ، فيما تقول الروايات .
وذو نطاع (٥٣) قرية من قرى اليمامة ، ومياه في بلاد بنى تميم . والعلاء والعوصاء (٦٠)
في بلاد الشام ، وهما أقرب أرض أنزلها النعمان « ميسون » بعد أن قتل أباهما .
وحزم شهلان (٧٤) والحزم ما غلظ من الأرض وكثرت حجارتها ، وشهلان جبل
ضخم بالعالية ، وقيل في بلاد بنى نعيم .

ذلك أكثر ما ورد في تلك المعلقات من أسماء المواضع والجبال ، لم
تذكر لجرد السرد ، وإنما ذكرت لدلائلها ، ولارتباطها بحياتهم ومنازلهم ورحلاتهم
ووقائعهم . إلى جانب ما تفيض به المعلقات من ذكر الأودية والكتبان والعيون
والمياه ؛ وغيرها مما يتصل بطبيعة الأرض التي عاشوا فيها ، والصحراء التي جمعت
شتات تاريخهم ؛ وحفظت معالم أوطانهم .

(٢) الجو والرياح والمطر والنجوم :

وكذلك عبر شعر المعلقات عن سماء العرب ونجومها ، وما يتعاقب عليهم
من الرياح والأمطار ، إذ كانت تلك المشاهد الطبيعية شديدة الاتصال بحياتهم ،

عميقة التأثير في نفوسهم ، فقد مدّوا عيونهم على الصحراء ، ورفعوها نحو السماء ، فاتصلت الأرض بالسماء ، والجبال بمسارح النجوم في خواطرهم ، واتخذوا منها دليلاً في حلهم ومرتحلهم ، يهديهم سبلهم ، ويعرفون بها أين هم من تلك المفاوز الواسعة ، والكثبان المتشابهة . وكانت السماء مرتجّاهم يترقبون سحبها ، ويتوقعون غيثها الذي ينمي لهم النبات السكلاً والعشب ، فيأكلون ويرعون أنعامهم ، ورصدوا حركات الرياح التي تدفع السحاب ، وتخفف عنهم حدة الطبيعة المتطرفة .

ومن ذلك في معلقة امرئ القيس : الجنوب والشمال (٢) اللذان ذكر امرؤ القيس أن منازل جيبيته لم تعف آثارها بسببهما ، بل هي باقية ، ولو غفت لاستراح ، ولم يعرف رسمها للريح وحدها ، وإنما عفا المطر والريح وغيرها ، قال صاحب القاموس : والجنوب ريح تخالف الشمال مهبّتها مطلع شُهيل إلى مطلع الثريا^(١) . وقال القلقشندي : إن مهبّتها من حد القطب الأسفل إلى مطلع الشمس ، وتسمى بالديار المصرية « القبليّة » لأنها تأتي من القبلة فيها ، وتسمى بها أيضاً « المريسيّة » لأن في الجهة القبليّة بلاد المريس ، وهم ضرب من السودان ، قال : وهي أردأ الرياح عند أهل مصر^(٢) ؛ أما الشمال بالهمز والتخفيف ، فقد ذكر أن مهبّتها من حد القطب الشمالي إلى مغرب الشمس ، وسميت شمالاً لأنها على شمال من استقبال المشرق . وفيها يقول الفيروز آبادي (٤٠٢ / ٣) هي التي تهب من قبل الحجر أو ما استقبلك عن يمينك وأنت مستقبل . قال : والصحيح أنه مامبّته من مطلع الشمس وبنات نعش أو من مطلع النعش إلى مسقط النسر الطائر^(٣) ، ويكون اسماً وصفة ، ولاتسكاد

(١) القاموس المحيط للفيروز آبادي ٤٩ / ١ ، وسهيل كوكب أحمر منفرد عن الكواكب ، ولقربه من الأفق كأنه أبداً يضطرب ، وهو من الكواكب البائية . قال ابن قتيبة : ومطلعه عن يسار مستقبل قبلة المراق . قال : وهو يرى في جميع أرض العرب ، ولا يرى في شيء من بلاد أرمينية .

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي ١٦٧ / ٢ .

(٣) بنات نعش سبعة أنجم على القرب من القطب الشمالي ، منها أربعة في صورة نعش وثلاثة أمامه مستطيلة . وهي المعبّر عنها بالبنات ، وتعرف هذه ببنات نعش الكبرى ،

تهب ليلاً . . وذكر الصَّبَا (٨) الذى يتضوع المسك من أم الحويرث وجارتها أم الرباب كما يتضوع نسيمها ، والصَّبَا هى التى تأتى من المشرق ، وتسمى القَبُول أيضاً ، لأنها فى مقابلة مستقبل المشرق ، قال فى صناعة الكتاب : وأهل مصر يسمونها الشرقية ؛ لأنها تأتى من مشرق الشمس . وأصول الرياح أربعة : الصَّبَا ، والدَّبُور ، والشمال ، والجنوب . . والثَّرْيَا (٢٩) التى ذكر تعرضها وشبهه بتعرض أثناء الوشاح المفصل ، حينما دبّ إلى صاحبتة وتجاوز إليها الأحراس ، والثَّرْيَا ستة أنجم صغار يظنها بعض الناظرين سبعة أنجم ، وهى فى شكل مثلث متساوى الساقين ، وبين نجومها نجوم صغار جداً كالرشاش ، وأول ما يطلع منها ويغيب هو الجانب العريض دون الأخاذ منها . . وذكر الليل الذى تطاول عليه ، والصباح الذى ليس أمثل من الليل (٥٠ و ٤٩) وذكر نجومه التى يراها لا تزايل مواضعها ، وكأنها شدت بجبل يذبل فلا تستطيع حراكا . . وذكر الثريا مرة أخرى (٥٢) فى معرض الشكوى من طول الليل ، وكأنها علفت فى موضعها مشدودة بحبال من الكتان إلى حجارة صم ، فلا تستطيع المضى . . وذكر البرق ووميضه والحجى المكال (٧٥) والحجى ما ارتفع من السحاب ، والمكال المستدير كالإكليل ، والمكال المبتسم بالبرق ، وشبه البرق فى تحركه ولمعانه بلمع اليدين ، وفى تألقه بمصباح الراهب (٧٦) أميلت فتيلته بصب الزيت عليها ، وفى قوله آمال السليط بالفتيل قلب ، وإعما المراد آمال الفتيل بالسليط . . وذكر قموده مع أصحابه بين ضارج والعذيب (٧٧) ينظرون إلى هذا السحاب يشيرون برقه ، ذلك السحاب الذى امتدّ وانتشر فى الأفق وتناوت أطرافه ، فنزل مطر يمتناه على جَبَلَى نجد قَطَن والشيم ، ومطر يسراه على جبل الحجاز ستار و يذبل (٧٨) . وهذا السحاب يصب ماء حول

وبالقراب منها سبعة أنجم على شكلها . والفسر الطائر ثلاثة أنجم ، سمي بذلك لأنهم يحملون اثنين منها جناحيه ، ويقولون قد بسطهما كأنه طائر ، والعاملة تسميه الميزان .

كتيفة ، فإذا سال ماؤه اقتلع الأشجار لكثرتة ، وقوة جريانه ، وألقاها على رءوسها (٧٩) وقد مرّ على جبل القنان شيء مما تنافر من ذلك المطر ، فأنزل هذا القدر اليسير منه الوعول أو الظباء من منازلها ، وإذا كان هذا حال رشاشه وما تنافر منه ، فكيف يكون حال ذلك المطر نفسه ؟ (٨٠) . . وهذا المطر أصاب تياء فيما أصاب ، فلم يترك بها نخلة إلا قلبها ، ولا حصنا إلا هدمه ، اللهم إلا ما كان من هذه الحصون مبنيًا بالصخور العظيمة فإنه لم يهدمه (٨١) . . ووصف ما فعل هذا المطر بشير (٨٢) الذي بدا في أوائل هذا المطر كأنه كبير قوم تزل بكساء مخطط ، يريد أن المطر لما نزل على هذا الجبل وسحّ من جوانبه خطط فيه خطوطا ، فكأنه في تلك الحال كبير قوم تلك حاله . . وكذلك ما فعل بذرا رأس جبل الجيمر (٨٣) الذي بدا صبيحة ليلة ذلك المطر مما حمله السيل إليه وأداره بجوانبه ، كأنه الخشبة التي تطيف بالمنزل وتحيط به . . وهذا المطر أتى بصحراء الفييط (٨٤) ما كان يحمله من الماء ونشره بأطرافها ، كما ينشر الرجل اليماني التاجر الحمل من الثياب ما في عيابه منها ليعرضها على من يشتريها ، والمراد أن المطر لما نزل بهذه الصحراء خرج منه نبت مختلف ألوانه ، فكانت كثياب مختلفة الألوان نشرت في أرض . . وكان مكاكي الجواء غدوة ليلة ذلك المطر سقين خراصافية لذاعة ، فهنّ لا يزان يتغنين (٨٥) . . وكان الأسود ، وقد غرقت في سيول ذلك المطر ، أصول البصل البرى (٨٦) فهذه الأسود قد تلطخت بالطين ، حتى كأنها أصول البصل لكثرة ما عليها من طين . وهكذا أبدع امرؤ القيس في وصف المطر وفعله بالبادية ومنازلها وأشجارها وجبالها وحيوانها ما شاء ، في تلك التشبيهات التي تعتمد على طبيعة البادية وما فيها من الأحياء والجماد .

وفي معاقبة طرفة : ذكر الشمس (٩) التي كسا ضوءها ثغر حبيبتة ، فأصبح

براقاً حاشاً لثمتها، فإنها حواء تضرب إلى السمرة ولا بريق فيها، وإنما نفي عنها ذلك لأنهم لا يستحسنون اللثة إذا كانت براقاً، وإنما يستحسنونها إذا كان في لونها ميل إلى السواد . وذكر الشمس مرة أخرى (١٠) حين ذكر أن لحبيته وجها مشرقاً كأن الشمس أعارته ثوباً نقياً خالصاً من أثوابها، ليس فيه غصون ولا شقوق كوجه المسنة أو المريضة، وذكر الولي (١٥) في قوله إن ناقمة نزلت في الربيع الثقيين على النوق الشول ورعت بنت الوادي المولى وهو الذي أصابه الولي، وهو المطر الثاني من أمطار السنة إلى الوسمي، وهو المطر الأول والآل (٤٣) في قوله « وقت خب آل الأمعز المتوقد، والآل ما يرى طرفي النهار في الصحراء كأنه ماء وليس بماء، وما يرى وسط النهار فهو سراب . والدجن (٦٠) وهو إلباس الغيم السماء .

وفي معلقة لبيد : المراجع والنجوم والودق والرواعد والجود والرهام (٤) والمراجع هي الأمطار التي تكون في أول فصل الربيع، والنجوم الأنواء، والودق المطر، والرواعد السحاب جمع راعدة، والرعد صوتها، يصفقها الريح بعضها في بعض، فيحصل من تصادمها واحتكاكها هذا الصوت الذي يسمع منها، والجود المطر الغزير حتى لا يطر فوقه، والرهام جمع رهمة، وهي المطر الضعيف الدائم. وذكر السارية، والغادي المدجن، والإرزام (٥) والسارية السحابة تسري ليلاً، والغادي السحاب الذي ينشأ غدوة، والمدجن المطبق الذي استوعب أقطار السماء، والإرزام التصويت، يقال : أرزمت السحابة إذا اشتد صوتها . والسيول (٨) جمع سيل وهو الماء الكثير السائل، وصفها وقد كشفت عن آثار الديار لأنها غسلت ما كان متراكماً عليها من التراب، فسكان تلك الطلول كتب غابت فيها الكتابة أطول عهداً بالكاتب، وكأن تلك السيول أقلام تجدد كتابة تلك الكتب وتظهر ما خفي منها . والسراب (١٥) الذي يلوح للنظر

في الظهيرة أنه ماء وليس بماء . والصَّهْبَاءُ (٢٤) وهي سحابة في لونها صُهباء ، أي حمرة . وريح المصايف والسهم (٣٠) التي حركت الحشيش فهاج ، أو تحركت ريح الصيف مرورها وسمومها ، والسهم ريح حارة . وأسبل واكف من ديمة يروي الخائل دائماً تسجامها (٤٠) أسبل سال واستزحى ، وقال أبو زيد : أسبلت السماء إسبالاً ، وهو المطر يكون بين السماء والأرض حين يقع من السحاب قبل أن يصل إلى الأرض ، والواكف المطر يكف منها ، والديمة مطر يدوم ويسكن ليس بالشديد ، والتسجام الصب . وهذا المطر متواتر في ليلة كفر النجوم ظلامها أو غمامها (٤١) والمتواتر المتتابع ، وكفر النجوم غطاها وسترها ، ومنه قيل لليل كافر لأنه يستر الأشياء بظلمته ، والفلاح كافر لأنه إذا أتى الحب في التراب ستره به ، والغمام السحاب واحده غمامة . ورقص اللوامع بالضحأ وأردية المراب (٥٣) أي يقضى لبائته بتلك الناقة إذا اضطرب الآل ، وهو الذي يراه الإنسان بالضحأ ، كأنه يرتفع وينحط ، وإذا البست الإكام أردية المراب . والليلة الطلقة (٥٧) التي لا برد فيها ولا مطر . « وغداة ريح قد وَزَّتْ وِقْرَةٌ قد أصبحت بيد الشمال زمامها » (٦١) الغداة أول النهار ، والقرة البرد ، يقول : رب غداة باردة ، قد هبت فيها ريح الشمال ، فزادت في بردها ، دفعها عن نفسي وندماني بالشراب . « حتى إذا ألفت يداً في كافر وأجنّ بعورات الثنور ظلامها » (٦٥) الضمير في ألفت للشمس ولم تذكر قبل هذا ، والكافر الليل لستره الأشياء بظلامه ، وأجنّ ستر . وذكر تنارح الرياح (٧٧) وهو تقابلها ، تهب الصبأ وتقابلها الدبور ، وتهب الشمال وتقابلها الجنوب .

وفي معلقة عمرو بن كلثوم : ذكر تصفيق الرياح للدروع (٧٨) وهو ضربها ، ويروي « عربنا » موضع « جرينا » معناه أصابتهم ريح باردة ، والعربة الريح الباردة .

وفي معلقة عنتره : ذكر الروضة الأنف التي تضمن نبتها غيث قليل الدمن

ليس بمعلم (١٩) أى أن المطر سقط عليها فطأب رأتحتها ، وقد جادت عليها كل عين ثرة أو بكر حرة فتكن كل قرارة كالدرهم (٢٠) أى أصابتها بالجوهر وهو المطر الغزير ، والبكر من السحاب التى لم تمطر بعد فهى أكثر ماء ، والحرة الخالصة من البرد والريح ، ويرى « كل عين ثرة » والعين : المطر لا يقلع خمسة أو ستة أيام ، وثرّة كثيرة المطر دائمته ، والقرارة مستقر الماء فى الوادى . والسحّ والتسكاب (٢١) والسحّ صب المطر ، والتسكاب السكب .

وفى معلقة الحارث : ذكر المواجر (١٤) وهى أنصاف النهار واحداها هاجرة . والباء (٢٥) وهو السحاب الرقيق .

(٣) نبات الصحراء :

وفى المعلقات ذكر لبعض ما يعرفون من نباتات البرية وأعشابها ، وما يمرون به فى غدواتهم وروحاتهم ومرعاهم من تلك النباتات التى يرعونها ، أو يشمون شذاها ، أو تأمر عيونهم بحال منظرها ، أو يستعملونها فى بعض أغراض حياتهم .

ومن ذلك فى معاقبة امرئ القيس : حب الفلفل (٣) الذى شبه به بعراآرام الذى تناثر فى عرضات الديار . والسمرات والحنظل (٤) والسمرات جمع سمره ، وهى شجرة ذات شوك ، وناقف الحنظل هو الذى يشقه عن الهبيد ، وهو حب الحنظل وإنما شبه نفسه به ، لأن ناقف الحنظل تدمع عيناه لحرارة الحنظل . والقرنفل (٨) الذى شبه برأئحته رائحة المسك الذى تضوع من صاحبتة أم الحويرث وجارتها أم الرباب ، الذى ذكره مرة أخرى (١٧) فى قوله « إذ يقينا جناة القرنفل » . والأقحوان الذى شبه به ثغر صاحبتة (١٨) . والنخلة التى شبه بقنوها^(١) فرعها

(١) اقنوا بالكسر ويضم العنق ويقال له السكباسة .

الأسود الفاحم الذى يزبن منها (٣٩) . والتى ذكرها مرة أخرى حين ذكره تيماء المعروفة عندهم بكثرة النخيل ، وهى بين حوران ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . والاشجّل (٤٣) وهى شجرة دقيقة أغصانها فى استواء ، تشبه بها الأصابع دقة واستواء . وذكر دوح الكنهيل (٧٩) والدوح جمع دوحة وهى الشجرة العظيمة والكنهيل بضم الباء وفتحها ضرب من الشجر . (٨١) وقد وصف المطر الذى أصاب تيماء بأنه لكثرتة لم يترك بها نخلة إلا قلبها ولا حصنا إلا هدمه ، وذكر العُنْصُل وهو البصل البرى (٨٦) وأنايشه وهى أصوله التى ينبش عنها . وفى معلقة طرفة ذكر المَرْدَ (٦) وهو ثمر الأراك ، وذكر الخميلة وهى الروضة المشبة (٧) والبرير وهو ثمر الأراك إذا أدرك ، والمنور (٨) وهو الأقحوان النبات فى الأرض السهلة . وذكر الضال (٢١) وهو شجر الصدر البرى . والمُشَر والخروع (٦١) والمشر شجر فيه حُرّاق لم يقتدح الناس فى أحسن منه ، ويحشى فى الحفاد للينه ، والخروع نبت لا يرى .

وفى معلقة زهير : ذكر المهن (١٣) وهو القطن مصبوغاً أو غير مصبوغ والمراد به فى هذا البيت المصبوغ ، لأنه شبهه بحب الفنا وهو شجر له حب أحمر ، وهو الذى يقال له عنب الثعلب .

وفى معلقة ليبد : ذكر الأيهقان (٦) وهو عشب يطول ، وله وردة حمراء وورقه عريض ويؤكل ، أو هو الجرجير البرى واحدته أيهة ، والثمام (١١) وهو نبت ضعيف له خوص أو شبيه بالخوص ، تحشى به خصائص البيوت واحده ثمامة ، والأثل (١٥) وهو نوع من الطرفاء ، الواحدة أثلة . والسنا (٣٠) وهو شوك شجر البهمى ، والعرفج (٣٢) شجر سهلى ، والقلام (٣٤) نبت يكون على الأنهار ، واليراع (٣٥) وهو القصب ، والجرداء (٦٦) وهى النخلة التى انجردت كرها وليفها .

وذكر عمرو بن كلثوم الدرين (٦٩) وهو الحشيش اليابس الذى حبس قومه لإبليس على طعامه حتى ظفروا ولم ينل منهم عدو .

وفى معلقة عنتره : المخبم (١٤) وهو آخر ما ييس من النبات ، واحده خمخة . والمظلم (٦٤) وهو نبت يختضب به .
وفى معلقة الحارث بن حلزة : العود (٧) الذى يتبخر به ، والسعف (٣٣) وهو أغصان النخلة ، واحدها سعة .

(٤) حيوان البادية :

وفى المعلقات إشارات لبعض حيوانات البادية ، وفيها تفصيل لبعضه الآخر وكان الذى أفاض شعراء المعلقات فى ذكره ، وفصلوا فى نعته هو أكثر أنواع الحيوان لهم نفعاً ، وأشدّه بحياتهم اتصالاً .
وقد كان للخيّل الحظ الأوفى من عناية العرب فى الجاهلية ، إذ كانت شديدة الاتصال بحياتهم فى الحرب ، وكان صهيلها من الأصوات التى أفوها فى شتى ظروفهم ومقاماتهم وحلهم وترحالهم .

ولقد أفاض امرؤ القيس فى ذكر الخيل ونعتها بنعوتها فى كثير من أبيات معلقته ، ولا سيما الأبيات التى تبدأ بالبيت السابع والخمسين وتنتهى بالبيت الرابع والسبعين ، فإنها جميعاً تذكر الخيل التى كان يباهى بها امرؤ القيس ويتأنق فى أوصافها فى أكثر شعره ، وفى هذه الأبيات ذكر ما كرهه الصيد ، والطير لا تزال فى عشائها ، على فرس ماض فى سيره ، عظيم الجثة ، لا يفوته من الوحش هارب ، فكأنه قيد فى أرجلها ، وهذا الفرس مكرّ إذا أريد منه السكر ، مفرّ إذا أريد منه الفرار ، مقبل إذا أريد منه ذلك ، مدبر إذا أريد منه الإدبار ، وذلك جميعاً من قوته لا يعجز عن شيء منه ، وليس مراده أن هذه الأشياء الأربعة تقع منه فى وقت واحد ، لأن ذلك غير ممكن بحال ، وأنه كصخرة ألقاها السيل من أعلى الجبل إلى أسفل الوادى فى السرعة وصلابة الخلق . وهذا الجواد لا كتناز لجه وملاسة ظهره لا يثبت عليه اللبد ، كما أن الحجر الأثمن لا يثبت عايه المطر ، وإنما يزلق عنه ، وهذا الذى ذكره من صفة جواده ممدوح فى الخيل . وهذا الفرس على ضموه خفيف الحركة سريع الانتقال ، وإذا

عدا سمع لجريه صوت كصوت القدر، إذا كان يغلى على النار، وإن كان بين البيتين تناقض فى المعنى، لأنه وصفه هنا بذبول الخلق وضهور البطن، ووصفه من قبل باكتناز اللحم، حتى إن اللبد لينزل عنه لكثرة ما عليه من اللحم، وقد ساوى كفه وعنقه.

وهذا الفرس فى حال إعيائه وفطور أعضائه من كثرة التعب يصب الجرى صعباً، كما يصب الماء إذا كلت الخيل الجياد السوايح، وأثارت الفبر فى الأرض المذلة بحوافر الدواب وهو لشدة سيره وسرعة عدوه ينسل من تحت راكبه نسلًا، فيسقط راكبه، ولا يثبت على ظهره راكب، خفيفا كان أو ثقيلا فإذا ركب الغلام الخفيف زلق عن ظهره، وإذا ركب الرجل الكبير الثقيل الجسم سقط فهلك. وهو فى سرعة جريه كأنه خذروف الصبي قد أحكم قتل خيطه، وتتابعت كفاه بإدارته.

ولهذا الفرس خاصرتان كخاصرتى الغزال فى الضمور وساقان كساقى النعام فى الطول، وإرخاء كإرخاء الذئب فى السرعة، وتقريب كتقريب ولد الثعلب فى وقوع قدميه موضع يديه، فقد شبهه بأربعة أشياء فى بيت واحد. وهذا الفرس عظيم الجرم، طويل الذنب يكاد يمس ذنبه الأرض، كثير شعر الذنب، إذا قام الإنسان خلفه رآه قد سدّ ذنبه ما بين رجله فلا يرى منها شئ، ووصف ذنبه بأنه ليس بمائل إلى شقّ، وذلك من دلائل العتق وكرم الأصل. ثم شبه جانبي صلب الفرس إذا اعتمد على رجله بالحجر الذى يندق عليه الطيب للعروس، أو الحجر الذى يكسر به الحنظل، يريد أنه أملس الظهر مكتنز اللحم، وفى هذا الوصف رجوع مرة أخرى إلى وصفه بالسمن بعد أن عدل عنه ووصفه بالذبول والضمور. ثم شبه آثار دماء الوحوش على عنق هذا الفرس بما بقى من الحناء على الشعر الأشيب، يريد أن دماء الصيد على نحره قد جفت وتراكت لكثرتها، وذلك كناية عن كونه كثير السعى فى طلب الصيد، وأنه لا يفوته منها هارب.

وبعد تلك الأوصاف الدقيقة يعرج امرؤ القيس على ما يفعل بهذا الفرس من الخروج به إلى الصيد، وصنيعه في ذلك، فيذكر قطعاً من بقر الوحش، ويشبه إنائه في السمن واكتناز اللحم والتبختر في المشى بهذارى عليهن ملاحف طويلات الذبول تسحب خافهن وهن يطفن حول الصنم، وتلك النعاج من بقر الوحش أقبلت عليه مجتمعات فلما تَبَيَّنَتْهُ نفرت منه وفرت عنه متفرقات بعضهم عن بعض، فكأنها الخرز اليماني في عنق صبي كريم كثير الأعمام والأخوال، قد فصل بين خرزاته بجواهر، فلما أدبرت النعاج جرى فرسه في إثرهن، فأدرك به أوائلهن، والمتأخرات منهن لا يزان في ضجة أو شدة، أو مجتمعات لم يتفرقن، وهذه مبالغة في قوة الفرس وشدته وقدرته على العدو، حتى كأنه بهذه المثابة؛ وقد استطاع أن يجمع بين ثور وبقرة في شوط واحد فقتلها تباعاً، وهو لم يعرق فيفسله العرق، وهذا كناية عن كون هذا الفرس فعل هذا كله ولم يمسّه إعياء ولا تعب فيعرق؛ وذلك الفرس بعد التعب الذي ناله طول يومه في الصيد قضى ليلته تلك مسرجاً قائماً على قوائمه مقيداً، وأنه بات يكلؤه طول ليلته خيفة عليه.

ذلك ما أتت عليه معلقة امرؤ القيس من وصف الفرس، ركوهم في الصيد والقتال، وقد تمثلت في هذا الوصف نعوت الخيل الجياد في نظر العرب.

أما طريقة فقد ذكر الخيل في أمانيه الثلاث التي عدّها من لذة الفتى التي لا يبالي الموت إذا فقدّها، فإن ثانی الأشياء التي يحرص على الحياة من أجلها كرهه لإغاثة الملهوف، ونجدة المستصرخ المسكروب، فرساً في يده انحناء قليل، وهذا محمود في الخيل، فإذا فحش كان مذموماً، وكان هذا الفرس ذئب الغضا في ورود الماء أنير وأفزع، وهو إذا كان فيه هذان الأمران كان أسرع ما يكون من الحيوان عدواً وأخفه حركة وأكثره نشاطاً (٥٩)

وفي معاقبة لبيد قليل من ذكر الخيل ، وذلك حين فخر بحمايته الحية تحمل سلاحه فرس متقدمة سابقة في العدو قد توشح بلجامها (٦٣) وذلك أن الفرسان كان أحدهم يتوشح بلجام فرسه ، ليكون ساعة الفزع والحاجة إلى الركوب قريباً منه ، وأنه خبّ بها ، ثم أحضر بها ثانياً ، فلما عرقت خفت أعضاؤها للعدو ، فاشتدت في عدوها اشتداداً قلّقى له رحلها ، وسال منه نحرها عرقاً ، وابتل حزامها من ذلك العرق ، وهي ترفع رأسها نشاطاً ، وتجذب عنانها من كف راكبها ، وتعتمد في سيرها ، كأنها حمامة قد جدّ جماعتها في طلب الماء السكّرة ما نالهن من العطش ، فهن أسرع ما يكنّ طيراناً (٦٧ و ٦٨ و ٦٩) .

ووصف عمرو بن كلثوم الخيل حين ذكر صنيع قومه بسادة غيرهم ، من الذين يحمون اللاجيء إليهم ويدفعون الضيم ، إذ يقتلونهم ويحبسون خيلهم الصامتات عليهم فتقف مطمئنة لا يروعها شيء ولا يفرعها مفزع (٢٦) ؛ وحين ذكر أن قومه أبداً على أحد حالين : فأما إذا خشوا على بنيتهم من العدو أصبحوا متيقظين مستعدين للقتال للدفاع عنهم ، وأما يوم لا يخشون عليهم فيتركونهم في منازلهم ، ويمعنون في الغارة على الأعداء وطلب السكسب (٥٠ - ٥١) وحين ذكر أن ما يحماهم يوم الفزع هي الخيل الجرد (٧٩) وهي القصيرة الشعر ، وهو وصف لسكرائها ، وقد استنقذوها من قوم آخرين ، فاصطفوها ونخروها ؛ ويعلف هذه الجياد كرائم نسائهم (٨٧) عناية بها ، وإدراكاً لأهميتها .

وفي مقام الفخر بالفروسية والبطولة ، ذكر عنزة الخيل حين وازن بين حال حبيبته عيلة التي تسمى وتصبح منعمة موطأ لها الفرش والحشام ، وحاله وهو يربّت على ظهر فرسه ، وحشيتة السرج على فرس ضخم الأطراف والقوائم (٢٤ - ٢٥) وحين ذكر حبيبته بطول ما أبلى ، وهلا سالت الخيل عنه إن كانت جاهلة ، إذ كان مقبياً على فرسه الذي تعاوره السكّة (٤٩) والذي كان

يجرده للطعان ولاقتحام جيش الأعداء ، فإذا نكى فيهم عاد به إلى جيش قومه (٥٠) وذكر دعاء قومه إياه لاقتحام غمرات القتال ، فلما أشرع الأعداء الأسنة نحو فرسه ليعقروه ويأسروا رآه ، كانت أشبه شيء بالحبال التي ترسل في البئر ليستقى عليها (٧٩) وأنه ما زال يكر عليهم بفرسه حتى عم الدم جسمه فكان عليه كالقميص ، حتى مال ذلك الجواد عن القوم لكثرة ما ناله من رماحهم ، ودمعت عينه وحجم كأنه يشكو إلى فارسه ذلك ، ولو كان يعلم الكلام لأفصح بالشكوى (٨٠ و ٨١ و ٨٢) ولقد كانت الخيل تقتحم الغبار بسرعة وهي عوابس لهول الموقف وجده ، وكان منها الطويل والقصير الشعر (٨٤ و ٨٥) .

أما الحارث بن حازة ، فقد وصف إغارة بني تغلب على قومه من بكر ، وأنهم كانوا يحكمون أمرهم ليلاً ، ليصبحهم بما اتفقوا عليه ، فيسمعونهم الضوضاء والصياح وصهيل الخيل ورغاء الإبل (٢٠) وذكر خيل الغلاق وهو رجل من بني يربوع بن حنظلة من تميم ، كان على هجان كسرى ، وكان أغار على بني تغلب فقتل فيهم (٥٧) .

وهكذا نرى الخيل قد شغل ذكرها ووصفها مكاناً بارزاً في أكثر الملاحظات في غرضيها الذين نستخدم فيهما ، وهما الصيد في إبان الأمن والسلام ، والحرب في مواقف النجدة والقتال .

أما الإبل فقد شغلت أيضاً مكاناً بارزاً في بعض الملاحظات ، إذ كانت منزلتها عندهم هي منزلة الخيل إن لم تفقها ، إذ كانت ركوبهم في رعيهم وفي ترحالهم ، وكان لهم قرى ضيفانهم ، وكانت هي الفداء الذي يستل السخينة من القلوب ويطفى نائرة الحرب .

وقد ذكر امرؤ القيس يوم «دائرة جلجل» وما كان من ذبحه ناقته للمذارى ،

وطامهنّ لحما الذى استطبته ، كما استطبن شحمها الذى يشبه الأطراف المسترسلة من الإبريسم الأبيض (١٢) وذكر ركوبه مع صاحبتة على بعيرها بعد أن عقر بعيره ، وخشيتها على بعيرها أن يثقل عليه حمل متاعها ومتاعه (٧١) .

أما طرفة فقد أفاض في ذكر ناقته ووصف جسمها وقدرتها على السير السريع الآمن ، فإذا عزم أمراً أمضاه بناقة ضامرة سريعة السير ، تصل سير الليل بسير النهار ، لا تنى ولا تفتر (١١) وهى ناقة مأمون عثارها في عدوها ، ضخمة كأن عظامها ألواح الثابت ، إذا ركبت بها متنّ الطريق الواضح زجرتها فأسرعت (١٢) وهى كالجل في متانة خلقها ، عظيمة الوجنات ، سريعة السير ، فإذا مشت بين العدو والسير كانت كأنها نعامه عرضت لظلم قليل الشعر (١٣) فإذا كانت الناقة هكذا سرعة في مشيها في تلك الحالة ، فكيف يكون حالها إذا اشتدت في عدوها وبذلت أقصى جهدها ، وهى تعارض في سيرها كرام الإبل حين تنبع رجلها يدها فوق الطريق المذلل؟ (١٤) ووصف الناقة بأنها نزلت في الربيع القفين ترتعى نبت الوادى المطور أولاً وثانياً ، مع طائفة من الإبل وذلك أدعى لإقبالها على الرعى للأنس بجنسها (١٥) وهى ناقة مؤدبة متعلمة فن أهاب بها رجعت إليه ، وإذا دنا منها الفحل انقته بذنبها (١٦) وذنبها أبيض ، كأنه جناح أسر قوى ، وهى لا تزال تلعب بذلك الذنب ، فتارة تضرب به على عجزها ، فيكون خلف الرديف ، وتارة تجمعه بين ساقها ، فتضرب به على أخلاف يابسة قد ذبلت وانقطع لبنها ؛ ولها فخذان سمينان قد اكتمل لحماها ، طويلان كأنهما بابا قصر منيف ، ولها فقامطوية متراففة متداخلة ، كأن أضلاعها لمتصلة بها قسئ ، ومقدم عنقه قد ضم وألصق بخرز عنقه أحكم إلصاق ، وجعل بعضه على بعض ، وكان إبطيها في السعة بيتان من بيوت النور الوحشى ، وكأن أضلاعها قسئ معطوفة تحت صلب قوى محكم الوضع . ولها مرفقان بعيدان عن جنبها فكأنها سقاء قوى ، حمل بكل يدولاً ، ومشى بهما ، وقد باعدها عن جنبيه ، فارتفع

جِلْدُكَ مَرْقَاهُ عَنْ جَنْبَيْهِ . وَهِيَ فِي ضَخَامَةِ جَسْمِهَا وَحَسَنِ خَلْقِهَا وَتَرَاصَفِ أَعْضَائِهَا كَقَنْطَرَةِ رَجُلٍ رَوِيٍّ بَالِغٍ فِي صَنْعِهَا وَتَقْوِيَةِ بِنَائِهَا . وَفِي لَوْنِهَا صَهْبَةٌ وَفِي ظَهْرِهَا شَدَّةٌ ، يَبْعُدُ ذَمِيلُ رَجْلَيْهَا ، وَيَكْثُرُ تَحْرُكُ يَدَيْهَا فِي السَّيْرِ ، وَكُنِيَ بِكَوْنِهَا صَهَابِيَّةَ اللَّوْنِ عَنْ كَرَمِ أَصْلِهَا . وَيَدَاهَا قَدْ فَتَلَّتَا فَتَلًّا مُحْكَمًا جَاءَ عَضْدِيهَا عَنْ دَفِيهَا ، وَأَمِيلَ عَضْدَاهَا تَحْتَ جَنْبَيْنِ كَأَنَّهُمَا سَقْفٌ قَدْ أَسْنَدَ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ ، حَتَّى قَوِيَ وَاسْتَحْكَمَ . وَلَشَدَّةٌ مَرَحَهَا تَعْتَمِدُ إِذَا سَارَتْ عَلَى أَحَدِ شِقَيْهَا وَتَتَدَفَّقُ فِي سَيْرِهَا ، وَهِيَ عَظِيمَةُ الرَّأْسِ وَذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ قُوَّتِهَا وَاسْتِكْمَالِ خَلْقِهَا ، وَقَدْ رَفَعَ لَهَا كَتِفَانِ بِقَوَائِمِ طَوِيلَةٍ تَبْعُدُ جَسْمَهَا عَنِ الْأَرْضِ . وَكَأَنَّ آثَارَ النَّسْعِ فِي جِلْدِهَا آثَارُ طَرَقٍ مُورَدٍ عَلَى صَخْرَةٍ مَلْسَاءٍ فِي أَرْضٍ صَلْبَةٍ ، وَمُرَادُهُ وَصْفُهَا بِأَنَّهَا كَتَنَازَ اللَّحْمِ وَتَمَاسَكَ .

وَعَنْقُهَا طَوِيلٌ ، إِذَا رَفَعْتَهُ كَانَ فِي ارْتِفَاعِهِ كَسَكَانِ ضَرْبٍ مِنَ السَّفَنِ مَعْرُوفٍ عِنْدَهُمْ ، إِذَا كَانَ سَائِرًا فِي الْمَاءِ . وَرَأْسُهَا صَلْبٌ ، كَأَنَّهُ حَدِيدَةُ الْعَلَاةِ ، وَكَأَنَّ طَرْفِيهِ اجْتَمَعَا عَلَى مَبْرَدِ حَدِيدٍ ، وَهَذَا آكَدُ مَا يَكُونُ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى صَلَابَةِ رَأْسِهَا .

وَلَتِلْكَ النَّاقَةُ خَدًّا كَأَنَّهُ فِي نَعْوَمَتِهِ قِرْطَاسُ الرَّجُلِ الشَّامِيِّ ، وَلَهَا شَفَّةٌ كَأَنَّهُمَا جِلْدُ الرَّجُلِ الْيَمَانِيِّ لَمْ يَسْقُطْ عَنْهُ شَعْرُهُ . وَلَهَا عَيْنَانِ تَلْعَمَانِ كَأَنَّهُمَا مَرَّاتَانِ قَدْ تَوَطَّنَتَا فِي كَهْفَيْنِ ، وَأَحِيطْنَا بِعَظْمَيْنِ كَأَنَّهُمَا حَجَرِ الْقَلْتِ^(١) . وَإِنَّمَا قَيْدُ الْحَجَرِ بِكَوْنِهِ حَجَرٌ قَلْتٌ لِأَنَّ الْقَلْتِ هُوَ الَّذِي يُشَبِّهُ الْعَيْنَ ، فَالْمَاءُ الَّذِي فِيهِ يُشَبِّهُ حُجْمَ الْعَيْنِ ، وَاسْتِدَارَةُ الصَّخْرِ حَوْلَ ذَلِكَ الْمَاءِ يُشَبِّهُ اسْتِدَارَةَ الْعَظْمِ وَإِحَاطَتَهُ بِالْعَيْنِ ، وَلِيَدِلَ بِذَلِكَ عَلَى فَضْلِ قُوَّةِ ذَلِكَ الْعَظْمِ ، فَإِنَّ الصَّخْرَ إِذَا كَانَ فِيهِ مَاءٌ كَانَ أَصْلَبَ وَأَتَمَّ قُوَّةً . وَهَاتَانِ الْعَيْنَانِ سَلِيمَتَانِ ، تَطْرَحَانِ الْأَذَى عَنْ أَنْفُسِهِمَا ، وَهِيَمَا وَاسِعَتَانِ كَعَيْنِي بَقَرَةٍ وَحْشِيَّةٍ أَرَبَيْتَ ، وَلَهَا وَلَدٌ ، فَهِيَ تَحْدَقُ بِعَيْنَيْهَا لِتَقْنَى الصَّائِدَ وَتَحْفَظَ وَلَدَهَا ، فَهِيَ أَوْسَعُ مَا تَسْكُونُ حِينَئِذٍ عَيْنًا .

(١) القلت : النقرة تكون في الصخرة يستنقع فيها الماء .

ولها أذنان صادقنا الحسّ تامنا الإدراك ، فهي تدرك بهما ما علا وما خفي من الأصوات ، فلا يخفى عليها شيء جليل أو دقيق . ولها قلب ذكيّ ، قوى الفطنة ، كثير الحركة ، مجتمع الخلق ، كأنه حجر مرداة^(١) من صخور ذلك المحل أو كرداة صخر بين أضلاع تشبه أحجاراً عراضا صلبة موثقة ، وشفقتها العليا مشقوقة ، ومارن^(٢) أنفها كذلك ، وهي إذا أدنت رأسها من الأرض ازدادت في سيرها .

وهي ناقة مهذبة مروضة ، لا تتعب راكبها ، فهو إن شاء منها أن تسرع في سيرها أسرع ، وإن شاء منها أن تخفف من سيرها قللت ، وإن شاء منها أن تجعل رأسها فوق واسطة كورها وتسبح بيدها ورجليها فعلت .

وهو على مثل هذه الناقة يمضي ويقطع الفلوات إذا جزع رفيقه منها ، وقال له : أفديك من هذه الفلاة وأفتدي نفسي ، وظن أنه هالك ، وإن لم يكن هناك خوف لما داخله من الذعر ، وخالط حشاشة قلبه من لجزع .

وإذا وقع الناس في شدة وتساءلوا عن المرجى لكشفها ، تيقن أنهم إنما يعنونه بقولهم هذا ، فأقبل على ناقته ضربا بالسوط ، فاشتدت في سيرها ، وقد تحرك الآل على الأما كن الفليضة التي يشق المشى عليها ، وهي تتبختر في مشيتها كأنها جارية عرضت على أهل مجلس ، فقامت تتبختر ، وترخي أذيالها ، لترى سيدها أذيالها البيض . وإما قال « ترى ربها » لأن سيدها إذا كان في المجلس كانت أشد مبالغة في التبختر وسحب الأذيال ؛ لتسرّ فؤاده ، وتستدعي رضاه .

وذكر من عاداتهم في الإبل ما يفردون البعير الأجر ، ويمنعونه من دخول معاطن الإبل ، لئلا تسرى عدواه إلى غيره .

ولقد كانت الإبل مظهر نعمتهم ، ولذلك كانوا يحرسون عليها ، ولا يرعونها

(١) المرداة : الصخرة التي تردى بها الصخور ، أي ضرب بها لتكسر .

(٢) المارن : مالان من قصبة الأنف .

إلا فتي يفظا يحسن رعيها والحفاظ عليها؛ إذ كان فيهم اللصوص الذين يتحينون غفلة الرعاة. وفي معلقة طرفة شيء من خبر ذلك، فقد كانت له ولأخيه معبد إبل وكانا يرعيانها معاً، وكان طرفة ربحاً رعى به وحده، ورد أخاه معبدًا، فقال له أخوه معبد يوما : لا تسرح في إبلك وحدك ، كأنك تظن أنها إن أخذت ردها عليك شعرك ! قال له : إني أخرج فيها أبداً ، حتى تعلم أن شعري سيردها إن أخذت ، حتى أغار عليها قوم من مضر فاستاقوها ، فجد طرفة في نشدانها (٨٣) كما فخر بأنه لا ينفنى عن عقر الإبل لند مائه ، سواء كانت له أو لغيره ، فيقول : رب إبل نائمة مشيت بينها ألتمس بعيراً أذبجه للندمان ، فثارت ثقلها من مخافتى ، وقامت من مباركها ، فمرت بي منها ناقة ضخمة سمينة ، قد جف ضرعها وهي من كرائم نوق شيخ صخاب سيء الأخلاق من قومه ، فلما ذبحتها قال ذلك الشيخ : إنك قد أتيت بداهية لذبحك هذه الناقة التي لا يذبح مثلها لضييف ، قال لمن حوله : ماذا ترون بهذا الرجل الذي ظلمكم ، وتعمد إيداءكم في أكرم أموالكم ؟ ، يعني كفوّه عنه ، وإلا لم يترك لكم شيئاً . ثم عدل الشيخ عن هذا ، وقال : دعوه فإنما هوله ، لأننى سأخلفه عليها ، ثم قال : ردّوا ما ندّ من الإبل لثلا يعقره أيضاً ، فلما شوى الإمام حوارها (١) الذى نزل من بطنها عند شقه على الملة (٢) ، أقبلوا على أكله ، كما أكلوا قطما من سديفها السرهد (٣) .

وبكل هذا الذى سلف أتى طرفة في معلقته على الكثير من أوصاف الإبل ورعيها ، وقرى الأضياف والندمان بلحمها ، واستطاعت المعلقة أن تنهض بشرح هذه الأغراض على ذلك النحو من الوضوح والتفصيل .

وذكر زهير بن أبى سلمى في معلقته ناحية أخرى من النواحي الأخرى

(١) الحوار : ولد الناقة .

(٢) الملة : الرماد الحار الخلو ط بالجر .

(٣) السديف : قطع السنام ، والسرهد : المنتهى فى السمن

التي كانوا يصطنعون فيها الإبل ، وهى تقديم الإبل ديات للقتلى ، لتلتئم بها الجراح ، ونستل الضغائن والأحقاد ، فقال أن الجروح تحمى بالمئين من الإبل أى تسقط الدماء بدفع دياتها ، وإن هذه الديات يدفعها نجوماً متفرقة من كرامهم من لم يحترم جرماً ، ولم يُرقَ ملء محجم من دم ، وإنما تحملها كرمًا وفضلاً لإصلاح ذات البين وصلة الرحم (٢٣ — ٢٤) .

وفى معلقة لبيد كثير من أوصاف الإبل وما ينتفع به منها ، فيذكر أن من لم يستقم لك فى ودّه فأنت قادر على قطيعته بركوب ناقة قد اعتادت الأسفار حتى أهزلتها ، فدق ظهرها ، وجف سنامها ، وفيها بقية من قوة ، وتكون هذه الناقة التى قد ذهب لحمها وانكشفت عظامها وتقطعت سيورها التى شدت بها أرساغها ، خفيفة فى السير قادرة عليه ، كأنها سحابة خفيفة ذهبت مع ريح الجنوب ، أو كأنها أتان أشرقت أطباؤها باللبن ، واسودّت حلمتها ، وقد حلت من حمار وحش فى حقويه بياض ، وقد أهزله طرد الفحول عنها وضربها وعضها (٢٠ — ٢٥) وبتلك الناقة يقضى لبائته إذا اضطرب الآل ، ولبست الآكام أردية السراب ، يريد أنه يبكر فى الخروج عليها ، ثم يديم السير عليها إذا اشتدت الظهيرة ، وذلك لجلدها على الحر والتعب (٥٣) .

وذكر لبيد ما يفعل الأيسار بالجزور^(١) ، فيقول : رب جزور قوم مقامين قرنتهم عليها ، وأخذتها منهم بقداح متشابهة العلامات ، ثم دعوت الناس إليها ، يريد أنه من المظفرين فى الميسر ، فما قاصر إلا قر ، والعرب فى الجاهلية كانوا يتمدحون بهذا . وكان يدعو بهذه القداح ليقاصر بها على ناقة عاقر أو م طفل وإنما خصّهما بالذكر لسمن الأولى ، وجودة لحم الثانية ، يبذل لهما للجيران أو يوزع

(١) الجزور التى جزرت أى نهرت ، والأيسار : جمع ياسروم الذين يضربون فى الجزور بالقداح والميسر .

بينهم ، أو أنه دعا بهذه القداح من أجل امرأة عاقر لا تحمل وأخرى ذات ولد ، ليس لهما من يعولهما ، فهو يقامر ليحصل لهما على ما يأكلانه ، ثم يفرق ما بقي على جيرانه ، فالضيف والجار الغريب المقيم في جوارهم إذا نزلا بهم صادقا عندهم من الخيرات والفواكه والرطب ما يصادف النازل في تبالة من الخيرات ، بشير بذلك إلى سعة يدهم ، وعنايتهم بضييفهم وجارهم ، والحنافاة بهما ، والمبالغة في إكرامهما (٧٣ - ٧٥) .

وفي معلقة عمرو بن كلثوم شبه ذراعى امرأته بذراعى العيطل وهى الطويلة من النوق الأدماء ، وهى البيضاء الخالصة البياض ، والبكر وهى من النوق التى ولدت بطناً واحداً ، ويروى بفتح الباء وهو الشاب من الإبل (١٤) ووصف جده وحزنه لفراق حبيبته ، بأنه فاق حزن ناقة أضلت حوارها ، فسكرت الحنين إليه (١٩) وتذكر الصبا لما رأى الحولة ، وهى الإبل التى يحمل عليها ، وقد حدثها الحداة ساعة الأصيل (٢١) .

وفي معلقة عنتره إشارات إلى الإبل فى مواضع متفرقة ، لأن أكثر هذه المعلقة يدور حول الفخر ببسالته وحسن بلائه فى الحرب ، وأداة ذلك الخيل التى قدمنا ما ذكر من أوصافها . وما ذكر فيه الإبل قوله إنه وقف ناقته عند دار حبيبته أو أطلالها (٦) وأنه علم بقرب رحيلها حين رأى إبلهم تسف حب الخنم^(١) وذلك لأن من عادتهم إذا جاء الربيع أن يتفرقوا فى طلب السكلا ، فإذا انقضى الربيع ويس النبات رجعوا إلى ديارهم (١٤) وحين وصف دار حبيبته بالبعد حتى أنه ليستبعد الوصول إليها على مثل تلك الناقة التى وصفها بقوة الجسم وسرعة السير وبعد عهدها بالحل والولادة ، والتى يكسر ظهور الإكام وهو راكب عليها كأنها الظليم (٢٦ - ٢٨) وقد شربت الناقة من ماء الدحرضين ونجافت عن

(١) الخنم آخر ما يبس من النبات واحده خنمة ، وروى بهذين غير معجمتين

ومنها واحد .

حياض الابل لأنها تخافها ، وبها من الحدة والنشاط ما كأن هراً تحت إبطها ينهشها ، إذا عطفت عليه وهى غضبي لتصد عنها دفعها بيده وفمه ، وقد أبقي لها طول السفر عليها سناما عالياً وقوائم كأنها الدعائم ، يريد أنه لم ينهكها ، وقد بركت على موضع قد نضب ماؤه ، وجف أعلاه ، وصار له غشاء رقيق ، فإذا بركت عليه سمع له صوت لتكسره تحتها ، أو أنها بركت لخنث فسكان صوتها صوت المزمار . وكأن عرقها الذى يسيل من رأسها دبس أو قطران جعل فى قفم وأضرمت النار تحته فهو يترشح ، وعرق الخيل والإبل أول ما يخرج أسود ، فإذا دبس اصفر . (٣٢ — ٣٧) .

وكما استعان طرفه بناقته التى يعضى عليها همه ، ولجأ إليها لبيد فراراً ممن خان عهده ، ولم يصف له وده ، ووقفها عنقرة عند أطلال حبيته ، استعان الحارث بن حازمة على إمضاء همه ، وقضاء وطره ، بناقعة سريعة السير ، كأنها نعامة طويلة الساقين ، وهذه النعامة سمعت صوتنا خفيفا ، وخافت على نفسها الصياد ، وقد أدركها الليل ، فهى تريد أولادها . والغرض من هذا كله المبالغة فى سرعتها وشدة عدوها ، فأنت ترى من خلفها من رجع قوائمها وضربها الأرض بها غباراً دقيقاً كأنه الهباء ، وترى خلفها أطباق نعلها ، قد سقطت فى أماكن مختلفة . وإنما أبلاها سلوك المفاوز ، وهو يتلهى بالركوب على هذه الناقعة والسير عليها فى الهواجر ولم يعيه هم يلحقه (٩ — ١٤) .

أما الظباء وبقرة الوحش فقد كثر ذكرها ووصفها فى المعلقات فى معارض شتى ، كأن توصف آثارها فى الديار التى ارتحل أهلها ، أو فى معرض التشبيه بها فى سعة العيون ، أو فى سرعة العدو ، أو فى ألوانها .

ومن ذلك فى معلقة امرئ القيس ما وصف به ديار حبيته التى رحلت عنها ، وأنه صادف فى عرصاتنا بحر الآرام ، وهى الظباء الخالصة البيضاء (٣) وما وصف به حبيته حين تعرض عنه بوجهها فيبدو منها خد أسيل ، وتقبل عليه بوجهها فتفتق

نظره إليها بعين ظلية من ظباء وجرة لها أطفال (٣٧) وفي قوله إنها تبدى عنقا كعنق الظبي، غير متجاوز القدر المحمود منه، ولا هو معطل عن الحلي كعنق الظبي (٣٨) وفي تشبيهه خاضرتي فرسه بخاضرتي الغزال في الضمور (٦٤) وفي ترقبه للصيد وعثوره بسرب من بقر الوحش، كأن إنائه في السمن واكتناز اللحم والتبختر في المشي عذارى عليهن ملاحف طويلات الذيل تسحب خلفهن (٦٨). وتلك النعاج من بقر الوحش أقبلن عليه مجتمعات، فلما رأيته نفرن منه، وففرن عنه متفرقات بعضهم عن بعض، فكأنهن في تلك الحالة عقد خرز يمانى في عنق صبي كثير الأعمام والأخوال، قد فصل بين خرزاته بجواهر، فلما أدبرن جرى فرسه في إثرهن فأدرك أوائلهن، والتأخرات منهن لا يزلن في ضجة، واستطاع فرسه أن يجمع بين ثور وبقرة من بقر الوحش في حملة واحدة، فقتلها تباعاً ولم ينضح جسمه بشيء من العرق (٦٩ — ٧١) ويصف اللطز الذي نزل على القنان^(١) فأُنزل منه العُصم جمع أعصم وهو الوعل، أو الظبي المعتصم بأعلى الجبال (٨٠).

وفي معلقة طرفة ذكر الأحوى (٦) وهو الظبي في ظهره حمرة تضرب إلى السواد، ينفض المرد وهو ثمر الأراك، حين يكون شادنا، والشادن الغزال إذا تحرك واشتد فاستغنى عن أمه، وقال إن هذا الظبي قد لبس عقد أوأو وعقد زبرجد، وتحلى بهما جميعاً، وهذا لا يكون من الظبي، وإنما يكون من إنسان يشابهه، وهو حبيبته التي قال إنها تشبه الغزالة التي تخلفت عن صواحباتها، وأقامت على ولدها، تنظر بعينيها إلى من ذهب عنها، فتمد عنقها لذلك، وتتناول أطراف ثمر الأراك فتهدل أغصانها عليها فتكون كالرداء لها (٧) وإنما شبه محبوبته بالظبية في تلك الحال لأن الغرض تشبيهها بالظبية في طول العنق، وهي أطول ما تكون عنقا في مثل تلك الحال.

والمعنى الذى ذكره امرؤ القيس، وهو أن ديار حبيبتة أصبحت مراحاً للأرأَم، هو الذى ذكره زهير بن سلمى حين ذكر أن دار حبيبتة بالرقتين قد أصبحت مراحاً لبقر الوحش والظباء، وأنهن يمشين خلفه، يخلف بعضهن بعضاً، وأنهن ينمن أولادهن إذ يرضعن، ثم يذهبن يرتعن، فإذا ظنن أن أولادهن قد أنقذن ما فى أجوافهن صوتن بهن، فينهضن من مجامهن ليرضعن (٣).

وفى معلقة لببى ذكر لنعاج توضح وظباء وجرة (١٤) حين وصف الظعان وقوله إنهن تحملن جماعات، فكأنهن فى هوداجهن على رحالهن بقرات وحش فى حسن عيونهن، أو ظباء وجرة عاطفات على أطفالهن، وإنما قيدهن بهذا الوصف لأنهن حينئذ أحسن عيونا منهن فى سائر حالاتهن. وفى مجال الموازنة بين ناقته والأتان، والتماسه موازنة أخرى بينها وبين البقرة الوحشية (٣٦) للسبوعة، أى التى أكل السبع ولدها، فهى مذتورة، قد خذلت أصحابها من الوحش وأقامت على ولدها نرعاه، وتتلقت إلى البقر، فإذا رأتها طابت نفسها وعلمت أن القطيع لم يفتها بعد، ووصفها (٣٧) بأنها خفساء، من الخفس، وهو تأخر الأنف وقصره أن يبلغ إلى الشفة، والبقر كلها خفس، وقد ضيعت ولدها فافتترسته السباع، فهى لا تزال تطوف الأرض تفتش عليه وتبكيه، بعد أن رآته مغفراً بالتراب، قد تجاذبت أعضائه ذئاب غبس^(١) تسكسب ما تأكل (٣٨) بعد أن صادفت من هذا الغزال غفلة فأصيبته منها (٢٩).

ثم يستطرد فى وصف هذه البقرة، فهى ممطورة، تمطر هادئة تروى الخوائل دائم تسكابها، وهذا المطر يعلو ظهرها متتابعاً أو متقطعاً فى ليلة أطبق غيمها فستر النجوم، وهى تسكن فى أصل شجرة مرتفعة أغصانها لا تسترها، بعيدة عن سائر الأشجار، وقد وقعت هذه الشجرة فى كثيب من الرمل ينال ولا يتماسك، وهذه البقرة

(١) الغبس: جم أغبس، من الغبسة، وهى صفرة إلى سواد.

كلما تحركت بالليل أشرق لونها ، فهي كاللدة انقطع سلكها فسقطت ، وإنما وصفها بذلك لأنها إذا سقطت من الجبل كان ذلك أضواؤها ، ولما انقشع ظلام الليل بإشراق نور الصباح أصبحت هذه البقرة وقوائمها لا تثبت على الأرض من العطين ، فيقيت حائر فرقة تتردد في أطراف هذا المكان سبع ليال ، حتى إذا يئست البقرة من ولدها ، وجف ضرعها الذي كان ممتلئاً لبناً وبلى ولم يبيله أن أرضعت وفطمت واسكن ثسكت فحزنت وتركت العلف ، فانهط لبنها وجف ضرعها . فلما سمعت صوت الناس أفزعها إذ لم تر أشخاصهم ، وحق لها أن تفزع من أصواتهم ، لأنهم هلاكها ، لتوقع صيدهم إياها ، خائفة أن تؤتى من خلفها وأمامها وهي نحسب أن كلا الجانبين أولى بالخوف من الآخر .

فلما يئس الرماة أن تبلغها سهامهم ، أرسلوا عليها كلاباً مضرة بالصيد معودة عليه ، يابسة قلاندها التي في أعناقها من كثرة البروز للهواء والشمس ومطاردة الوحوش في القفار ، فلما لحقت الكلاب هذه البقرة رجعت البقرة عليهن تطعنهن بقرن كأنه الرمح حدة وطولا ، لتدفعهن عن نفسها وتمنعن عنها ، وقد علمت أنها إن لم تدفعن عنها عقرنها ، فهي أشد ما تكون مقاومة لمن يخوفها على حياتها منهن . وقد حملت هذه البقرة على « كساب » إحدى كلاب الصيد ، فطعننها بقرنها فصرعتها وتركتها مفرجة بدمها ، ثم كرت على أخيها « سحام » فطعننته فتركته صريعاً في محل الكر (٤٠ - ٥٢) .

وهذا وصف فريد وتصوير رائع لتلك البقرة الوحشية ، ووصف لحالتها وما تقاسى من آلام الطبيعة القاسية في تلك الصحراوات الواسعة ، وما يفعل المطار بها ؛ وما تفعل السباع الضارية بصغارها ، وما تجرد من الحيرة والفرع بين النظرة الحانية الحزينة على صغيرها الذي انتهشته تلك السباع ، وبين القطيع من بقر الوحش الذي كانت تقوده ، وكيف أحسنت بالصوت الخافت ينبعث من

أحد الصيادين ، وإطلاقه كلابه نحوها لتحصرها ، ووصف دقيق لدفاعها عن نفسها . . وهى صورة دقيقة تفيض بالحركة ، وتضطرب بالمشاعر التى أجاد الشاعر العبارة عنها ، وانفرد بالإبداع فى تفصيلها فى هذه المعلقة .

أما عنتره فما أقل حديثه عن الظباء وبقر الوحش ، ومن ذلك القليل ما شبه فيه جيد حبيبته بجيد الجداية (٦٩) والجداية ما أنت عليه خمسة أشهر أو ستة من أولاد الظباء الحرة التى على أنفها بياض .

تلك أم الإشارات إلى حيوان البادية ذى الشأن فى لهوهم وصيدهم وتشبيهم وقتالهم وعدا ذلك إشارات إلى بعض ما عرفوا من صنوف الحيوان .

فقد ذكر امرؤ القيس « النعامة » ويبيضها فى تشبيهه لون صاحبتة بلون بيضة النعامة المخلوط بياضها بصفرة (٣٦) وهذا اللون أحسن ألوان النساء عند العرب وذكر « الأساريع » (٤٣) وهى دواب رملية تكون فيه مثل شحمة الأذن ، وقد شبه بها أصابع حبيبته لئنها . وذكر الطير (٥٧) التى يغدو للصيد وهى لاتزال فى وكناتها . وشبه ساق فرسه بساق النعامة فى الطول ، وشبه إرخاء فرسه بإرخاء « السرحان » ، والإرخاء جرى فى سهولة ، والسرحان الذئب ، وشبه تقريب فرسه بتقريب « التتفل » ، وتقريب الفرس فى العدو هو رفع يديه معا ووضعهما معا ، والتتفل ولد النعاب (٦٤) وذكر مكاكى الجواء (٨٥) والمساكاكى جمع « مكاء » بالمد والتشديد على وزن رمان ، وهو طائر كثير الصغير . وذكر السباع (٨٦) جمع سبع ، وهو كل حيوان مفترس أسداً كان أو غيره .

وذكر طرفه « السفنجة » و« الأزعر الأربد » (١٣) والسفنجة النعامة والأزعر ذكر النعام الذى لونه كلون التراب . شبه ناقته إذا سارت سيراً بين العدو والمشى بنعامة عرضت لظلم قليل الشعر كأن لونه التراب ، والنعامة أسرع ما تكون عدواً إذ ذاك ، فإذا كانت ناقته هكذا فى سرعة مشيها فى تلك الحالة ، فكيف

يكون حالها إذا اشتدت في عدوها وبذلت أقصى جهدها ؟ وذكر المصرحى (١٧) وهو العتيق من النصور يضرب إلى البياض ، أو هو الصقر الطويل الجناح وشبه عيني ناقته بعيني بقرة وحشية ، أريعت ، ولها ولد ، فهي تحديق بعينيها لتتقى الصائد ، وتحفظ ولدها ، فهي أوسع ما تكون حينئذ عيناً (٣٣) رذكرو الخفيدد (٣٩) وهو ذكر النعام ، والسيد (٥٩) وهو الذئب شبه به فرسه ، والحية (٨٤) رقد شبه نفسه برأسها المتوقد .

وذكر زهير العين والأرآم (٣) والعين البقر الوحشى واحدها . عَيْنَاء ، سميت بذلك لسعة عيونها ، « والأرآم » وهي الظباء الخالصة البياض ، جمع رُم ، و « الأطلاء » جمع طلاء ، وهو ولد الظبي والبقرة ، وذكر الأسد ذا اللبد الكثير اللحم (٣٨) .

وفي معقبة أبيد ذكر للظباء والنعام (٦) وكذلك « العين » (٧) وأطلاؤها ، و « نِجَاجُ تَوْضِيعَ » ، « وظباء وَجَرَّة » و « أَرَامُهَا » (١٤) و « والأحقب » وهو حمار الوحش (٢٥) وقد شبه ناقته بأتان أشرفت أطباؤها باللبن واسودت حلماتها ، وقد حملت من حمار وحش ، أهز له طرد الفحول عنها وضربها وععضها . وهذا الحمار ذكر من أوصافه أنه يُعَلَى تلك الأتان الإكام ، لإبعادها عن الفحول لئلا يمتسها منها أحد ، وهو في شك من حملها لا متناعها عليه في السير معه ، وإنما وصفه بذلك ليدل على شدة سوقه إياها ، وطردها إلى رموس الإكام (٢٦) . وما زال ذلك الحمار وتلك الأتان على مثل حالهما حتى مرّ عليها الشتاء وجاء الربيع ، فصارا يكتفیان بأكل رطب الحشيش عن الماء ، ثم رجما بأمرها إلى طلب الماء للحيء الصيف ، وقد رمى التراب وشوك الشجر مآخير الحوافر ، فعدوا إلى الماء عدوا سريعاً أثار الغبار ، فارتفع من تحت أرجلهم وكأنه دخان نار مشتعلة لتكافئه وانعقاده ، أو كأنه نار هبت عليها ريح الشمال .

لقد مضى الحمار إلى الماء وقدمها أمامه ، لكيلا تفر منه ، وتلك عادته ، والآن لا ترد الماء حتى يتقدم الفحل ، فيشرب ، وينظر هل بالماء ما يريه أولا . ولقد خاضا النهر حتى توسط ، وشققا النبات الذي على الماء (٢٧ — ٣٤) .

كاذكر ليبد « الوحشية المسبوعة » (٣٦) وهى البقرة التى أكل السبع ولدها و « والفريز » (٢٧) وهو ولد البقرة ، « الدجاج » (٦٢) التى تصيح سحراً ، و « الحمامة » (٦٦) وذكر عمرو بن كثوم (٢٩) السكلاب وهريرها .
وذكر غنرة « الغراب الأسحم » (١٥) و « الذباب » (٢٢) و « قلمص النعام » (٢٩) وهى أولادها وأحدثها « قلمص » . وذكر الشاة (٦٦) التى كفى بها عن المرأة و « الجدابة » (٧٩) وهى من الطباء ما أنى عليه خمسة أشهر أو ستة ، و « النسر » (٩١) .

وفى معلقة الحارث بن حلزة ذكر للربيض (٥١) وهو جماعة من الغنم .
وذلك أهم ما عرضت له المعلقة بالذكر من سائر صنوف الحيوان التى كانوا يعرفونها فى صحرائهم ، ويعتمدون على بعضها فى حياتهم .

الحياة الجاهلية فى المعلقة

ولقد صورت المعلقة المجتمع العربى كما هو ، فبرزت فيها صور مختلفة لذلك المجتمع ، ويمكن أن تعد تلك الصور صوراً متكاملة ، يتكون من مجموعها رسم واضح لذلك المجتمع فى أكثر نواحيه ومختلف حالاته ومتعدد ألوانه .

وأهم هذه الصور ما رسمته المعلقة لحياة الظعن والترحال ، التى كانت تمثل حياة الغالبية العظمى من بدو الصحراء ، الذين كانوا فى سفردائم ، متتبعين مساقط الفيث ومنابع الماء ومواطن الرعى ؛ حتى إذا زايها السحاب ، وجف معينها ويس كلؤها ، تحموا إلى غيرها من المواطن وراء الماء الذى يستقون منه ، ويسقون

غنمهم وإبلهم وخبولهم ، ويجدون عنده من العشب ما يطعمه حيوانهم الذى يكون
ويتخذون من ألبانه ولحومه طعامهم ، ومن أصوافه وأوباره وجلوده أثاثا ومتاعا
إلى حين ...

وذلك اللون من الحياة صورّه أكثر أصحاب المعلقات فى مطالع معلقاتهم
حين وصفوا ما يخلفه الظاعنون من آثار منازلهم ومضارب خيامهم ، فى معرض
تذكّرهم للهوبها ، والتشبيب بفتياتها اللاتي رحلن عنها إلى منازل أخرى مع عشائرن
فيقف الشعراء عند أطلال تلك المنازل ، واصفين ما خلفه الراحلون من النوى
والأحجار ، وباكين لفراق الأحباب الذين حملوا معهم قلوبهم فى جملة ما حملوا
من الأثاث والمتاع .

وصف ذلك امرؤ القيس فى ستة أبيات فى مطلع معلقته ، ناشد فيها رفيقيه
الوقوف معه ، وإعانتته بالبكاء ، عند تذكّر حبيبته التى فارقت منزلها بسقط اللوى
بين الدخول وحومل وتوصيح والمقراة ، والذى لا تزال آثاره باقية لم تدرس
لاختلاف ريح الجنوب والشمال عليه ، فإذا غطته إحدى الريحين بالتراب كشفت
عنه الأخرى فظهر ، وقد أقفر من أهله ، ولم يبق به أنيس من سكانه ، فخلقتهم
عليه الظباء تسرح ، وقد بدا بعمرها منشورا كأنه حب الفلفل .

وكذلك فعل طرفة فى مطلع معلقته فى خمسة أبيات من ذلك المطلع ، ذكر
فيه أن لحبيبته «خولة» أطلالا بيرة نهد ، كأنها آثار الوشم على اليد ، أى أنه لم
يبق من ديار هذه المحبوبة إلا ما يساوى الأرض ، وأما ما كان مرتفعاً عنها فقد
ذهب وتلاشى ، ولذلك شبهه بالوشم ، لأن أثره مساو لظاهر اليد ، وشبه مراكبها
التي فارقت بالسنن العظام بمجارى المياه الضخمة ، وهى تارة تمتد فى الطريق ،
وتارة تميل عنه ، كما أن ملاح السفينة يحور بها مرة ، ويهتدى بها مرة أخرى .

ولا يبعد عما ذكره الشاعران ما ذكره زهير عن منازل «أم أوفى» التى وقف

عليها ، وسألها عن أهلها سؤال توجع وتذثر ، لا سؤال جاهل يلتمس جوابا ، وإنما جعل الدمنة بالحومانة — وهى ماغلظ من الأرض — لأنهم كانوا يتحرّون النزول فيما غلظ من الأرض وصلب ، ليكون بمعزل من مياه السيل ، ولئيمكنهم حفر النوى وضرب أوتاد الخيام ، ونحو ذلك مما لا يتيسر فى الأرض اللينة ، وفيما وصف فيه أطلال ديارها بالرفقتين، التى عفت ودرست ، ولم يبق من آثارها على وجه الأرض إلا كما يبق على ظاهر اليد من الوشم ، فقد ساوت التراب ولم يبق منها ما شخص أو ارتفع عنه . وفيها من العين والأرآم شئ كثير ، وأنهن يمشين خلفه يخلف بعضهن بعضا ، وكل ما وجدته فى ديارها من آثارها تلك الأثافي ، وهى الحجارة التى كانوا ينصبون عليها قدورهم . والنوى^(١) وهو حاجز من تراب كانوا يرفعونه حول بيوتهم لئلا يدخلها الماء ؛ وعواد زهير ذكرى رحيل صاحبتة فى جماعتها ، فيسأل صاحبه إن كان يرى من فوق ذلك الماء نساء فى هوداجهن قد طرحن على الهوداج أنماطا^(٢) جيادا أطرافها حر ، كأن لونها الدم ؛ وهولا يرى شيئا من ذلك ، وإنما صور له الوم كأنه يراه ، كما كان رآه يوم خرجن من وادى السوبان . ثم عرض لمن مرّة أخرى فقطعنه ، وقد رآهن يوم خرجن للسفر سحرة يقصدن ذلك الوادى الذى يعرفه جيدا ، كما تعرف اليد طريق القم ؛ ولطول السفر بليت الرحال فتساقط فتات العهن المصبوغ من هوداجهن فى كل منزل نزان به ، وكأنه حب غيب الثعلب وهو صحيح لم يكسر ، وإنما قيد بذلك لأنه إنما يكون أحمر إذا كان صحيحا ، فإذا كسر حال لونه وتغير فلما وردن المياه التى ينزلنها فى غير زمن الربيع أقمن عليها ، ونصبن خيامهن عليها ، وقد أقن عصا التسيار ، واطمأنن إلى هذا المنزل .

(١) النوى هو الحفير حول المباء أو الخيمة يمنع السبل .

(٢) الأنماط جمع نمط وهو ما يفرش من الثياب .

أما ليبد فقد افتتح قصيدته بذكر عفاء الديار التي كان ينزلها أحبابه . نى ،
 وقد توحش موضعا القول والرَّجَام لظعن الأُحبةَ عنهما ؛ وقد خلت منهم مدافع
 الرِّيانَ بارتحللم عنها ، ولم يبق على ظاهر الأرض من ديارهم إلا كل خامد لاحق
 بالأرض ، كالكتابة على الأحجار ، كما شبه غيره تلك البقايا بالوشم الذى يبقى على
 ظاهر اليد ، ودعا لتلك الديار المقفرة بأن تسقيها أمطار الربيع ، حتى تخضل رباها
 وتخضر وهادها ، وبعادوها من جمال المنظر ما فقدته بخلوها من أنيسها
 وارتحالها عنها . ووصف كما وصف غيره بقرات الوحش العيين ، وهن حديثات عهد
 بالولادة ، قد أقمن على صغارهن يرضعنهن ، وانبثت في تلك الصحارى حتى ملأتهن ،
 فقد عدمت تلك المعاهد أن تكون مغانى للإنس وصارت مغانى للوحوش .

ولما تهاطلت الأمطار على تلك الديار كشفت آثارها بفصل ما كان مترا كما
 عليها من التراب ، فكان تلك الطلول كتب غابت فيها الكتابة لطول عهدها
 بالكتاب ، وكان تلك السيول أقلام تجدد كتابة تلك الكتب ، وتظهر ما خفى
 منها ، أو كأنها واثمة عمدت إلى وشم قد ضعف أثره على اليد ، فرجمته وأعادته
 بذرَّ النثور على داراته ليبدو جديداً .

وقد وقف الشاعر يسأل تلك الدَّمنَ الثَّمَّ ، ثم يصعو فينكر من نفسه
 أن تخاطب أحجاراً لا تبين ، وذكر كما ذكر غيره أنها خلت من أهلها الذين
 كانوا بها وارتحلوا عنها بكرة ، ولم يتركوا إلا النوى والنمام ، وقد شافته ظُمن الحى
 حين ركن الهوادج وارتحلن عليها . . . يأخذ بعد ذلك فى وصف هوداجهن
 فوق الإبل وصفاً دقيقاً أخاذاً .

وأشار عمرو بن كلثوم فى مطلع معلقته إشارة سريعة إلى الظمن^(١) التي استوقفها
 ليخبرها باليقين من شجاعته وحسن بلاء قومه . وبعد أبيات يذكر صباه

(١) الظمن : جمع ظمينة وهى المرأة . دامت فى الهودج .

ويصف أشواقه لما رأى حولتها ، وقد حدثها الحداة ، وجَدَّت في المسير نحو غايتها ، بعد أن غادرت الجبامة ، وحال دونها السراب ، فقرأت لهم مرتفعة تلوح كالسيوف المسلولة من أعمادها ، وإنما خيلها لهم السراب كذلك .

وتلك الظاهرة — ظاهرة الرحيل ووصف الطعام في مطالع المعلقات — برزت في قصيدة عنتره الذي عرف الديار ، ديار حبيته عبلة بعد توهمه ، وبعد أن أعيام رسمها الأصم ، وحبس بها طويلاً ناقته يشكو إلى أطلالها الصامتة ما فعل به هجر حبيته ورحيلها إلى أرض أعدائه ، حتى صار مطلبها عليه عسيراً ، لعدم إمكانه التخلص إليها ، بعد أن زمت ركائبها سيراً ، فلم يعلم خبر رحيلها إلا حين رأى إبل قومه ، نصف حب الخُمج ، وهو آخر ما يبس من النبات ، وذلك لأن من عادتهم إذا جاء الربيع أن يتفرفروا في طلب السكلا ، فإذا انقضى الربيع ويبس النبات عادوا إلى ديارهم .

وبرزت تلك الظاهرة كذلك في مطلع معلقة الحارث بن حلزة ، التي بدأها بذكر حبيته أسماء التي آذنته بفراقها ، بعد عهده بها ببرقة ثماء ، وبالخلصاء وبالحياة ، والصفاح ، وأعناق فتاق ، وعاذب ، والوفاء ، ورياض القطا ، ووادي الشرب والشعبتين ، والأبلاء ، التي كان يعمد بها كلها من كان يواصله ، ثم تحملت عنه أو خلفتها خاوية ، فهو يبكي شوقاً إليها ، وإن كان يعلم أن البكاء لن يردّها إلى معاهدها ، ولن يغنى عنه شيئاً ، غير أنه يبكي ليشفي بعض مابه من الحزن . ويذكر آخر عهده بها حين رأى نارها تلوح بالعلياء ، ولم يعلم أين مكنتها حتى تأملها ، فلم أنها بين العميق وشخصين ، فظنّها قرية منه ، فطعم في اصطلائها ، حتى عرف أنها بعيدة عنه فيئس ، وعادوه الحزن والحنين .

حياة الحرب والسلام :

وعلى ذلك النحو صورت المملقات حياة الصحراء ، وما يعانى ساكنها الذى لا يستقر على حال ، بل يقضى حياته فى ظمن وإقامة ، وحل وترحال ، والبيئة هى التى تحركه وتوجهه ، وفى تحريكها وتوجيهها ، تنور عواطفه ، وتفيض نفسه بمختلف الأحاسيس ، التى صورها الشعراء على ذلك النحو — والذى أوردنا شيئاً منه فى تلك المواضع البارزة من صدور المملقات ومطالعها .

وتلك الحياة نفسها هى التى أثرت فى أخلاق العربى وسلوكه ، فهى التى أفقدته الأمن بما أفقدته من الاستقرار ، والأمن والاستقرار متلازمان ، فلا مستقر إلا للأمن المطمئن الذى اطمأن إلى البقعة التى يحيا فيها ، بما يجد فيها من أسباب العمل والعيش ، وكلاهما ينسق حياته ، ويجعلها تجري على نظام ورتب ؛ وإلا إذا اطمأن إلى من حوله من الناس الذين يشغلهم العمل كما يشغله ، وتنظم حياتهم كما تنظم حياته ، حين يجد كل منهم مورد رزقه ، وقد هيأته له الطبيعة ، يغدو إليه فى جد ، ويقبل عليه فى استقامة ، ويروح إلى أهله بثمره ذلك الجد والكفاح ، ولا يجد من الوقت ما يفكر فيه فى شر يصيب به من يعرف ومن لا يعرف .

إن شيئاً من ذلك لم تهيه الطبيعة فى تلك الصحراء إلا لعدد قليل من سكان الجزيرة فى جاهليتهم ، وبقية الأكرية منهم تعبت بهم تلك الطبيعة القاسية ، وتبخل عليهم تلك الأرض المجدبة ، وتضن عليهم الماء بغيثها ، فقصوا حياتهم مشردين ، ومالم ينالوه عفواً من أسباب العيش أصابوه اغتصاباً ، ولا غلبة عندهم لحق ، ولا صوت لضير ، ولا منطق للأحداث ، وإنما الغلبة للقوة ، والمنطق المحترم هو منطق الرماح ، وصليل السيوف .

ومن هنا زحرت المملقات بذكر الحروب ، والحديث عن القادة ، والتباهى
بالخشود والجنود ، وبالقتلى والضحايا والسبايا ، وبالغنائم والأسلاب ، وفاضت
بذكر مواقع القتال ، وشن الغارات ، والفتك والنهب والسلب ، ثم أصوات
قليلة تذكر بنعمة السلام الذى حرّمته ، ولذة الأمن الذى فقدته .

على أن المملقات كلها ليست على درجة واحدة من العناية بإبراز هذا الضرب
من الحياة ، حياة الحرب والقتال ، فإن بعضها قد غلب عليه ذلك الغرض حتى
كانها لا تقوم إلا به ، على حين أن البعض الآخر لا يعرض له إلا لماماً . ومرجع ذلك
إلى اختلاف أصحابها فى حياتهم وطباعهم ، وإلى تباين أجدادهم ، واختلاف موارد
أرزاقهم ، وإلى القبائل والجماعات التى ينتمون إليها ، وماركب فى نفوس أبنائها
من حب للخير والسلام ، أو نزوع إلى الشر والخصام .

ويؤكد هذا الاختلاف فى طباعهم ومنازعتهم أن معلقة امرئ القيس على
طولها لم تعرض للحرب أو القتال قليلاً أو كثيراً . وسبب ذلك أنه أنشد هاهنا حياته
الأولى ، تلك الحياة العابثة للماجنة التى قضى فيها شبابه فى حياة أبيه ، على الرغم من تلك
المعارك التى خاضها أبوه وأعمامه فى قتال الثأرين على ملسكهم ، أو الخارجين على
طاعتهم ، والتى انتهت بقتل أبيه حُجْر ، ولكن امرأ القيس لم يكن رجل
سيف أو رمح ، بل كان رجل صيد ولهو وخر وقيان ، لا يشغله عنها شيء ،
ولذلك خَلَتْ معلقته تماماً من ذكر الحرب والقتال ، والتارات والغارات التى
كانت عند كثير منهم سبيلاً إلى الكسب والمغنم ، فقد كان فى ماله ومال أبيه
غناء عما لم يعمله ، ومالا تطيقه نفسه المرفهة الناعمة ، التى تغزوها صورة الحرب ،
ويزعجها منظر الدماء .

ذلك على حين أن صورة الفتوة العربية ، والحمية الجاهلية وما تستلزمه من
صفات النجدة والشجاعة ، تبرز بوضوح فى معلقة طرفة بن العبد ، إنه يذكر أن

قومه كثيراً ما يخوضون غمرات القتال ، وكثيراً ما يدعون فتيانهم إلى اقتحامها ،
للذود عن حمام ، أو للثأر ممن وترم ، فإذا وقعوا في أمر فظيع ، وسألوا عن فتيانهم
الذين يرجونهم لكشف الغمة تيقن طرفه أنهم إنما يعنون إياه بدعوتهم ، فلم يكسل
ولم يتبلد (٤٢) ومدح نفسه بأنه ليس من أولئك الذين يخفون في القلاع من طالبى
نصرتهم ، بل إنه ينزل بحيث يراه كل من يستصرخه ويستنجده ، وذلك دلالة على
الكرم والمروءة (٤٥) وأن هذا هو لون الحياة الذى ألفه ، فلا يستطيع العدول عنه ،
فيقول لمن عذله في كثرة شهوده الحرب ، واقتحامه الوغى ، حرصاً على سلامته ،
وإبقاء على حياته : أفنى استطاعتك أن تضمن لى الخلود إن أنا نكصت عن القتال ،
وآزت السلامة حرصاً على حياتى وإبقاء على نفسى ؟ (٥٥) إنه لو كان حرصاً
على حياته لحرص عليها ، لأغراض لا ينشئ عنها ، ومنها امتطاؤه صهوة فرسه
الجواد ، الذى لا يفتأ بكره عليه ، لإغاثة ملهوف ، أو نجدة مستصرخ مكروب (٥٩)
وهو إن دُعِيَ للخطوب الجسام كان ممن يحى فيها ، وإن دم الأعداء قومه
فقاتلهم بأقصى جهدهم لم يألُ في ردِّهم بأقصى ما يملك من الشجاعة والجهد (٧٥)
وهو رجل خفيف قليل اللحم ، لا تعوقه بدانته عن سرعة الحركة ، وهذا مما تتمدح
به العرب ، لأن كل مفاخرهم محصورة في لقاء الأبطال ، ومقارعة الأقران ، وإغاثة
الملهوف ، وقطع الفلوات (٨٤) .

ولقد أقسم طرفه ألا يزال جنبه بطانة أسيفه القاطع ، لا يفارقه أبداً ، بل
يظل ملازماً له متقلداً إياه ، وليس كل سيف بمؤمن عن صاحبه إذا انتصر به ،
ولكن هذا الحسام إذا قام لينتصر به انتصر ، أولينتقم به من عدوه أغت
الضربة الأولى عن الضربة الثانية ، أى أنه حسام بتار ، يقطع ضريبته بضربة
واحدة ، فهو موثوق بمضائة لا يذبو عن الضريبة ، فإذا ضرب به مرة واحدة ،
وقيل لحامله : كف عن الضرب ، قال حامله : كفى قد بلغت المراد ، وهو

قطع الضريبة . وإذا دم الناس أمر فزعوا منه إلى سلاحهم كان طرفة منيعاً بهذا السيف ، لا يستطيع أحد أن يصل إليه بشر ، ومن جرؤ على الدثوث منه ضربه به فأصمأه (٨٤ — ٨٨) ويذكر يوماً حبس فيه نفسه على القتال في موطن يتهيب فيه الشجعان الحرب ، وتضطرب فيه الفرائص من كثرة الهول والجزع ، أما هو فقد صدق القتال ، وثبت في الميدان محافظة على ما يجب عليه حفظه ، وتهتداً للأقران ، حتى لا يجدوا فيه مطمئناً بعد ذلك اليوم الذي أرعبهم فيه بقتاله ، وما أبدى فيه من ضروب البسالة (١٠١ و ١٠٢) .

ذلك طرفة ، إن لم يذكر قتالاً بعينه ، ولم يصف معركة بذاتها ، ولا موقعة بنفسها ، فقد ذكر ما بعد نفسه له الفتى العربى ، الذى يرى بلاده وقد خضبت الدماء ساحاتها ، وحرمت الغارات أهلها نعمة الأمن ولذة الكرى .

والحرب في معلة ليبد قليل ذكرها ، لما شغلها به من الفخر بكرمه ، ووصف ناقته ، وما ذكر من صفات البقر وجر الوحش وغيرها . ومع ذلك لم تخل قصيدته من ذكر بسالته وبلائه في القتال ، وإن كان استطراده يخرج به عما بدأه من الحديث عن ذلك إلى الحديث عن جواده ، فقد ذكر أن القبيلة تلجأ إليه لحمايتها (٦٣) فيحميها ، ويدفع عنها أعداءها على فرس سابق متقدم في العدو ، وقد توشع بالهجم ، ليكون ساعة الفزع والحاجة إلى الركوب قريباً منه . وقد علا لحماية الحى جبلاً غير ، وأرضاً مخوفة قريبة من أرض عدوه ، ظل طول يومه يرقبهم على ذلك الجبل ، حتى هجم الليل وغابت الشمس .

وتلك صورة من حياة الحرب والغارات التى عاشت فيها العرب في الجاهلية ، وإن كان الاستطراد إلى وصف الفرس كما قدمنا قد جعل الشاعر يوجز في رسم تلك الصورة إلى ذلك الحد القليل .

أما المعلقة الأربعة الباقية فقد فاضت بالحديث عن الحرب والمواقع التي خاضتها العرب في الجاهلية ، ووصفت في شيء من التفصيل كثيراً من أخبارها وأيامها المشهورة عندهم ، وتحدثت عن الغارات والتارات ، وذكرت الحكمة والأبطال والقتلى والأسرى والدِّيَّات ، والخيل والسلاح ، وأحاديث الصلح والمهادنة ، والعهود والمواثيق التي أبرمت ، ثم نقضها دعاء الحرب والخصام .

وكلُّ معلقين من تلك المعلقة الأربعة تتصل بحرب من حروبهم المشهورة التي دامت سنواتٍ طويلاً ، حتى ضرجت الأرض بالدماء ، وثككت الأمهات أولادهن ، وهلك الحرث والنسل .

فإن معلقة عنزة بن شداد العبسي ومعلقة زهير بن سلمى تعرضان لكثير من التفصيلات التي تتصل بالحرب المعروفة عندهم بحرب « داحس والغبراء » تلك الحرب التي هاجت بين عبس وذبيان ابني بغيض بن ريث بن غطفان ، وكان السبب الذي هاج هذه الحرب ، فيما يروى الرواة ، أن قيس بن زهير وحمل بن بدر تراهنا على داحس والغبراء أيهما يكون له السبق ، وكان داحس فخلاً لقيس بن زهير ، والغبراء حجراً لحمل بن بدر ، فأمكن حمل بن بدر في الشعب فتیاناً على طريق الفرسين ، ليردوا وجه داحس عن الغاية إذا جاء سابقاً ، فلما شارف داحس الغاية ، ودنا من الفتية وثبوا في وجهه ، فردوه عن الغاية . وقد ذكروا أن هذه الحرب دامت أربعين سنة .

أدرك عنزة بن شداد تلك الحرب شاباً ، وخاض غمارها ، وأبلى فيها أحسن بلاء ، وفي معلقته كثير من وصف بسالته وإقدامه ، وإشارة إلى بعض أحداث تلك الحرب ورجالها ، ولا نعدو الواقع حين نقرر أن أهم ما عالجته معلقته غرضان ، أولهما تشبيهه بحبيبتة عبلة التي ضنت عليه بوصالها ، وضمن أولياؤها بها عليه ، وإبرازه

إياها في صورة المنعمة المترفة ، التي تسمى وتصبح على فراشها الوثير ، وهو يقضى ليله ونهاره على صهوة جواده ، يقارع الأبطال في ثبات واستبسال ، وذلك هو الغرض الثانى الذى طنى على سائر أغراضها ، وحفظ لنا صورة من صور الحياة عند أولئك الأبطال المغاوير ، الذين يقضون شبابهم على صهوات جيادهم ، قابضين على سيوفهم ، شاهرين إياها في وجوه أعدائهم ، وكل ذلك في سبيل حماية أحيائهم ، والحفاظ على أمجادهم ؛ أو في سبيل السكسب والمغانم التى يظفرون بها من غاراتهم التى كثيرا ما يشنونها على ضحاياهم ، إذا صادفوا منهم ذرّة ، أو تحينوا منهم غفلة .

يقول مخاطباً عبلة التى أرخت قناعها لتخفى وجهه عنه ، حياءً أو دلالاً :
 إن استرى وجهك عنى فأنى أنا الحامى لمثلك أن تستبى وتبتذل ، فأنا جدير منك بسهولة المعاملة . ويستطرد فى ذكر بلائه فى القتال ، وكثرة ما يصرع من الأبطال ، فهو حاذق للطعن ، لا يعطى إلا فى المقاتل ، وإن قلبه حاضر معه ، يعرف كيف يعطى برمح ، فيصيب من عدوه مقتله بطعنة نافذة ، يقطاير منها دمه ويتفرق . ولو سألت عنه الخيل لعرفت منها ما قد تجهل من أمره ، وعرفت كيف كان يدفع فرسه لاقترحام جيوش الأعداء ، فإذا كان النصر وكانت الغنائم عف عنها وتركها لغيره ، إذ كان لا يحارب من أجل تلك الغنائم ، وإنما يحارب بطولة وفتوة ، وحماية للحرمان .

ويذكر عنقرة فى سبيل فخره بشجاعته كثيراً من عاداتهم فى القتال ، وأوصافهم فى الحرب ، وعدتهم فى اللقاء ؛ فقد ذكر الفارس المستلثم (٣٩) وهو اللابس الألة ، وهى الدرع ، والمدجج وهو الذى يتوارى بسلاحه ، والسكى وهو الذى يستر نفسه بالدرع والبيضة (٥٥) وكلاهما يخشى الأبطال لقاءه ، لأنه ينال منهم ولا ينالون منه ، ولكنه طعنه برمح الأصم شككت ثيابه ؛ وتلك عاداتهم فى تعظيم من يتصدون لقتالهم ، وتمجيد بسالتهم حتى إذا قتلهم كان ذلك

أدعى إلى الاعتراف ببطولتهم ، لأن العظيم من يظلب العظيم ، والبطل هو الذى يتصدى للقاء الأبطال المغاوير فيضربهم ، وكانوا يوصون أبطالهم بالثبات ، وبقدمون شبابهم أول الصف للقاء السكاة ، يتقون بهم الأسنة ، وكانوا يحرض بعضهم بعضاً ؛ وينادون المعروفين منهم بالشجاعة (٧٩) وكان أولئك الأبطال يجدون فى ذلك النداء اعترافاً بفضائلهم ، وشفاء لما فى صدورهم ، فيحرصون على الموت ، لتوهب لهم ولأقوامهم الحياة .

وفى معلقة عنتره إشارة إلى اليوم المعروف عندهم بيوم المريقب ، وهو يوم انتصرت فيه عبس على فزارة ، إذا التقوا بذى المريقب من أرض الشربة فاقتلوا ، فكانت الشوكة فى بنى فزارة ، قتل منهم عوف بن زيد بن عمرو بن أبى الحصين أحد بنى عدى بن فزارة ، وضمضم أبو الحصين المرتى ، قتله عنتره الفوارس ، ونفر كثير ممن لا تعرف أسماؤهم ، وقد بلغ عنتره أن حصيناً وهرماً ابني ضمضم يشتمانه ويوعدانه ، فقال فى معلقته .

وَلَقَدْ خَشِيتُ بَأْنَ أَمُوتَ وَلَمْ تُدَرْ لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِ ضَمْضَمٍ (٨٩)
الشَّامِئِ عِرْضِي وَلَمْ أَشْتُمُهُمَا وَالنَّاذِرِينَ إِذَا لَمْ يَلْقَهُمَا دَرِي (٩٠)
إِنْ يَفْعَلَا فَلَا تَذْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا جَزَرَ السَّبَاعِ وَكُلَّ نَسْرِ قَشَمٍ (٩١)

فقد ذكر أنهما أكثرا من شتمه ، وآليا ابن نقيهما ليقتلانه بأبيهما ، وأنه يخشى أن يموت قبل أن تدور عليهما دائرة الحرب ، أى قبل أن يقتلا ، ثم قال : إن يفعلا ما سبق من الشتم والتوعد فهما حريان بذلك ، فقد قتلت أباهما ، وتركت عقيرته للسباع والنسور .

وإذا كان عنتره قد بدا فى هذه المعلقة فى صورة البطل الذى ألف الحرب ، ولا يجد لذة العيش إلا فى لقاء السكاة ، وفى صراع الأبطال ، وفى منظر الدماء

تسيل من جراح صرعا ، وفي وقع الرماح التي يتقيها بمجنه إذا نيمته ، أوفى لبنان
أدمه الذي تسرّب بالدم ، حتى شكا إليه بعبرة وتمحّم ، ويشعر بالاستعادة
حين يناديه قومه للذب عنهم بقولهم « ويك عنتر أقدم » ، ويجد في كل أولئك
من المنة بمظاهر الفتوة والاعتراف بها ما يفوق كل متعة في حديثه عن حرب
« داحس والغبراء » التي خاض غمارها ، وأبلى فيها خيراً ما يبلى فارس مغاصر .
وإذا كان عنترة ذلك الرجل الذي لا يروى إلا بمنظر القتال وسفك الدماء ، فإن
حديثاً آخر يليق به أحد الذين شهدوا هذه الحرب بعيونهم ، ونعمة أخرى تصدر
عن رجل مجرب عركته الأحداث ، وعرف الحرب ، وقدر ويلاتها ، ومدى
ما يحجره السفهاء من دعاة الحرب على أقوامهم ، وعلى بلادهم من الخراب
والدمار ، فلا يفتأ يحذر العرب من تلك الأهوال التي تنزل بالمنقصر كما تنزل
بالمهزم على حد سواء .

ذلك الصوت الهادي ، الذي يقدر نعمة الأمن فيدعو الأقوام إلى اغتنامها ،
وعلى استئلال الإحن والأحقاد من نفوس العرب ، ليقطفوا ثمرات الأمن والاستقرار
هو صوب زهير بن أبي سلمى الذي شهد حروب غطفان ، فانبعث صوت الحكمة
في معلقته ، ولذلك كان هذا الشاعر الكبير جديراً أن يوصف في ذلك الزمن
البعيد بأنه رجل السلام ، وأخلص دعاة الأمن والاستقرار في تلك الحياة العربية
التي خضبت أرضها الدماء ، وترملت فيها النساء ، وتيتم الولدان .

إن زهيراً يذكر صلحاً وقعة الفريقان المتحاربين ، وقد نقض هذا الصلح ،
فتشقق دماً ، حتى سمى عظيماني من غطفان هما الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ،
فأصلحاه ، ولقد أكرم زهيراً هذا الصنيع الذي تداركا به قبيلتي عبس وذبيان
بعدما هلكوا وأفنى بعضهم بعضاً ، وتحالفوا على الحرب حتى الموت ، ووقع
بينهم الشؤم حتى كاد يبيداهم عن آخرهم ؛ ولذلك يقسم زهير بذلك البيت الذي

تكبره العرب وتقده ، والذي طاف حوله الطائفون من قريش ومن قبيلة جرم الذين كانوا ولاية البيت قبل قريش حتى بغوا بمكة ، واستحلوا حرمتها ، وأكلوا المال الذي كان يهدى إليها ، يقسم زهير يميناً بأن هذين السيدين خير الرجال في حالة اليسر وفي حالة العسر . و يروى زهير مقالتهما أو ما كانت تتحدث به نفوسهما ، يقول لهما : لقد قلتما إن تتمكن من الصلح ببذل المال ندفعه ديات للقتلى من الفريقين ، نلّم من الحرب ومن إراقة الدماء ، فلما بذلتما جهدكما في ذلك واستفرغتما وسعكما ، وبذلتما الأموال في هذا السبيل ، أصبحتما من هذه الحرب المتوقعة على خير منزلة بعيدين فيها من عقوق الأقارب وقطيعه الرحم ؛ وأصبحتما عظيمين في أشرف القبائل كلها مَدَّةً وغيرها ، وغير بدع ذلك ، فإن من فعل فعلكما وسمى سعيكما وبذل ما بذلتما من الأموال قد أبيع له المجد ، وصار عظيماً في نفسه ، واستحق أن يعظمه الناس .

إن هذه الجراح التي تشققت أصبحت تعفى وتمحى آثارها بالثمين من الإبل التي تدفع ديات للكلومين ، وهذه الديات تدفع نجوماً متفرقة بدفعها من لم يحقرم جرماً ، ولم يرق ملء محجم من دم ، وإنما تحملها في ماله تطوعاً وكرماً وفضلاً ، لإصلاح ذات البين وصلة الرحم . تحملتما الحماة ، ودفعتما الديات لإصلاح ذات بين الفريقين حتى أصبح يجري فيهم من مالكم الموروث شيء كثير .

ثم يتوجه زهير بالحديث إلى الأحلاف من أسد وغطفان وطبي ، لأن خزاعة لما أجلت بنى أسد عن الحرم خرجت لحالفت بنى طبي ثم غطفان ، فيقول : أبلغ أولئك الأنوام أنكم قد تعاقدتم وحلفتم بكل قسم على الصلح وترك القتال ، فلا تحنثوا في أيمانكم ، ولا تنقضوا عهدكم بإعلان الحرب مرة ثانية ، أو أنكم أقسمتم كل قسم على نقض عقدة الصلح وإضرار نار الحرب ثانياً للأخذ بثأر من قتل منكم ، فلا تكتموا ما أضمرتم في نفوسكم من الغدر ونقض الصلح

ليخفى ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ومهما كتم الإنسان شيئاً وبالغ في كتمانها علمه الله ، فإما أن يؤخر عقابه ليوم الحساب ، أو يعجله فينتقم من صاحبه ، لأن كل إنسان مجزى بعمله لا محالة .

ثم يحضهم على قبول الصلح ، ويقول لهم : لا ينبغي لكم الرجوع إلى الحرب بعد أن جربتموها وذقتم مرارة طعمها ، وليس الحديث عنها ظناً ، بل حقيقة عرفتموها بأنفسكم ، وبلوتموها في رجالكم وفتيانكم . إذا أترتم الحرب ذنمتم عواقبها ، وإذا عودتموها تعودت عليكم ، قاتلتهن فاستأصلتنكم ، بعد أن تعركنكم كما تعرك الرحى ثفالها . والنرض من هذا كله تفضيع أمر الحرب ليكفوا عما عزموا عليه من إضرار نارها ثانية ، ويضطرهم للبقاء على الصلح ، لأن هذه الحرب تلد لهم من الحوادث المشثومة أولاداً كل ولد منهم أشأم على نفسه وقومه من عاقر الناقة وتغذى أولئك الأولاد وتربيههم ، ثم تفتطمهم إذا حان فطامهم يريد أن الحرب كلما طالت وامتدت وقتها ولدت آثاراً سيئة مشثومة ، حتى إذا انتهت تلك الحرب بقيت آثارها ، إنها تغل لهم من الأهوال ما تغله قرى العراق من قفيز ودرم ، وهذا تهكم واستهزاء بهم ، فلما انتهى من كف أولياء المقتول عن الحرب ، وحذرهم عواقبها المشثومة ، عاد للاعتذار عن أولياء القاتل وبيان أنهم لم يكونوا يعلمون بما وقع من صاحبهم ، لا ينبغي أن تضاف جريرته إليهم ، وأثنى على بنى ذبيان الذين لم ينقضوا الصلح ولم يهملوا به ، وما كان من حصين ابن ضمضم فقد كان منه على غير رضا منهم ولا اختيار ، ولا سابقة علم بما سيكون ، وإلا لحالوا بينه وبين ما كان صمم عليه ، فإن هذا الرجل أضمر في نفسه خطة ، لم يطلع عليها أحداً ، بل مضى فيها غير مُبَالٍ بمغبته ، إنه صمم على أن يدرك ثأره بقتل رجل من بنى عبس ، فحمل على الرجل العبسى ، ولم يعلم أكثر قومه بذلك فيحولوا بينه وبين الرجل ، فقتله بعد الصلح ، وحيث حطت الحرب أوزارها

وسكنت ، لأن من طبيعته الظلم ، إن ظلم انتقم لنفسه ، وإن لم يظلم ابتداء هو بالظلم . ولقد كانوا في صلاح من أمورهم بعد الصلح ، ثم صاروا إلى حرب نستعمل فيها السلاح ، وتسفك فيها الدماء ؛ فلم يحمدوا عاقبة أمرهم ونتيجة حربهم .

لقد دفع أولئك السادة مادفعوا من الديات عن دماء لم يسفكوها ، فقد حملوا دم ابن نهيك ؛ ودم ابن الحزم ، ودم نوفل ، ودم وهب ، على غير مشاركة في دمائهم أو قتل برماحهم ، وإنما قتلوا بيد غيرهم من ذبيان ؛ وقال أبو جعفر^(١) : إن هؤلاء قتلوا قبل هذه الحرب ، فلما شملتهم هذه الحرب أدخلوا كل قتيل كان لهم في هذه الحرب ، فطالبوا بهم حالات وقودا حتى اصطالحوا ؛ ولقد قام السادة يدفعون عقل^(٢) كل قتيل ، مع أنهم لم يشاركوا في دمائهم فيعقلوهم ، ولكنهم مع ذلك دفعوا دياتهم ألفاً بعد ألف كرماً منهم وفضلاً ، وكفأ للحرب بين الفريقين وصلة للرحم . لقد كانوا يسوقون هذه الديات لقوم هم أولياء القتلة ، كي يؤدّوها إلى قوم هم أولياء المقتولين غرامة عما لزمهم من السماء ، بلاعدة ولا مظل وتسويق فلم يشعروا إلا وهذه الديات قد طلعت عليهم من ثنية الجبل ، يشير بذلك إلى وقائهم ، وسرعة إنجازهم وعدم .

وتلك الإبل المساقة في الديات إنما هي لقوم ذوى بسار كثيرى الحلال والبيوت ، يلجأ الناس إليهم ، ويعتصمون بهم ، إذا رمتهم الليالى بما يعظم على نفوسهم ، وينقل عليهم حمله ، وأراد بالقوم قوم الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، الذين عرف كرمهم وعزة جانبهم ، وأن من كان له ثأر عندهم لم يدركه لعزتهم ومنعتهم ومن جنى منهم جناية عليهم لم يسلموه لأولياء الجنى عليه ليقنّادوا منه ، لعزم

(١) شرح القصائد العشر للبريزى ١٢٣ .

(٢) العقل : الدية ، سميت بذلك لأنها تعقل عن القتل ، أو لأن الذى يدفعها إذا أتى بها عقلمها بفناء دار أولياء المقتول .

وضرفهم ، بل تذهب جنابة جانبيهم هدرًا . ومعنى هذا أن أولئك الأيسار لم يبذلوا ما بذلوا خوفًا من الحرب ، ولا جنبًا عن القتال ، وإنما هي طبيعة ركبت فيهم من إثارة الأمن ، والاستجابة لصوت الضمير .

وبمثل هذا تتصل المعلقة بتلك الحرب الضروس التي طحنت عبسًا وذبيان ، وقتلت كثيرًا من أبطالهم ، وخلدت أسماء سادتهم وكرامهم الذين كان لهم شأن في إثارة الحرب ، أو رفع راية السلام .

واقعد كان ذكر زهير الحرب في معرض التهويل لشأنها ، والتذكير بأهوالها التي تدعوا إلى الفرق والانقباض ، ودعوة صريحة للسلم ، وبذل ما يستطيع في سبيل تحقيقه من الجهد والمال والعفو والتسامح .

وبذلك اختلفت الشخصيتان ، شخصية عنبرة وشخصية زهير ، مع اتفاقهما في الغرض والموضوع ، فكلاهما وصف حرب « داحس والغبراء » ، وكلاهما وصف أهوالها ، وإن كان الأول قد صور نفسه في صورة الفارس الجرى . المفاسر ، الذي يقرع طبولها ، ويهجم على أبطالها ، ويطرب لوقع الأسنة وصليل السيوف . أما الآخر فإنه يفرق لأهوالها ، ويفزع لرؤية الدماء وهي تنقاطر من جراح المسكومين ، ويطرب لأصوات السلام التي تدعو إلى إعادة الأمن والاستقرار .

ولا شك أن المجتمع العربي يصوره كلا الرجلين ، وتصوره كاتبا المعلقين ، إذ أن فيه شيوخًا حكماء ، وشبانًا عقلاء . وإلى جانب أولئك فيه الفتية المغامرون الذين لا يعنيه شيء من العواقب الوخيمة التي تؤدي إليها الحرب ، من إزهاق الأرواح وإهلاك الحرث والنسل ، ونشر الإحزن والأحقاد ، بين الإخوة وبنى الأعمام ، وتوريث الخصام بين العشائر والقبائل ، بقدر ما يعنيه أن يوصفوه بالبطولة ، وأن يتراوى الرواة أخبارهم ، ويشيع في الأحياء قصص بطولتهم .

ولا يزال كثير من هذه الصور يعيش في زماننا في بعض البيئات الريفية ،
التي تعيش بعيدة عن أضواء العلم وأنوار المدنية ، وتؤثر أن تعتدى على الحرمات
أو تدفع عن نفسها عار الاعتداء ، ولا ترضى إلا بأن تكون غالبية بالحق
أو بالباطل ، وتنفر كل النفور من الاحتكام للمنطق ، والخضوع لأحكام القانون .
وتلك الصور التي نراها أو نقرأ عنها ، تصور إلى حد كبير البيئة العربية
في الجاهلية ، قبل أن تشرق عليها شمس الإسلام بحدوده وقوانينه التي نظمت
حياتهم ، وقادتهم إلى المجد والسيادة .

* * *

أما المعلقتان الأخريان ، فهما معلقة غمروب بن كلثوم ، ومعلقة الحارث
ابن حلزة .

وكتاتهما تتصل بحروب ربيعة ، وأشهرها « حرب البسوس » التي كانت بين
بكر وتغلب ، والتي هاجها مقتل كليب بن ربيعة ، وهو الذي يقال فيه « أعز
من كليب وائل » فقد قاد معداً كلها يوم خزازي ، ففض بهم جموع اليمين
وهزمهم ، فاجتمعت عليه معدة كلها ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه ونجيته وطاعته
فصبر بذلك حيناً من دهره ، ثم داخله زهو شديد ، ونهى على قومه ، لما هو فيه
من عزة ، واقتياد معدة له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب
فلا يرعى حماء ، ويجير على الدهر ، فلا تحفر ذمته ، ويقول : وحش أرض
كذا في جوارى فلا يهاج ، ولا تورد إبل أحد مع إبله ، ولا نوقد نار مع ناره
حتى قالت العرب « أعز من كليب وائل » . وكانت بنو جشم وبنو شيبان
في دار واحدة بتهامة ، وكان كليب بن وائل قد تزوج جليلة بنت مرة بن ذهل
ابن شيبان ، وأخوها جسّاس بن مرة . وكانت البسوس بنت منقذ التميمية خالة
جسّاس بن مرة ، وكانت نازلة في بني شيبان مجاورة لجسّاس ، وكان لها ناقة يقال

لها « سراب » ولها تقول العرب « أشأم من سراب » و « أشأم من البسوس » فمرت لإبل لكليب بسراب ناقة البسوس ، وهي معقولة بفناء بيتها ، جوار حساس بن مرة ، فلما رأت « سراب » الإبل نازعت عقلاها حتى قطعته ، وتبعته الإبل واختلطت بها ، حتى انتهت إلى كليب وهو على الحوض معه قوس وكنانة ، فلما رآها أنكرها ، فاشتد عليها بسهم ، ففرت الناقة وهي ترغو ، فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها ، وصاحت : واذا له !! واجاراه ! وخرجت فأحسست حساساً ، فركب فرسا له مغرورا به ، فأخذ آله ، وتبعه عمرو بن الحارث ابن ذهل بن شيبان على فرسه ، ومعه رمحه ، حتى دخل على كليب الحمى ، فقال له : يا أبا الماجدة عمدت إلى ناقة جارتى فقترتها ، فقال له : أراك مانئى أن أذب عن حماي ؟ فأحسسه الغضب ، فطعنه حساس ، فقسم صلبه ، وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه ، فقطع بطنه ، فوقع كليب وهو يفحص برجليه^(١) . وقد مكثت هذه الحرب أربعين سنة ، وكانت فيها الفارة بين الرجلين أو الثلاثة ، حتى أكلت العداوة صدورهم ، وأتت على الأخضر واليابس ، وأودت بكمولهم وشبابهم ، وتعددت الأيام بينهم ، فكانت الحرب سجالات .

وقد خللت المملكتان بعض تلك الأحداث بين الحيين ، وعرضت لجهود الصلح التي بذلها دعاة الأمن والسلام ، كما خللت بعض المواقع التي نال فيها بعضهم من بعض ، في معرض الزهو والفخر بأجداد الآباء والأجداد الذين أبلوا في تلك الوقائع ، وكسبوا لحياتهم نصراً ، فعمرو بن كاثوم يذكر حبيبته بما كان من قومه من قتال أقر العيون وأثلج الصدور (١٠ - ١١) ورب سيد قوم يحمى الملجأ ويدفع الضيم قتلوه ، وحبسوا خيلهم عليه ، فوقفت عليه صافنة مطمئنة ، لا يروعها شيء ، ولا يفرعها مفرع ، وأنهم حموا « ذا طلوح » و « الشامات »

وما بينهما ، وطرردوا أعداءهم منها ، وفترقوا منهم من لا يفرق لمنعته وعزته .
وأن بنى تغلب كانوا إذا حاربوا قوماً طعنوم كما تطحن الرحي الحنطة ، وشملت
حربهم شرقى نجد كله ، وأتت على قضاة كلها . فيعمون ذويهم بالخير ويعفون
عن أموالهم ، ويحملون عنهم ما حملوم من الديات مما لا يحمله إلا الكرام . وإذا
تباعد الناس عنهم فى الحرب طاعنوم بالرماح ، فإذا خالطوم ضربوم بالسيف
يشقون بها رموسهم (٢٦ - ٣٨) إلى أن يقول : نحن أبداً على أحد حالين ،
أما إذا خشينا على أبنائنا من العدو أصبحنا متيقظين مستعدين للقتال للدفاع
عنهم ، وأما يوم لانخشى عليهم فتركهم فى منازلهم ، ونمى فى الإغارة على الأعداء
برأس من بنى جشم بن بكر (٤٩ - ٥١) .

ويتنادى عمرو بن كلثوم فى الفخر بأسلافه الذى ورث أجدادهم فى الحرب
والسلم من أمثال علقمة بن سيف ، وهو الذى أنزل بنى تغلب الجزيرة ، ومهلل
الذى كان صاحب حرب وائل أربعين سنة ، وهو جد عمرو بن كلثوم من قبل
أمه ، وزهير جده من قبل أبيه ، وعتاب جده ، وكلثوم أبيه ، وذى البرة ، وهو
رجل من بنى تغلب بن ربيعة ، وقيل هو كعب بن زهير ، وإنما قيل له « ذوالبرة »
لأنه كان على أنفه شعر خشن فشبّه بالبرة^(١) ، ومن أمثال كليب الذى ضربت
بجزته الأمثال (٦١ - ٦٥) .

كما فخر بأسلافه ، وما أبلوا فى « يوم خزازى » وكان أول يوم امتنعت فيه معدة
عن الملوك ملوك حير ، فأوقدوا ناراً ثلاث ليال ، وكذلك « يوم أراطى » الذى
صبروا فيه على الحرب ، وصدقوا القتال ، حتى ظفروا فلم يطمع فيهم عدوم
(٦٨ - ٦٩) .

وذكر أعداءهم بنى بكر بما عرفوا من شدتهم فى الحرب ، وصبرهم على

(١) البرة الحلقة فى أنف البعير .

مكروها ، وما جربوا منهم في الحروب التي وجدوم قادرين عليها ، وممهم عدتها من البيض والدق والدروع السابغة المحكة اللينة التي إذا شد عليها النطاق ثفتت لينها ، وظهرت لها غضون ، وتحملهم الخيل السريعة التي استنفذوها من غيرهم (٧٣ — ٧٩) سائل عنهم بنى الطماح من بنى وائل ، وبنى دعى بن جديلة من إباد ، فإن هذين الحيين جربوا بنى تغلب فوجدوم أبطالاً مغاوير ، وأن الناس إذا حملهم الملوك على الظلم والاستكانة أبى بنو تغلب الظلم والاستكانة ورفعوا في وجوههم أعلام الثورة والإباء (٩٩ — ١٠٠) .

أما الحارت بن حازة فقد خلط فخره بقومه بنى بكر بالحكمة والتعقل ، فأخذ على بنى تغلب تجنيهم ، فهم يغفلون عليهم ، ويحملونهم ذنب غيرهم ، ويطلبون منهم ما ليس لهم بحق ، ويلحقون في الإساءة إليهم ، ويطالبونهم بجناية كل من جنى عليهم ، وأنهم يبيتون أمرهم ليلاً ، ليصبحهم بما يبتوا لهم ، وأن بنى بكر زادوا على هذا الظلم رفعة وامتناعاً ، وامتلاً أعداؤهم غيظاً لما رأوا من ثبات عزم واستقرار مكانتهم . وكان المنية برميها إياهم بمصائبها ترمى جبلاً ، فهي لا تضره ولا تؤثر فيه ، وأنهم أشرف فرسان بملتهم يذنبى أن تجول الخيل ، وأن تأبى أن يحلى ركبائها عن أوطانهم ، فهم يحمون الحوزة ، ويذبون عن الحرم (١٦ — ٢٦) .

وليس يشرف بنى تغلب أن يذكروا الوقائع والأيام التي كانت بينهم وبين بنى بكر ، فإذا أثاروا ما كان بينهم بين موضعى ملحمة والصاقب من القتل في الوقائع ظهر لهم ما يكرهون ، فقد قتل بنو بكر قوماً من بنى تغلب ، ولم يستطع التملبيون أن يثاروا لقتلهم ، وإذا استقصوا انكشاف الأمر ، وصاروا إلى ما يكرهون بانكشاف عارهم وهزيمتهم (٢٨ — ٢٩) .

ثم يذكروهم بما كانت العرب من نزار تملكهم الأ كاسرة ملوك فارس ،

وكانت غسان تملكهم الروم ، فلما غلب كسرى على بعض ما في يديه وضعف
غزا العرب بعضهم بعضاً ، وأكل القوى منهم الضعيف فيقول الحارث : نحن
حين كان الناس هكذا لم يطمع فينا أحد ، لأننا أعزهم وأمنعهم ، فلانطمعوا فينا ،
بل إن بنى بكر الأقوياء استطاعوا أن يغيروا على القبائل ، حتى أغاروا على تميم
فقد خرجنا من البحرين مغيرين على الناس ، فمازلنا نغير وننتهب ، حتى وصلنا
إلى الحساء لم يستطع أحد أن يصدنا ، ثم ملنا على تميم ، فلما صرنا في ديارهم
دخلنا في الأشهر الحرم ، فكففنا عن قتالهم ، وفيما من بناتهم إماء أسرناهن
قبل دخول الأشهر الحرم (٣٢ - ٣٤) .

ثم يعيد إلى أذهانهم حلف « ذى الحجاز » ، وهو الموضع الذى أخذ فيه عمرو بن
هند الملك على تغلب العهود ، وأصلح فيه بينهم وبين بنى بكر ، وأخذ منهم
رهنا من أبنائهم من كل حى مائة غلام ، ويذكرهم العهود التى أعطوها على
الكف عن القتال ، وحذرهم عواقب الجور والتحدى . وإن كانت كندة قد
غزت بنى تغلب ، فقتلت فيهم ، وأسرت منهم ، فليس إثم ذلك واقعاً على
بنى بكر ، وليس بنو بكر ملومين كذلك إذا أغار على بنى تغلب بنو حنيفة
ولصوص بنى محارب ، أو اعتدى عليهم بنو عتيق أو هزهم العباديون^(١) الذين
أصابوا فى بنى تغلب دماء فلم يدرك بنو تغلب ثأرهم منهم ، أو جنى عليهم
بنو قضاة الذين أغاروا عليهم ونالوا منهم ؛ أو اعتدت عليهم قبائل إياد الذين
أصابوا منهم ما أصابوا . ثم يقول لتغلب : ليس من بنى بكر المضرّيون وليس
منهم قيس ولا جندل ولا الحداء ، إنهم قوم من تغلب ضربوا بالسيوف ، ولم
يثأر لهم .

وكل هذا ذكره الحارث بن حلزة تعبيراً لبنى تغلب وتهكماً بهم ، فقد

(١) العباد بالكسر قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية ونزلوا الحيرة .

تطاولوا في الفخر ، ولم يذكرُوا إلا نصرهم ، مع أن هزائمهم والأيام التي نسكبوا فيها معروفة مشهورة في أحياء العرب .

وتأدى الحارث في التمسك بهم ، فذكر ما كان من عمرو أحد بني سعد بن زيدمناة بن تميم ، الذي خرج في ثمانين رجلاً من تميم غازين ، فأغار على ناس من بني تغلب يقال لهم بنو رزاح ، وكانوا ينزلون أرضاً يقال لها نطاع ، قريبة من اليم ، فقتل فيهم ، وأخذ أموالاً كثيرة ، وتركهم مقطعين بالسيوف ، ورجع بضائهم لا يسمع فيها صوت الحادي ، لأن الإبل والمواشي التي استاقها منهم كانت لها جلبة ورغاء ، فمن أجل ذلك لا يسمع فيها صوت الحداة . وقد رجع بنو رزاح إلى بني تميم يسترجعون منهم ما أخذوا ، فلم ترجع لهم ناقة سوداء ولا بيضاء . ثم جاء الغلاق ، وهو رجل من بني يربوع بن حنظلة من تميم ، فأغار على بني تغلب فقتل فيهم ، ولم يقتصر لهم أحد ، أو يأخذ بثأرهم (٤١ — ٥٨) .

ثم أخذ الحارث في شرح ما أسدى قومه إلى عمرو بن هند الملك لما رأى تحريض عمرو بن كلثوم إياه على بني بكر ، قال الحارث : نحن أنصح الناس الملك ، وأصدقهم في خدمته ، وأكرمهم عليه ، وأقربهم منه منزلة ، ولنا عنده ثلاث علامات ، وفي كلهن يقضى لنا الناس بذلك :

(١) أن قوماً من بني شيبان جاءوا يغيرون على إبل عمرو بن هند ، وعليهم قيس بن معد يكرب ، فيهم الأشراف من كندة أبناء العواتك ، فردهم بنو يشكر عنها ، وأوقعوا النساكية فيهم ، وحملوهم على حزم نهلان ، فلبثوا إليه فراراً ، وقد دميت من الجراح أنساؤهم .

(٢) أنهم ردّوا حجراً ومن معه ، وقتلوا منهم خلقاً . وكان حجر هذا غزا امرأ القيس أبا المنذر بن ماء السماء يجمع من كندة ، فخرجت إليه بكر بن وائل

مع امرئ القيس فردّته . وقتلت جنوده ، وقد شبّه الشاعر تحرك الرماح في أجسامهم بتحريك الدلاء في البئر لتملأ ، ليدل بذلك على شدة الطعن ، وأن الرمح ما كان يخرج من جسم المضروب إلا بعنف .

(٣) وأنانا الجون ملك كندة في كتيبة محكمة ، فلم يجرع ولم نخف ، ولـكنا قاتلناه ، فهزمننا من معه من الفرسان ، وأخذناه أسيراً حتى سلّيناه للمنذر .

ومن هذا يمكن القول أن هاتين المعلقتين — معلقة عمرو بن كلثوم ، ومعلقة الحارث بن حلزة — قد تضمنتا كثيراً من أسماء المواقع التي تحاربت فيها بثو تغلب وبنو بكر في تلك الحرب التي سميت « حرب البسوس » كما اشتملتا على ذكر كثير من الإغارات التي قام بها الحيّان على غيرهم من قبائل العرب وغيرها ، التي أبلى كل حي فيها ضروب البسالة والنجدة ؛ كما اشتملتا على أسماء كثير من رجالهنم وساداتهنم وأبطالهنم .

وكل هذا تصوير للمجتمع الذي ملئت صدور أبنائه بالأحقاد ، وقاضت أرضه بالدماء ، وامتألت أجواؤه بأحداث القتل والأسر والإغارة للثأر لضحاياهم ، أولهيب والسلب .

وهو كذلك تصوير للحياة الجاهلية في ناحية من أبرز نواحيها ، وتصوير لأخلاق العرب في تلك المرحلة المظلمة من مراحل التاريخ التي عاش فيها العرب قبل أن تبزغ عليهم أضواء الإسلام ، فتحيل ظلامهم نوراً ، وفزعهم أمناً وسلاماً .

أدوات القتال :

وفي المعلقات تتردد أسماء أسلحة العرب ، وأشهر أدواتهنم في الحرب والقتال ، وقد ذكر عنقرة من عندهم في الحرب القِصِيّ (٥) جمع قوس . ذكر صاحب

صَبَّحَ الْأَعْشَى أَنْ الْقِسِيَّ عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا الْقِسَى الْعَرَبِيَّةُ ، وَقَالَ فِي وَصْفِهَا :
هِيَ الَّتِي مِنْ خَشَبٍ فَقَطْ ، ثُمَّ إِنْ كَانَتْ مِنْ عَوْدٍ وَاحِدٍ قِيلَ لَهَا « قَضِيبٌ » ،
وَإِنْ كَانَتْ مِنْ فِلَتَيْنِ قِيلَ لَهَا « فِلَقٌ » .

وَالْآخَرُ الْقِسَى الْفَارَسِيَّةُ ، وَهِيَ الَّتِي تَرْكَبُ مِنْ أَجْزَاءٍ : مِنَ الْخَشَبِ وَالْقَرْنِ
وَالْعَقَبِ ^(١) وَالْفَرَاءِ .

وَلْأَجْزَائِهَا أَسْمَاءٌ يَخْصُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا اسْمًا ، فَمَوْضِعُ إِمْسَاكِ الرَّامِي مِنَ الْقَوْسِ
يُسَمَّى « الْمَقْبِضُ » وَحَجَرِي السَّهْمِ فَوْقَ قَبْضَةِ الرَّامِي يُسَمَّى « كَبْدُ الْقَوْسِ »
وَمَا يَعْطَفُ مِنَ الْقَوْسِ يُسَمَّى « سِيَّةُ الْقَوْسِ » وَمَا فَوْقَ الْمَقْبِضِ مِنَ الْقَوْسِ ،
وَهُوَ مَا عَلَى يَمِينِ الرَّامِي يُسَمَّى « رَأْسُ الْقَوْسِ » وَمَا أَسْفَلَهُ ، وَهُوَ مَا عَلَى يَسَارِ
الرَّامِي ، يُسَمَّى « رِجْلُ الْقَوْسِ » وَ « النَّبِيلُ » مَا يَرْمِي بِهِ عَنِ الْقِسَى الْعَرَبِيَّةِ .
وَ « النَّشَابُ » مَا يَرْمِي بِهِ عَنِ الْقِسَى الْفَارَسِيَّةِ . وَحَجَرِي الْوَتَرِ مِنَ السَّهْمِ يُسَمَّى
« الْفُوقُ » وَحَدِيدُهُ يُسَمَّى « الْفَصْلُ » وَالرِّيشُ يُسَمَّى « الْقُدْذُ » وَالسَّهْمُ قَبْلَ
تَرْكِيبِ الرِّيشِ يُسَمَّى « الْقِدْحُ » ^(٢) .

كَذَا ذَكَرَ عَنَتَرَةُ الرَّمْحِ (٥٦ — ٥٨) وَهُوَ آلَةُ الطَّعْنِ . وَالرَّمَا حُ ضَرْبَانِ :
أَحَدُهُمَا : مَا يَتَّخِذُ مِنَ الْقَنَاءِ ، وَهُوَ قَصْبٌ مَسْدُودٌ الدَّخَالِ يَنْبِتُ بِيَلَادِ الْهِنْدِ ،
يُقَالُ لِلْوَّاحِدَةِ مِنْهُ « قَنَاءٌ » وَيُقَالُ لِمَفَاصِلِهَا « أَنْيَابٌ » وَلِعَقْدِهَا « كُعُوبٌ » .
فَإِنْ كَانَ قَدْ نَشَأَ فِي نَبَاتِهِ مُسْتَقِيمًا قِيلَ لَهُ « الصَّعْدَةُ » ، وَإِنْ احتَاجَ إِلَى تَقْوِيمٍ مَقُومٍ
قِيلَ لَهُ « مُنْقَفٌ » .

وَالْآخَرُ : مَا يَتَّخِذُ مِنَ الْخَشَبِ كَالْزَنْ وَنَحْوِهِ ، وَيُسَمَّى « الذَّابِلُ » . وَيُقَالُ

(١) الْعَقَبُ بِالتَّحْرِيكِ هُوَ الْعَصَبُ الَّذِي تَعْمَلُ مِنْهُ الْأَوْتَارُ .

(٢) انْظُرْ صَبَّحَ الْأَعْشَى فِي صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ / ١٣٥ .

للحديد الذى فى أعلى الرمح « السُّنَّان » ولذى فى أسفله « الزُّجج »
و « العَقَب »^(١) .

وكانوا يطعنون أعداءهم بالرماح ، ثم يجهزون عليهم بالسيوف ، ذكر ذلك
عنقرة (٦٣) وذكر السيف « المهند » ، والمهند والهندي ما طبع ببلاد الهند ،
وكان لهم فيها حذق ومهارة فائقة ، فكانت تنسب إليهم ، كما يقولون للسيف
المطبوع باليمن « يمان » وكما يقولون « مَشْرَفَى » لذى طبع بالمشارف ، وهى
قرى من قرى العرب قريية من ريف العراق . وقال بعضهم إن تهنيذ السيف
معناه شحذه .

وذكر طرفة بن العبد فى معاقته « الحُسَام المهند » والحسام من أوصاف
السيف ، وهو القاطع ، أخذاً من الحَسَم ، وهو القطع ، قال طرفة : إن المرء لأن
يُضرب بالسيف المهند الحاد القاطع حتى يموت خير له من أن يناله أذى من
ذى قرابته يسوؤه ويؤلم قلبه ، وأن من أصابه من أجنبي ما يشق عليه عزاه
عن ذلك بعد ما بينهما ، وليس كذلك القريب (٨٠) .

وكذلك « العَضْب » (٨٥) وهو السيف القاطع الذى وصفه بأنه رقيق
الشفرتين مهند ، والشفرتان : مثني الشفرة وهى حد السيف ، ووصفه بأنه حسام
يفى عن صاحبه إذا انتصر به ، فإذا قام لينتصر وينتقم به من عدوه أغنت
الضربة الأولى عن الضربة الثانية ، يريد أنه قاطع جداً ، فهو يقطع الضريبة
بضربة واحدة ، وليس « بيمَضد » وهو ما اتخذ من السيوف لقطع الأشجار ، بعد أن
كُلَّ حده ، فيعضد به الشجر (٨٦) وذكر « حاجز السيف » وهو حده (٨٧)
و « قائم السيف » وهو مقبضه (٨٨) وذكر زهير السلاح الشائكة (٣٨)
وهى الحديد القاطعة .

وفي معلقة لبيد (٥٠) « السَّهْرِيَّة » وهي الرماح ، نسبة إلى بلدة يقال لها سَمَهْرَة من بلاد الحبشة ، وقيل إلى السَّهْرَة ، وهي الصلابة ، ومنه « اسْمَهْر » الأمر « إذا اشتد ، وقال صاحب اللسان : إن السهريّة هي القناة الصلبة ، وهي منسوبة إلى « سمهر » اسم رجل كان يقوم الرماح . يقول لبيد في وصف بقرة الوحشية : لحقت كلاب الصيد تلك البقرة ، فرجعت البقرة عليهن تطعنهن بقرن كأنه الرمح حدة وتمام طول .

كما ذكر لبيد « الشُّكَّة » (٦٣) وهي اسم لجميع السلاح ، وقولهم « شائك السلاح » أى سلاحه شوكة ^(١) .

وفي معلقة عمرو بن كلثوم ذكر للأسياف (٢٢) في قوله إنهم ساروا عن الحيامة وحال دونها السراب ، فقراءت لهم مرتفعة كأنها السيوف المسلوقة من أغمارها ، وإنما خيلها السراب لهم كذلك ، و « رايات الحرب » (٢٤) التي يوردونها بيضا ، ويعودون بها حمرا قد رويت من الدماء . . . وأنهم يطاعنون أعداءهم بالرمح (٣٥) إذا تراخوا عنهم ، فإذا خالطوهم ضربوهم بالسيوف . ووصف رماحهم (٣٦) بأنها سُمُر ، ويوصف الرمح بالأسمر لأن لون القنا الشمرة ، وهو أجودها ، وبأنها لُذْن أى لينّة ، وبأنها ذوابل ، جمع ذابل أى يابس ، وهو الذي يتخذ من الخشب كالزان ونحوه . وقد وصف الرماح بأنها لينّة فيها بعض ييس أى أنها لم تجف كل الجفاف فتنشق إذا طعن بها وتندق ، ووصف السيوف « البيض » بأنها لا تنبو عن الضريبة . وشبه أصلهم « بالقناة » التي أعيت على الأعداء أن تلين (٥٧) . وذكر « النفاق » وهو الحديدة التي تقوم بها

(١) يقال رجل شاكى السلاح ، وشائك السلاح ، أى ذو شوكة وحادى سلاحه . قال الأخفش : شاكى السلاح مقلوب من شائك . وقال النحاس : القلب عند البصريين مثل شاكى السلاح وشائك ، وجرف هاروماثر ؛ وأما ما يسميه الكوفيون القلب نحو جند وجذب فليس بقلب عند البصريين ، وإنما هما لفتان .

الرماح ، وإذا عضّ الثغاف بتلك الفناة نفرت صلبة شديدة (٥٨) وإذا انقلبت في ثقافها صوّتت ، وشجّت قفا من يثقفها .

ووصف كتابهم ولباسها في الحرب ، ومنه « البَيْض » جمع بَيْضَة ، وهي آلة من حديد توضع على الرأس للوقاية من الضرب ونحوه ، وليس فيها ما يرسل على القفا والآذان و « اليَلَبّ اليماني » (٧٥) قال ابن السكيت : هو الدرع ، وقيل الديباج ، وقيل ترسة تعمل في بلاد اليمن من جلود الإبل لا يكاد يعمل فيها شيء . وقال الأصمعي : اليلَبّ جلود يخرز بعضها إلى بعض تلبس على الروس خاصة ، وليست على الأجساد . وقال أبو عبيدة هي جلود تعمل منها دروع تلبس ، وليست بترسه . وقيل اليلب جلود تلبس تحت الدروع^(١) ووصف الدروع التي يلبسونها في الحروب (٧٦) بأنها « سابعة » أي طويلة تامة ، وبأنها « دِلاص » والدِّلاص المحكمة ، أو اللينة التي تزل عنها السيوف ، و « النجاد » حمائل السيف ، ويروى « فوق النطاق » والنطاق ما يشدّ به الوسط ، ولها غضون أي هي نينة ، فإذا شد النطاق عليها تثنّت للينها ، وظهر لها غضون ، وهم من طول لبسهم هذه الدروع اسودّت جلودهم (٧٧) وشبه الدروع في صفاتها بالماء في القُدُر (٧٨) وعرض للفسوة اللائي أخذن على فوارسهن عهداً إذا اقتحموا غمار الحرب ، ولاقوا الأبطال المعلنين ، وهم الذين معهم الأعلام ، ليبين مكانهم في الجيش ، ليأسرُنَّ الأبطال ، ويأخذنَ سلاحهم وما عليهم من الدروع والبيض .

وفي معاقبة عنتر بن شداد ذكر للرماح وهي تنهل من دمه ، وبيض الهند وهي تقطر من دمه (٥٣) وذكر للمدجج الذي يتوارى في سلاحه ويكره الفرسان لقاءه (٥٥) ولكن عنتره عاجله بطاعته من ربحه المثقف (٦٥) وهو المصلح المقوم ، ووصف هذا بأنه صدق الكعوب أي صلب ، والكعوب عقد الأنابيب . وذلك أهم ما عرضت له المعلقات من أنواع السلاح وأدوات القتال .

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي ٢٤٣ .

المرأة العربية في المعلقة :

واقـد شغلت المرأة مكانا بارزا في تلك المعلقة ، ولم تخل واحدة منها من ذكر المرأة ، ووصف الهيام بها ، والحنين للقائها ، والجزع لفراقها . وفي مطالع المعلقة من ذلك شيء كثير ، وفي أثناء معظمها شيء كثير أيضا من الحديث عنها ، ووصف ما يتكلفه العربي في الدبيب إليها ، وما يتجشم من الأخطار ليبدو في نظرها في صورة البطل ، الجدير بإعجابها ، الذي يحمي حماها ، ويقاتل من أجلها ، وهي تخالبه في حركاته وسكناته ، ولا ينساها في أوقات الدعة والسلام ، وفي ميادين الوغى ومصارعة الأبطال .

وكل هذا يدلنا على ما كانت المرأة العربية تنعم به من المنزلة في المجتمع ، وما كانت تشغل من قلب الرجل العربي في الجاهلية .

وتشغل المرأة في معلقة امرئ القيس مكانا بارزا من أول أبياتها ، فقد استوقف رفيقيه ، ليعيناه بالبكاء عند تذكر حبيبته التي فارقته ، ومر بأطلال منازلها ، التي تعاقبت عليها ريح الجنوب وريح الشمال (١ - ٢) ووصف حيرته غداة بينها ، وبكائه يوم تحمل أهلها (٤) وكيف وقف أصحابه عليه مطيعهم يواسونه ويشجعونه على احتمال مرارة الفراق ، وهو لا يجد شفاء لوجده إلا العبرات يريقها (٥ - ٦) ويذكر ما أتى من هوى « أم الحويرث » وجارتها « أم الرباب » وكيف كان يضوع للمسك من أردانها ، وشبه ما كان يفوح منهما من روائح المسك بنسيم الصبا إذا اجتازت بالقرنفل (٨) وفي هذا إشارة إلى شيء مما كانت تتجمل به المرأة في ذلك الزمن البعيد ، وأنها كانت ولا تزال جد حريصة على أن تمتع عين الرجل ، فلا تقع منها على قببح ، ولا يشم منها إلا أطيب ريح .

ووصف يوماً من أيام لهوه يوم عقر للعذارى مطيته ، وأطعمهن شواءها ،
الذى جعلن يترامين به (١١ - ١٢) .

ثم رسم صورة عابثة لصاحبه « غنيزة » التي احتال حتى صاحبها في
هودجها ، وما كانت تبدي من امتناع مصطنع ، خشية على راحلتها التي زعمت
أن ظهرها لا يحتمل راكبين ، وأن ذلك قد يؤدي إلى عقرها (١٤) وتحدث
إليها حديثاً لا يحمل بامرأة حرّة أن تسمعه ، حتى لقد يبدو أنه يطارح بهذا
الحديث امرأة من العابثات ، أو بائعات الهوى (١٦ - ٢٠) .

ورسم صورة أخرى لنفسه وأبرزها في صورة المهائم الذي قتله الهوى ، وأنه
أصبح أسيراً لفاطمة ، وأنها مهما تأمر قلبه يفعل ، وأنها لم تبك إلا لتثير وجده ،
ونجرح قلبه ، لأنها تعرف أثر عبراتها في العاشق المقيم (٢٣ - ٢٦) .

وأبان عن منزلة المرأة عندهم ، وحرصهم على عفتها وكرامتها ، وقتلهم من
يحاول الدنو منها أو الاعتداء على شرفها ، لأنهم يجدون في ذلك اعتداء على
كرامتهم ، أما امرؤ القيس فإنه يباهى بأنه استطاع أن يصل إلى بيضة الخدر
التي لا تحدث أحداً نفسه بالدنو منها ، وأنه استطاع أن يتجاوز في وصوله إليها
وزيارته إياها أهوالاً كثيرة ، وقوماً يحرسونها ، وآخرين حراساً على قتله
لو قدروا عليه (٢٧ - ٢٨) ويظهر من الأبيات التالية بعض سمات المرأة
وعاداتها :

(١) أن النساء أو بعضهن كنَّ يغطين أنفسهن بالمرط - وهو يشبه
الملاء التي لا يزال يلبسها بعض النساء في أيامنا - وكانت منقوشة بنقوش تشبه
رحال الإبل ، يقال : رحل الثوب ترحيلاً إذا فعل به ذلك . ويروى « مرجل »
بالحيم ، وهو ضرب من البرود ، يقال لو شيه الترجيل (٣٢) .

(٢) أن من أوصاف المرأة التي يؤثرونها أن تكون ضامرة البطن مملثة الساق (٣٤) وستأتى أوصاف أخرى للمرأة الحبيبة إليهم .

(٣) أن بعضهن كنَّ ينظفن أجسادهنَّ ، ويصبغن ترائهنَّ ، والترائب جمع تريبة ، وهى موضع القلادة من الصدر ، وكانت مادة الصبغ هى «السجنجل»^(١) وهو الزعفران (٣٥) .

(٣) أن أحسن ألوان بشرة المرأة عندهم هو أن تكون بيضاء مشوبة بصفرة . فقد شبه امرؤ القيس المرأة ببيكر المقناة البياض بصفرة (٣٦) والمراد به بيضة النعامة ، لأن بياضها مخلوط بصفرة .

(٤) وأنهن كنَّ يلبسن القلائد يحلين بها جيادهنَّ (٣٨) .

(٥) وأن شعرهن كان أسود اللون كثيفا ، وكن يضفرنه ويشددنه على رؤوسهن بخيوط (٣٩ و ٤٠) .

(٦) وأن من علامات النعمة أن تصادف المرأة وفتات المسك على فراشها الذى باتت عليه ، وأن تنام عليه إلى وقت الضحا ، وأن تكون مخدومة لانتطق لادم حاجتها إلى أن تقوم من نومها قبل طلوع الشمس لقضاء حاجاتها ومواليها (٤٢) .
أما معلقة طرفه فقد بدأها بذكر المرأة أيضا ، ووصف أطلال ديارها ، وشارك امرأ القيس فى استيقاف الصحب والبكاء على تلك الأطلال (١ و ٢)
ثم وصف مراكبها حين رحيلها (٣ - ٥) :

وفىها وصف للمرأة العربية كما رآها فى شفتيها حوّة — وهى حمرة ضاربة إلى السواد — وفى عينيها كحل ، وعنقها طويل ، وقد حلت جيدها بمقدنين أحدهما من اللؤلؤ والآخر من الزبرجد ، وابتسمت بفقر تضرب حمرة شفتيه

(١) رواية أبى عبيدة «ترائبها مصقولة بالسجنجل» وفسر «السجنجل» بأنه الزعفران ورواية غيرة «ترائبها مصقولة كالسجنجل» على التشبيه بالسجنجل ، وهو عندهم المرأة وأصله روى .

إلى سواد ، كأنه أقحوان نبت في كثيب من الرمل لم يخالطه تراب ، وفي ثمرها
بريق كأنه الشمس كسته ضوءها ، ولها وجه مشرق كأن الشمس أعارته ثوبا
نقيا خالصا من العيوب ، ليس فيه غضون ولا شقوق لأنها فتية ، وليست مسنة
أومريضة (٦ - ١٠) .

وفي بيت منها (٤٤) إشارة إلى ما كانت تصطنع الجارية من الفتنة
لسيدها ، فقد شبه طرفه وهي تتبختر في مشيتها بجارية عرضت على أهل مجلس ،
فقامت تتبختر ، وترخى أذيالها ، ل ترى سيدها أذيالها البيض ، لأن سيدها إذا
كان في المجلس كانت أشد مبالغة في التبختر وسحب الأذيال ، لتسرفؤاده
وتستدعى رضاه .

وفيها إشارة إلى الجوارى المغنيات ، ووصف لبعض أحوالهن في مجالس
الشراب يمتعن الشرب بالحنان ومعايشتهن . يذكر طريقة أن نداماه على الشراب
بيض الوجوه أطهار الأعراض ، أنسابهم خالصة صافية من كدر الرق ؛ وأن
القينة ، وهي الجارية المغنية ، تتردد بينهم وقد سترت جسدها ببرد ومجسد ، والجسد
هو الثوب المصبوغ بالجساد وهو الزعفران ، والجسد أيضاً هو الثوب الذي يلي
الجسد ، وهو الشمار ، وهو واسع الجيب ، وهو الحل الذي يخرج منه الرأس ،
وإذا كان الجيب واسعا بان العنق ، وانكشف معه شيء من الصدر ، فالندامى
يرون عنقها وبعض صدرها ، وإذا مستها أحد من الندامى لم تمتنع عنه ، فهي
مواتية ، وإذا مست أحداً منهم لم تزعجه بمسها وهي ناعمة الجسم ، وقال بعضهم
إن جس الندامى هو ما طلبوا من غنائها ، يقول طريقة : إن هذه الجارية حاذقة
عارفة بما يطرب إليه الندمان من الغناء ، فهي تغنيهم به ، على رسلها في تؤدة ،
وبصوت فيه لين وفطور ، لم تتشدد فيه ، ولم ترفه بقوة فتزعج السامعين ، وإذا

رددت صوتها في حلقها وترنمت فيه خلتها نوقاً قدن أولادهن ، فمن يبيكين عليهم ، أو نساء قن في مائتم يبيكين على هالك ، يريد أنها قادرة على تصريف صوتها (٤٨ — ٥١)

ومن أمانى طرفه سبقه العاذلات بالشرب ، ويفهم من ذلك أن النساء كنّ يسكرن على رجالهنّ شرب الخمر ، أو الإسراف في احتسائها (٨٥)

وكانت المرأة كما تحلى عنقها بالعقود تحلى رجلها بالبرين ، وهى الخلاخيل جمع برة ، ويقال أيضاً للحلقة التى تكون فى أنف البعير برة وبرين ، وكذلك كانت تحلى يدها بالدماليج ، جمع دملج ودملوج المعاضد ، وهى الأسورة التى تلبسها النساء فى أيديهن (٦١) .

وكانت المرأة هى التى تقوم بنهيئة الطعام ، وطهوه ، وتقديمه للرجال (٩٤) . وكانت المرأة تبكى الرجل إذا مات وتولول عليه ، وكانت نشق جيبها إذا نجحت فى عزيز عليها ، يقول طرفه : إذا متّ فأذكر بنى بما أستحقه من الثناء ، وشقى ثيابك حزناً علىّ ، ولا تعدلى بنى فى البكاء والحزن والنمى رجلاً ليس همه فى العلا وإدراك المحامد كهى ، ولا نفعه كنفعى ، ولا شهوده لمتنديات القوم وميادين الحروب كشهودى (٩٥) .

أما معلقة زهير فقد ابتدأها بذلك التقليد الذى جرى عليه أصحاب المعلقات من ذكر المرأة ووصف أطلالها ، فذكر « أم أوفى » زجته التى وجد لينها ، وندم على فراقها ، ووصف داراً لها بالرقتين لم يبق من أطلالها إلا ما يشبه مراجيع الوشم فى نواشر المعصم ، ثم وصف رحيلها ، وصرا كب فطنها ، ومنازلها فى طريق رحيلها ، وما وردت من مياه ، وما نصبت من خيام (١٥ — ١) وذلك أهم ما فى معلقته مما ذكر فيه المرأة ، ثم انتقل إلى فرضه الأسمى من ذكر الحرب ، ووصف أهوالها

وما فعل عظيما غطفان اللذان تحملا ديات القتلى في أموالهما ؛ ليكفيا الناس عن القتال وإراقة الدماء .

وبدأت معلقة ليبد بذكر غفاء الديار وتوحشها بعد أن خلت من أناسها ، والدعاء بسقيها بأقطار الربيع حتى تفضّل رباهما ، وتخضر وهادهما ، ويعاودها من جمال المنظر ما فقدته من خلوها من أنيسها وارتحالها عنها . وتحدث عن أشواقه التي أنارتها نساء الحى حين ركبهن هوادجهن ، وارتحلن عليها ، وكانت الهوادج قد غطيت بنوع من البسط . يسمى « الزوج » وجعلت فوقها الستور الرقيقة التي حليت بالرقم والنقوش ، ولقد تحملن جماعات فكأنهن في هوادجهن على رحالهن بقرات وحش في حسن العيون ، أو ظباء وجرة عاطفات على أولادهن (١٢ — ١٥) ثم عاتب نفسه على بقاء جبه لنوار التي هجرته وجفته ، وجاورت أهل الحجاز فلا أمل في وصلها ، ووجد أن خيراً من العمل بالأمانى الكاذبة التعلق بالواقع ، فليصرف حنينه ووقاه إلى ناقتة الباقية على الود ، المعينة له على جوب القفار (١٦ — ٢١) فانطلق إلى وصفها المستقصى الذي أشرنا إليه فيما سبق ؛ حتى عاد إلى « نوار » يذكرها بأنه قادر على القطيعة قدرته على الوصل ، وأنه لا يقيم في موطن الذل ، بل يرتحل عنها مهما يكن في ارتحالها من الشر والمخاطرة (٥٥ — ٥٦) ثم انصرف إلى الحديث عن فتوته ونصاييه في شرب الخمر ، وإسرافه في السكر ، ومقامرته في سبيل إطعام الأرامل واليتامى .

والمرأة في مطلع معلقة عمرو بن كلثوم أيضا ، واسكنها هنا جارية تسقى الندمان الصَّبُوح ، ولا تفضن عليهم بجمور الأندرين ، وهى قرية بالشام كثيرة الخمر ، ثم استوقف أخرى ليحدثها بيوم وقعة كريمة أقر بها بنوعها عيونهم ، وظفروا بآمالهم في النيل من عدوهم ، ويسألها عن سر ظعنها أهو فراق حبيبها ،

أم خيانة من لم يخنها (٩ — ١١) .

ثم ينتقل إلى جملة من أوصاف المرأة التي يستحسنونها ، وهي أوصاف مادية ، فذراعاها ممتلئتان لحماً ، كأنهما ذراعا ناقة بيضاء لم تلد بعد ، وبشرتها خالصة البياض ، وهي مع ما تتمتع به من حسن وجهال بمنعة حصان ، وهي طويلة القامة في غير أبيس ، وكان ساقها ساريتان من العاج أو الرخام (١٣ — ١٨) ووصف حزنه لفرأقها الذي فاق حزن ناقة أضلت حوارها ، فكررت الحنين عليه ، وفاق حزن المعجوز التي ولدت تسعة من الأولاد ، وشكلتهم جميعاً (١٩ — ٢٠) ويقلب هذا بحديثه الطويل عن شجاعة قومه ، وحسن بلائهم في الحروب .

وذكر من عادة العرب في القتال ما كانوا يعمدون إليه من محبة نسائهم ، يقفن خلفهم في ميادين الوغى ، ويشهدن عن كذب صراع الأبطال ، ليشجنهم على الإقدام والاستبسال ، وقد أخذن على أزواجهن عهداً إذا اقتحموا غمار الحرب ، ولاقوا الأبطال ، ليأسرن الأبطال ، ويستلبن ما عليهم من السلاح والدروع والبيض ، وقد قن يمشين غير عجلات ، ويتمايلن مرحاً كما يتمايل الشارب الثمل ، وهن يافن الخيول ، ويقلن لرجالهن : لستم أزواجنا إن لم تمنعونا ، تحريضاً لهم على الصدق في القتال ، وقد جعلن إلى جمال الخلق كرم الأصل والعفة (٨٢ — ٨٩) .

وكذلك بدأ عنتره معلقته بتحية دار عبلة ، والوقوف على أطلالها ، كما فعل غيره من أصحاب المعلقات ، ووصف ظفنها ، ثم وصف ما يفوح من طيبها الذي شبهه بما ينبعث من فارة المسك ، أو الروضة الأنف التي أمطرتها كل سحابة غزيرة الماء ، حتى امتلأت ودانها ...

وفيها ما يدل على أن المرأة كانت تغطي وجهها دون الرجال (٣٩) وعلى

أنهم كانوا يكونون عن المرأة بالاشاة (٦٦) كما كنى امرؤ القيس عنها ببيضة الخدر (٦٧) .

وبدا الحارث معلقة بذكر « أسماء » التي آذنته بينها (١) ونار « هند » التي أوقدتها بين العقيق فشخصين ، فلاحات كما يلوح الضياء ، فرآها فوق جبل خزازي بين هذين الموضعين ، فطمع في اصطلائها ، فلما علم أنها بعيدة يئس منها ، وقال : هيات منك الصلاء (٦ - ٨) ثم انصرف إلى الفخر بقومه بني بكر ، ووقائهم التي أبلوا فيها أحسن البلاء على النحر الذي سبق .

ومن كل هذا تتضح منزلة المرأة عندهم ، فقد ذكروها حبيبة ، وزوجة ، وجارية وقينة ، وذكروا من صفاتها الشجاعة ، وتحريض الرجال على القتال ، وذكروا أوصافها المحبة إليهم في الخلقة والخلق على النحو الذي فصلناه في الكلمات السابقة .

عادات العرب في المملقات :

وفي المملقات إشارات إلى عادات العرب وتقاليدهم ، ومن هذه العادات ما يعد من أصول الأخلاق وعلامات المروءة ، كالنجدة ، وحماية الجار ، وإغاثة المستفيث ، والشجاعة ، وصيانة المرأة وحماتها ، وقرى الضيف .

ومنها ما تنفر منه الأخلاق الكريمة كالاغتداء على الحرمات ، والديب إلى النساء ، وشرب الخمر ، والميسر ، والتهور ، والإسراع إلى الفتنة .

وقد سبق كثير من وصف بعض تلك العادات ، وبقي أن نشير إلى ما لم نذكر منها مما ورد ذكره في المملقات :

القمير :

ففي بعض المعلقات وصف لها ، ووصف لمجالس شربها ، وتصوير لأخلاق
الندمان الذين يجالسون على الشراب ، وذلك عند الشعراء ذوي الفتوة ، الذين
يرون في احتسائها علامة التيادة واليسار والشباب ، وأولئك الشعراء الذين
تردد ذكر الخمر في معلقاتهم ، واتخذت فيها مكانا بارزا ؛ طرفة بن العبد ، وعمرو
ابن كلثوم ، وعنترة بن شداد ، ولييد بن ربيعة .

أما طرفة فقد ذكر من مفاخره ، وسمات يساره وفتوته ، أنه دائم التردد
على حوانيت الخمارين ، وأنه هائم بها هيامه بمحافل الرجال :

فإن تبغى في حلقة القوم تلقى وإن تلمسني في الحوانيت تصطد (٤٦)

والحوانيت جمع حانوت ، وهو المحل الذي يباع فيه الخمر ، يقول إنه صاحب
جد كما هو صاحب لمو ، فن طلبه في نادي قومه حيث يجتمعون المشورة وجده
بينهم ، ومن طلبه في الحانات وجده مع جماعة الشاربين .

ووصف نداماه على الشراب ، وما في مجلس الشراب من الأنس

والطرب :

ندامى يبض كالنجوم وقينه — تروح علينا بين برد ومجسد (٤٨)

رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامى بضة المتجرد (٤٩)

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروفة لم تشدد (٥٠)

إذا رجعت في صوتها خلت صوتها تجاوب آظار على ربيع ردى (٥١)

وفي هذا صورة للعانات وحوانيت الخمارين عندهم ، التي كان يتردد عليها
العابثون من الشبان ، يشربون ويسمرون على ألحان القيان ، فقد وصف نداماه

بأنهم كرام ، بيض الوجوه ، طاهرة أعراضهم ، تتردد بينهم جارية بقيص مصبوغ
وهي واسعة الجيب ، يرون عنقها ، وبمض صدرها ، وإذا مسها أحد الندامى لم
تنتع عنه ، فهي مواتية ، أو إذا مست أحداً منهم لم تزججه بمسها ، لأنها رفيقة
رفيقة ، وهي حاذقة عارفة بما يطرب إليه الندمان من الفناء ، فهي تطربهم به ؛ وإذا
كألوا لهذه القيمة غنيها ، أخذت تغنيهم على رسلها في رقة وتودة ، وإذا رددت
صوتها في حلقها وترنمت فيه خلتها نوحاً فقدن أولادهم فهن يبكين عليهم ،
أو نساء قن في ماتم يبكين على هالك .

ويبدو في قصيدة طرفة أن البيئة كانت تنكر على شبانها شرب الخمر ،
وأن العشائر كانت تسكره أن يتردى فتيانها في معاقرة الخمر ، فيضيئوا أحسابهم
وأموالهم ، ولذلك كانوا ينفرون منهم ويتحاشونهم ، إظهاراً لسخطهم وتأديباً
لفتيانهم العاشقين . يقول طرفة :

وما زال تشرابي الخمر ولذتي وبيعي وإنفاق طريقي ومتلدي (٥٢)
إلى أن تحامتنى المشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد (٥٣)
يقول : مازلت أشرب الخمر ، وأشتغل بالذات ، وأبيع من أجلها كل
قديم أو حديث من مالي ، حتى تجنبني أهلي ، وتحاموا مخالطتي ، وأفردوني عنهم
كما يفرد البعير الأجرب الذي يمنع من دخول معاطن الإبل ، لئلا تسرى عدواه
إلى غيره .

ويذكر طرفة أمانيه في الحياة ، التي لولاها لم يحرص على تلك الحياة ، وأولى
تلك الأمانى ، سبقه اللوائيم إلى شربة من خمرة كيت - والكيت الخمر التي
في لونها سواد وحمرة - متى مزجت بالماء ظهر الزبد والرغوة على سطحها :
فهن سبق العاذلات بشربة كيت متى ما نعل بالماء تزبد (٥٨)

يريد أن بكوره في شرب الراح والناس نيام ، قبل أن تستيقظ عيون اللواتم ، كان من أول ما يحرص عليه من ملاذ هذه الحياة .

أما عمرو بن كلثوم فيبدون أن الخمر والهيام بها ، قد أنسته عادة الجاهليين وتقاليدهم في ذكر الدمن والآثار في مطالع قصائدهم ، ولذلك شغل بالخمر من أول بيت في معاقته :

ألاهي بصحنك قاصبحينا ولا تبق خور الأندرنيا (١)
مشعشة كأن الحص فيها إذا مالماء خالطها سخينا (٢)

يقول لجارية : قومي من نومك ، واسقينا الصُّبُوح ، وهو شرب أول النهار ، بقدحك العظيم ولا تدخري خمر « الأندرين » التي يحرصون عليها ، والأندرين^(١) قرية بالشام كثيرة الخمر ، ووصفها بأنها مشعشة ، أى رقيقة من العصر أو من المزج ، كأن الحص فيها ، والحص هو الورس ، يأمرها أن تصبح خمر ممزوجة بالماء ، وكأنها قد خالطها الورس ، وإنما جعلها كذلك لأنها إذا مزجت بالماء اكتست ثوب صفرة ، كما قال الآخر :

وحمرأ قبل المزج صفراء بده بدت في لباسى نرجس وشقائق
حكمت وجنة الممشوق صرفاً فسأطوا عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق
ثم قال إن الخمر إذا خالطها الماء وشربتها كنا أسخياء وزاد سخاؤنا على ما كان عليه قبل . ثم وصف الخمر بصفتين : الأولى : أنها تميل بشاربها عن حاجته وتصرفه عن هواه حتى ينساه . والأخرى : أنها تبعث على السكرم والبذل والسماحة ، حتى إن البخیل الحريص على ماله إذا شربها سخط يده ، وأهان ماله ببذله :

(١) قال ياقوت : أندرين اسم قرية بينها وبين حلب مسيرة يوم للراكب ليس بعدها عمارة ، وهي الآن خراب ، ولما عفى عمرو بن كلثوم بقوله « ولا تبق خور الأندرين » .

تَجَوُّرُ بَذَا اللَّبَّانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَازَقَهَا حَتَّى يَلِينَا (٣)
تَرَى اللَّحْزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِرْتُ عَلَيْهِ لِمَا لَهُ فِيهَا مُهِينَا (٤)
وفي الآيات الثلاثة التي ألحقها بعض الرواة بهذه المعلقة^(١) يعاتب أم عمرو
التي صرفت الكأس عنه إلى غيره ، وهو أحقّ بها ، لأنه يجلس عن يمينها ،
ومن عاداتهم في آداب الشراب أن الكأس تدار على اليمين ، وهو عارف بتلك
الآداب ، فقد شرب الخمر في مجالس كثيرة ، وفي بلاد متعددة ، شربها في بعلبك
وشربها في دمشق ، كما شربها في قاصرين . ثم يقول إن المنية لا بد ستدركه
فلا خير في الكف عن اللعب ، أوفى الإمساك عن الخمر :

وإِنَّا سَوْفَ تَدْرِكُنَا الْمَنِيَا مَقْدَرَةً لَنَا وَمَقْدَرِينَا (٨)

وفي بيت من أبيات هذه المعلقة تصوير لمشية الشارب ، وهو يتزخ من أثر
الخمر ، إذ شبه نساءم وهنّ يمشين الهوينى ويتمايلن مرحاً بما كان يرى
من تمايل الشارب الثمل :

إِذَا مَارَحْنَ يَمَشِينَ الْهُوَينَى كَمَا اضْطَرَبَتْ مَتُونُ الشَّارِبِينَا (٨٦)
ذلك ما ورد في معلقة عمرو بن كلثوم من إشارات إلى الخمر وشربها ومزاجها
وآداب الشرب وهيئة الشارب .

أما عنقرة بن شداد فإن في معلقته ما يدلّ على أنه كان شغوفاً بها ، يعاقرها
وينفد فيها ماله . وأول ما يقابلنا من ذكر الخمر في هذه المعلقة تشبيهه الذباب
الذي انفرد في الروضة الأنف ، بشارب الخمر وهو طرب يترنم ، ويرجع الصوت
بينه وبين نفسه :

وَحَلَا الذَّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِحٍ غَرْدًا . كَفَعَلَ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمُ (٢٢)

(١) انظر هامش (٢) في صفحة (١٧٠) من هذا الكتاب .

أما الأبيات التي ذكر فيها الخمر قصداً فهي أربعة أبيات وإلى بينها :

ولقد شربتُ من المدامة بعدما ركدَ الهواجرُ بالمشوف المذم (٤٢)
 بزجاجةٍ صفراء ذات أسرَّةٍ قرت بأزهرَ في الشمالِ مُقدِّم (٤٣)
 فإذا شربتُ فإنني مستهلكٌ مالى وعرضى وافرٌ لم يُكَلِّم (٤٤)
 وإذا صحَّوتُ فما أقصَّر عن ندَى وكأ علمت شمائلى وتسكرونى (٤٥)

يقول إنه يشرب الخمر بعد ركود الهواجر ، أى حين تركد الشمس وتقف
 ويقوم كل شيء على ظله ، والركود السكون ، ويعنى بذلك وقت الظهيرة ، لأن
 هذا الوقت وقت راحة واستجمام لا وقت عمل ونصب ، وهو يشرب الخمر بالمشوف
 أى يدفع فيها ديناراً مجلواً . ووصف زجاجة الخمر بأنها صفراء ، أو وصف الخمر
 نفسها بأن لونها أصفر ، وفي تلك الزجاجة طرائق وخطوط ، جعلت مع إبريق
 من الفضة أو الرصاص مقدّم ، أى مشدود فيه بخرة ، أو عليه القدم (١) يصفى
 به . وإذا سكر سخا ، وبذل من ماله ، وإذا صحا من سكره فعل مثل ذلك ، لأن
 السكر خلق فيه ، أما عرضه فإنه أبداً كامل ، لا يناله ما يعاب به أو يذم
 من أجله .

وفي مطلقة لبيد ذكرياته عن أيام شبابه السالفة التي كان فيها من معاقرة
 الخمر ، وقد ضمن تلك الذكريات ستة أبيات من معلقته ، وفيها يقول :

بل أنت لا تدرين كم من ليلةٍ طلقٍ لذبذٍ لهوها وندامها (٥٧)
 قد بتُّ سامرها وغاية تاجرٍ وافيتُ إذ رفست وعزّ مدامها (٥٨)
 أغلى السبباء بكل أدكن عاتقٍ أوجونَةٍ قد حثت وفرض ختامها (٥٩)

(١) القدم بكسر الفاء ، وقد تفتح ، بمعنى المصفاة ، يقال لإبريق مفدوم ومقدم أى عليه
 القدم .

وغداة ريجٍ قد وزَّغْتُ وقرَّةٍ قد أصبحت بيد الشمال زمامها (٦٠)
بصبوح صافية وجذبٍ كَرِينَةٍ بموترٍ تأتأله إبهامها (٦١)
بادرت حاجتها^(١) الدجاج بسُخْرَةٍ لأعلَّ منها حيث هب نيامها (٦٢)

يذكرها بما صرَّ عليه من أيام اللهو واللذة ، وما نال فيها من غبطة وسرور
والليلة الطلقة هي التي لا برد فيها ولا ريج ولا مطر ، والندام المتلذذة ، كم كان
يسمر مع خلانه ليلا ، وكما ابتاع من الخمار خمر غالية الثمن نادرة الوجود ،
أراد أنه لا يسقى نداماه إلا أحسن أنواع الخمر الذي يشتريه بالثمن العالي ،
ولا يشتري من الخمر القليل ، بل يحمل كل زقٍ لم تمسه يد ، وكل خابية
قد فضَّ ختامها فسالت وغرف منها . وربَّ غداة باردة قد هبت فيها ريج
الشمال فزادت في بردها ، دفع عن نفسه وندمائه بردها بالشراب وسماع صوت
العود تعزف عليه امرأة عوادة تحسن الضرب به وتجيده . إن اشتغاله بمثل ذلك
اللهو يجعله لا يحس بالبرد الذي تسوقه ريج الشمال ، ومباكرته هذا الشرب
والقصف قبل أن تصبح الديكة وتصيح في وقت السحر ، تلك المباكرة هي التي
نفث عنه عدل العذال إذ أنه ينتهب لذته وهم نيام .

أما معلقة امرئ القيس فقد ذكرت الخمر فيها في بيت واحد ، وهو قوله :
كَانَ مَكَائِي الْجَوَاءَ غُدِيَّةً صُبْحَنَ سُلَاقًا مِنْ رَحِيقِ مُفَلَّغَلٍ
فقد جعل الطيور وهي المسكاكي من شدة مرورهن بصفاء السماء بعد المطر

(١) السباء شراء الخمر ، وأراد بالأدكن الزق الذي في لونه دكنة ، والعائق العتيق
أو الذي لم يفتح أحد ، والجولة الحامية السوداء ، وقدحت غرفت ، والقرة البرد ، وزعت
كففت ورددت ، والكريئة ذات الكران وهو البربط ، والموتر المود لأن له أوتارا ، وتأتأله
تصلحه ، وحاجتها الضمير فيه لنفس .

الذى غرقت فى أقاصيه السباع كأنما شرب من سلافا من رحيق مفلقل^(١) .
والسلاف : هو ما سال من عصير العنب قبل أن يعصر ، والخمرة منه أجود
ما تكون .

والرحيق : هو صفوة الخمر .

والمفلقل : الذى أقيمت فيه توابل ، أى فهو يلذع لذع الفلفل ، وإنما وصف
الرحيق بكونه مفلقلا ، لأنه إذا كان كذلك كان أشد تأثيراً فى الإسكار . والمراد
أن هذا المطر أضحك وجه الأرض بالنبات والأزهار ، وأطلق ألسن الطليار
فرددت ألحانها منتشية كأنها سكارى .

وليس فى معلقة زهير بن أبى سلمى أدنى إشارة إلى الخمر ، لأنه رجل عقل
وحكمة ، وفى معلقته كثير من الدلائل على إيمانه بالله ، والبعث والنشور ، والثواب
والعقاب ، وترفعه عن مقارفة الصغائر .

وكذلك ليس فى معلقة الحارث بن حلزة شيء من ذكر الخمر ، أو وصف
بجالسها ، أو شيء يتعلق بمعاقرته إياها .

وفى هذا ما يدل على أن شرب الخمر عندهم لم يكن ظاهرة اجتماعية عند
العرب ، وإنما كان ذلك وقفاً على جماعة من الفتيان المستهترين بشربها من شبابهم .

فضائل العرب النفسية :

وفى المعلقات كثير من الآثار التى تدل على تقديرهم للفضائل النفسية ،
وتمسكها من نفوسهم ، ولذلك مجدوا تلك الفضائل ، وفخروا بها لأنفسهم ،
ونسبوا إليها أسلافهم ، ولا يكون شيء من ذلك إلا إذا كان لهذه الفضائل
كثير من التقدير العميق لها فى نفوسهم ، وهذا ما يؤكد ترادف تلك الفضائل
فى المعلقات ، حتى لم تخل واحدة منها من الإشادة بتلك الفضائل والفخر بها .

(١) قال صاحب اللسان إن الفلفل معروف لا يثبت بأرض العرب ، وقد كثر بحه فى
كلامهم ، وأصل الكلمة فارسية . ووحدته نافله .

ففضيلة الكرم ، وهى من أمهات فضائل النفس ، لأنها الفضيلة التى ينزل بها صاحب المال عن ماله للفقير المحتاج إليه . وحرص الإنسان على المال طبيعة فى النفوس ، لأنه قوام حياته ، والوزر له من أحداث الزمان ، وينزل بمقتضاها صاحب الطعام عن طعامه ، ليبذله للجائع الذى لا يجده ، ولعل صاحب الطعام فى أشد الحاجة إليه ، ولعله بعد هذا البذل من قوته محتاج لمن يبذل له من قوته . تلك الفضيلة كان لها شأنها فى المجتمع الجاهلى ، وكان طبيعة الحياة فى ذلك المجتمع البدوى ، وفى تلك الصحراء التى لا يزورها الغيث إلا لماماً ، هى التى أملت عليهم ذلك الخلق ، فالعربى يعرف أنه إن وجد اليوم أسباب الرغد فإن ذلك إلى أمد ، وأن الأيام وظروف الحياة ستسلبه بعد قليل إلى الجذب الذى يصبح معه فى حاجة إلى العون ، يقدمه إليه غداً من كان فى حاجة إليه أمس ؛ ولذلك فقد كان يحسّ بهول ذلك الشبح ، شبح الحاجة ، الذى يهدده فى غده ، ولذلك تراه حريصاً على أن يسلف من الفضل ما يكون له ديناً فى ذمة التاريخ ، وفى أعناق الرجال .

ولذلك باهى شعراء المعلقات بالجود بالمال والمتاع ، كما جادوا بالطعام ، والتمس بذلك المؤمنون منهم بالله ثواب الله والدار الآخرة ، والتمس به غيرهم النفع فى أيام الشدة والمسغبة . أو الجاه الذى يطير ذكرهم فى الآفاق ، ويظهرهم فى أخلاق السكرام ، والسكرام دائماً هم السادة بين أقوامهم .

وليس عقر امرئ القيس ناقته لامذارى إلا مظهرأ من مظاهر طبيعة الكرم التى لا تقف عند حد ، لأنه سيفقد راحلته ، ويضطر إلى طلب العون ممن يردفه فوق راحلته (١١ - ١٥) وكذلك صيده الذى عنى فيه نفسه وفرسه ، ثم قدمه بعد ذلك لطهاة اللحم الذين اشتغلوا بشية على الحجر ، وطبخه فى القدور ، ليقدم كل ذلك زاداً لطاهي الطعام (٧٢) .

أما طرفة فقد غالى بتلك الفضيلة حتى تجاوز أعلى غاياتها ، وصور نفسه

فى صورة الفقى المتلاف الذى لا ىبقى على ما ىصل إلى ىديه من مال أو متاع ،
وىقول عن نفسه :

ولست بجلال التلاع مخافة ولكن متى ىستفد القوم أرقد (٤٥)
أى لا أنزل بىحث ىحنى مكانى على طالب عرفى أو طالب نصرتى ، بل أنزل
بىحث ىرانى كل من ىطلبنى ، فن استضافنى أضفته وتمعته بقراى ، ومن
استنجدنى أنجدته وليت نداءه ، ومن شأن أهل الكرم والمروءات أن ىعرضوا
أنفسهم لمثل هذا ، وذلك فرق ما ىبين الكرام والاثام .
وفى آيات من الحكمة نرى طرفة ىذكر العلة فى إثاره الطرىق التى اختارها
لسلوكة فى الحىاة ، وإتلاف ما تصل إليه ىداء من المال :

أرى قبر نحام بخیل بماله كبر غوىّ فى البطالة مفسد (٦٤)
ترى جثوتين من تراب علیهما صفاوح صم من صفیح منضد (٦٥)
أرى الموت ىعتام الكرام وىمصطفى عقیلة مال الفاحش المتشدد (٦٦)
إن الشحیح والمصرف اختلافاهما فى حال الحىاة ، فأما فى الموت فهما سیان ،
فالبخیل لا ىمنع الموت عنه ما ادخره من المال ، بل إن الموت ىسطو على المدم
الذى بدد ماله فى حىاته ، كما ىسطو على الموسر الذى استطاع أن ىجمع ىبخله
الأموال والمتاع ، وإن نرى فرقا ىبین قبریهما ، فعلى كل منهما كومتان من تراب
فوقهما أحجار صلاب عریضة ، والحذر لا ىدفع الموت ، فحرص الكرىم على
حىاته لا ىرد عنها ىد الحمام ، وحرص البخیل على ماله لا ىدفع عنه المهالك ،
وإذا كان الأمر كذلك فحیر للانسان ألا ىضن بنفس ولا مال . ومن تلك المعانى
نستبىن أن طرفة فى إتلافه ماله ومال غیره لم ىكن ىفعل ذلك اعتباطاً ، وإنما كان
صاحب رأى وفلسفة فى الحىاة بما هدته إليه تجاربه ونظراته .

وصورة أخرى صورها طرفة لكرمه ، وأنه كان ىرتكب فى سبيله ما كان

أجدر به أن يوصف بأنه حماقة من حماقات طرفة ، حين يصور إبلا نائمة مشى
بينها يلتمس بعيراً يذبحه للندمان أو للضيغان ، فتثور ثقلها من مخافته وتمر به
منها ناقة ضخمة سميدة قد جفت ضرعها فخرتها ، ويصيح شيخ في وجهه : قد أنيت
بداهية ، لذبحك هذه الناقة التي لا يذبح مثلها لضيف ! يقول لمن حوله : ماذا
ترون بهذا الرجل الذي ظلمكم وتعمد إيذاءكم في أكرم أموالكم ؟ يريد
منهم أن يكفوه ، وإلا لم يترك لهم شيئاً ، ثم عدل الشيخ عن هذا ، وقال : دَعُوهُ
فإن النصيح لن يزيده إلا عناداً وإصراراً ، وإنا رَدُّوا مائدًى من الإبل ، لثلا
يعقره أيضاً (٨٩ - ٩٣) إن ذلك الشيخ لم ينكر على طرفة كرمه لضيفه ،
وإنما أنكره عليه لتهوره في سبيل ذلك الكرم ، وعدم توفيقه في اختيار ما يصلح
قري لأولئك الضيف .

أما زهير بن أبي سلمى فقد خص بالكرم عظيمى غطفان : الحارث بن عوف
وهرم بن سنان ، اللذين تداركا عبساً وذبيان بعد ما أفنى بعضهم بعضاً ، وتحالفوا
على الحرب حتى الموت ، ووقع بينهم الشؤم ، حتى كاد يبيدهم عن آخرهم :

وقد قلنا إن ندرك السلم واسماً بال ومعروف من القول نسلم (٢٠)
فأصبحنا منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم (٢١)
عظيمين في عليا معدة هديتما ومن يستبح كنزاً من الجدي عظم (٢٢)
تغنى الكلام بالثنين فأصبحت ينجمها من ليس فيها بمجرم (٢٣)
يُنجمها قوم لقوم غرامة ولم يهريقوا بينهم ملء محجم (٢٤)

وذلك ضرب من الجود يصح أن يسمى « الجود الجماعى » أى الجود القدى
سببه الجماعة ، والحرص على وحدتها وقوتها ، ولو أدى ذلك إلى أن يفقد الجواد
مناعه وأمواله في سبيل أمن الجماعة ، وسلامة أرواحها ، وقد سجل زهير هذا

الجود الجماعى لهذين الرجلين فى هذه المعلقة . وهى ظاهرة اجتماعية مبكرة فى هذه البيئة العربية ، وفى ذلك الزمن البعيد ، وصورة للفرد الذى لا ينظر إلى نفسه وإلى خاصته بقدر ما ينظر إلى الجماعة التى ينتسب إليها .

والحقيقة أن هذه الظاهرة فى الحياة الجاهلية تعبر أقوى تعبير عن مدى التجارب بين الفرد والجماعة ، فالجماعة تصون أفرادها ، وتدفع عنهم اعتداء المعتدين ، وتغزو من أجلهم ، وتغير على غيرها جلباً للمغانم التى ينعم بها الأفراد ، والجماعة هى التى تثار لقتلها ، وهى التى تدفع القفل والدية عن الجناة من أبنائها .. هذا هو موقف الجماعة من الأفراد .

أما موقف الأفراد من الجماعة ، فإنه تجاوب تام ، فهم الذين يسرعون إلى تجميدها ، وهم الذين يهودون بأرواحهم لحمايتها ، وللشعراء منهم هم الذين يرسلون الشعر الحى يدافعون به عن أحسابها وأنسابها ، وينالون به من خصومها وأعدائها ، ويذيعون محامدها ومفاخرها . والسراة هنا يحملون فى أموالهم آثام جنائيات لم يرتكبوها ، ويلثمون جراحاً لم ينكثوها . وهذا هو التفاعل التام بين الفرد والجماعة ، والتكافل التام أيضاً بين الجماعة والفرد ، ومظهر للشركة بينهم فى السراء والضراء .

يقول زهير لدينك العظيمين إنكما قلتما إن تتمكن من الصلاح يبذل المال نسل من الحرب ومن إراقة الدماء ، فبذاتنا الأموال ، وأصبحتما بعيدين عن كل وصف بالعقوق أو قطع الأرحام ، فعرفت عظمتكما فى أشرف القبائل ، فلقد محوتما الجروح بالثمين من الإبل التى دفعت دية ، كرمأ منكما وفضلاً ، لإصلاح ذات البين ، وصلة الأرحام .

أما معلقة لبيد فيها من ذكر الكرم ، وفيها من تصوير الكرام وخلاصتهم ما يدل عليه ويوضح قوله :

وجزور أبسار دعوت لحنفهما — بمغالق متشابهٍ أعلامها (٧٣)
أدعو بهنَّ لعاقر أو مطفل — بذلت لجيران الجميع لحامها (٧٤)
فالضيف والجار الجنيب كأنما — هبطا تبالة مخصباً أهضامها (٧٥)
تأوى إلى الأطناب كلُّ رذية — مثل البلية قالص أهدامها (٧٦)
ويكثلون إذا الرياح تنافحت — خلجاً تمتد شوارعاً أيتامها (٧٧)

وهو تصوير يوقفنا على أسلوب من أساليبهم في الكرم، وفي تيسير الطعام
للمعجزين عن كسبه؛ وذلك أنهم كانوا يقامرون على الإبل، وكان القامر منهم
ينحر ما كسبه، ليقدمه طعاماً لأولئك المحتاجين. يقول لبيد: رب جزور قوم
مقامين قرتهم عليها، وأخذتها منهم بقداح متشابهة للعلامات، لا تتميز على
اللامس، تغلق الرهن، وتمنعه الفكك، ثم دعوت الناس إليها. وكان يدعو
بهذه القداح ليقامر بها من أجل امرأة عاقر لا تحمل، وأخرى ذات ولد ليس لها
من يعولها، فهو يقامر ليحصل لهما على ما يأكلانه، ثم يفرق ما يبقى على جيرانه
فالضيف والجار الغريب القى يقيم في جوارهم إذا نزلا بهم صادفاً عندهم من
الخيرات والفواكه والرطب ما يصادف النازل في «تبالة» من الخيرات، يشير
بذلك إلى سعة يدهم واعتنائهم بضييفهم وجارهم، والحفاوة بهما، واللباقة
في إكرامهما. ومن أظهر علامات السماحة ما ذكر لبيد من أن كل امرأة لا تقدر
على العمل عليها أخلاق ثياب، فصارت أشدة الجهد والحاجة لاستطيع الحركة،
كأنها ناقة عقلت على قبر صاحبها، فهي لا تبرح من مكانها حتى تموت، إن
هذه المرأة ومثيلاتها لا يجدن ملجأً يلجأن إليه إلا داره التي يجدن فيها ما ينشدن
من القرى والطعام؛ حتى يقول: إنه إذا أقبل الشتاء، واشتد البرد، واختافت
الرياح وضافت المعيشة على الفقراء والمدمين، ومن ليس لهم من يعولهم من

الأيتام بذلنا للناس جفاناً كأنها في السمة الخلعان قد رصف فوقها اللحم ، وزدنا فيها كلما نقصت . فترى الأيتام يشرعون فيها أيديهم ، ويأكلون منها ما يكفيهم وما يزيل مسفتهم .

وآخر عمرو بن كلثوم بأن العرب يعترفون اقومه بالشرف والسيادة ، وأنهم المطعمون غيرهم إذا ما وجدوا إلى هذا الإطعام سبيلاً ، وأنهم قادرون على الانتقام إذا حاول الاعتداء عليهم معتدٍ ؛ وذلك في إحدى الروايتين « وأنا المطعمون إذا قدرنا . . »

وآخر عنترة بأنه دائم البذل في جميع حالاته ، فإذا سكر بذل وأعطى ، وإذا صحا من سكره فعل مثل ذلك ، لأن السكر خلق فيه ، أما عرضه فإنه أبداً كامل مصون ، لا يفاله ما يعاب به ، وما يذم من أجله ، وذلك في قوله :

فإذا شربت فإننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم (٤٤)
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكأ علمت شمائلى وتسكرى (٤٥)

وهكذا صورت المعلقة فضيلة السكرم التي نخاق بها العربى ، وغالى بها العرب إلى حد الإسراف ، فأنفقوا الأموال ، وأطعموا الطعام ، واحتملوا في أموالهم ديات القتلى الذين لم يكن لهم يد في قتلهم ، مع قسوة الطبيعة عليهم ، وجذب أرضهم بالنبات ، وبخل سمائمهم بالغيث ، وفي هذا ما يكبر صنائعهم ، ويجعلها مثلاً من روائع الأمثال .

أما فضيلة الشجاعة عند العرب فقد أصبحت مضرب الأمثال في العالمين ، ولقد كان العربى في الجاهلية يسترخص أغلى ما يملك ، وهو حياته ، في سبيل حريته ، وفي سبيل الحفاظ على حرمة وكرامته ، ورب كلمة أنف العربى سماعها ،

جعلته يسرع إلى سيفه ، ليهوى به على رأس من حاول النيل منه بالقول أو بالفعل ، ثم تشتمل نثار حرب ضروس تأكل اليا بس والأخضر ، وكانت تلك الحياة هي التي علمتهم الشجاعة ، والصبر على القتال ؛ إذ كان صبيانهم يشبون في بيئات ملأت صدور أهلها الأحقاد ، وتحضبت جنبات أرضها بالدماء ، فلا يسمعون إلا صهيل الخيل وصليل السيوف في ميادين الوغى ، ولا يرون إلا النثار لآبائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ينتظر منهم النهوض به . ولذلك كانت الشجاعة أهم صفاتهم ، كما كانت نجدة المستعجد بهم ضريبة عليهم ، لأنهم في كثير من الأحيان يضطرون إلى الاستنجاد بغيرهم ، ليعينوهم على دمائهم التي يريدون الثأر لها ، وحقوقهم التي يعملون على استخلاصها من أيدي أعدائهم ومغتصبينهم .

والحديث عن شجاعة عرب الجاهلية يحتمل مكاناً بارزاً في شعر المعلقات ، وقد سبقت إلى ذلك إشارات كثيرة في وصف الحياة الجاهلية ، ووصف الحرب والسلام في المجتمع العربي ، وفي وصف سلاحهم وأدوات القتال عندهم ، وقد كان الحديث عن الحرب في حقيقته وصفاً لبطولتهم ومفاخرهم التي حصلوها في تلك الحروب والوقائع التي خاضوها ، وشجاعتهم وحسن بلائهم في لقاء الأبطال ، والصبر على القتال ، وانتصاراتهم المترددة . وليس من سبب لطول الحروب عندهم إلا خلق الشجاعة الذي كان يجري في دمائهم ، فيمنعهم الرضا بالهزيمة ، أو النوم على وتر ، مهما أصابهم من رزايا الحرب وأهوالها ، ومهما قتلت من ساداتهم وكبرائهم ، ومهما أفنت من رجالهم ، لأن العربي لا يستسلم للهزيمة ، ولا يرضى بالهوان ، وإن كان دون ذلك بذل النفس والنفيس من الأرواح والأموال .

وربما كان ذلك العناد الذي أودى بالآلاف من العرب في الجاهلية هو الذي عطل نهضة الجزيرة العربية ، وعاق تقدمها المادي قبل الإسلام ، وصرفهم عن العمل الجاد الذي يحصلون منه على أرزاقهم التي تقيم أصلابهم .

وهاك بعض إشارات بسيرة إلى بعض مظاهر خلق الشجاعة كما عبرت عنها المملقات .

فامرؤ القيس يتجاوز في الوصول إلى صاحبتة وزيارتها أهوالا كثيرة ، وقوماً يحرسونها وآخرين حراساً على قتله لو قدروا عليه ، وهو لا يبالي بشيء من ذلك (٢٨) ولم يكن من مظاهر خلق الشجاعة عند امرئ القيس في الشطر الأول من حياته غير الشجاعة في العبث ، وفي الديب إلى من يهوى ، وكان لا يستخدم حصانه إلا في الصيد والطرْد .

وطرفة يمضى على مثل ناقته ، ويقطع بها عرض الفلوات التي يجزع منها غيره ، لما يخشون من الهلاك الذي يتعرض له قاطع تلك المفاوز الشاسعة (٤٠) ومن شجاعته أن الناس إذا وقعوا في شدة من الأمر ورجوا من يكشفها ، لم يجدوا غيره ملييا (٤٢) وهو لا ينزل بحيث يخفى مكانه على طالب عرفه أو طالب نصرته ، فمن استنجد به أنجده ولبي نداءه (٤٥) ويقول لمن يلومه على شهوده الحرب وحضوره مجالس اللذات : أتضمن لى الخلود إن أنا أطعتك في السكف عن القتال وعن شهود اللذات ؟ ، فإن كنت لاتستطيع أن تدفع منيتي إذا حضرت فدعني أعجلها بشجاعتى وبذل مالى (٥٦) ومن أعز أمانيه التي لا يحرص على الحياة إلا من أجلها كره لإغاثة الملهوف ونجدة المستصرخ المكروب فرساً في يده انحناء قليل ، وذلك محمود عندم في الخيل ، فإذا فحش كان مذموماً (٥٩) وهو إن يدع إلى الخطوب الجسام كان ممن يحمى فيها ويمنع وإن دم الأعداء قومه فقاتلهم بأقصى جهدهم استطاع أن يدفعهم عنهم بأقصى جهده ، ولم يأل في ردم عنهم ، وإن بشتوا عرض واحد من قبيلته أو يستوره لم يشتغل بتهديدهم ، وإنما يسقيهم من حياض الموت ، لانتها كهم حرمانه ، واجترأهم عليه (٧٥ ، ٧٦) وهو قليل اللحم ليس بكثيره فيعوقه ذلك عن سرعة الحركة ، وهذا مما تمدح به العرب ، لأن أم مفاخرهم في لقاء الأبطال

ومقارعة الأقران ، وإغاثة الملهوفين ، وقطع القلوات ، وكل هذه الأمور لا تيسر إلا لمن خف لجه . وهو ماض في أموره لا يثنيه شيء عنها . وهو سريع الحركة شديد الحذر كأنه رأس الحية في توقده ، وشدة تيقظه (٨٤) وقد حلف لا يزال جنبه للسيف كالبطانة للظهرة لا يزالان معاً ، يريد أنه أقسم لا يفارقه سيفه أبداً ، بل يظل أبداً متقلداً له (٨٥) .

وفي معركة عمرو بن كلثوم من آثار الشجاعة الشيء الكثير ، فهو يذكر ما كان من قومه الذين أشبعوا أعداءهم ضرباً وطعناً أقرؤا به عيون أوليائهم (١١) وغر بأنهم يوردون الرايات بيضا ، ويصدرونها وقد احمرت بعد ما رويت من دماء أعدائهم (٢٤) وأن السادة والأبطال لا يستعصون على شجاعتهم (٢٦) وأنهم استطاعوا أن يحموا ذاطلوح والشامات وما بينهما ، وأن يطردوا الأعداء الذين لا يستطيع غيرهم تفريقهم ، لما لهم من المنعة والعزة والبأس (٢٨) وإذا فزعت الأقوام وهم بالهروب ، وتساقطت أخبيتهم استطاع قومه أن يحموا أنفسهم ، وأن يمنعوا من يليهم ، ولا يدعونهم يرحلون بل يحمونهم ، ويقاتلون عنهم . وإذا عجز قوم عن التقدم إلى الحرب من توقع أهوالها فإن قومه قادرون على التقدم بكتيبة كأنها الجبل ذات بأس وشوكة محافظة على أحسابهم ، حتى يكتب لهم النصر والغلبة على الأعداء (٤٦) إلى كثير من هذا الفخر بالشجاعة والبسالة الذي تقدمت الإشارة إلى شيء منه فيما سبق .

ومثله عنزة ، لولا أن أكثر فخر عنزة بشجاعته ، ومن قوله في ذلك إنه حاذق بالطن لا يعطن إلا في المقاتل ، وأن جأشه دائماً ثابت ، ولذلك فهو يتحرى إصابة رمحه المقاتل (٤٦) واستطرد إلى حسن بلائه في الحرب ووصف فرسه الذي تعاوره السكاة واحداً بعد واحد ، ومع ذلك ظل ثابتاً ، وأنه يدفعه لاقتحام جيش الأعداء ، فإذا نكس فيهم عاد به إلى جيش قومه (٥٠) وعنزة ينشئ الحرب شجاعة ، فإذا كانت الغنيمة كف عنها عفة ، إذ أنه لا يقاتل من

أجلها (٥١) وربّ فارسٍ مدجج في سلاحه شجاع في اللقاء يكره الفرسان منازلته لما يعلمون من بأسه ، استطاع عنقته أن يسبقه بالطنن ، وكان أحذق به منه (٥٥) ومثل هذه الصور من الشجاعة كثير في معلقة عنقته كثرتها في معلقة عمرو بن كلثوم .

وفي معلقة الحارث بن حنظلة من آثار الشجاعة كثير مما سبقت الإشارة إليه في الكلام عن الحرب وأيام العرب^(١) .

ومن الأخلاق العربية التي أبرزتها المملقات خلق العزة وإباء الضيم ، الذي كان ثمرة من ثمرات الحرية التي عشقها العربي ، وأرضع لبانها في تلك البيئة الحرة ، فقد كان العربي سيد نفسه ، لا يرضى إلا بما نسنة قبيلته ، ولا يخضع إلا لسلطانها وفيما عدا ذلك تراه لا يعترف بسيادة ولا يقر بسلطان ؛ إلا أن يقهر أو يغلب على أمره ، ولكن هيهات له أن يستكين .

وترى التحدث بهذا الخلق — خلق العزة وإباء الضيم — أكثر بروزاً في قصائد شعراء الحماسة من أصحاب المملقات ، وأعنى بهم طرفة بن العبد ، وعمرو ابن كلثوم ، وعنقته بن شداد ، والحارث بن حنظلة . فمن ذلك في معلقة طرفة :

وإن أدع للجبلى أكن من حماها	وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد (٧٥)
وإن يقذفوا بالقذع عرضك أسقمهم	بشرب حياض الموت قبل التهدد (٧٦)
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة	على المرء من وقع الحسام المهند (٨٠)
فذرني وخلقى إننى لك شاكر	ولو حلّ بيتى نائياً عند ضرغد (٨١)
فلو كنت وغلا في الرجال لضرني	عداوة ذى الأصحاب والمتوحد (٩٨)
ولكن نفي عنى الرجال جرائنى	عليهم وإقدامى وصدقى ومحتدى (٩٩)

(١) راجع صفحة ٢٥٢ وما بعدها من هذا الكتاب .

يقول : إنه إن دُعي إلى الخطوب الجسام كان ممن يحمي فيها ويمنع ، ولم يأل في رد الأعداء بأقصى ما يملك من الجهد ، وإن شتموا عرضه وسبوه لم يشتغل بهديدهم ، وإنما يسقيهم من حياض الموت ، لأنها كهم حرمانه ، واجترأهم عليه . وهو لا يقبل الظلم ولا يبيت على الضيم ، حتى لو كان ذلك من أهله وذوى قرباه ، إذ يرى أن المرء لأن يضرب بالسيف المهند المقاطع حتى يموت خير له من أن يحتمل أذى من ذوى قرابته ، أو يرى منهم ما يسيؤوه ويؤلم قلبه . ثم يقول لمن لامه على إسرافه في الإباء وفي النيل من كل من تعرض له : دعني وما فطرت عليه ، فإني لأدع ذلك ، ولو اضطررت إلى العزلة ، ونزلت عند ذلك الجبل « ضرغد » الذي هو أبعد ما يكون عن أهله ومنازل قومه . ثم يقول عن نفسه : إنه لو كان ندلاً ضعيفاً بين الرجال لئاله الأذى بمن له ناصر ، ومن لا ناصر له ، ولكن الذي كف عنه أذى الناس هو إباؤه وجراته وكرم أصله ، وصدقه فيما يتوعدهم به .

ويبدو الإسراف في خلق الإباء في قول زهير يذكر حصين بن ضمضم بن مرة ، وكان أبي أن يدخل فيما دخل فيه الناس من الصلح ، وحلف ليقتلن بأخيه رجلاً من بني عبس :

جرى متى يظلم يعاقب بظله سريعا وإلا يبد بالظلم يظلم (٣٩)
فهذا الأسد — وهو حصين — إن ظلم انتقم لنفسه ممن ظلمه سريعا ، وإن لم يظلم ابتداء هو بالظلم . وقال في قوم الحارث بن عوف وهرم بن سنان :

كرام فلا ذو الضغن يدرك وتره ولا الجارم الجاني عليهم بمسلم (٤٧)
وصنفهم بأنهم كرام عزيزو الجانب ، فمن كان له عندهم ثار لم يدركه منهم لعزم ومنعتهم ، ومن جنى منهم جناية عليهم لم يسلموه لأولياء الجنى عليه ليقنادوا منه ، لعزم وشرفهم ، بل تقع جناية من يجنى منهم هدرأ .

وقال لييد :

أر لم تكن تدري نوار بأننى وصال عقد حبائل جذامها (٥٥)
تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها (٥٦)
فقد خرج في قوله هذا على المألوف من العشاق وذوى الصبابة الذين
يصبرون على هجر عشاقهم ، ويرون مرم حلوا ، وهجرهم وصلا ، وبعدم قربا ،
أما لييد فإنه قادر على أن يملك قلبه ، وعلى أن يجمع أمره ، فهو حازم يصل في
موضع المواصله من كان أهلا لمواصلته ، ويقطع من قطعه ، وهو كثير الترك
لكل مكان لا يرتضيه لإقامته ، لما قد يلحقه فيه من المذلة ، وإن علم أن في
ارتحاله عن ذلك المكان موته ، يريد أنه يفضل الموت في الغربة على
الحياة في وطنه إذا كان في مقامه غضاضة تلحقه . وهذا على الرغم من حرص
الأحرار على عدم مبارحة الديار ، وإن ضاقت بهم أو جارت عليهم ؛ إلى
أن يقول :

وكثيرة غرباؤها مجملولة ترجى نوافلها ويخشى ذامها (٧٠)
غلب تشذر بالدحول كأنها جن البدى^(١) رواسيا أقدامها (٧١)
أنكرت باطلها وبؤت بحقها عندي ولم يفخر على كرامها (٧٢)
ومعناه : رب قبة كثيرة الوفود يجتمع إليها من سائر الآفاق ، ترجل نوافل
هذه القبة ، ويخشى أن ينسب إلى أحد فيها عيب ، لأنه يسير بين الناس كأنه
لكثرة من فيها من شذاذ الآفاق ، وكأن تلك الوفود إبل غلاظ الرقاب ، كناية
عن قوتهم وجسامتهم ، يتوعد بعضهم بعضاً بالعداوات التي بينهم ، وكأنهم الجن

(١) القلب : جمع أغلب وهو الفحل الغليظ الرقبة ، وتشذروعد بعضهم بعضا ، والدحول
جمع ذحل وهو العداوة ، والباء فيه لاسببية ، أى يتوعد بعضهم بعضا ، بسبب الدحول ،
والبدى وادبى عامر .

جراة ومضاء في أمورهم ، ولكن ليبدأ لم يقبل من أحدهم خيراً عليه ، بل أنكره في هذه القبة ، وردده على من حاوله منهم ، وتجاوبت أصداء فخره فيها . وهو يشير بهذا إلى ما كان له مع الربيع بن زياد العبسي بحضرة النعمان بن المنذر .

أما عمرو بن كلثوم ، فقد رأينا أنه لا يقبل الذل ، ولا يرضى الهوان ، وأنه يتحدى ملك الحيرة عمرو بن هند بقوله :

أبا هند فلا تعجل علينا — وأنظرنا نخبرك اليقيناً (٢٣)
بأننا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد رويناً (٢٤)
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن نديننا (٢٥)

يقول للملك : لا تعجل بانتقاصنا ، ولا تطمع فينا ، فإن من شأننا أن ندخل بالرايات غمار الحرب وهي بيض ، ونخرج منها وقد رويت بالدماء ، يريد أنهم فرسان أبطال ، لا يقيمون على ضيم ، وأن أيامهم ظاهرة بين الناس كأنها الغرة في وجه الفرس ، وهي طوال لشدة هولها ، وقد عصينا الملك فيها ، ولم ندخل في طاعته ، لعزتنا وشرفنا الذي يأتي علينا أن نكون عبيداً لغيرنا . إلى أن يقول :

ألا لا يجهلن أحد علينا — فنجهل فوق جهل الجاهليتنا (٥٣)
بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلىكم^(١) فيها قطيناً (٥٤)
بأى مشيئة عمرو بن هند تطيعُ بنا الوشاة وتزدرينا (٥٥)
تهددنا وأوعدنا رويداً . حتى كنا لأملك مقتويناً^(٢) (٥٦)

(١) القيل الملك دون الملك الأعظم وجمه أقبال ، والقطين الخدم ، وهم في غير هذا الموضع سكان المنزل .

(٢) المقتوون الخدام واحدهم مقتوى ، وقال أبو عبيدة : مقتوى للمفرد وغيره والمذكر والمؤنث سواء . وقال الفراء : الرواة والنحويون يمشدون بيت عمرو مقتويناً بالفتح ، كأنه نسب إلى مقتى ، من المقتو ، وهو الخدمة خدمة الملوك خاصة ، ثم إن الشاعر اضطر إلى تخفيف الياء ، فقال « مقتوين » يريد « مقتوين » فإذا قالوا الواحد رجل مقتوى عادوا إلى التشديد .

فإن قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تلينا (٥٧)
يقول : نحن أعزة لا يعلم الناس منا غير ذلك ، فلا ينبغي لأحد أن يجهل
علينا ، فنجهل عليه فوق جهله بنا ، ونزال منه أكثر مما ينال منا ويخاطب
عمرو بن هند بقوله : كيف تطمع أن نسكون خدماً لمن وليت علينا من الأمراء ،
على ما تعلم من عزنا ؟ وكيف تطيع الوشاة فينا وتحتقرنا ، على ما تعلم من قلة صبرنا
على احتمال الضيم وتحمل الأذى ؟ إلى أن يقول له : أقل من تهديك إيانا وتوعدنا ،
وتأت في ذلك ، فما كنا خدمة لأملك ! لقد رأيت أن كل من نازعنا أو أراد منا البتة
خاب وظفرنا به ، فإن قناتنا لا تلين لكاسر ، يريد أنهم لعزهم لا يُنالون ،
ولا يقدر عليهم أحد من البشر . ثم يقول :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا (٩٨)

ألا أبلغ بنى الطلاح عتاً ودُعياً^(١) فكيف وجدتمونا (٩٩)

إذا ما الملكُ سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الدل فينا (١٠٠)

إذا بلغ الفطام لنا صبيّاً تخبر له الجبابر ساجديننا (١٠٤)

يصف قومه بأنه يغلبون على الفاضل من كل شيء ، فيحوزونه ولا يصل
الناس إلى شيء مما يتخيرونه لأنفسهم ، لعزتهم وشرفهم . وإنما ضرب الماء مثلاً
لأنه أعز شيء لديهم ، لقلته مع شدة حاجتهم إليه ، ثم يقول للملك : سل هذين
الحيين من العرب : كيف وجدونا حين جربونا ؟ أشجعاً أم جبناً ؟ وإنما خص
هؤلاء بالسؤال لوقائع كانت بينهم . وإذا بلغ أحد صبياننا وقت الفطام سجدت
له جبابرة غيرنا . ومن آثار هذا الخلق في معلقة الحارث بن حلزة قوله :

أيها الناطق المرقد عتاً عند عمرو وهل لذلك بقاء (٢١)

لا تخلفنا على غراتك إنا قبل ماقدوشى بناء الأعداء (٢٢)

فبقينا على الشناعة تنمى لنا حصون وعزة قصاء (٢٣)

قبل ما اليوم بيضت بعيون الله اس فيها تعيط^(١) وإباء (٢٤)

يقول : أيها المحسن الملك ما يفترية علينا ، ويفريه بمعاقتنا ، لا تحسب أنا جزعون لإغرائك الملك بنا ، فقد يماوشى بنا الأعداء ، فقد مرنا على عداوة الناس ووشاياتهم ، وليس لكذب بقاء . ولقد بقينا على بغض الناس إيانا نزداد عزة وامتناعاً ، ويزدادون غيظاً ، لما يرون من ثبات عزنا ومكانتنا ، ونحن لا نبالى عدوا ولا حسوداً ، فقبل اليوم عظم شأننا على الناس حتى أعمى أبصارهم .

وفى هذه الصور التى رسمها أصحاب المملكات لعزة العرب وإبائه الضيم ما يكشف عن جانب من أهم الجوانب فى أخلاق العرب ، الذين امتنعوا عن التبعية لسيد من السادة أو ملك من الملوك ، اعتزازا بكرامتهم ، وإيثاراً للحرية التى هاموا بها ، وملكت عليهم أمرهم ، وصرفتهم فى الحياة على ذلك الطراز الذى فقدوا فيه صولة الحاكم ، ووحددة الهدف ، وقوة القانون الذى ينظم صلاتهم ومعاملاتهم .

صور أخرى للمجتمع العربى فى المملكات :

(١) صحابة الماء :

كان بعض العرب يحمون مياههم ، فلا يستقى منها ، ولا ينتفع بها أحد ، قال امرؤ القيس فى تشبيه صاحبه :

كبكر القفانة البياض بصفرة غذاها نـمـير الماء غير الحـلـل (٣٦)

(١) الفراء : من قولك غريت بالشئ أغرى به ، والشناعة : والشنآن البغض ، وتنمينا ترفعنا ، والقصاء : الثابتة المنبئة التى لاترام ، ويبيضت بعيون الناس : أعمتها ، والباء زائدة ، والتعيط الارتفاع والامتناع ، واعتاطت رحم الناقة امتنعت عن الحمل .

يقول : إن لون هذه المرأة كالون ببيضة النعامة المخلوط بياضها بصفرة ، وقد غذا هذه المرأة الماء النخير المذهب الصافي ، ودل على صفاء هذا الماء بقوله « غير الحلل » فإن الماء إذا لم يكن حلالا لكل أحد من الناس ، ولم يحمله أحد ، بل كان محميا لقوم معينين ، كان أصفى لكثرتة ، وقلة ملامسة الأيدي له .

(٢) دين الجاهلية :

والمعلقات على طولها لم تعرض لدين العرب وعقائدهم في الجاهلية إلا قليلاً ، وأكثر هذا القليل ورد في معلقة زهير بن سلى ، الذى ذكر تعظيم العرب للكعبة ، وأنهم كانوا يقسمون بها لإثبات صدقهم ، وذلك فى قوله :

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِى طَافَ حَوْلُهُ رجال بنوه من قريش وجُرم (١٧)
يَمِينًا لَنَعْمَ السَّيِّدَانِ وَوُجِدْتُمَا على كل حال من سحيل ومُبرم (١٨)
وفى معلقته إيمان بالله ، ووصف له بأنه يعلم السرّ والنجوى ، وإيمان بالبعث والنشور ، والثواب والعقاب ، وذلك قوله :

فَلَا تَكْتُمُنَّ اللَّهَ مَا فِى نَفْسِكُمْ ليخفى ومهما يُكتم الله يَعْلَمَ (٢٧)
يُؤَخِّرْ فَيُوضِعْ فِى كِتَابٍ فَيُدْخِرْ ليوم الحساب أو يعجل فينقم (٢٨)
يقول : لا تكتموا عن الله ما أضمرتم فى نفوسكم من القدر ونقض الصلح ليخفى على الله ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ومهما كتم الإنسان عن الله شيئاً ، وبالغ فى كتمانة علمه الله ، فإما أن يؤخر عقابه ، أو يعجله فينتقم من صاحبه ، فكل إنسان مجزى بعمله لا محالة . ولا يعلم الغيب إلا الله :

وَأَعْلَمُ مَا فِى الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ ولكننى عن علم ما فى غدٍ عم (٤٩)
وفى المعلقة من ذكر الوثنية ، والإشارة إلى عبادة الأوثان شيء قليل جداً هو الذى أشار إليه امرؤ القيس فى وصفه سرب بقر الوحش :

فَنِّ لَنَا سَرَبٌ كَانَ نَعَاجَهُ عَذَارَى دُؤَارٍ^(١) فِي مُلَاءِ مَذْبَلٍ (٦٨)
يقول : بينما نحن في انتظار صيد إذ عنّا لنا قطع من بقر الوحش كأن إنانه
في السمّ والكتناز اللحم والتبختر في المشى ، عذارى عليهن ملاحف طويلات
الذيول تسحب خلفهنّ ، وهن يظفن حول ذلك العنم « دُؤَار » وهو صنم كان
أهل الجاهلية إذا نأوا عن الكعبة نصبوه وطافوا حوله ، تشبها بالطواف حول
الكعبة .

وفيهما قاييل من الإشارة إلى الرهبان المنقطعين عن الناس وللشعوبين عن
الحياة بعبادة الله ، وذلك في قول امرئ القيس يصف صاحبه بالبهاء
والإشراق :

تَضِيءُ الظَّلامُ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا مَنَارَةٌ تُنْمِئِي رَاهِبٌ مُتَبَلِّلٌ (٤٤)
أى أن نور وجهها يحو ظلام الليل ويطرده ، كما يحو ضوء منارة الراهب ،
وذلك أن الرهبان كان من عادتهم إذا جن الليل أن يجعلوا مصباحاً على أرفع مكان
في صوامعهم ، ليهتدى به إليهم من ضل عن الطريق ، وستره ظلام الليل عن
عيّنه . ومثل ذلك قوله :

أَصَاحُ تَرَى بَرَقًا أَرِيكَ وَمِیْضُهُ كَلْعُ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَمَّلٌ (٧٥)
يَضِيءُ سَنَاءٌ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ أُمَالُ السَّلَیْطِ بِالذُّبَالِ^(٢) الْمَفْزَلُ (٧٦)
أى أن هذا البرق في لمعانه وتحركه كلع اليدين ، وفي تألقه كمصباح راهب
أميلت فتيلته بصب الزيت عليها .

(١) فيه أربع ائاف فتح الدال وضمها مع تشديد الواو وتخفيفها ، وقال صاحب النفاوس
(٣٢/٢) الدوار كككتان وضم الكعبة ، وضم ، وبخفف .

(٢) الحبي السحاب المتراكم ، والمكمل الذى عليه الإكامل ؛ والسليط الزيت عند عامة
العرب ، وعند أهل اليمن دهن السمسم ، والذبال جمع ذبالة ، ومى الفيلة التى تكون فى المراعى .

(٣) الآطام والمقصود :

وفيه دليل على أن بعض العرب في بعض ديارهم كانوا بقيمون الحصون ، ويرفعون الآطام أو الآجام ، وهي أيضاً البيوت المسقوفة . وذلك في قول امرئ القيس :
وتيماء لم يترك بها جذع نخلةٍ ولا أطمًا إلا مشيداً بمعدل (٨١)
وتيماء مدينة كثيرة النخل والتين والعنب بين حوران ومدينة الرسول عليه السلام ، يقول إن ذلك المطر لم بدع حصناً إلا ما كان مشيداً بحصن وصغير فإنه سلم من المطر ، والمشيّد يحتمل أن يكون المبنى بالحصن ، وأن يكون المطول .
(٤) لعب العرب :

وفيه إشارة إلى بعض اللعب التي كان يتسلى بها صبيان العرب ، ومن تلك اللعب « الخاريق » التي ذكرها عمرو بن كلثوم ، الذي ذكر من علامات خفتهم وحذقهم بالضرب أن سيوفهم تشبه « الخاريق » بأيدي الصبيان يلعبون بها ، وذلك في قوله :

كان سيوفنا فينا وفيهم مخاريقٌ بأيدي لاعبين (٤٣)
وذلك أنه كانت لهم لعبة تسمى « الخطرة » ، قال في القاموس : لعب الخطرة أن يحرك « الخراق » تحريكاً . وذكر صاحب الخصة أن « الخراق » حنديل أو نحوه ، يلوى فيضرب به أو يلف فيفزع به . وفي القاموس : « الخراق » المنديل يلف ليضرب به . وفي اللسان : « الخاريق » واحدها « مخراق » ماتلعب به الصبيان من الخرق المقتولة ، واستشهد بيت عمرو بن كلثوم . . وفي الحيوان للجاحظ : الخطرة أن يعمل مخراقاً ، ثم يرمى واحد منهم من خلفه إلى الفريق الآخر ، فإن عجزوا عن أخذه رموا به إليهم ، فإن أخذوه ركبوه . وفي محاضرات الراغب أن الخطرة هي أن يرمى أحد الفريقين بمخراق من خلفه فإن عجزوا عن أخذه رموا به إليهم ، فإن أخذوه ركبوه^(١) .

ومن لعبهم « الخذروف » قال امرؤ القيس في وصف فرصه بالسرعة :

دريـر كـخـذـروـف الـوـليـد أـمـرٌهُ تـتـابـع كـفـيـه بـخـيـط مـوـصـل (٦٣)

أى أن هذا الجواد سريع الجرى كأنه في سرعة عدوه خذروف الصبي وقد أحكت كفاه فتل خيطه ، وتتابعت كفاه بإدارته ، ووصف الخيط بأنه موصل ، لأنه إذا كان على هذه الصفة كان السكف أملاك له وأقوى على إدارته ، وكان ذلك أسرع لحركته ودورانه .

وفي القاموس أن « الخذروف » — على وزن عصفور — شيء بدوَّره العصبي بخيط ، في يديه فيسمع له دوى . وفي اللسان « الخذروف » عوبد مشقوق في وسطه ، يشد بخيط ويمد فيسمع له حفيف ، وهو الذي يسمى « الخرافرة » . وفي التهذيب أن « الخذروف » عود أو قصبة مشقوقة يقرض في وسطها ، ثم يشد بخيط ، فإذا أمرت دار وسمعت له حفيفاً ، يلعب به الصبيان ، ويوصف به الفرس لسرعته ، تقول هو يخذرف بقوامه^(١) .

ومن لعبهم « القالين » جمع قلة ، وهى خشبة يلعب بها الصبيان ، يدبرونها ثم يضربون بها ، ويقال في جمعها « قلات » أيضاً ؛ قال عمرو بن كاثوم :

وما منعَ الظمائنَ مثلُ ضربٍ ترى منه السَّواعد كالقُلَيْنَا (٩٠)

ومن ألعابهم « المفايلة » ، قال طرفة في وصف السفينة :

يشقّ حبابَ الماء حيزومُها بها كما قسم الترابَ المفايلَ باليد

والمفايلة لعبة لفتيان الأعراب ، يخبثون الشيء في التراب ، ثم يقسمونه ، فإذا أخطأ الخطيء قيل له : قال رأيك ! وقال صاحب اللسان : المفايلة ، والفيايل : لعبة للصبيان ، وقيل لعبة لفتيان الأعراب بالتراب ، يخبثون الشيء في التراب ،

ثم يسمونه قسمين ، ثم يقول الخبائي لصاحبه : في أى القسمين هو ؟ فإذا أخطأ قال له : قال رأيك !

قال الليث : يقال : فيال وفيال ، فمن فتح الفاء جملة اسما ، ومن كسرهما جملة مصدرا .

وقال غيره : يقال لهذه اللعبة « الطبن » و « السدر » . وأنشد ابن الأعرابي * بيتن يلعبن حوالى الطبن *

قال ابن برى : والفثال من الفأل بالظفر ، ومن لم يهمز جملة من قال رأيه ، إذا لم يظفر .

(٥) خضاب الرأس :

وفي معلة امرئ إشارة إلى أن بعضهم كان يحنضب شعره بالحناء ، ليخفى شبيهه ويظهر بمظهر الشباب والفتوة . وفي ذلك يقول امرؤ القيس في وصف فرسه :
كأن دماء المساديات بنحره عصارة حنّاء بشيب^(٢) رجل (٦٧)
يصف فرسه ، فيقول : كأن دماء الوحوش على عنق هذا الفرس ما بقى من الحناء على الشعر الأشيب ، يريد أن دماء الصيد على نحره قد جفت وتراكت لكثرتها ، وذلك كناية عن كونه كثير السعى في طلب الصيد ، وأنه لا يفوته منها هارب . قالوا : وليس في تقييد الشيب بكونه رجلا فائدة ، وإنما ذكره لإقامة الوزن والقافية .

وهكذا استطاعت المعلقة أن تنهض بتصوير المجتمع العربى فى الجاهلية فى شتى مناحيه ، وأكثر جهاته ، ولعل فيها من صور المجتمع ما لم نذكره لكثرتة أو لإشارتنا وضعه فى موضعه من الفصل التالى :

(١) الهاديات التقديمات من الوحش ، والنحر الموضع الذى ينحرفه ، أى يذبح ، وهو من الإنسان عمل الفلاة من العنق ، والعصارة ما سال من العصر ، وما بقى من الثفل أيضا .

الفصل الرابع

الفن الشعري في المملقات

في استطاعتنا أن نعد شعر المملقات هو الصورة الكاملة التي انتهت إليها تجارب الفن الشعري عند عرب الجاهلية ، بما اكتمل له من خصائص ذلك الفن كما تصوّره أولئك الشعراء في ذلك الزمن البعيد ، بعد جهود متتابعة بذلها الشعراء في الوصول بذلك الفن إلى درجة النضج والكمال .

ويبدو أن ذلك التصوّر الذي بدت صورته في شعر المملقات كان هو التصوّر الصحيح لحقيقة الفن الشعري ، والدليل على ذلك أن تلك التقاليد التي أرسى قواعد أولئك الشعراء كانت هي التقاليد التي سار عليها الشعر العربي في سائر العصور ، ولم يستطع الخروج عليها ، إذا استثنينا بعض الصفات العرضية التي كانت تملئها الفروق الفردية بين شاعر وشاعر ، وملابس الظروف وعوامل البيئة ، واختلاف التجارب التي كان الشعراء يعبرون عنها في تلك العصور ، وإذا استثنينا بعض محاولات للتجديد لم تستطع أن تبعد عن تلك التقاليد ، ولم يكن لها من الأسباب ما يمكنها من الرسوخ الذي يتيح لها أن تتخذ صورة التقاليد الجديدة التي تبنى على أنقاض التقاليد القديمة التي أرسى قواعد شعراء الجاهلية ، وبرزت صورتها الكاملة في شعر المملقات .

وإذا كان شعراء العرب في مختلف العصور قد نظروا إلى تلك القصائد نظرتهم إلى المثال الذي يحتذونه وينسجون على منواله ، فإن النقاد أيضاً كانوا ينظرون إليها تلك النظرة ، ويتخذون منها نماذج للإجادة وللإتقان الفني ، وبقيوسون بها ما يعرض عليهم من آثار الشعراء ، ويؤلفون كتبهم في النقد على ضوء تلك

الخصائص التي فطنوا إليها في ذلك الشعر القديم ؛ لأن الدراسة النقدية ينبغي أن تبدأ من نقطة ثابتة ، وتلك النقطة الثابتة هي مجموعة التقاليد الموروثة عن رواد الأدب القدماء الذين اعترف لهم الناس بالسبق والإجادة .

وقد فسر بعض النقاد ذلك بأن المصادر الرئيسية التي يستقى منها النقد ثلاثة ، هي : فكرة الطبيعة ، وفكرة آثار السلف ، وفكرة العقل . ولا بد من الرجوع إلى هذه الثلاثة جميعاً .

ولكن ليس معنى هذا أن الأديب مطالب بأن يكون موزعاً بين هذه الثلاثة ، لأن سلطان كل من هذه المراجع مثبت لسلطان الآخرين . فالواجب أولاً أن تتبع الطبيعة ، ولكن لكي يتسنى ذلك لابد من دراسة آثار القدماء ، لأن القدماء كانوا على وفاق مع الطبيعة ، وليس هناك خلاف بين الطبيعة وبين الشعر القديم ، ودراسة شعر القدماء معناها دراسة الفن الذي ينطبق دائماً على العقل ، فإن الدرس الذي نتعلمه من القدماء هو أن الشعر يجب أن يخضع للقواعد التي يملها العقل ، فإن الطبيعة نفسها هي عين العقل ، وإذا خيل لنا أن الطبيعة تجري على غير سنن العقل فإن إدراكنا هو الذي ضل عن طريق الصواب .

والشعراء الأول قد صوروا عالماً منطوياً على العقل ، لأنهم كانوا يعرفون حقيقة الطبيعة . وقواعد الصناعة التي كانوا خاضعين لها لم تكن مما يملى على الطبيعة ، بل كانت مما يستمد من الطبيعة ، فهي قواعد استكشفت ولم تخترع ، وقوانين كانت الطبيعة هي التي أمثلتها ، فهي لا تنطوي إلا على حقائق طبيعية ، لأنها مطابقة للعقل^(١) .

وكذلك خلف الشعراء مجموعة من التقاليد منها ما يتصل بالأصول ، ونعني بالأصول تلك التي لا يسمى الكلام شعراً بدونها . فما يعتبر أصلاً موسيقى

(١) قواعد النقد الأدبي ، لاسل ابركرمي ١٦٤ .

الشعر التي تعرف بالأوزان ، وتلك الحروف التي ينتهي بها البيت الأول من القصيدة ، وتتكرر في الموضع نفسه في سائر أبياتها ، والتي تسمى « القافية » . وهناك فروع تشترك في الشعر وغيره ، وإن كانت لها خصائص تختلف عنها في غيره ^(١) .

وقد أطلق النقاد والعلماء على مجموع تلك التقاليد اسم « عمود الشعر » وعدّوها علامة الطبع ، ومدحوا بإصابتها ، وعابوا بالخروج عليها . وقد أحصى المرزوقي تلك الخصائص التي سميت « عمود الشعر » سبعة ، وهي :

- (١) شرف المعنى وصحته .
 - (٢) جزالة اللفظ واستقامته .
 - (٣) الإصابة في الوصف .
 - ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الآيات .
 - (٤) المقاربة في التشبيه .
 - (٥) التحام أجزاء النظم والنشامها على تحيّر من لذيذ الوزن .
 - (٦) مناسبة المستعار منه للمستعار له .
 - (٧) مشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية ، حتى لا منافرة بينهما .
- فهذه سبعة أبواب هي « عمود الشعر » ولكل باب منها معيار ^(٢) .

وقد ذكر تلك الخصائص صاحب كتاب « البرهان في وجوه البيان » بما يقرب مما ذكره المرزوقي ، في قوله : والذي يسمى به الشعر قائماً ، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسنات رائقة ، صحة للمقابلة ، وحسن النظم ، وجزالة اللفظ ،

(١) انظر كتابنا (قدامة بن جعفر والنقد الأدبي) صفحة ٣٧٤ من الطبعة الثانية .

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٩ .

واعتدال الوزن ، وإصابة التشبيه ، وجودة التفصيل ، وقلة التكلف ، والمشاكلة في المطابقة . وأضداد هذا كله معيبة تمنعها الآذان ، وتخرج عن وصف البيان^(١) .

وتلك الخصائص إنما مأخذها الشعر القديم التي تعد « المعلقات » صورته المثلى كما أسلفنا . ولذلك اجتهد الشعراء في صراعاتها ، واجتهد النقاد في البحث عنها إذا ما أرادوا الحكم على ما يعرض لهم من آثار الشعراء الذين جاءوا بعد الشعراء الأول . على أن هذه الخصائص لم تجتمع كلها لشاعر واحد من شعراء المعلقات ، وإنما أخذت من مجموع شعرهم كله ، وفي بعض شعر المعلقات ما يتعارض هو وبعض هذه الأصول في ناحية من نواحيه ، وعدّ ذلك عيباً من عيوب الشعر ، وإنما فطن لهذا العيب بمعارضته بمثله من شعر المعلقات الذي خلا من ذلك العيب .

ومن ناحية أخرى ليست هذه الخصائص السبع هي كل ما في الفن الشعري من المحاسن وليست هي وحدها مظاهر الفنية في ذلك الفن الجميل ، بل إن إلى جانبها خصائص أخرى ، وفي المعلقات كثير من هذه الخصائص .

ولابد من تنظيم لدراسة الفنية في شعر المعلقات ، ولذلك نحاول البحث عن معالم تلك الفنية في النواحي الآتية :

(١) ناحية أغراض المعلقات وفنونها .

(٢) ناحية ألفاظها وأساليبها .

(٣) ناحية أوزانها وقوافيها .

(٤) ناحية معانيها وأخيلتها .

(١) كتاب البرهان في وجوه البيان ، المطبوع خطأ باسم « نقد النثر » ، ٨٤ .

١ - أغراض المعلقة وفنونها

وقد ذكرنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة أغراض كل معلقة من المعلقة السبع على حدة ، وتبعنا أبيات كل معلقة ، وما عبّرت عنه من أغراض الشعر ، ويعيننا هنا أن نجمع تلك الأغراض ، ونوحّد بينها ، وننظر إلى كل غرض منها وتتبعه في جميع المعلقة .

وقبل ذلك نشير إلى اختلاف الأدباء والعلماء والنقاد في أبواب الشعر العربي . ونقل ابن رشيق عن بعض العلماء قولهم : بنى الشعر على أربعة أركان ، وهي : المدح ، والهجاء ، والنسيب ، والثناء .

وقالوا : قواعد الشعر أربع : الرغبة ، والرغبة ، والطرب ، والغضب . فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرغبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب للموجع .

وقال علي بن عيسى الرماني : أكثر ما تجرى عليه أغراض الشعر خمسة : النسيب ، والمدح ، والهجاء ، والفخر ، والوصف - ويدخل التشبيه والاستعارة في باب الوصف .

وقال عبد الملك بن مروان لأرطاة بن سمية : أتقول الشعر اليوم ؟ فقال : والله ما أطرب ولا أغضب ولا أشرب ولا أرغب ، وإنما يجيء الشعر عند إحداهن .

وقال عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي : يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح ، والهجاء ، والحكمة ، والتهنؤ . ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون : فيكون في المديح المرائي والافتخار والشكر ، ثم يكون من الهجاء القدم والعتاب

والاستبطاء ، ومن الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهو الفزل والطرب وصفة الخمر والمخمور .

وقال قوم : الشعر كله نوعان : مدح ، وهجاء .

فإلى المدح يرجع الرثاء والافتخار والتشبيب ، وما تعلق بذلك من محمود الوصف كصفات الجول والآثار والتشبيهات الحسان ، وكذلك تحسين الأخلاق كالأمثال والحكم والمواعظ والزهد في الدنيا والقناعة .

والهجاء ضد ذلك كله . غير أن العتاب حال بين حالين ، فهو طرف لكل واحد منهما ؛ وكذلك الإغراء ليس بمدح ولا هجاء^(١) .

وقد يوّب أبو تمام الأشعار التي اختارها في ديوان الحماسة في عشرة أبواب هي (١) باب الحماسة (٢) باب الرائي (٣) باب الأدب (٤) باب النسيب (٥) باب الهجاء (٦) باب المديح (٧) باب الصفات (٨) باب السيروالنعاس (٩) باب الملح (١٠) باب ذم النساء . وأهم هذه الأبواب هي الأبواب السبعة التي ذكرها أولا ، أما الأبواب الثلاثة الأخيرة فإنها تدخل في الأبواب السبعة السابقة .

أما الأوروبيون فإن الشعر عندهم ثلاثة أبواب :

(١) الشعر الغنائي أو الوجداني « Lyric » .

(٢) الشعر القصصي أو شعر الملاحم « Epic » .

(٣) الشعر التمثيلي أو المسرحي « Dramatic » .

والأول تعبير الشاعر عن نفسه ، ووصف أحاسيسه وعواطفه وانفعالاته .

والثاني يصور أحداثنا من عصور تاريخية ، ويشرح ما يسود هذه العصور من

آراء وأفكار ومعتقدات . والثالث شعر يضعونه في قصص خيالية أو واقعية تهدف إلى العظة ، وتوجيه الجماهير الوجهة النافعة لأنفسهم وأوطانهم ، وهذا الشعر يعتمد على الحوار والحركة ويصحبهما الغناء .

ولم نجد في الشعر العربي القديم شيئاً يدل على معرفة العرب بالشعر التمثيلي، أما الشعر القصصي على هذا الوصف الذي وصفوه به فإن له آثاراً في شعر المعلقات . وقد سبق أن فصلنا القول فيما اشتملت عليه معلقات زهير بن أبي سلمى وعنزة ابن شداد ، وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة من إشارات تاريخية إلى الأحداث والوقائع التي كانت بين القبائل العربية في العصر الجاهلي . وقد تناول زهير وعنزة بعض تلك الأحداث التي وقعت بين قبيلتي عبس وذبيان ، كما تناول عمرو ابن كلثوم والحارث بن حلزة بعض الأحداث التي كانت بين بني بكر وبني تغلب . وفي هذه القصائد وصف للصراع القبلي والمنافسة على المجد والغلبة بين العشائر والجماعات ، وفيها حديث عن بعض الأبطال الذين أبلوا في تلك الوقائع من إصرار إلى الحرب والفتنة، أو من سعى إلى الصلح ، وكف الناس عن القتال . كما ذكر في أثناء ذلك شيء من عاداتهم في الحرب وتقاليدهم ، وقد مضى تفصيل تلك الأحداث، وما أبلى فيها أبطال العرب من ضروب البسالة والنجدة والبذل والتضحية .

على أن ذلك الذي تضمنته المعلقات من هذا القبيل لا يطابق مفهوم الشعر القصصي عندهم كل المطابقة كما هو في منظومات هو ميروس ؛ فإن ذكر الأبطال كان ينتبع عندهم حياة البطل ، ويصف الأعمال الجيدة التي استطاع القيام بها في تفصيل وإسهاب ، وقد حيكت حول أولئك الأبطال قصص خيالية وخرافات أصبحت عقائد للناس في تلك العصور التي صورها الشعر القصصي ؛ وليس شيء من ذلك في المعلقات ، أو في الشعر العربي كله ، أو فيما حفظه الزمن واستطاع أن يصل إلينا في الأقل . . .

ويبقى بعد ذلك أن أكثر الشعر العربي إنما هو من الشعر الوجداني في تقسيم الأوربيين ، وأن هذا الشعر موزع بين الأغراض التي ذكرها علماء الأدب العربي ونقاد الشعر . وكذلك توزع شعر المعلقات بين هذه الأبواب والأغراض والفنون ، كما سنوضح ذلك في الصفحات التالية .

(١) باب الوصف :

ولعل هذا الغرض كان أهم الأغراض التي عالجتها المعلقات ، ولم تخل منه معلقة منها ، بل إن المعلقة الواحدة تشتمل على كثير من الأوصاف لموصوفات متعددة مما وقع تحت حس الشعراء من مشاهد الطبيعة وصور الحياة المختلفة ، فقد وصفوا أرضهم وما فيها من الزرع والنبات والمياه ، وما على ظهرها من الوهاد والهضاب والجبال ، وما يدب عليها من صنوف الحيوان . كما وصفوا السماء وما يزينها من نجوم وكواكب ، وما يحجبها من سحب ، وما يسقط منها من غيث ، وما يلتصع فيها من برق ، كما وصفوا الليل والنهار ، ووصفوا أنفسهم في تصرف أحوالها ، وفي رضاها وسخطها .

فما جاء في المعلقات من صفات الحيوان قول امرئ القيس في وصف فرسه :

وقد اغتدى والطير في وُكُنَاتِهَا بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكرٌّ مفرَّ مقبلٍ مدبرٍ معاً كجلهود صخرٍ حطَّه السيلُ من علٍ
كُمَيْتٍ بزلِّ اللبدُ عن حالٍ متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل^(١)
على الذبل جياش كأنَّ اهتزامه إذا جاش فيه تخيه غلى مرَّجل^(٢)

(١) الكميت الذي في لونه كتمه ، وهي حرة مشوبة بسواد . حال متن الفرس وسط ظهره . الصفواء الحجر الصلد . المتنزل المطر .

(٢) الذبل الذبول والمراد به هنا الضمور . جياش مبالغة جاش من جاش الرادى إذا فخر ، وجاش البحر إذا اضطربت أمواجه . الاهتزام صوت جرى الفرس .

مَسَحَ إِذَا مَا السَّابِغَاتُ عَلَى الْوَتَى أَنْزَلَ الْغُبَارَ بِالسَّكْدِيدِ الْمُرْكَلِ^(١)
 يَزُلُّ الْغَلَامُ الْخِيفُ عَنْ صَهَوَاتِهِ وَيُلَوِي بِأَثْوَابِ الْعَنِيفِ الْمُثَقَّلِ
 دَرِيرٌ كَحْدُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ تَقَابِعُ كَفَيْهِ بِخَيْطِ مُوَصَّلِ
 لَهُ أَبْطَلَا ظَلِيٍّ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِزْخَاءِ سَرْحَانٍ وَتَقَرِيبُ تَنْفُلِ^(٢)
 ضَالِيعٌ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدًّا فَرْجُهُ بِضَافٍ فَوَيْقَ الْأَرْضِ لَيْسَ بِالْأَعْزَلِ^(٣)
 كَانَ عَلَى الْمُتَتَبِينَ مِنْهُ إِذَا انْتَحَى مَدَاكَ عُرُوسٍ أَوْ صَلَايَةَ حَنْظَلِ^(٤)
 كَانَ دِمَاءُ الْمَادَايَاتِ بِنَحْرِهِ عَصَاةُ حَنَاءٍ بِشَيْبِ مُرْجَلِ^(٥)
 فَعَادَى عِدَاءَ بَيْنِ ثُورٍ وَنَعَجَةٍ دَرَاكًا فَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فِيغْسَلِ
 وَرُحْنَا يَكَادُ الْطَرَفُ يَقْصُرُ دُونَهُ مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسْفُلِ
 فَبَاتَ عَلَيْهِ سَرْجُهُ وَلِجْسَامُهُ وَبَاتَ بَعِينِي قَائِمًا غَيْرَ مُرْسَلِ

فقد وصفه في هذه الأبيات وصفا مستقصيا ، ذكر فيه صلابه جسمه وسرعته ، وقدرته على الكرّ والفرّ والإقدام والإحجام ، على حسب ما يهوى راكبه ، ووازن بينه وبين غيره ، ووصف أجزاء جسمه ، وما يفعل براكبه إذا

(١) المسح السحاح ، يقال : مسح الماء وغيره صبه ، ودرس سحاح كأنه يصب الجرى صبا السابحات الخيل تعدو فتعد أعناقها تستعين بذلك على العدو كالذي يسبح في الماء . الوتى الكلال والإعياء . السكديد الأرض المسكدودة بمخافر الخيل . المركل الذي كد بمخافر الدواب من الركل وهو الضرب .

(٢) أبطلا الظلي خاصرتاه . الإزخاء ضرب من العدو : التنفل ولد الثعلب .

(٣) الضليع الفرس التام الخلق . الأعزل من الخيل الذي يقع ذنبه في جانب ، وذلك عادة لاخلقه وهو عيب ، ولذلك نفاه عنه .

(٤) انتحى اعتمد على أحد شقيه . المداك حجر يسحق عليه الطيب . الصلاية الحجر .

(٥) الماديات التقدّمات من الوحش .

كان خفيفاً وإذا كان ثقيلًا ، وبالع في ذلك بما شاء .

وجعل طرفه من أمانيه الثلاث ركوب فرس هذه صفاته في قوله :

وكرئى إذا نادى المضافُ مُحَنَّبًا كسيدر الغضا زُهَّته المتورِّد^(١)

وقال لبيد بصف فرسه التي يحمى بها حيمه وعشيرته :

ولقد حميتُ الحىَّ نَحْمَلُ شِكَاكِي فَرُطٌ وشاحي إذ غَدَوْتُ لجامها^(٢)

فعلوتُ مرتقبًا على ذى هَبْوَةٍ حَرَجٌ إلى أعلامهن قَتَامُها^(٣)

حتى إذا أَلَقْتُ يَدًا في كافرٍ وَأَجَنُّ عَوْرَاتِ النُّغُورِ ظَلَامُها^(٤)

أَسْهَاتُ وانتصبتُ كجذع منيفةٍ جرداءٍ بِحَصَرٍ دُونَهَا جُرَامُها^(٥)

رَفَعْتُها طَرَدَ النِّعَامِ وَشَلُّهُ حَتَّى إِذَا سَخَنْتُ وَخَفَّ عَظَامُها^(٦)

قلقتُ رحالَها وأسبل نحرها وابتلَّ من زَبَدِ الحِمِيمِ حِزَامُها^(٧)

ترقى وتطمئنُ في العِنانِ وتنتحى وَرَدَ الحَامَةِ إِذْ أَجَدَّ حَمَامُها^(٨)

(١) المحبب الذى فى يده انحاء . السيد الذئب . النضا شجر ، وذئاب الغضا أشد ما تكون ضراوة ، ولذلك يضرب بها المثل ، فيقال أضرب من ذئب الغضا . المتورود الوارد على الماء .

(٢) الشكة السلاح . فرط فرس متقدمة سابقة . الوشاح فوطة تجعل على العاتق .
(٣) المرتقب بالفتح المسكان وبالسكسر الذى يرقب أصحابه ويحميهم . الهبوة الهبة وذو الهبوة الجبل أو الأرض الهبة . الحرج المتصق الثابت . القمام القبار .

(٤) الضمير فى ألفت للشمس . السكاقر الليل . أجن ستر .

(٥) أسهات أتيت السهل . منيفة طويلة مشرفة . الجرداء النخلة التى يجرد كرشها ويلقيها بحصر يضيق . الجرام الذين يقطعون ماعلى النخلة من التمر .

(٦) الطرد الحضر الشديد . سخنت عرفت .

(٧) قلقت اضطربت . أسبل سال . الحميم العرق ، وفى غير هذا الموضع الماء الحار .

(٨) ترقى تصعد . تطمن فى العنان تعتمد فيه . الورود الورود .

وقال عمرو بن كلثوم :

وَنَحْمَلُنَا غِدَاةَ الرِّوْعِ جُرْدُ عُرْفِنَ لَنَا نَقَائِدَ وَافْتُلَيْنَا^(١)
وَرَدَّنَ دَوَارِعًا وَخَرَجْنَ شُغْمًا كَأَمْثَالِ الرِّصَائِعِ قَدْ بَلَيْنَا^(٢)
وَرَثْنَاهُنَّ عَنْ آبَاءِ صَدَقٍ وَوَرُثْنَاهَا إِذَا مُتْنَا بَيْنَنَا
ووصف عنتره فرسه في أكثر من موضع في قوله موازنا بين حاله وحال
صاحبه :

نَمْسَى وَتَصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ وَأَيْتُ فَوْقَ مَرَاةٍ أَدَمَ مُلَاجِمٍ
وَحَشِيَّتِي مَرْجٌ عَلَى عَيْلِ الشَّوَى نَهْدُ مَرَاكِكِهِ نَبِيلَ الْحَزَمِ^(٣)
ويصفه في مواقف القتال بقوله :

إِذَا لَا أَزَالَ عَلَى رِحَالِهِ سَابِحٍ نَهْدُ تَعَاوُرِهِ السَّكْمَاءُ مُكَلَّمٍ^(٤)
طَوَّارًا بِجُرْدٍ لِلطَّمَّانِ وَتَارَةً يَأْوِي إِلَى حَصِيدِ الْيَسَى عَرَمَرَمٍ^(٥)
وقوله :

يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرَّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بَيْرٍ فِي لَبَانِ الْأَدَمِ^(٦)

(١) النقائد جمع نقيضة أى استنفذت من قوم آخرين . اثنتين اصطفتين واثنتين .

(٢) الدارح الذى عليه الدرع ، ودروع الخيل ما يجعل عليها من السكباء . الرصائع جمع رصيعة عقدة العنان على قذال الفرس .

(٣) العيل الضخم . الشوى الأطراف والقوائم . النهْدُ العالى المشرف . المراكل جمع مركل موضع الركل وهو الضرب بالرجل . النبيل الصمين . الحزم موضع الحزام من جسم الدابة .

(٤) تعاوره السكماء ضربوه واحداً بعد واحد ،

(٥) حصد القصى جيش كثير القسى . المرمم الكثير .

(٦) الأشطان جمع شطن وهو جبل البئر . اللبان الصدر .

مازلت أرميهم بشفرة نحره ولبأته حتى تسربل بالدم
 فازور من وقع القنا بلبائه وشكا إلى بعثه وتحمم^(١)
 لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكن لو علم الكلام مكلّى
 أما الناقة فقد شغل وصفها جزءاً ظاهراً من معقدة طرفة ، وذلك في قوله :
 وإنى لأمضى الهم عند احتضاره بموجاء مير قال تروح وتفتدى^(٢)
 أمون كألواح الإران نصائها على لاحب كأنه ظهر رُجْدِ^(٣)
 جمالية وجفاء تردى كأنها سفنجة تبرى لأزعر أريد^(٤)
 تبارى عتاقاً ناجيات وأتبع وظيفاً وظيفاً فوق موزر مُعَبِّدِ^(٥)
 تربعت القتين في الشول ترعى حدائق مولى الأميرق أريد^(٦)

(١) ازورمال . المحمة صوت الفرس كأنه الشكوى .

(٢) أمضى أفقد . الهم العزم والإرادة . احتضاره حضوره . الموجاء الناقة الضامر .
 مرقال من الإرقال وهو ضرب من المشى بين السير والعدو .

(٣) أمون مأمون عثاها . الإران تابوت الموتى كانوا يحملون فيه ساداتهم وكبراءهم .
 نصائها زجرتها . اللاحب الطريق المنقاد لآخرة فيه . البرجد كساء مخطط .

(٤) جمالية تشبه الجمل في قوة أعضائها ووثاقة خافها . الوجفاء العظيمة الوجفات . تردى
 ترجم الأرض بحوافرها أو تسير بين العدو والمشي . تبرى تمرض . السفنجة النعامة . الأزعر
 ذكر النعام . الأريد الذى لونه كلون التراب .

(٥) ناجيات جم ناجية وهى السريعة فى سيرها . العتاق السكرام . الوظيف ما بين الرسغ
 إلى الركبة . الموزر المستوى لأنه يمار عليه أى يتحرك ذهاباً وإياباً .

(٦) تربعت أقامت . القفان تشبة قف وهو ما غلظ من الأرض وارتفع فلم يبلغ أن
 يكون جبلاً ، والقف واحد من أودية المدينة . الشول جمع شائلة وهى التى قل لبنها وتقلص
 ضرعها . المولى الذى أصابه الولى وهو المطر الثانى من أمطار السنة ، لأنه يلى الوسمى وهو المطر
 الأول . الأسرة جمع سراًفضل محل فى الوادى . الأغيد فى الأصل الوسنان المائل العنق ، وللراد
 به هنا لين الخلق .

- تَرْبِيعُ إِلَى صَوْتِ الْمُهَيْبِ وَتَتَقَى بَذَى خُصَلِ رَوْعَاتٍ أَلْفَ مَلْبَدٍ^(١)
 كَانَ جَنَاحِي مَضْرَحِي تَكْنُفَا حِفَاقِيهِ شَكَا فِي الْعَسِيبِ بِمِرْدٍ^(٢)
 فَطَوْرًا بِهِ خَافَ الزُّمَيْلُ وَتَارَةً عَلَى حَشَفِ كَالْشَّنِّ ذَاوِرٍ مَجْدِدٍ^(٣)
 لَهَا لِحْذَانٍ أَكَلَ النِّحْضُ فِيهِمَا كَأَنَّهُمَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدٍ^(٤)
 وَطَى مَحَالٍ كَالْحِنِيِّ خُلُوفُهُ وَأَجْرَنَةُ لَزَتْ بِدَأَى مَنَصْدٍ^(٥)
 كَانَ كِنَامَتِي ضَالَّةً يَكْنُفَانِهَا وَأَطْرَقَتِي تَحْتَ صَلْبٍ مُؤَيَّدٍ^(٦)
 لَهَا مِرْفَقَانِ أَفْتَلَانِ كَأَنَّهُمَا تَمَرٌ بِسَلَمَى دَالِجٍ مَتَشَدِّدٍ^(٧)
 كَفَنُورَةُ الرُّومِيِّ أَقْسَمَ رُبُّهَا لَتَكْتَنِفُنِ حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدٍ^(٨)

(١) تربيع ترجع . المهيب الهامى . ذو خصل الذنب . روعات فزعات . الألف من الجبال ما كانت حرته شديدة يشوبها سواد . الملبد الذى يضرب بذنبه من الهياج حتى تلبد بوله عليه .

(٢) المضرحى النسور المتبق أو الصقر الطويل الجناح . شكا غرزا . العسيب الذنب . المرد ما يخرز به .

(٣) الزميل الرديف . الحشف الضرع البالى . الشن القرية الخلق . المذاوى الدابل . المجدد المقطع أى الذى انقطع لبنه .

(٤) النحض اللحم المسكنز . المنيف العالى . مرد مملى مصقول أو مطول .

(٥) الطى البئر المظوية أى المبنية . المحال فقار الظهر . الخلوف مآخيز الأضلاع واحدها خلف الأجرنة مقدم أعناق الإبل . لزت ألصقت الرأى من البعير الموضع الذى تقع عليه ظلفة الرجل فتعقره .

(٦) الكناس البيت الذى يتخذة الوحش فى أصل شجرة . الضالة شجرة الصدر البرى الأطر العطف . مؤيد مقوى .

(٧) المرفق موصل الذراع من العضد . أفتلان متباعدان عن جنبهما . العلم الدلو لها عروة واحدة . الدالج الذى يعيش بالدلو من رأس البئر إلى الخوض حتى يفرغها فيه . المتشدد الشديد القوى .

(٨) لتكتنفن ليحاطن بها . القرمذ ضرب من الحجارة يوقد عليها حتى إذا نضج قرمذ به أى طلى ، وهو الذى يعرف بالجير أو الكلس ؛ أو هو الأجر .

صهاية العُثْنُونِ مَوْجَدَةُ الْقَرَا بعيدةُ وَخْدِ الرَّجُلِ مَوَّارَةُ الْيَدِ^(١)
أَمَرْتُ يَدَاهَا فَتَلَّ شَرْزُرٌ وَأَجْنَحْتُ لها عضداها في سَقِيفٍ مُسْنَدِ^(٢)
جَنُوحٌ دَفَاقٌ عَنْدَكُ نَمِ افْرِعَتْ لها كَتِفَاهَا فِي مُعَالَى مَصْعَدِ^(٣)
كَأَنَّ عُلُوبَ النَّسَمِ فِي دَائِيَّتِهَا مواردُ مَنْ خَلَّتْكَاءَ فِي ظَهْرِ قَرَدَدِ^(٤)
تَلَاقَى وَأَحْيَانًا تَبِينُ كَأَنَّهَا بذائقُ غَرِيٍّ فِي قَيْصِ مُقَدَّدِ^(٥)
وَأَتْلَعُ نَهَاسٌ إِذَا صَعَدَتْ بِهِ كَسْكَانُ بَوْصِيٍّ بِدَجَلَةِ مُصْعَدِ^(٦)
وَجِجْمَةٌ مِثْلَ الْعَلَاةِ كَأَنَّمَا وَعَى الْمَلْتَقَى مِنْهَا إِلَى حَرْفِ مَبْرَدِ^(٧)
وَحَدَّ كَقَرطاسِ الشَّامَى وَمَشْفَرٍّ كَسَبَتْ الْبِمَانِي قَدَّهُ لَمْ يُجَرَّدِ^(٨)
وَعَيْنَانِ كَالْمَاوِيَّتَيْنِ اسْتَكْنَتَا

بِكَمْفٍ حَبَاجِي صَخْرَةٍ قَلْتُ مَوْرِدِ^(٩)

-
- (١) صهاية في لونها صهبة . العُثْنُون شعيرات طوال تحت حنك البعير . موجدة قوية القرا الظاهر . مواردة كثيرة المور وهو الحركة .
- (٢) أمرت يداها أي قتلنا قتلًا محكمًا ، والقتل الشزر ما كان إلى فوق ، خلاف دور المنزل الإجناح الإمالة : المسند الذي أحسند بهضه إلى بعض ؟
- (٣) جنوح تعتمد على أحد شقيها . دفاق أي تندفق في سيرها . العندل الضخمة الرأس أفرعت أشرفت ورفعت . معالي مصعد أي جسم مرفوع بعيد عن الأرض .
- (٤) العلوب الأنار جمع علب الفصح السير يسج عريضا ليكون على صدر البعير . الدأيات خرزات مقدم الظهر . الموارد طريق الورد إلى الماء : الخلفاء الصخرة التي ليس فيها وسم ولا كسر . القردد الأرض المستوية الصلبة .
- (٥) البنائيق جمع بنيةق لبنة القميص أو جربانه .
- (٦) الأتلع العنق الطويل . النهاس كثير النهوض . البوصى ضرب من السفن . مصعد سائر
- (٧) العلاة السندان . وعى انضم واجتمع .
- (٨) المشفر للبعير كالشفة للإنسان . السبت جلد البقر إذا دبغ بالقرظ . لم يجرّد أي من شعره
- (٩) الماويتان ثنية ماوية وهي المراكاة : الحجاج العظم الذي ينبت عليه الحاجب . القلت النقرة تكون في الصخرة .

طحورانَ عُوَّارَ القذى فتراها ككحولتى مذعورة أم فرقد^(١)
 وصادقنا سمع التوجس للسرى لهجيس خفى^٢ أو لصوت مندد^(٣)
 مؤلَّتَانِ تعرف العتق فيهما كسامتَي شاةٍ بحومل مفرد^(٤)
 وأزوع نباض^٥ أخذ ملهم كرداة صخر في صفيح مصد^(٦)
 وأعلم مخروت من الأنف مارن^٧ عتيق متى ترجم به الأرض تزد^(٨)
 وإن شئت لم رُقِل وإن شئت أرقلت مخافة ملوى^٩ من القد محصد^(١٠)
 وإن شئت ساعى واسط الكور رأسيها وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد^(١١)

وفي هذا من الدقة والاستقصاء في الوصف ما لا نرى له كثيراً من الأمثلة عند
 أمهر الشعراء الوصافين ، فقد أتى على شرح أحوال الناقة في سيرها وحركاتها ،
 وفصل أجزاء جسمها ، وشبهها بتلك التشبيهات التي تضيف إلى الوصف المقصود
 أوصافاً آخر ، لا تقل عنه جودة ولا استقصاء .

وليبد قادر على قطع من يتلاعب بهواه ، ومن يصله إذا شاء ويصرمه إذا أراد :

-
- (١) طحوران من الطهر وهو الدفع والإبعاد . العوار والقذى واحد وهو الرمس
 الذي يكون في العين . ككحولتى مذعورة بقرة وحشية أربعت . الفرقد ولد البقرة الوحشية .
 (٢) التوجس التسمع إلى الصوت الخفى . المهجس الصوت الخفى المندد العالي .
 (٣) المؤل المحدد . الشاة هنا الثور الوحشى .
 (٤) الأزوع الفؤاد الذكى . النباض الكثير الحركة . أخذ خفيف . ملهم مجتمعه المرداة
 الصخرة التي تردى بها الصخور أى تكسر بها . المصد المحكم الموثق .
 (٥) أعلم أى مشفر أعلم ، والأعلم المشقوق الشفة العليا . المخروت المشقوق المارن المالن
 من قصبة الأنف . عتيق جميل . ترجم تفرب .
 (٦) الإرقال بين السير والعدو . التوى المقتول . القد سير يقدهن جلد غير مدبوغ .
 (٧) الكور الرجل بأداته . عامت سبعت . بضعيها : بضحيها . النجاء الإمراع في السير .
 الخفيدد ذكر النعام .

يطليح أسفارِ ركنٍ بقيّةٌ منها فأحنقِ صُلْبها وسنامُها^(١)
 وإذا تَنالَى لَحْمُها وتَحَسَّرَتْ وتقطعتْ بعدَ الكلالِ خدامُها^(٢)
 فلها هَبَابٌ في الزَّمَامِ كأنّها صهباءُ خَفَّ مع الجنوبِ جَهاُمُها^(٣)
 ثم يأخذ في تشبيهها بحمار الوحش ، ويستطرد في وصفه ، حتى يصبح ذلك
 غرضاً آخر من أغراض معلقته ؛ إلى أن يقول :

فبتلك إذ رقص اللوامعُ بالضجّةِ واجتَابَ أَرْدِيَةَ السَّرَابِ إكَامُها^(٤)
 أَقْضَى اللَّبَانَةَ لَا أَقْرُطَ رِيْبَةً أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحَاجَةٍ لَوَامُها
 وعنقرة يستبعد الوصول إلى ديار حبيته على مثل الناقاة التي وصفها بتلك
 الأوصاف :

هَلْ تُبْلَغَنِي دَرَاها شَدْنِيَّةٌ لَعْنَتْ بِمَحْرُومِ الشَّرَابِ مَصْرُمُ^(٥)
 خَطَارَةُ غَبِّ الشَّرَى زِيَاةٌ تَطِيسُ الْإِكَامَ بِوَخْدِ خَفِّ مَيْمِ^(٦)

-
- (١) الطليح : الذي أجهده السير وأهزله . أحنق : ضمير ورق .
 (٢) تنالى لحما ارتفع وذهب . تحسرت : انكشفت عظامها . الخدام جمع خدمة سير يشد
 في رسغ البعير .
 (٣) الهباب الشاطئ . الصهباء : سحابة في لونها صهباء أي حمرة . خف : أسرع . الجهام
 السحاب : أدنى لا ماء فيه .
 (٤) رقص ارتفع وانخفض . اللوامع : الآل . اجتاب : لبس . الإكام جمع أكمة وهي
 للسكان المرتفع .
 (٥) الشدنية منسوبة إلى شدن أرض باليمن . لعنت قذفت ورميت . محروم الشراب : مفرع
 لا لبن فيه . مصرم مقطع .
 (٦) خطارة من خطر البعير بذنبه إذا شال به . زيافة : من الزيف وهو التبختر : تطيس
 تكسر . خف ميم : شديد الوطء ، كأنه يمش الأرض أي يدهقها .

نم يشبهها بالظلم ، ويستطرد في وصفه ، حتى يستأنف وصف الناقة في قوله :

شربت بماء الدُّخْرُ ضَيْنَ فأصبحتُ زوراء تنفر عن حياض الديلم^(١)
 وكأنما تنأى بجانب دفها الـ وحشى من هزج العشي مؤوم^(٢)
 هز جنب كلما عطفت له غضبي اتقاها باليدين وبالفم^(٣)
 أبقى لها طول السفار مقرمداً سندا ومثل دعائم التخيم^(٤)
 بركت على جنب الرِّداع كأنما بركت على قصب أجش مهضم^(٥)
 وكان رباً أو كحياًلاً موقداً حش الوقود به جوانب قنقم^(٦)
 ينباع من ذفرى غضوب جسرة زبافة مثل الفتيق المكدم^(٧)
 والحارث بن حلزة يستعين على همه كما استعان طرفة على همه بناقة هذه

أوصافها :

غير أنى قد استعين على الهم (م) إذا خفت بالثوى النجاء^(٨)

(١) الدخضان : ماء ان يقال لأحدهما «دخض» وللآخر «دسبع» فلما تناهما غلب أحدهما على الآخر . الديلم الأعداء وإن كانوا عرباً عند الأصمعي ، وحياض الديلم مياه معروفة عندهم . زوراء : مائلة .

(٢) الدف الجنب . الوحشى من البهائم الجانب الأيمن ، والأنسى الجانب الأيسر . الهزج تدارك الصوت . المؤوم العظيم القبيح من الرؤوس .

(٣) الجنب الجنب :

(٤) المقرم الذي لزم بعضه بعضاً كأنه مبنى بالاجر سندا عاليا .

(٥) الرِّداع : مكان . المهضم : الكسر .

(٦) الرب : الدبس . الكحيل القطران . القعد الذي أوقد تحتة حتى انقعد وغلظ . الوقود

الحطب . حش أوقد . القمم إناء .

(٧) ينباع ينبع . الذفران عرفان مشرفان وراء الأذنين . جسرة : ضخمة . زبافة من

الزلف وهو التبخر . الفتيق هو الفعل . المكدم : الفليظ .

(٨) خف : ذهب ومضى . الثوى : المقيم . النجاء : الاطلاق .

بَرْفَوِي كَأَنَّهَا هَفْلَةٌ أَم (م) رَنَائِل دَوِيَّةٌ سَفَاءٌ^(١)
 آنَسْتُ نَبَاةً وَأَفْزَعَهَا الْفَنَاءُ (م) اصُّ عَصْرًا وَقَدَدْنَا الْإِمَاءُ^(٢)
 فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَفَاءِ مَعَ مَنِينًا كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ^(٣)
 وَطَرَاقًا مِنْ خَلْفِهِنَّ طَرَاقٌ سَاقَطَاتٌ أَلَوْتُ بِهَا الصَّحْرَاءُ^(٤)
 أَتْلَهَى بِهَا الْهَوَاجِرَ إِذْ كُلُّ (م) ابْنِ هَمٍّ بَلِيَّةٌ عَمِيَاءُ^(٥)
 وَوَصَفَ لِي بِدَحْرِ الْوَحْشِ ، وَمَا يَعْرِفُ مِنْ حَرَكَاتِهَا وَعَادَاتِهَا ، وَذَلِكَ فِي
 مَعْرِضٍ وَصَفَ نَائِتَهُ ، بَعْدَ أَنْ شَبَّهَهَا بِالسَّحَابَةِ الْجَاهِمِ الَّتِي تَصْرِفُهَا الرِّيحُ ، وَاسْتَطْرَدَّ
 إِلَى تَشْبِيهِهَا بِحَمْرِ الْوَحْشِ فِي قَوْلِهِ .

أَوْ مَلْعٌ وَسَقَتْ لِأَحْقَبٍ لَاحَهُ طَرْدُ الْفَحُولِ وَضَرْبُهَا وَكَدَامُهَا^(٦)
 يَمْلُو بِهَا حَذَبَ الْإِكَامِ مُسَحَّجٌ قَدْ رَابَهُ عَصِيائُهَا وَوَحَامُهَا^(٧)
 بِأَحْزَةٍ الثَّلَبُوتِ يَرْبَأُ فَوْقَهَا قَفَرُ الْمُرَاقِبِ خَوْفُهَا آرَامُهَا^(٨)
 حَتَّى إِذَا سَلَخَا مُجَادَى سِتَّةَ جَزَاءٍ فَطَالَ صَيَاؤُهُ وَصَيَامُهَا^(٩)

-
- (١) انزوف الناقة السريعة الخفيفة . الحفلة : النعامة . الرئال : فراخ النعام . دوية : منسوبة إلى الدو ، وهو الأرض الواسعة البعيدة الأطراف . السفاء : التي في رجلها انحناء .
 (٢) آنست أحست . النبأة : الصوت الحفي .
 (٣) المنين الفبار الدقيق .
 (٤) الطراق أطباق النمل . ألوت بها أبلتها .
 (٥) الهواجر أنصاف النهار . البلية الناقة التي تمقل على قبر الميت حتى تموت .
 (٦) ملع من ألمت الفرس والأمان إذا أشرقت ضروعها لأجمل واسودت حلفتها .
 وسقت حملت . الأحقب حمار الوحش . لاحه غيره . السكدم المضى .
 (٧) حذب الإكام ما أحذوب منها . المسحج الحمار الممض . الوحام الشموة .
 (٨) أحزة جمع حزيز المسكان الغليظ . الثلبوت واد أو أرض بين منى وذبيان . يربأ يرقب . الآرام أعلام الطريق .
 (٩) ساخامر عليهما برمته ، والساخ آخر الشهر . مجادى ستة : جادى الآخرة لأنه السادس من شهور السنة العربية ، وجادى خمسة : جادى الأولى لأنه الخامس منها ، وقد كان شهر جادى يقع في الشتاء والبرد غيث أطلقوه أرادوا به زمن الشتاء ، وإن لم يقع فيه . جزء أى اجزاء يارطب عن الماء .

رجما بأمرها إلى ذى مِرّة حَصِيد ونَجحُ صَرِيعةً إِبْرَامُهَا^(١)
ورمى دوابّها السّفا ونهيجتُ رِيحُ المصايفِ سَوْمُهَا وسَهَامُهَا^(٢)
فتنازعا سبطاً يطيرُ ظلالُهُ كدخانٍ مشعلَةٍ يُشْبُ ضَرَامُهَا^(٣)
مشمولةٌ غلّتْ بنابتِ عَرَفَجٍ كدخانٍ نارٍ ساطعٍ إِسْنَامُهَا^(٤)
ففضى وقدمها وكانت عادةً منه إذا هي عَرَدَتْ إِقْدَامُهَا^(٥)
فوسطا عَرْضُ السَّرِيِّ وَصَدْعَا مسجورةٍ متجاورا قَلَامُهَا^(٦)
محفوفةٌ وسطُ البِرَاعِ يُظَاهِـمَا منه مصرَعُ غَايَةِ وَقِيَامُهَا^(٧)
وفى بعض المعلقةات وصف لبقر الوحش التى كانوا يركبون لاصيدها ،
ويتسابقون لإدراكها ، ويشبهون بها نساءهم : ومن وصف بقرة الوحش فى معلقة
امرئ القيس :

فمنّ لنا سربٌ كأنّ نَاحِيَهْ غَذَارَى دَوَارٍ فى مَلَاءٍ مَذِيلٍ^(٨)
فأدبرنَ كالجَزَعِ لِلْفَصْلِ بَيْنَهُ بجيدٍ مُعَمٍّ فى العَشِيرَةِ مَخُولٍ^(٩)

-
- (١) المرة القوّة ، أى أمر محكم . حصد عكم . الصريعة الفريعة .
(٢) الدوابر مآخير الحوافر . السفا شوك شجر البهمى ، والسفا التراب . المصايف جمع مصيف وهو الصيف . سومها مرورها . السهام ربيع حارة .
(٣) السبط الفبار للارتفاع .
(٤) مشمولة هبت عليها ربيع الشمال . غلّت خلط وقودها . المرفج نبت . إسنامها ما ارتفع منها .
(٥) عردت تركت الطريق وعدلت عنه .
(٦) المرض الناحية . السرى النهر الصغير . صدعا شققا النبت الذى على الماء . المسجورة المين المملوءة . القلام نبت يكون على الأنهار .
(٧) محفوفة مائة . البراع القصب .
(٨) النجاج الإبلات من بقر الوحش . الدوار صنم كان أهل الجاهلية إذا نأوا عن الكعبة نسبوه وطافوا حوله تشبها بالصوايف حول الكعبة .
(٩) الجزع الحُرْزُ اليماني ، وهو الذى فيه بياض وسواد تشبه به الأعين . المنصل الذى جعل بين كل خرتين منه لؤلؤة .

فَالْحَقْنَا بِالْمَآدِيَاتِ وَدُونَهُ جَوَاحِرَهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزِيلِ^(١)
 فَعَادَى عِدَاءَ بَيْنِ نَوْرٍ وَنُجْجَةٍ دِرَاكًا وَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيَفْسَلِ
 وَقَالَ لِبَيْدٍ فِي وَصْفِ الْبَقَرَةِ الْوَحْشِيَّةِ فِي حَالَةِ ذَعْرِهَا ، وَوَجْدِهَا عَلَى وَلَدِهَا ،
 وَوَصْفِ الطَّبِيعَةِ وَمَا تَفْعَلُ بِهَا ، وَالصَّيَادِينَ وَخُفْلَهُمْ إِذَاهَا :

أَفْطَكَ أُمٌ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ خَذَلَتْ وَهَادِيَةَ الصَّوَارِ قَوَامُهَا^(٢)
 خُنْسَاءٌ ضَيِّعَتْ الْفَرِيرَ فَلَمْ يَرِمْ غُرْضَ الشَّقَائِقِ طَوْفُهَا وَبُغَامُهَا^(٣)
 لِحْفَرٍ قَبْدٍ تَفَارَعَ شِلْوُهُ غُبْسٌ كَوَاسِبٌ لَا يُمْنُ طَعَامُهَا^(٤)
 صَادَفْنَ مِنْهَا غُرَّةً فَأَصْبَذَهَا إِنْ الْمَنَآيَا لَا تَطْلِشُ سَهَامُهَا
 بَاتَتْ وَأَسْبَلَتْ وَكَفَتْ مِنْ دِيمَةٍ يُرْوَى الْخَمَائِلَ دَائِمًا تَسْجَامُهَا
 يَمْلُؤُ طَرِيقَةً مَقْنَمًا مَتَوَاتِرٌ فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ ظِلَامُهَا
 تَجْتَنَفُ أَضْلًا قَالِصًا مَتَنِّبًا بِمَجُوبِ أَنْقَاةٍ يَمِيلُ هَيَاكُلُهَا^(٥)
 وَتَضَى فِي وَجْهِ الظَّلَامِ مُنِيرَةً كَجَاهَنَةِ الْبَحْرِ سُلَّ نِظَامُهَا^(٦)

(١) الجواهر جمع جاحرة وهي التآخرة . الصرة الضجة والصيحة . لم تزيل لم تفرق .
 (٢) الوحشية البقرة الوحشية . المسبوعة التي أكل السبع ولدها . خذلت تأخرت عن
 القطيع . هادية الصوار التي تهدبه أي تتقدمه . الصوار القطيع من البقر . قوامها الذي تقوم به .
 (٣) الخنساء من الخنس وهو تأخر الأنف وقصره أن يبلغ الشفة . الفرير ولد البقرة .
 لم يرم لم يبرح . الشقائق جمع شقيقة الأرض الفليضة بين رملتين . الطوف الطواف . البقام صوت
 تختله البقرة اختلاسا .

(٤) الحفر الذي أرضع مرة وترك أخرى ليعود على الطعام ، والحفر الذي عفر بالتراب .
 القهد ضرب من الضأن . غبس جمع أغبس من الغبسة وهي صفرة إلى سواد . كواسب تسكسب
 ما تأكل .

(٥) تجتنف تدخل فيه وتستكن في جوفه . قالصا أي مرتفعا قد تقلص وليس بمسترسل
 المتنبذ المتفرق . المجوب جمع عجب وهو آخر كل شيء . الأنقاء جمع نقا وهو ما ارتفع من
 الرمل الهيام ما ينهال من الرمل ولم يماسك .

(٦) الجاهنة خرزة تعمل من نفضة أراد بها اللؤلؤة ، ولذلك أضافها إلى البحري .

حتى إذا حَسَرَ الظلامُ وأسْفَرَتْ بكرتْ نزلٌ عن النرى أزلامُها^(١)
 كَلِمَتْ تَرَدَّدُ في نهـاءِ صُعائِدِ سبعا تَوَامًا كاملا أَيامُها^(٢)
 حتى إذا يَنُتْ وأَسْحَقَ حَالِقُ لم يُبَلِّه إِرْضاءُها وفطامُها^(٣)
 فتوجَّستْ رزُّ الأُنيسِ فراءَها عن ظَهر غيبِ والأُنيسِ سَقَامُها^(٤)
 فعدتْ كلاً الفرجين تحسب أنه مولى الخفاةِ خلفها وأمامها^(٥)
 حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غَضْفًا دواجنَ قافلاً أعصامُها^(٦)
 فلحقن واعتـكـرتْ لها مـذـريَّة كالسمهرية حذَّها وتماها^(٧)
 لتذودهن وأيقنت إن لم تَدُدْ أن قد أحمَّ مع الختوف حِمامُها^(٨)

وفى بعض المعلقات وصف لظباء والآرام والنعام ، وإنما اكتفينا من صفات الحيوان بما مرَّ لأنه هو الذى توالى فيه الأبيات ، حتى أصبح غرضاً متميزاً بين الأغراض التى اشتملت عليها المطلقات .

وأما وصف الديار ورسومها فقد عفى به أصحاب المطلقات ، حتى صار هذا

-
- (١) الأزلام فى الأصل قذاح الميسر وأراد بها هنا القوائم .
 (٢) العله خفة من جزع . نهـاء جمع نهى وهو المكان الذى له حاجز ينهى الماء أن يجبض . صعايد اسم مكان . توام جمع توهم .
 (٣) اسحق أخلق . الحالق الضرع الملائن .
 (٤) التوجس نسمع الصوت الخفى . الرز — ويروى بدله ركز — وهما الصوت الخفى .
 (٥) فعدت من العدو ، ويروى فعدت من العدو . الفرجان ثنية فرج ، وهو الجهة . مولى الخفاة أولى بالخفاة .
 (٦) النصف الكلاب المسترخية الأذان . الدواجن المعودة على الصيد . قافلاً يابسا . الأعصام جمع عصام سير من الجلد يكون فى العنق .
 (٧) اعتـكـرت رجعت . مدرية بقره لأن لها مدري أى قرنا . السمهرية القناة الشديدة أو الرماح الطوال .
 (٨) أحم قدر — ويروى أجم — أى حان وقوعه .

الوصف تقليداً جرى عليه عامة الشعراء في مطالع قصائدهم ، ومن ذلك قول
امريء القيس في مطلع معلقته :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول لمومل
فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمها لما نسجتُها من جنوب وشمال
نرى بحر الآرام في عرصاتِها وقيعانها كأنه حب فلفل
وإن شفتي عبء مهراقة فهل عند رسمِ داريس من مُمول
وقول طرفة في مطلع معلقته :

لخولة أطلال بئرقة نهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقول زهير في مطلع معلقته :

أمن أمّ أو في دمنة لم تكلم بمـومانة الدراج فالتمل
ودار لها بالرفتين كأنها مراجيع وشم في نواشر معصم^(١)
بها العين والأرامُ بمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم^(٢)
وقفتُ بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفتُ الدار بعد توم
أثافي سَفْماً في معرسِ رجل ونؤيا كجذع الحوض لم يتنمل^(٣)

(١) الرقنان ثنية رقة وهي الروضة ، والرقنان إحداها قرب المدينة والأخرى قرب
البصرة ، أرادوا لها دار بينهما. المراجع جمع مرجوع وهو المعاد المسكر. النواشر عصب الدراج
واحداهما فاشرة ، المعصم موضع السوار من الدراج .

(٢) العين البقر الوحشية وأحدثها عيناء . الأرام الظباء الخاصة البياض ، واحداهم رثم .
خلفة إذا ذهب منها فوج خلفه آخر . الأطلاء جمع طلا ، وهو ولد الظبية والبقرة . الجثم محل
الجنوم وهو القمود .

(٣) الأثافي جمع أفضية ، وهي الحجارة التي تنصب عليها القدر . سفع سود يغاطها حمرة .
معرس الرجل موضعه والمرجل القدر . الدوى حاجز يرفع حول البيت من تراب لئلا يدخله الماء
أو حفير حول الحباء يمنع دخول المطر .

فلما عرفت الدار قلتُ لربها ألا انعم صباحاً أيها الربع واسلم
وقول لبيد في مطلع معلقته :

عفت الديار محلها فقامها بمنى تأبّد غولها فرجامها^(١)
فدافع الرياح عرى رسمها خلقت كما ضمن الوحى سلامها^(٢)
دمن تجرّم بمد عهد أنيسها حجج خلون حلالها وحرامها^(٣)
رُزقت مرايع النجوم وصاحبها ودق الرواعد جودها فرهامها^(٤)
من كل سارية وغاد مدجن عشية متجاوب إرزامها^(٥)
فصلا فروع الأبهقان وأطلقت باللمتين ظباؤها ونعائمها^(٦)
والعين ساكنة على أطلانها عوداً تأجل بالفضاء بهائمها^(٧)
وجلا السيول عن الطلول كأنها زُرّ تجدّ متونها أقلامها^(٨)

-
- (١) المل مكان الحلول ، والمقام موضع الإقامة . تأبّد توحش . منى والنول والرجام مواضع .
(٢) الخلق القديم البالى . الوحى جمع وحى ووحي ووحاة الكتابة والمكتوب والإشارة
والرسالة والمراد هنا الأول . السلام جمع سلعة الحجارة .
(٣) تجرم الشيء انقضاؤه بجملة أجزائه . الحجج السنون . حلالها وحرامها أيام السنة منها
الحلال ومنها الحرام ، فالحرام القعدة والحجة والمحرم ورجب ، وماعداها خلال .
(٤) المرايع الأمطار تكون في أول فصل الربيع . النجوم الأنواء ، وإنما أضافها إليها لأنها
تهبج عندها صاحبها أصابعها . الودق المطر . الرواعد السحاب . الجود المطر الغزير . الرهام المطر الضعيف .
(٥) السارية السحابة . المدجن المطبق قد استوعب أقطار السماء . الإرزام التصويت
(٦) الأبهقان عشب له وردة حمراء ورقه عريض . أطلقت صار لها أطفال . اللمتين ناحيتا
الوادي جعل علما على موضع .

- (٧) العود جمع عائد الحديثات النتائج من الطباء وكل أنقى . تأجل تصير آجالاً ، والآجال
جمع لجل وهو القطيع من بقر الوحش . البهام جمع بهم وبهمة أولاد الضأن والمفز والبقر .
(٨) الزبر جمع زبور ، وهو الكتاب . تجدّ تعيده جديداً المتون الظهور أراد بها الكتابة

أو رجُ واشمة أسف نثورها كففاً تعرض فوقهن وشامها^(١)
فوقت أسألها وكيف سؤالنا صما خوالد مايبين كلامها
عرّيت وكان بها الجميع فأبكرُوا منها وغودر نؤبها ونمأمها^(٢)
ومطلع معلقة عنقرة :

هل غادر الشعراء من مرقم أم هل عرفت الدار بعد توهم
أعيالك رسم الدار لم يتكلم حتى تكلم كالأصم الأعجم
ولقد حبستُ بها طويلاً ناقى أشكو إلى سنع رواكد جثم
وتحل عبلة بالجواه وأهنا بالحزن فالصمان فالمتعلم
حيث من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم المهيم
حلت بأرض الزاثرين فأصبحت عديراً على طلابك ابنة مخرم^(٣)
كيف المزار وقد تربع أهلها بصنيزتين وأهلنا بالفيلم^(٤)
ما راعني إلا حمولة أهلها وسط الديار تسف حب الحمخم^(٥)
فيها اثنتان وأربعون حلوبة سوداً كخافية الغراب الأسحم^(٦)
وفي مطلع معلقة الحارث بن حلزة :

آذنتنا بينهم أساء ربّ ثاوٍ يملّ منه الثواءُ

-
- (١) أسف زر . النثور الكحل الذي ترشه الواشمة على مواضع الفرز . السكف دارات تكون في الوشم . الوشام فرز الإبرة في اللحم حتى يظهر الدم .
(٢) التمام ثبت ضعيف له خوس تحمى به خصاص البيوت ، واحده نامة .
(٣) الزاثرين الأعداء الذين يزأرون عليه من أجلها .
(٤) تربع أهلها نزلوا وقت الربيع . الصلم وعنيزتان موضعان .
(٥) الحمخم آخر مايبس من النبات .
(٦) الحلوبة التي تحلب . الأسحم الأسود .

بعد عهد لنا بيرة شبا ٥ فأدنى ديارها الخلاء
 فالحياة فالصباح فأعنا ق فتاق فاذب فالوفاء
 فرياض القطا فأودية الشر ب فالشعبان فالأبلاء
 لا أرى من عهدت فيها فأبكي ١١ يوم دلها وما يحير البكاء (١)
 وبينيك أوقدت هند النا ر يعود كما يلوح الضياء
 فتوترت نارها من بيد بخزازی هبات منك الصلاة (٢)
 ووصف امرؤ القيس البرق والمطر وما يفعل بالجلال والوديان والديار والطيور

والسباع في قوله :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه كلع اليدين في حية مكل (٣)
 يضيء سناه أو مصاييح راهب أمال السليط بالذبال المقتل (٤)
 قعدت له وصحبي بين ضارج وبين العذيب بعدما متألى
 حل قطن بالشيم أيمن صوبه وأيسره على الستار فيذبل
 فأضحى يسح الماء حول كثيفة يكب على الأذقان دوح الكنهبل (٥)
 ومرت على القنان من نفيانه فأنزل منه العصم من كل منزل (٦)
 وتباء لم يترك بها جذع نخلة ولا أطعماً إلا مشيداً بجندل

(١) دلها : أى باطلا وضياعا . يحير يرد .

(٢) الصلاة : النار .

(٣) الحية : السحاب للترام .

(٤) السليط : الزيت . الذبال : جمع ذبالة وهي الغنبة التي تكون في السراج .

(٥) الكنهبل : ضرب من الشجر

(٦) القنان : اسم جبل لبني أسد . نفيان المطر ونفيه : ما ينهب ويرعه . العصم جمع أعصم ،

وهو الوعل الجبل

- كَأَن تَبِيرًا فِي عَرَانِينَ وَبَلِهَ كَبِيرُ أَنَايسٍ فِي بَجَادٍ مَزْمَلٍ^(١)
كَأَن ذَرَا رَأْسِ الْهَيْمَرِ عُغْدَوَةٌ مِنْ السَّيْلِ وَالْفَتَاءِ فَلَسَكَةُ مَفْزَلٍ^(٢)
وَأَتَى بِصَحْرَاءَ الْعَبِيْطِ بَعَاءَهُ نَزُولُ الْيَمَانِيِّ ذِي الْعِيَابِ الْحَمَلِ^(٣)
كَأَنَّ مَكَائِيَّ الْجَوَاءِ غَدِيَّةٌ صَبَحْنَ سُلَاحًا مِنْ رَحِيقِ مُفْلَقِلٍ^(٤)
كَأَن السَّبَاعَ فِيهِ غَرَقَ عَشِيَّةٌ بِأَرْجَائِهِ الْقَصَوَى أَنَايِدِشُ عُضْصُلٍ^(٥)

ويصف عنقرة في معلقته الروضة والمطر الذي نزل عليها في معرض وصف
نفر حبيبته ، وما يذهبث منه من طيب الرائحة ، وذلك في قوله :

- أَوْ رَوْضَةً أَنْفًا تَضْمَنُ نَبْتَهَا غَيْثٌ قَلِيلُ الدَّمَنِ لَيْسَ بِمُعْلَمٍ^(٦)
جَادَتْ عَلَيْهَا كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٌ فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدَّرَمِ^(٧)
سَحًّا وَنَسْكَابًا فَكُلَّ عَشِيَّةٌ يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ^(٨)

(١) تبير جبل بكة . عرانيين جمع عرنين ، وهو من كل شيء أوله . البجاد كساء مخطط من
أكسية الأعراب .

(٢) الفناء ما يحمله السيل . فلسكة المفزل الحقة المستديرة التي تكون على رأس المفزل

(٣) بعاءه نقله وحله

(٤) المسكاكي جمع مكاء بالمد والقشديد ضرب من الطير . صبحن سلافاً سقين السلاف

في وقت الصبح

(٥) الأنايدش أصول النبات لأنها ينبت عنها والواحدة أنبوشة . العنصل البصل البري

(٦) الروضة الأنف التي لم يرعها أحد . تضمن نبتها غيث أي ضمن لأنبات نبتها . الدمن

السرجين والبرم أي أن هذه الروضة في مكان حر الطين ، وقيل المراد أن المطر قليل اللبث
لم يدمت عليها فهو أطيب لرائحتها . ليس بمعلم أي ليس بمعروف فيقصد ، وإنما هو في فياف
من الأرض .

(٧) العين : المطر لا ينقطع خمسة أيام أو ستة . الثرة : السكثيرة . القرارة : مستقر الماء

في الوادي .

(٨) السح : صب المطر . التسكاب : السكب . لم يتصرم : لم ينقطع .

وخلأ الذبابُ بها فليس ببارحٍ غرداً كفعل الشارب المترحم
هزجاً يحكُّ ذراعَه بذراعِه قدح المكبِّ على الزنادِ الأجذم^(١)
أما وصف الخمر ووصف مجالس شربها فقد سبق الكلام فيه عند كلامنا
على المجتمع العربي كما صورته المعلقات ، ونجد نصوصه هناك^(٢) .

ومن أوصاف مظاهر الطبيعة في البادية ماورد في معلقة امرئ القيس من
قوله من وصف الليل ووحشته ، والشكوى مما يحسن من ثقله وتطاوله :

وليل كوج البحر أرخى سُدُو له على أنواع الموم ليتلى
فقلت له لما تمطى بصلبِه وأردف إعجازاً وناء بكلكل^(٣)
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثل^(٤)
فيالك من ليل كأن نجومه بكلُّ مفار الفتل شدتْ يذبلُ^(٥)
كأن الثريا علقتْ في مصامها بأمراسٍ كتانٍ إلى صُمِّ جنبلِ^(٦)
وهكذا تزخر المعلقات بفن الوصف الذي تناول معظم ماوقعت عليه أعينهم
من مظاهر الطبيعة ، وألوان مشاهدتها . وفيما سقناه من الشواهد كفاية للدلالة على
عفايتهم بهذا الفن ، واقترانهم عايه .

* * *

(١) هزج : سريع الصوت متداركة . المكب على الشيء المقبل عليه بكليته . الأجذم
المقطوع اليد وهو صفة المكب . الزناد حجر القداح .

(٢) انظر هذا الكتاب من صفحة ٢٦٨ إلى صفحة ٢٧٤ .

(٣) تمطى : امتد واستطال . الكلكل : الصدر .

(٤) الانجلاء : الانكشاف . الأمثل : الأفضل .

(٥) مفار الفتل : محكمه . يذبل : اسم جبل في بلاد نجد .

(٦) مصامها : موضع وقوفها . الأمراس : الحبال . الجنبل الحجارة .

(٢) باب النسيب :

وهنا تتوارد علينا كلمات تتقارب في مفهومها، وتتشابه في دلالتها. وهذه
الكلمات الثلاث هي : النسيب ، والغزل ، والتشبيب .
وتلك الكلمات الثلاث عند أكثر علماء العربية ألفاظ مترادفة ، وكلها
تدل على التعبير عن عاطفة الحب ووصف المحبوب . قال ابن رشيق : والنسيب
والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد^(١) .
وعنده أن التغزل غير الغزل ، لأن الغزل هو إلف النساء ، والتخلق بما يوافقهن
فمن جعله معنى التغزل فقد أخطأ .

وقال قدامة بن جعفر : إن كثير من الناس يحتاج إلى أن يعلم أولاً ما النسيب ؟
ونحن نحده فنقول : إن النسيب ذكر اشاعر خلق الناس وأخلاقهم ، وتصرف
أحوال الهوى به معهم . وقد يذهب على قوم أيضاً موضع الفرق ما بين النسيب
والغزل ، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى إذا اعتقده الإنسان فى الصبوة
إلى النساء نسب بهن من أجله . فكان للنسيب ذكر الغزل ، والغزل المعنى
نفسه . والغزل إنما هو التصايب والاستهتار بمودات النساء . ويقال فى الإنسان
إنه « غزل » إذا كان متشكلاً بالصورة التى تليق بالنساء ، وتجانس موافقاتهن
حاجته إلى الوجه الذى يجذبهن إلى أن يملن إليه . والذى يملهن إليه هو الشماثل
الحلوة ، والمعاطف الطريفة ، والحركات اللطيفة ، والكلام المستعذب والمزاج
المستغرب ، ويقال لمن يتعاطى هذا المذهب من الرجال والنساء « متشاجر » وإنما
هو « متفاعل » من « الشجا » أى متشبه بمن قد شجاء الحب^(٢) .

وخلاصة قول قدامة هذا أن « الغزل » معنى ، وأن « النسيب » هو العبارة
عن هذا المعنى ، وأن الغزل مؤثر ، وأن النسيب هو الأثر ، أو هو صياغة أثر

(١) الصدة ٩٤/٢ .

(٢) قد الشعر ٦٥ طبعه بريل بلندن ، بتحقيق المسقمق س . ا . بونيباكر .

اللوعة التي يجدها العاشق المستهام في ألفاظ وعبارات^(١).

وعند بعض الباحثين أن « الغزل » هو الاشتهار بمودات النساء ، وتبهن والحديث إليهن ، والعبث بذلك في الكلام ، وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صباة .

وأما « التشبيب » فهو ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة في مطالع الكلام ، وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ، ومساءلة الأطلال ، توخيا لتعليق القلوب ، وتقييد الأسماع ، قبل المفاجأة بغرضه من الكلام .

وأما « النسيب » فهو أثر الحب وتبريح للصباة فيما يبثه الشاعر من الشكوى ، وما يصفه من التجنى ، وما يعرض له من ذكر محاسن النساء . وهو بلا شك مظهر الرقة وينبوع السلاسة في الشعر العربي ، إذ كان حديثا عن هذه الآلام العذبة ، ودسوعا تنحدر من أجفان الكلام^(٢).

وإذا رجعنا إلى المعاني اللغوية لهذه الكلمات الثلاث في معجم كالكاموس وجدنا :

(١) « مغازلة النساء » محادثتهن ، والاسم « الغزل » ، و « التغزل » التكلف له ، و « الغزل » للتغزل بهن^(٣).

(٢) و « التشبيب » النسيب بالنساء^(٤).

(٣) وذكر صاحب القاموس : نَسَبَ بالمرأة نسباً ونسبياً ونَسَبَةً : شَبَّ بها في الشعر^(٥).

وهذه المعاني يلاحظ أن معنى « النسيب » فيها هو معنى « التشبيب » ،

(١) انظر كتابنا (مقدمة بن جعفر والنقد الأدبي) الطبعة الثانية ٣٤٤ .

(٢) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي للأستاذ محمد هاشم عطية ١٠٧ .

(٣) القاموس المحيط ٢٤/٤ .

(٤) القاموس المحيط ٨٥/١ .

(٥) القاموس المحيط ١٣١/١ .

وأن كل واحد منهما قد عرّف بالآخر . وأن « الغزل » هو التحدث إلى النساء ، من غير اشتراط للتعبير عن ذلك في صورة من الصور الأدبية .

ولذلك تكون محاولة التفريق بين النسيب والتشبيب ، وتخصيص التشبيب بذكر المرأة في مطالع القصائد تمهيداً للفرض المقصود ، وتنبيهها للمسامح لتصفى إلى ما بعده ، محاولة غير مجدية ما دام الذين قد ذكروا هذين اللفظين ووصفوا بهما الشعر لم يحاولوا التفريق بينهما ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى لم يوجد في الاستعمال اللغوي ما يشعر بالفرق بينهما . وعلى هذا فلا مناص من اعتبار اللفظين من قبيل المترادف الذى يتعدد فيه اللفظ . ويتحدد المعنى ^(١) .

وكذلك استعمل النقاد كلمة « الغزل » في المعانى التى استعملوا فيها كلمتي « النسيب » و « التشبيب » . ولا فائدة ترجى من محاولة التفريق أو التخصيص ما دام المعنى واحداً في استعمالهم . وإن كان تخصيص كل لفظ بمعنى من المعانى من علامات نضج اللغة واتساعها ، ولكن الصعوبة تأتى من ناحية الاستعمال ، إلا إذا كان في استطاعتنا العودة إلى ما كان ، وتعديله على الوجه الذى يحصل به التخصيص المراد .

حقاً ، لقد أصبح ذكر المرأة في مطالع القصائد تقليداً جرى عليه الشعراء ، وفيهم من لم يعالج الحب ، ومن لم يتعلق قلبه بهوى وصباية ، وكان جديراً أن يخص هذا التقليد بلقب أو لفظ . يصطلىح عليه ، وإسكن ذلك للمصطلح لفظ « التشبيب » أو غيره . وإسكن ما الحيلة وقد وجدنا المعنى اللغوي والاستعمال الأدبي لا يساعداننا على تحقيق هذا الأمل ؟

(١) ذكر ابن رشيق (العمدة ٢/١٠٢) أن اشتقاق التشبيب يجوز أن يكون من الجلاء . يقال شب الحمار وجه الجارية ، إذا جلاء ، ووصف ما تحته من محاسنه ، فسكان الشاعر قد أبرز هذه الجارية في صفته إياها ، وجلاها للعيون ، ومنه الشب الذى تجتلي به وجوه الدنانير ويستخرج غشها .

وعلى كل حال فإن ذكر المرأة قد شغل مكانا بارزا في أكثر المعلقات ،
فوصف شعراؤها هوام ، وعبروا عن عواطفهم تجاه هذه المرأة ، كما وصفوا
كثيراً من محاسنها التي كانت تأخذ بقلوبهم ، ووصفوا من طولها وعرضها ولونها
وشعرها وعينيها وصدرها وطبيعتها وحديثها ما كانوا يشتهون ، كما وصفوا منحهم
عنها ، ودبيبهم إليها ، في تحفظ وعفة ، وفي غير تحفظ أو عفة أيضاً . وفي سبيل ذلك
وصفوا ديارها ومقاهيها وطلعتها ، وبكوا أطلالها ومن ذلك في معلقة امرئ القيس :

أفاطم مهلاً بعض هذا التسدل وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجلى
أغرك متى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وأنك قسمت الفؤاد فنصفه قتيل ونصف بالحديد مكبل
وإن تك قد ساءت لك متى خليفة فسلمى ثيابى من ثيابك تذلل^(١)
وما ذرفت عينك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل^(٢)
إلى أن يقول :

مهففة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل^(٣)
كيسر المقناة البيضاء بصفرة غذاها غير الماء غير الحلل^(٤)
تصد وتبدى عن أسيل وتقى بناظرة من وحش وجرة مطفل^(٥)

(١) الثياب ما يليس على البدن ، والمراد هنا البدن نفسه . تنسل تبين وتباعد .
(٢) ذرفت العين : سال دمعها ، والسهمان العينان شبههما بالسهمين الرقيق والعلى من
قداح اليسر . وللا رقيب ثلاثة أسهم والعلى عشرة ، وجزور اليسر يقسم عشرة أقسام من خرج
له هذان السهمان فقد فاز بجميع أجزائه .
(٣) مهففة غير مثقلة لطيف خصرها ضامر بطنها . المفاضة : المظيمة البطن أو المضطربة
فى طولها . الترائب جمع تريبة وهى عمل القلادة من الصدر . السجنجل المرأة رومية عربية ،
وأبو عبيدة يرويه بالسجنجل ويقول السجنجل الزعفران .
(٤) بكر المقناة أراد به بيضة النعامة لأن يياضها يخالطه صفرة قليلة . والمقناة الخلط .
(٥) الحد الأسيل الذى فى طوله امتداد . المطفل التى لها طفل .

- وجيد كجيد الرُّم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمطل (١)
 وفرع يزين المتن أسود فاحم أثبت كقنو النخلة المتمشك (٢)
 غداؤه مستشزرات إلى العسلا تفضل العقاص في مثني ومُرسل (٣)
 وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقي المذل (٤)
 وتضحى فتيب المسك فوق فراشها ثوم الضحا لم تنتطق عن تفضل
 وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظهي أو مساويك أسجل (٥)
 تضيء الظلام بالعشاء كأنها مناراة تسمى راهب متقبل
 إلى مثلها يزىء الحليم صباة إذا ما أسكرت بين درع ومجول (٦)
 تسلك عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادي عن هواك بمذل
 ألا رب خصم فيك ألوى رددته نصيح على تعذله غير مؤتل (٧)

(١) النص الرفع . المطل الذي لا حل فيه .

(٢) الأثبت الكثير . القنو العذق ويقال لها الكباسة . المتمشك الذي دخل بعضه في بعض أسكرته .

(٣) مستشزرات مرتفعات . العقاص جمع عقيصة ، وهي الحصلة المجموعة من الشعر . المثني الذي رد بعضه على بعض . المرسل الذي ترك على استرساله .

(٤) الكشح جانب الحاصرة . الجدبل خطاب يتخذ من الجلد . المخصر الدقيق الوسط . الأنبوب ما بين العقدتين من القصب . السقي السقي .

(٥) تعطو تناول . الرخص الناعم . الشثن الغليظ الخشن . الأساريع دواب رملية . ظبي موضع . الإسهل شجرة دقيقة أغصانها في استواء .

(٦) أسكرت اعتدت واستقامت . الدرع قبض المرأة . المجول نوب للنساء ، أول الصغرة منهن خاصة .

(٧) ألوى شديد الخصومة . النصيح الناصح . التمدال المبالغة في الطل . غير مؤتل غير مقصر .

ومن أوصاف المرأة في المعالقات قول طرفة :

وفي الحى أحوى بنفضُ المردَ شادنٌ مظاهرُ سَمَطِيٍّ لُؤْلُؤٍ وزبرجدٍ^(١)
 خَذُولٌ تُرَاعِي رَبِّهَا بِخَمِيلَةٍ تناولُ أطرافِ البَرِيرِ وترتدى^(٢)
 وتبسمُ عن ألعى كأنَّ منورًا تخملُ حرَّ الرملِ دُهنٌ له ندى^(٣)
 سقته إياة الشمسِ إلا لثانتهِ أسفٌ ولم تكدمِ عليه بأُمدٍ^(٤)
 ووجهٌ كأنَّ الشمسَ حلتْ رداها عليه نقيُّ اللونِ لم يتخذد^(٥)

ومن أوصافها قول عمرو بن كلثوم في معلقته في تشبيه أعضائها ووصف

الحنين إليها :

رَبِّكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى خَلَاءٍ وقد أمنتْ عيونَ الكاشحين^(٦)
 ذراعِي عِطْلٍ أَذْمَاءَ بَكْرِ هجانِ اللونِ لم تقرأ جنينا^(٧)
 وندياً مثل حَقِّ العاجِ رخصاً حصاناً من أ كَفِّ اللامسين^(٨)

(١) الأحوى الظبي في ظهره حمرة تضرب إلى السواد . المرد ثمر الأراك . الشادن الغزال . إذا تمرك واشتد واستغنى عن أمه . المظاهر الموالى بين شيتين . السمط الخيط الذى تنظم فيه الجواهر .

(٢) خذول طيبة خذلت سواحباتها فتخلفت عنهن وأقامت على ولدها . الزبرج القطيع من الظباء وبقر الوحش . البرير ثمر الأراك إذا أدرك .

(٣) ألعى من العلى وهو سمرة في الشفة . المنور الأفحوان . الحر الخالص من كل شئ . الدهس الكتيب من الرمل . الندى الذى أصابه الندى .

(٤) إياة الشمس ضوءها . اللثة اللحم الذى تنبت عليه الأسنان . أسف بأمد أى ذر عليه . الكدم المض .

(٥) رداء الشمس ضوءها . لم يتخذد لم يتشقق .

(٦) الكاشح العدو لأنه يولى من عادى كشحه أى جانبه .

(٧) العيطل الطويلة من النوق . الأذماء البيضاء الخالصة للبياض . البكر من النوق التى ولدت بطناً واحداً ، ويروى بفتح الباء وهو الشاب من الإبل . الهجان الأبيض . الجنين المحل ما دام في بطن أمه .

(٨) العاج عظم الفيل . رخصاً طرياً ناعماً . حصاناً عفيفة .

ومتنى لَدَنَةٍ سَمَمَتْ وطالت روادفها تنوء بما ولينا^(١)
وما كفة يضيقُ البابُ عنها وكشحا قد جُنْتُ به جنونا^(٢)
وساريقي بلنطِ أو رُخامِ يرُّ خَشَّاشٌ حليهما ريننا^(٣)
فما وجدتُ كوَجْدِي أُمُّ سَقْبِ أضلتهُ فَرَجَعَتِ الحنينا^(٤)
ولا شمطاه لم يترك شفاها لها من نسميةٍ إلا جنينا^(٥)
تذكرتُ الصَّبَا واشتقتُ لما رأيتُ حوْلَهَا أَصْلًا حديننا^(٦)

ومنها ما وصف به عنقرة صاحبه عجلة في أبيات متفرقة من معلقته :

دارٌ لآسية غضيض طرفها طوع العنقاقي لذيدة التبسم
إذ تستبديك بذي غروبٍ واضح عذبٍ مقبله لذيدِ الطعام^(٧)
وكأنا نظرتُ بعيني شادنٍ رشاً من الغزلانِ ليس بتوأم^(٨)
وكانَ قارة تاجرٍ بقسيمةٍ سبتُ عوارضها إليك من الفم^(٩)
تمسني وتصبح فوق ظهر حشيرةٍ وأبيتُ فوق مَرَاةٍ أدمٍ مُلجَمِ

(١) لدنة لينة، وهو صفة موصوف محذوف أى قامة لدنة. سممت طاب . تنوء تنمض في تناقل .

(٢) الماكفة رأس الورك .

(٣) السارية الأسطوانة . البلنط العاج

(٤) السقب الذكر من أولاد الماكفة . أضلته فقدته .

(٥) الشمطاء المجوز ، والشمط يبيض شعر الرأس .

(٦) الحولة الإبل التي يحمل عليها . أصلا عشيا ، قيل إنه مفرد ، وقيل هو جمع أصيل .

حديننا حدثها الحداة .

(٧) تستبديك تذهب بمفلك . ذو غروب أى نقر ذو غروب . وهو جمع غروب ، وغرب كل

شئ حده . واضح أبيض ، والوضح البياض .

(٨) الشادن ولد الطي ، والرشا الظبي إذا تحرك ومشى ، ليس بتوأم أى ولد مفردا

فالغاية به أُمُّ وأكل .

(٩) القارة وعاء المسك . ألتاجر هنا المطار . القسيمة سوق المسك ، أو العير التي تحمل

المسك . العوارض الضواحك أراد بها الأسنان كلها .

(٣) باب الفخر

وهذا الغرض من أهم الأغراض التي برزت في المعلقات ، إذ كان من طبيعة العربي التباهى بما أوتي من كثرة المال والعدد ، وبقدرته على البذل والإنفاق وحماية الأولياء ، والنيل من الأعداء ، كما كان من طبيعته الزهو برفعة الآباء والأجداد ، وبما حصلوا من أسباب السيادة والمجد ، ليصل المجد الطارف المكتسب بالمجد التليد الموروث .

ومن الممكن أن يقسم ذلك الفخر قسمين :

القسم الأول : الفخر بالنفس :

ويبدو هذا في اعتداد الشعراء بقوتهم وفقتوتهم وكرمهم ونجدتهم ، وفي حديثهم عن الشجاعة التي خاضوا بها معامع القتال ، وانهضوا بها على أعدائهم في صدق وصبر وثبات .

وقد فخر امرؤ القيس بما يلائم حياته اللاهية ، وبأنه استطاع أن يسبي من النساء من كانت قليلة الرغبة في الرجال ، وبأنه يستطيع الديب إلى حيث يهوى من غير خشية أو إشفاق من الأحراس الحراس على مقتله إن هم رأوه في مثل حالته من الاعتداء على الحرمات . وذلك من شأن أرباب الفراغ والهم والخلاعة من طبقة المترفين الذين لا يشغلهم شيء من جد القول والعمل ، وهو ما تمثله معلقته بأسرها ، فكلمها لهو وصيد ، ووصف مستنقص للموه وصيده .

وفخر طرفة بأنه الفتى المرجو لكشف الغمة إذا بحث القوم عن الذي يستطيع كشفها .

إذا القوم قالوا: مَنْ فَتَى؟ خلت أنى عُنيت فلم أكسل ولم أتبلد

وبأنه لا يخفى عن طالب نجدة أو طالب عطاء ، فحيثما التمسته وجدته ،
 فى حلقة القوم حيث يجتمعون للشورى ، أو فى حوانيت الخمارين للهو والقصف .
 ولست بحلال التـلـاع مخافةً ولكن متى يسترفد القوم أرغد^(١)
 فإن يتغنى فى حلقة القوم تلقى وإن تلتمنى فى الحوانيت تصطد^(٢) .
 وبأن شهرته طبقت أحياء العرب ، فأصبح يعرفه الفقراء كما يعرفه السادة ،
 ويعرفه الصعاليك كما يعرفه المياسير ، أما الأولون فلا إحسانه إليهم ، وأما الآخرون
 فلمنادمته لهم على الشراب :

رأيت بنى غبراء لا ينكرونى ولا أهل هذاك الطرف المدد^(٣)

وبأنه إن دعى إلى الخطوب الجسام كان ممن يحمى فيها ويمنم ، وإن دم
 الأعداء قومه فقاتلهم بأقصى جهودهم دفعهم عنهم بأقصى جهده ؛ وهو يتغنى
 ببسالته فى قوله :

وإن أذعَ للجلَى أكن من حُماها وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد
 وإن يقدفوا بالقذع عرضك أسقم بشرب حياض الموت قبل التهدد
 أنا الرجل الضربُ الذى تعرفونه خشاشُ كراس الحية المتوقد^(٤)
 فأليتُ لايفك كسحى بطانة اعضب رقيق الشفرتين مهند^(٥)

(١) التلاع مجارى الماء من رؤوس الجبال إلى الأودية . يسترفد القوم يطلبون رفته أى عطاءه .

(٢) الحوانيت بيوت الخمارين ، والحوانيت أيضا الخمارون .

(٣) الغبراء الأرض ، وبنو غبراء الفقراء المحاويج . الطرف قبة من جلد . المدد

المدود بالأطناب .

(٤) الضرب الخفيف . الخشاش الرجل الماضى .

(٥) الكسح : الجنب . العضب : السيف القاطع . شفرتا السيف : حده . المهند :

للمسوب إلى الهند .

إذا ابتدر القومُ السَّلاحَ وجدتنى منيعاً إذا بَلَّتْ بَقائمه بدي^(١)
كما تنفى طرفه بكرمه ، وفخر بنداماه وقينته ، وكره إذا نادى المضاف ، وطلبه
اللمعة في يوم الدجن ؛ مما سبقت الإشارة إلى كثير منه .

وفخر لبديد بحزمه ، وقدرته على وصل من يواصله ، وقطع من يهجره :
أو لم تكن تدرى نوار بآنى وصال عقد حبال جذاًها
تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حاسماً
ثم يفخر بمعاقرته الخمر ، وقدرته على شراء أندرها وأغلاها ، وأنه في الغداة
الباردة يدفع عن نفسه وندمائه بردها بالشرب والطرب^(٢) ، كما يفخر بمقامرته
على الإبل من أجل الفقراء الذين لا يجدون من يكسب لهم^(٣) .

وأكثر ما في معلقة عنزة فخر بنفسه ، وبما أبدى من ضروب البسالة إفي
ميادين الوغى ، وبشر به الخمر ، وإتلافه ماله فيها وفي العطاء في حال سكره وفي حال
صحوه :

أنى على بما علمت فإننى سهل مخالقتى إذا لم أظلم
فإذا ظلمتُ فإن ظلمى باسلٌ مرٌّ مذاقته كطعم العلقم
ولقد شربتُ من اللدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف الملم
فإذا شربت فإننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصرى عن ندى وكا علمت شمائلى وتكرمى

(١) ابتدروا السلاح عجلوا إليه وتبادروا . المنيع الذى لا يوصل إليه . بات ظفرت
وتعسكت . قائم السيف مقبضه .

(٢) الأبيات (٥٧ — ٦٢) من المعلقة ، وانظر صفحتى ٢٧٢ و ٢٧٣ من هذا الكتاب .

(٣) الأبيات (٧٣ — ٧٧) من المعلقة ، وانظر صفحة ٢٧٩ من هذا الكتاب .

وعنترة من فرسان العرب المحدثين ، وقد فخر بهذه الفروسية ، كما فخر بها امرؤ القيس ، غير أن فروسية عنترة كانت في اقتحام الصفوف والسكر على الأعداء ، على حين أن فروسية امرؤ القيس كانت في الصيد والقتل . ومن قول عنترة موازنا حال حبيبته عبله بحاله :

نمى وتصبح فوق ظهر حشية وأبيت فوق سرة أدم ملجم
وحشيتي سرج على عبل الشوى نهدي مراكله كله نبيل الهزم
إلى أن يقول :

هلاً سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
إذ لا أزال على رحالة ساج نهدي تعاوره السكاة مكلم
طوراً يجرّد للطعان وتارة يأوى إلى حصد القسي عرمرم
ويفخر بنشياته ميادين الوغى ، وعفته عن المغام التي يكسبها ، إذ أنه لا يحارب من أجلها ، ولكنه يحارب شجاعة وزياداً عن الحمى والجماعة التي ينتسب إليها :

ينخبرك من شهد الواقعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المنم
فأرى مغام لوأشأ حويتها فيصدنى عنها الحيا وتكرمنى

القسم الثاني : الفخر بالجماعة :

وكما كان العربي حرصاً على إبداء مفاخره ، فإنه أكثر حرصاً على بعث مفاخر قومه ، والإشادة بها ، إذ كان تمجيد الفرد لنفسه تمجيداً للجماعة التي ينتسب إليها ، كما كان تمجيد الجماعة زيادة في ميراث الشرف عند الأفراد ، ووصلاً للأجداد بعضها ببعض ، طريقها وتليدها ، موروثها ومكتسبها . ولذلك كان

الفخر بالقبيلة من الأغراض البارزة في شعر المعلقات ، حتى إن بعض شعراء المعلقات نسوا أنفسهم ، ولم يتحدثوا عن محمّدة واحدة كسبوها ، أو مجد حصوله ، ولكنهم آثروا الحديث عن أسلافهم ، ورأوا مجد الجماعة فوق مجد الفرد ، وأن الأجداد لا يلدون إلا ما جدا .

ولا ينسى طرفة بعد أن فخر بنفسه كما فخر أن يؤكد فخره بنفسه إلى بيت محدود مقصود من بيوتات العرب ، وبأنه في الذروة والسنام من بيوت قبيلته ، وذلك في قوله :

وإن يلتق الحى الجميع تلاقى إلى ذروة البيت الرفيع المصمّد^(١)
ومن فخر ليبد بقومه :

إنا إذا التقت الجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جشامها^(٢)
ومقسّم يعطى العشرة حتمها ومنضمّر لحقوقها هضامها^(٣)
فضلاً وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغائب غنامها^(٤)
من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها
لا يطبعون ولا يبور فعالمهم إذ لا يميل مع الهوى أحلامها^(٥)

(١) الحى القبيلة . الجميع المجتمع . ذروة كل شيء أعلاه . المصمّد المقصود الذى يقصده الناس بمحوانهم .

(٢) لزاز عظيمة أى يلز بها ليدلها . جشامها من التجشم ، وهو تكلف ما فيه عسر .

(٣) المنضمّر ، قال الأصمى : المنضمّر الذى يضرب بعض حقوق الناس ببعض فيأخذ من

هذا ويمطى هذا ، وقال أبو عبيدة : هو الذى لا يمضى ولا يرد . المضام الذى يتقن قوما ويمطى قوما بتدبير ، وقد وثق به فى ذلك .

(٤) معناه يفعل ذلك رغبة فى الفضل ، وذو كرم مرفوع على معنى ومنا ذو كرم .

السمح السهل الأخلاق . كسوب رغائب أى يفتنهم من أعدائهم ، أو يكسب الرغائب من الحامد .

(٥) لا يطبعون أى لا تدنس أمراضهم . لا يبور فعالمهم أى لا يهلك .

وإذا الأمانة قُتِمَتْ في معشرٍ أوفى بأوفٍ حفظها أقسامها
فبنو النفا بيتاً رفيعاً مَمَكُ فمما إليه كهلها وغلَامُها^(١)
وهم السعاة إذا الشيرة أُنْظِمَتْ وهم فوارسها وهم حُكَّامُها^(٢)
وهم ربيعٌ للمجاور فيهم والمرمات إذا تطاول عامُها^(٣)
وهم العشيرة أن يبطلُ حاسدٌ أو أن يميل مع العدو لثامُها^(٤)

أما عمرو بن كلثوم فإن جلَّ فخره إنما هو بقبيلته ، وبالأباء والأجداد الذين
ينسب إليهم والذين وصفهم بالكرم والشجاعة ، والقدرة على الذار لأنفسهم ،
والصبر في لقاء الأعداء ، والنصر الذي يحرزونه في كل لقاء ، وأكثر قصيدته
مجال فسيح للاستشهاد ، ولكننا نكتفي هنا ببعض فخره الذي يتصل بوصف
المعارك الحربية ، وما أبلى فيها قومه ، كقوله :

نطاعن ما تراخي الناس عننا ونضربُ بالسيف إذا غَشِينَا
بُسْمُرٍ من قَنَا الخطى لُدُنٍ ذوابلٍ أو بديضٍ يمتلِينَا^(٥)
كَأَنَّ جَاحِمَ الأبطال فيها وَسُوقٌ بالأمازير ترمِينَا^(٦)
نشقُّ بها رهوسَ القوم شقا ونخلبها الرقاب فتختلِينَا^(٧)
ورثنا المجد قد علمت معدُّ نطاعنُ دونه حتى يبينَا

(١) فبنوا : يعني الأباء . السك : الارتفاع .

(٢) أُنْظِمَتْ حل بها أمر عظيم فظيع .

(٣) هم بمنزلة الربيع في الخصب لأن جاورهم ، والمرمات الاتى لأزواجهن ، والوات
قد مات أزواجهن .

(٤) هم العشيرة التي لا يقدر حاسد أن يبطلها الناس عنهم بسوء قول منهم .

(٥) الخطى منسوب إلى الخط مرفأً بالبحرين ، لدن لينة ، ذوابل فيها بعض يابس لم تحجب .

كل الجفاف فتشق إذا طعن بها .

(٦) الوسوق جمع وسق وهو الحمل ، الأمازير جمع أَمَز ، وهو مكان غليظ ذو حصى .

(٧) نخلبها الرقاب ، أي نجلبها كالغلا وهو الحشيش . تختلن تقطعن .

ونحن إذا عماد الحى خرت
نجد رهوسهم فى غير بر
كان سيوفنا فينا وفيهم
كان ثيابنا منا ومنهم
إذا ماعى بالإسفاف حى
نصبنا مثل رهوة ذات حد
بشبان يرون القتل مجدا
حديثا الناس كلهم جميعا
فأما يوم خشيتنا عليهم
وأما يوم لا نخشى عليهم
برأس من بنى جشم بن بكر
على الأحفاض نمنع من يلينا^(١)
فما يدرون ماذا يتقونا^(٢)
نخاريق بأيدي لاعبيننا^(٣)
خضين بأرجوان أو طليننا^(٤)
من الهول المشبه أن يكونا^(٥)
محافظة وكنا السابقينا^(٦)
وشيب فى الحروب مجربينا^(٧)
مقارعة بنهم عن بنينا^(٨)
فتصبح خيلنا عصبنا^(٩)
فمنع غارة متلبيننا^(١٠)
ندق به السهولة والحزونا^(١١)

- (١) الأحفاض جمع حفى وهو المتاع .
(٢) النخاريق جمع مخراق وهو ثوب يقتل ويأبى به . وانظر ما سبق فى صفحة ٢٩٢ .
(٣) خضين صبغ . الأرجوان صبغ أحمر شديد الحمرة . والمراد بالثياب المذبات التى تربط بأطراف الرماح .
(٤) ماعى عجز . الإسفاف الإقدام . الهول الرعب . المشبه أن يلتبس الأمر عليهم فلا يعلمون كيف يتوجهون له .
(٥) رهوة اسم جبل . ذات حد ذات قوة . شيب جمع أشيب .
(٦) حديثا اسم من التحدى طلب المباراة . المقارعة المضاربة .
(٧) عصبنا — جمع عصبة — جماعات . الثيون الجماعات من الناس أو الخيل غير متفرقة ، مفرد هاتبة بضم الهاء .
(٨) أمعن فى الأمر أبعد فيه وأوغل . التلبى التحزم بالصلاح والاستعداد للأمر .
(٩) الرأس الحى لا يحتاج إلى معونة ، أو الرأس رئيس القوم وسيدهم . السهولة الأرض الحزون جمع حزن بفتح الحاء وسكون الزاى : الأرض الغليظة الوعرة ، والمراد الضفاف من الناس والأشياء منهم .

وَيَنْتَقِلْ عَمْرُو بْنُ كَثُومٍ مِنْ هَذَا الْفَخْرِ بِسَالَةِ قَوْمِهِ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ الَّذِينَ وَرَثُوا أَمْجَادَهُمْ :

فَهَلْ حَدَّثَتْ فِي جُشَمِ بْنِ بَكْرٍ بِنَقَصٍ فِي خُطُوبِ الْأَوَّلِينَ
وَرَثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بْنِ سَيْفٍ أَبَاحَ لَنَا حِصُونَ الْمَجْدَيْنَا^(١)
وَرِثْتُ مُهْلَلاً وَخَيْرَ مِنْهُمْ زَهيراً نَعَمْ ذُخْرُ الدَّاهِرِينَ
وَعَتَاباً وَكَثُوماً جَمِيعاً بِهِمْ نَلْنَا تَرَاثَ الْأَكْرَمِينَ
وَذَا الْبُرَّةِ الَّذِي حَدَّثَ عَنْهُ بِهِ نَحْمَى وَنَحْمَى الْمُخَجَّرِينَ^(٢)

وَمَنَا قَبْلَهُ الدَّاعِي كَلِيبُ فَأَيُّ الْمَجْدِ إِلَّا قَدْ وَلِينَا

وهؤلاء رجال يعرفهم العرب بالنجدة والإمراع إلى القتال غير مباينين بأحوال الحروب ، حتى لقد وصفهم أبو عمرو الشيباني ووصف قبيلة تغلب بن وائل بأنها كانت من أشد الناس في الجاهلية . وقالوا : لو أبطأ الإسلام قليلاً لأكلت بنو تغلب الناس^(٣) ! وكان علقة بن سيف هو الذي أنزل بني تغلب الجزيرة ، وكان مهمل صاحب حرب وائل التي تسمى حرب البسوس أربعين سنة ، وهو جد عمرو بن كثوم من قبل أمه ، وكان زهير جده من قبل أبيه ، وكذلك عتاب ، وكعب بن زهير الذي لقبوه بذي البرة ، لأنه كان على أنفه شعر خشن فشبّه بالبرة التي تكون في أنف البعير .

وبمثل ذلك الفخر الذي فخر عمرو بن كثوم فخر الحارث بن حنظل لسان بني بكر بن وائل ، الذي فخر بأن قومه لا يخشون صولة الملوك ، ولا يرهبون سعاية السعاة بقبيلته إليهم ، لأن لهم عزة ثابتة يعرفها العرب لهم ، وتحميهم من السعاة ومن بطش الملوك :

(١) أباح حصون المجد فتحها وجعلها مباحة لنا . الدين القلبية والقهر .

(٢) المحجرون الذين قد أُلجئوا إلى الضيق ، والبرة في الأصل الحلقة التي تجعل في

أنف البعير .

(٣) شرح القصائد المعمر للتبريزي ٢١٥ .

أبها الناطق المرقش عثا عند عمرو وهل لذاك بقاء^(١)
 لا تخلفنا على غراتك إننا قبل ماقد وشى بنا الأعداء^(٢)
 فبقينا على الشنائة تنمى لنا حصون وعزة قعساء^(٣)
 قبل ما اليوم بيضت بعيون الذ اس فيها تعيط وإباه^(٤)
 وكأن المنون تردى بنا أر عن جونا ينجاب عنه العاه^(٥)
 مكفهرأ على الحوادث لآثر نوه للدهر مؤيد صباه^(٦)

و يفخر بموقف قومه في أيام الفتنة التي أغارت فيها بعض أحياء العرب على بعض ، حتى فزعت الأحياء ، وعمها الرعب ، وثبت قومه في مواقف الشدة ، بل إنهم استطاعوا الإغارة على الأحياء المنيعة ، فظفروا بها وسبوا نساءها :

هل علمت أيام ينتهب الناء س غواراً لكل حتى عواء^(٧)
 إذ رفعنا الجبال من سعف البح رين سيرا حتى نهاها الحساء^(٨)
 ثم ملنا على تميم فأحره لنا وفيها بنات مرة إماه^(٩)

(١) المرقش الزين القول بالباطل ليقبل منه الملك باطله .

(٢) و (٣) و (٤) سبق شرح معاني ألفاظها في هامش (١) ص (٢٨٩) .

(٥) تردى ترمى ، الأرعن الجبل الذى له أنف يتقدمه ، الجون الأسود ، ينجاب عنه أى ينشق عنه ، العاه السحاب الرقيق .

(٦) المكفهر الغليظ المتراكب بعضه على بعض . ومنه اكفهر فلان إذا نظر بغيظ ، لآثر توه لا تنقصه ، المؤيد الشديد الأيد أى القوة ، ويبنى بالمؤيد الداهية ، والسماء التى لا تسمع يريد شدة الجبل ، وأن الحوادث لا تؤثر فيه .

(٧) الفوار مصدر غاور القوم غوارا ، إذا أغار بعضهم على بعض ، والعواء الصياح مما يقرل بهم من الإغارة .

(٨) السعف أغصان النخلة ، ويعنى بالسعف النخل لأنه منه . رفعنا الجبال فى السير أى سرنا سبارفعا — ويروى ركبا الجبال — نهاها نهايتها .

(٩) أحرمتنا دخلنا فى الأشهر الحرم ، وهى ذوالقعدة ، وذو الحجة ، والحرم ، ورجب ، وكانت العرب لا يستحلون فيها قتالا ، مر هو أبو تميم .

لَا يَقِيمُ الْعَزِيزُ بِالْبَلَدِ السَّامِ لَ لَا يَنْفَعُ الْقَدِيلَ النَّجَاهُ^(١)
لَيْسَ يَنْجِي مُوَاتِلًا مِنْ حِذَارٍ رَأْسُ طُودٍ وَحَرَّةٌ رَجْلَاهُ^(٢)
فَلَكُنَا بِذَلِكَ النَّاسِ حَتَّى مَلِكٌ لِلنَّذْرِ بِنَ مَاءِ السَّمَاءِ

ولم يقف فخر العارث بن حلزة عند الزهو ببسالة قومه وقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم ومواليهم ، والإغارة على أعدائهم ، واستطاعتهم النهب والسبي ، والثبات في أوقات الرعب والفرع ، بل تجاوز هذا الفخر إلى الزهو بما قدم قومه إلى الملوك الذين كانوا يستنجدون بهم ، فيجدون عندهم النجدة التي ترد أطماع الطامعين في ملكهم ، كقوله فيما أسدوا إلى عمرو بن هند :

مَنْ لَنَا عَنْدَهُ مِنَ الْخَيْرِ آيَا تَ ثَلَاثٌ فِي كُلِّ مَنِّ الْقَضَاءِ
آيَةُ شَارِقِ الشَّقِيقَةِ إِذَا جَا وَأَوَّاجِيماً لِكُلِّ حَيٍّ لَوَاءِ^(٣)
حَوْلَ قَيْسٍ مُسْتَلْتَمِينَ بِكَبْشٍ قَرْطَى كَأَنَّهُ عِبْلَاءُ^(٤)
وَصَيِّتٍ مِنَ الْعَوَاتِكِ لَاتِنَ مَاهُ إِلَّا مَبِيضَةٌ رَعْلَاءُ^(٥)
فَرَدَدْنَا هُمْ بَطْعَانِ كَأَنَّهُمْ رَجُ مِنْ خُرْبَةِ الْمَزَادِ الْمَاءِ^(٦)

(١) النجاء الهرب .

(٢) الموائل الذي يطلب موثلاً يهرب إليه . الطود الجبل . الحرة كل موضع فيه حجارة سود . الرجلة الصلبة الشديدة .

(٣) بنو الشقيقة قوم من بني شيبان جاءوا يغيرون على إبل عمرو بن هند ، وعليهم قيس ابن معد يكرب ، فردتهم بنو يشكر وقتلوا فيهم . شارق جاء من قبل المشرق .

(٤) المستلم الذي لبس الامة وهي الدرع ، قرطى مندوب إلى البلاد التي يكثر فيها القرط وهي اليمن . العباء هنا الهضبة البيضاء .

(٥) الصيت الجماعة . العواتك نساء من كندة من الملوك . المبيضة التي توضع بياض العظم . الرعلاء الضربة المسترخية اللحم من الجانبين .

(٦) خربة المزاد فم الزادة الأسفل ، وهي الغزلاء مصب الماء من القرية في أسفلها .

وحلنهم على حزم نهـلا ن شلالاً ودُمى الأنساء^(١)
 وجبهنهم بطـنـن كا تـهـز في جمة الطوى الدلاء^(٢)
 وفعلنا بهم كا علم الله وما إن للحائنين دماء^(٣)
 ثم حجراً أعنى ابن أم قطام وله فارسية خضراء^(٤)
 أسد في اللقاء وزد هموس^(٥) وربيع إن شمرت غبراء^(٦)
 وفككتنا غل امرى القيس عنه بعد ما طال حبسه والعناء
 وأقدناه رب غسان بالذـنـكرها إذ لاتكال الدماء^(٧)
 وأتيناهم بتسعة أملا كـرام أسلابهم أغلاء^(٨)
 ومع الجون جون آل بنى الأو س عنود كأنها دفواء^(٩)
 ماجرنا تحت المعجاجة إذ وآ ت بأقفائها وحر الصلاة^(١٠)

-
- (١) الحزم والمزن ما غلظ من الأرض والجبال . نهلان جبل . شلالا هرايا . الأنساء جمع نساعرق في الساق الأسفل .
 (٢) الجبه أسوأ الرد . تهز تحرك . جمة الطوى معظم الماء فيه ، والطوى البئر المطوية .
 (٣) الحائنين الذين حان حينهم وجاء أجلهم ، وليس لهم دماء أى لا يطالب بها ، ويروى « ذماء » بالذال وهو بقية النفس .
 (٤) له فارسية خضراء أى كتيبة سلاحها من عمل فارس ، والمضراء الكتيبة يكثر سلاحها فتكون كأنها خضراء .
 (٥) هموس الخنزال الذى يخفى وطأه حتى يأخذ فريسته . الغبراء السنة القليلة المطر .
 (٦) أقدناه ثأرنا له . لاتكال الدماء من كثرتها ، أولأنها ذهبت هدرا فليس فيها ثود .
 (٧) أى أتيناهم بتسعة ملوك غالية أسلابهم .
 (٨) الجون ملك من ملوك كندة ، وهو ابن عم قيس بن معد بكر ، وكان غزا بنى بكر فقاتلته بنو بكر وهزمته ، وأخذوا ابنه وجاءوا به إلى المنذر . العنود : الكتيبة المحكمة .
 (٩) الدفواء الكتيبة المنحنية يصف كثرتها .
 (١٠) المعجاجة الغبار الذى شيره الخيل بسنابكها . بأقفائها بأعجازها . الصلاة النار .

وهكذا تفيض أكثر المملقات بهذا اللون من الفخر بالشجاعة والإقدام ،
ولا سيما مملقات طرفة وعنزة وعمر و الحارث .

(٤) باب الحكمة

وهو غرض من الأغراض التي يوحى بها طول التجارب ، وممارسة الأحداث ،
والخلوص منها بنتيجة من النتائج يرضى عنها الناس ويقبلونها ، لأنهم يرون هذه
التجارب في أنفسهم وفي ذويهم وفيمن رأوا وعرفوا من الناس ، وفي أحداث
الحياة وتقلباتها وتصرفها بالبشر .

وطول التجربة سبب من أسباب الحكمة التي تجري على اللسان ، أو تصاغ
في قالب شعري أو في عبارة نثرية ، كما أن فطنة المرء ودقة إحساسه بما حوله ،
وتأثره العقلي أو العاطفي من عوامل إرسال الأقوال الحكيمة التي تقع موقعها
من قلوب البشر وعقولهم .

وعلى هذا فليس من الضروري أن يكون أصحاب الحكمة من المسنين
الذين مدت لهم الحياة في حبال العمر ، ولامن الذين اصطبقوا بصيغة تلك الأحداث
أو شاركوا فيها ، وإنما تكفي النفس الحساسة ، والبصيرة النافذة التي نستطيع
أن تنفذ إلى أغوار النفوس وأسرار الحياة وأخلاق البشر ؛ وإن قصرت
بأصحابها الأعمار .

وفي بعض المملقات أمثال كثيرة لتلك الحكم التي وقعت موقعها من نفوس
العرب في الجاهلية ، ثم تراوها الناس وحفظوها ، واتخذوا منها أمثالا جرت
على ألسنتهم ، وتنقلت في العصور المختلفة ، وبذلك عاشت في الزمن لأن كل إنسان
يرى فيها طبيعة نفسه ، وكأن الشاعر إذ تحدث إنما كان يتحدث بلسانه ، لأنه
كان يعبر عن شعوره ، وعن شعور كل إنسان .

وتظهر الحكمة أكثر ما تظهر في معلقى طرفه بن العبد وزهير بن أبي سلمى ،
أما الأول فلنبوغه المبكر ، وشدة حساسيته بما حوله ، وأما الآخر فلذكورة
ما شهد من الأحداث ، وكثرة ما عرف من أخلاق الناس وعنادهم وبغيتهم ، فقد
شهد خيانات وحروباً ، كما شهد صلحاً ونقضاً ، ورأى دماء نسيلاً ولا يقادها ،
ورأى قصاصاً على الجرائم التافهة ، ورأى جوداً وتضحية وبذلاً ، كما رأى شجاً
وجبناً وغدراً . واستطاع أن يستخلص من كل أولئك الحكمة البالغة ، وأن يصوغ
المثل السائر الذى حفظته الأجيال وتفتت به إذا ما عرض لها مثل الأسباب التى
أدت إلى صوغه فى عبارات محكمة رصينة .

ومن أبيات طرفه التى تتصل بها الغرض قوله :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
فإن كنتَ لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدي
وهى من حكم الحياة التى يؤمن بها أمثاله من أولئك الشبان الذين عكفوا
على اللذات غير مباليين بالحياة ، ولا حريصين على مالٍ أوجاه ، لأنهم عرفوا
أن مقامهم فى تلك الحياة قصير ، وأنه ليس لحيّ بقاء .

وقوله فى مصير الإنسان ، وأن الموت يسوئى بين الناس جميعاً ، وأن
قبر الكريم الم صرف على نفسه لا يقل عن قبر البخيل الشحيح الحريص على
النفس والمال والمتاع :

أرى قبر نعامٍ بخيلٍ بماله كقبر غوىٍّ فى البطالة مُفسدٍ^(١)
ترى جثوتين من ترابٍ عليهما صفائحٌ صُمِّ من صفائحٍ منضدٍ^(٢)

(١) النعام البخيل . الغوى الذى يقبع هواه .

(٢) الجثوة التراب المجموع . الصم الصلبة . المنضد الذى تضد بعضه على بعض .

أرى الموت يعقام الكرام ويصطفى
أرى العيش كنزاً ناقصاً كلَّ ليلةٍ
لعمرك إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى
مقَى ما بشأ يوماً يقدُّه لحنفه
عقيلةٌ مال الفاحش المتشدِّد^(١)
وما تنقص الأيام والدهرُ ينفدُ
لما لطول الرخى وثنياهُ باليد^(٢)
ومن يكُ في جبل المنية ينفدُ
نم يقول :

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى
ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له
لعمرك ما الأيام إلا معارة
عن المرء لانسال وأبصر قرينه
ومن الحكمة للأثورة والمثل السائر قوله :

وظلم ذوى القربى أشدُّ مضاضةً
وعلى المرء من وقع الحسام المهند
ومن أبيات الحكمة فى معلة زهير فى قصور الإنسان عن علم ما فى غده ،
وجهله بنهاية أجله ، واضطراره للصناعة فى بعض أموره ، وأثر المعروف والبر
فى النفوس ، وفى أخلاق أكثر الناس ، وفى أن الظلم طبيعة فىهم :

وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله
ولكننى عن علم ما فى غد عم
رايت المنايا خبط عشواء من تصب
نمتته ومن تخطى يعمر فيهرم

(١) يتمم يختار . العقيلة فى الأصل المرأة الكريمة النفيسة ، ثم استعمل فى الكريم من كل شئ من الذوات والمائى .

(٢) الطول الجبل ، وثنياه ما نثى منه ، ويقال : هما طرفاه لأنهما يقنيان . وقوله
« ما أخطأ الفتى » أى فى إخطائه الفتى ، أى فى أن يطول عمره .

ومن لم يصانع في أمور كثيرة
ومن يحمل المعروف من دون عرضه
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
ومن يوف لا يذم ومن يهد قلبه
ومن هاب أسباب المنايا ينلته
ومن يحمل المعروف في غير أهله
ومن يغيث أطراف الزجاج فإنه
ومن لم يذذ عن حوضه بسلاحه
ومن يغترب بحسب عدوا صديقه
ومهما تكن عند امرئ من خلية
وكان ترى من صامت لك ، عجيب
لسان الفقي نصف ونصف فؤاده
وكانت هذه الآيات المتتابعة في الحكمة السائرة من أهم ما اعتازت به
تلك المعلة ، كما كانت من أهم الأسباب في شهرة صاحبها وذويع صيته في تاريخ
الشعر العربي .

(١) المنسم للبعير بمنزلة الظفر للانسان .

(٢) لا يتجمجم لا يتردد .

(٣) الزواج جمع زج ، وهو الحديدة التي تكون في أسفل الرمح ؛ والعوالى جمع عالية
وهى أعلى الرمح . واللهزم السنان الماضية النافذة ، وهذا تثيل أى من لا يقبل الأمر
الصغير يضطر إلى أن يقبل الأمر الكبير . وقال أبو عبيدة : معنى هذا أن من لا يقبل الصلح
وهو الزوج الذى لا يقاتل به فإنه يطعم الحرب وهو السنان الفى يقاتل به .

(٥) باب المديح:

وإذا استبعدنا الشعر الكثير الذى قيل فى ثناء الشاعر على آبائه وأجداده ،
وتغنيه بأجداد قبيلته مما يدخل فى باب الفخر على الوجه الذى سلف ، ألفينا الشعر
الذى يحسب فى باب المديح من المعلقات قليلاً ؛ بل إننا على التحقيق لا نجد
إلا فى معلقة واحدة هى معلقة زهير ، وذلك فى مديحه عظمى غطفان الحارث
ابن عوف وهرم بن سنان اللذين تحملاً ديات القلى فى أموالهما ليكفأ قبيلتى
عبس وذبيان عن القتال ؛ ذلك للمديح الذى يقول فيه :

سَمَى سَاعِيَا غِيْظَ بَنِ مَرْثَةَ بَعْدَ مَا تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالْدَمِ^(١)
فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِى طَافَ حَوْلَهُ رَجَالُ بَنُوهُ مِنْ قُرْبِشٍ وَجُرُفُمِ^(٢)
يَمِينًا لَنَعْمَ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ^(٣)
تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا وَذُبْيَانٍ بَعْدَمَا نَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عَطَرَ مَنَشِمِ^(٤)
وَقَدْ قَلْتُمَا إِنْ نُدْرِكُ السَّلْمَ وَاسْعَا بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ نَسْلَمِ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ ذُقُوقِ وَمَآئِمِ

(١) الساعيان الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، وقبل الحارث بن عوف وخارجة
ابن سنان ، سمياً فى الديات ، وهن سباع ملاحا ، وغبظ بن مرة من ولد عبد الله
ابن غطفان ، تبزل تشق ، وهذا تشبيل أى كان بينهم صاحب فتشقى بالدم ، فسمى ساعيا غبظ
ابن مرة فأصلحاه .

(٢) يعنى بالبيت السكبة ، وجرحهم كانوا ولاة البيت قبل قريش .

(٣) المرم الأمر المحكم ، والسحيل غير المحكم ، وأصل السجل والمبرم أن المبرم يفتل
خيطين حتى يصيرا خيطا واحدا ، والسحيل خيط واحد لا يضم إليه آخر .

(٤) قالوا إن منشم امرأة عطارة فتجاف قوم فأدخلوا أيديهم فى عطرها ، ثم خرجوا إلى
الحرب فقتلوا جميعا ، فتشاءمت العرب بها ، وضربوا بعطرها المثل .

عظيمين في عليا معدة هدينا ومن يستبح كنزاً من المجد ينفهم
تغنى الكاوم بالثين فأصبحت ينجمها من ليس فيها بمجرم^(١)
ينجمها قوم لقوم غرامة ولم يهريقوا بينهم ملء مجتمهم^(٢)
فأصبح يجرى فيهم من تلادكم مقام شتى من إقال مزنهم^(٣)
والسبب في قلة المديح في المعلقة أن أصحابها كما رأينا كانوا من السادة
الأشراف ، أو من الفتيان أولى الحمية والأنفة ، وهؤلاء كانوا لا يقولون الشعر رغبا
ولا رهبا ، ولا يطلبون به عطاء ولا كسبا ، والمديح إنما يكثر ويجود مع وجود
الربة .

وكذلك لم يحتل المهجاء منزلته بين أغراض الشعر في المعلقة ، إلا ما جاء
منه عرضاً في مجال الفخر بأنفسهم وأقوامهم ، والتعريض بأعدائهم وخصومهم .

٢ — ألفاظ المعلقة وأساليبها

قد يكون من العسير أن تنعت ألفاظ المعلقة كلها نعتاً واحداً ، يصدق عليها
جميعاً ، فإن الاختلاف ظاهر بين لغة المعلقة ، بل إن المعلقة الواحدة تختلف
ألفاظها بين الخشونة والرفقة ، وبين الجزالة والسهولة ، وكذلك تختلف فيما بينها
من حيث شيوع الغريب والحوشى في بعضها ، أو في مواضع منها ، أو في أجزاء
من المعلقة الواحدة .

(١) تغنى أى تحمى الجراح بالثين من الإبل تؤدى ويجهلون بها نجومها .

(٢) لم يهريقوا لم يصيبوا ، والحجم آلة الحجامة .

(٣) التلاد المال الموروث ، الإقال الفصلان الواحد أفيل والأثنى أفية . المزنم غل معروف

نسب إليه ، والترنيم علامة كانت تجعل على ضرب من الإبل كرام ، وهو أن يشق طرف
أذن البعير ويقتل .

ومرجع هذا الاختلاف هو تعدد الأغراض في تلك القصائد . ولا شك أن اللغة الشعرية تختلف على حسب ما تؤدّي من المعاني والأغراض . فالألفاظ التي تصاح للوصف تختلف عن الألفاظ الصالحة للفخر ، أو الصالحة للنسيب . ثم إن هذه اللغة تختلف من شاعر إلى شاعر على حسب طبيعة كل منهما ، وإمكانه في الحياة المتبدّية ، أو قربه من الحياة المتحضرة ، ففي طبيعة بعض الناس خشونة وفي حياتهم شظف ، وهؤلاء لا تطاوعهم الألفاظ الرقيقة ، كما أن في طبيعة بعضهم وفي حياتهم نعيماً وترفاً ، ولذلك رقت ألفاظهم ، وعذبت لغتهم طوعاً من غير تكلف أو استكراه .

وإذا كنا قد قلنا بأن شعر المملقات هو الصورة المثلى للشعر عندهم ، فمن الممكن القول بأن لغة الشعر في المملقات هي الصورة المثلى للتعبير الشعري عندهم أو اللغة الأدبية كما كانوا يتصورونها ، وهي خلاصة اللغة التي كانوا يستعملونها في التعبير عن مختلف حاجاتهم .

وهذه اللغة الأدبية تتمثل فيها خصائص اللغة العربية في إبان نضجها وأوقات ازدهارها ، وهي اللغة التي نزل القرآن الكريم بالمهذب منها ، الذي تلافي ما فيها من العيوب ، ليكون صالحاً لكل زمان ومكان ، وكذلك الحديث النبوي ، والشعر العربي الذي اختلفت لغته وصلته بالشعر الجاهلي على حسب القرب أو البعد من العصر الذي أنشد فيه ، أو القرب أو البعد عن الحياة البدوية ، فلهذا ذي الرمة مثلاً ، وهو من شعراء عصر بني أمية ، لا تبتعد عن لغة هذا الشعر الجاهلي الذي نجد صورته في المملقات ؛ وذلك لأن حياته لم تبعد كثيراً عن حياة العرب في باديتهم الأولى

وفي ألفاظ المملقات ما يصح أن ينبعث بالغرابة أو الحوشية ، ولكنهما وصفان غير أصيلين فيها . والدليل على ذلك أننا لم نثر على قول قديم ينقد هذا الشعر

بغرابته أو حوشيته في البيئة التي قيل فيها هذا الشعر ، أو في السنين القريبة من ذلك العصر . وإنما وجد هذا النقد في العصور التالية التي لانت ألسنتها وتهذبت لغتها بفعل الحضارة ، وتأثير القرآن الكريم الذي عدت ألفاظه وأساليبه نمطاً رفيعاً للتعبير مع خلوه من تلك الألفاظ التي توصف بالحوشية ؛ وكان ذلك سبباً من أسباب إعجازه ، ومراً من أمرار تفوقه على أساليب الفحول المذكورين بالسبق والإجادة .

وعلى هذا يمكن القول بأن الغرابة والحوشية صفان اعتباريان ، لا وصفان أصيلان ، فإن تلك الألفاظ التي تنعت بأحد النعتين أو كليهما^(١) إنما كانت بالنسبة إلى العصور المتأخرة ، أو العصور المتحضرة . وإنما يكون ذلك النقد في محله لو أن الجاهليين الذين قيل فيهم هذا الشعر أحسوا بشيء من الغرابة أو الحوشية ؛ واللغة كأن حتى ينمو وتتغير ويتطور ، ويضيف وينفي ، وكذلك يتغير الذوق اللغوي العام ، كما يتغير الذوق الفني العام من بيئة إلى بيئة ومن زمان إلى زمان ؛ فليس حكم المحدثين على لفظ بالغرابة أو الحوشية بمقتضى هذا الحكم نفسه عند الأقدمين .

ومع ذلك فإن أكثر ما في ألفاظ المعلقات مما يصحح أن يوصف بأحد هذين الوصفين يرجع إلى أنه كان أسماء لمسميات لم نعد نستعملها ، وأسماء لمواضع لم نعد نراها ، ولنبات وأجزاء الحيوان لم نعد نألفها ، ولم ندم ملازمتها كما كان أولئك الأقدمون يديمون صحبتها ، ولا يفارقونها في ظمئهم أو إقامتهم .

(١) لم يفرق القدماء بين « الغريب » و « الوحشى » من الألفاظ بل ذكروها مقترنين في عيوب اللفظ ؛ وعندى أن الغريب ما خفي معناه ، لأنه ليس من ألفة العصر التي يستعملها الأدباء ، وليس من لغة أوساط الناس ، فإذا ورد لم يفهم معناه في يسر وسهولة ، وقد يقضى الفهم بسؤال عالم اللغة ، أو بالرجوع إلى معجم من معاجمها . أما الوحشى فإن استبشاعه ناشئ عما فيه من نقل في الحروف التي بنيت منها الكلمة ، فإذا نطق فطق مستكراها ، ولذلك لم يتكرر في كلام أصحاب اللغة ، وإنما نطقه ابتداء الجفافة منهم ، فإذا سمعه غيرهم كرهوه واستهجنوه ، وعلى هذا يكون عيب الغريب في معناه ، وعيب الوحشى في لفظه ، وقد يجتمع العيبان في اللفظ الواحد .

ونورد فيما يلي أسماء يعرفها عرب الجاهلية ومن بعدهم تمام المعرفة ، وقد يجهل أكثرها غيرهم لأنهم لاعد لهم بها ، ومن ذلك :

(١) منه أسماء المواضع والبلد والخيال :

الأبلاء : ح ٤ — اسم بئر^(١) .

الأنذرین : ك ١ — قرية بينها وبين حلب مسيرة يوم للراكب .

البحرين : ح ٣٣ — اسم جامع لبلاد على ساحل البحرين بين البصرة وعمان من جزيرة العرب ، وعمان آخرها ، ومدينتها هجر ، وبينها وبين البصرة خمسة عشر يوماً ، وبينها وبين عمان مسيرة شهر .

البدی : ل ٧١ — واد لبنى عامر بنجد .

برقاء نطاع : ح ٥٣ — قرية من قرى اليمامة .

بعلبك : ك ٧ — مدينة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام .

بيشة : ل ١٥ — اسم واد من أودية تهامة .

تبالة : ل ٧٥ — بلدة باليمن كثيرة الفواكه والثمار .

توضح : س ٢ ، ل ١٤ — كتيب أبيض بين كتيبان حمر بالدهناء قرب اليمامة ، واسم قرية من قرى اليمامة .

تياء : س ٨١ — بلد في أطراف الشام ، من أمهات القرى .

ثبير : س ٨٢ — اسم جبل ، وهي أربعة أنثرة : ثبير غيناء ، وثبير الأعوج ، وثبير الأحذب ، وثبير حراء .

(١) رتبنا هذه الأسماء على حسب الحروف الهجائية مراعين الحرف الأول في الترتيب ، ورتبنا المعلقة التي ورد فيها الاسم بحرف يدل على كل معلقة ، احترازاً من التكرار ، وكذلك أشرنا إلى كل بيت بذكر رقه في المعلقة ، وقد اخترنا لكل معلقة حرفاً يدل عليها على النحو الآتي :

س = معلقة امرئ القيس . ط = معلقة طرفة . ز = معلقة زهير . ل = معلقة لبيد .

ك = معلقة عمرو بن كلثوم . ح = معلقة عنزة . ح = معلقة الحارث بن حنظلة .

الثلثيوت : ل ٢٧ — ماء لبني ذبيان ، أو واد ، أو أرض بين طي وذيبيان .

تهلان : ح ٧٤ — جبل ضخم بالعالية ، وقيل في بلاد بني نمير .

تهمد : ط ١ — جبل ، أو موضع في ديار بني عامر .

الجلان : ل ١٨ — جبلا طي ، وهما أجأ وسلمى .

جرثم : ز ٧ — ماء لبني أسد بن القنان وترمس .

الجلهتان : ل ٦ — مكانان في حمى ضرية^(١) .

الجواء : س ٨٥ ، ع ٤ و ٧ — موضع بالصَّمان ، واد في ديار بني عبس أو أسد .

الحجاز : ل ١٧ — في الأصل جبل ممتد يحجز بين غور تهامة ونجد .

الحزن : ع ٧ — طريق بين المدينة وخيبر ، وهو من منازل بني يربوع .

الحساء : ح ٢٣ — مياه لبني فزارة بين الربذة ونخل ، يقال لمكانها ذو حساء .

حومل : س ١ ط ٣٥ — موضع بين إمرة وأسود العين .

الحياران : ح ٣٨ — بلدان . وقيل موضع ، وحيار بني القمقاع بينه وبين حلب .

يومان ، وهو صقع من بركة قنسرين^(٢) .

خزازی : ك ٦٨ ، ح ٨ — وخزآز أيضاً ، جبل يازاء حمى ضرية ، وقيل جبل

بطخفة^(٣) في طريق البصرة إلى مكة ، وينسب إليه يوم للعرب .

الخط : ك ٣٦ — أرض تنسب إليها الرماح ، وهو خط عُثمان في سيف البحرين ،

والسيف كله الخط .

(١) ضربة صقع واسع بنجد ينسب إليه الحمى ، ينزل به حاج البصرة بن المدينة وطخفة .

(٢) قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة ، كانت عامرة آهلة ، فلما غلب الروم على حلب في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة خاف أهل قنسرين وجلوا عنها وتفرقوا في البلاد ، ولم يبق بها إلا خان تنزله القوافل [انظر مرصد الاطلاع ١١٢٦/٣] .

(٣) طخفة بكسر الطاء وفتحها موضع طريق البصرة إلى مكة ، وبه يوم للعرب .

الخلصاء : ح ٢ - بلد بالدهناء^(١) ، وأرض بالبادية فيها عين ماء لعبادة بالحجاز .
دائرة جلجل : س ١٠ - الدارة رمل مستدير قدر ميلين تحفه الجبال ، ودائرة
جلجل موضع بعينه في ديار الضباب فيما يواجه ديار فزارة .

دجلة : ط ٢٩ - النهر العظيم الذي يشق بغداد .

الدُّخْرُضَان : ع ٣٢ - ماءان ، يقال لأحدهما « دحرض » والآخر « وشيع »
فلما ثناهما غلب أحدهما على الآخر ، وهذان الماءان بين سعد وقشير ،
قيل هما وراء الدهناء .

الدَّخُول : س ١ - واد في أودية العُلمية بأرض البهامة ، وبئر نَميرة كثيرة الماء .
دَد : ط ٣ - اسم واد .
دمشق : ك ٧ - البلد المشهور ، قصبة الشام .

ذو طلوح : ك ٦٨ - اسم موضع للضباب في مشاكلة حمى ضَرِيَّة ، وقيل في حَزْن
بنى يربوع بين الكوفة وفيد . ذو العشيرة : ع ٣١ - موضع بالصمان .
ذو المجاز : ح ٤١ - موضع سوق بعرفة ، كانت تقوم به في الجاهلية ثمانية أيام .
الرَّجَام : ل ١ - جبل طويل أحمر ، وهضبات حمر بلاد بني عامر .

رخام : ل ١٨ - موضع في جبال طي .
الرداع : ع ٣٦ - اسم ماء .
الوقتتان : ز ٢ - روضتان بناحية الصمان .

رياض القطا : ح ٤ - رياض بعينها ، يكثر فيها استنقاخ الماء ودوامة ، فغضب
فتألفها الطير .

(١) الدهناء : الوادي الذي في بلاد بني تميم ببادية البصرة في أرض بني سعد يسمونه
الدهناء ، يمر في بلاد بني أسد فيسمونه منيع ، ثم في غطفان فيسمونه الرمة ، وهو بطن
الرمة الذي بطريق مكة في طريق فيد إلى المدينة ، وهو وادي الحاجر يمر في بلاد طيء فيسمونه
حائل ، ثم يمر في بلاد كلب فيسمونه قراقر ، ثم يمر في بلاد تغلب فيسمونه سوى ...
(٢) العاربة كل ما كان من جهة نجد من المدينة قراها وعمائرهما إلى تهامة العالية ، وما
كان دون ذلك السافلة . وقيل عالية الحجاز أعلاها بلداً ، وأشرفها موضعاً ، وهي بلاد واسعة .
وقيل العالية ما جاوز الرمة إلى مكة .

الريان : ل - ٢ جبل في ديار طي ، وواد في حمى ضرية في أرض كلاب ،
وجبل في بلاد بني عامر .

الستار : س ٨٧ - جبل بأجأ ، وناحية بالبحرين ذات قرى كثيرة لبني امرئ
القيس ، وجبل في ضرية .

سقط اللوى : س ١ - موضع بين إمرة وأسود العين ، وأسود العين جبل ، وهو
من منازل بني كلاب .

الشوبان : ز ١٠ ، ١٤ - واد ، وأرض ، وجبل . الشام : ط ٣١ .

الشامات : ك ٢٨ - على ثلاثة فراسخ من ناحية الجبل ، والجبل كورة بمحص .
شخصان : ح ٧ - اسم أكمة لها شعبتان .

شدن : ع ٢٦ - موضع باليمن تنسب إليه الإبل الشدية .

الشربب : ح ٤ - واد في ديار بني سليم . الشعبتان : ح ٤ - أكمة لها قرنان فانتان .
شماء : ح ٢ - هضبة في حمى ضرية . الشميم : س ٧٨ - جبل بنجد .

الصاقب : ح ٢٨ - جبل ضخم ، تلقاء ملحمة .

صحراء الغبيط : س ٨٤ - هي الحزن ، وهي أرض بني يربوع ، والغبيط أكمة
يرتفع طرفاها ويطمئن وسطها . صعايد : ل ٤٥ - اسم موضع .

الصفاح : ح ٣ - موضع بين حنين وأنصاب الحرم .

الصمان : ع ٧ - أرض غليظة دون الجبل لبني حنظلة ، وجبل في أرض نعيم أحمر .
صوائق : ل ١٩ - جبل بالحجاز قرب مكة لهذيل .

ضارج : س ٧٧ - موضع باليمن .

ضرعد : ط ٨١ - جبل ، وقيل حرة في بلاد غطفان ، وقيل ماء لبني مرة وقيل
أرض لبني هذيل وبني غاضرة .

طلخام : ل ١٩ - اسم موضع . ظبي : س ٤٣ - بلد قريب من ذي قار .

عاذب : خ ٣ - اسم واد أو جبل . عدولى : ط ٤ - قرية بالبحرين .

العذيب : س ٧٧ - ماء عن يمين القادسية لبني نعيم ، بينه وبين القادسية أربعة أميال : العراق : ز ٣٣ . العقيق : ح ٧ - عقيق عارض باليمامة ، واد واسع .
العلاة : ح ٩٠ - مكان قريب من العوصاء .

العلياء : ح ٦ - هي العالية ، وهي الحجاز وما يليه من بلاد قيس .
عنبرتان : ع ١٢ - عنبرة موضع بين البصرة ومكة ، وبئر لبني عامر بن كريب ،
وواد من أودية اليمامة .

العوصاء : ح ٦٠ - قرية من العلاة أو العلياء ، وهي أقرب أرض أنزلها النعمان
ميسون بعد أن قتل أباه .

الغول : ل ١ - جبل ، وقيل ماء معروف للضباب يحوف طخفة به نخل .

الغيلم : ع ١٢ - اسم موضع . فتاق : ح ٣ - اسم موضع

فردة : ل ١٨ - ماء بالثلبوت لبني نعام ، واسم جبل في ديار طيء .

فيد . ل ١٧ - بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة ، وهي بقرب أجأ أحد
جبل طيء . قاصرين : ك ٧ - بلد كان بقرب بالس على الفرات .

قطن : س ٧٨ - جبل بنجد في بلاد بني أسد .

القفان : ط ٥ - مثني قف ، وهو ما ارتفع من الأرض وغلظ ، وهو علم لواء
من أودية المدينة .

القنكان : س ٨٠ ، ز ٨ - جبل لبني أسد . كتيبة : س ٧٩ - من مياه عمرو بن كلاب .

ماسل : س ٧ - اسم موضع . المنظم : ز ١ ، ع ٧ - موضع في أول أرض الصمان .

المنظم : ز ٤٢ - موضع بين اللوى وجهرم . الجيمعة : س ٨٣ - جبل لبني فزارة .

محجر : ل ١٨ - موضع في ديار طيء ، وجبل في ديار بني بربوع ، وفي ديار بني

كلاب ، وفي بلاد عذرة ، وفي ديار نعيم .

الحياة : ح ٣ - هضبة أسفل من أبان الأسود ، لبني أسد .

المقراة : س ٢ - قرية من نواحي اليمامة .

ملحة : ح ٢٨ - اسم موضع تلقاء جبل للصاقب .

منى : ل ١ - جبل مما حول ضرية .

نجد : ك ٣١ - الأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام .

وادي الرس : ز ١١ - ديار لطائفة ثمود ، وقيل قرية باليامة يقال لها فليج .

وجرة : س ٢٧ ، ل ١٤ - من طريق مكة من البصرة ، بينها وبين البصرة

أربعون ميلا ليس بينهما منزل ، فهي صربي للوحش .

وحاف القمر : ل ١٩ - القمر أسافل الحجاز مما يلي نجداً من قبل الطائف ،

والوحاف جمع وحفاء ، وأصله أرض فيها حجارة سود ، وليس بحجرة .

الوفاء : ح ٣ - أرض . يذبل : س ٥١ - جبل مشهور بنجد .

اليامة : ك ٢٢ - بلد كبير فيه قرى وحصون وعيون ونخل . اليمن : ط ٣١ .

(٢) ومن أسماء الشجر والنبات :

الأثل : ل ٥١ - نوع من الطرفاء ، الواحدة أثلة .

الإسحل : س ٤٣ - شجرة دقيقة أغصانها في استواء ، تشبه بها الأصابع دقة

واستواء . الأنحوان : س ١٨ - البابونج .

الأنبوب : س ٢١ - البردى ، قال ابن الأنباري : البردى الذي ينبت وسط

النخل ، وهو نبت يعمل منه الحصر .

الأسهقان : ل ٦ - جرجير البر ، الواحدة أسهقانة .

البرير : ط ٧ - نمر الأراك إذا أدرك .

الثمام : ل ١١ - نبت ضعيف له خوص ، أو شبيه بالخوص ، تحشى به خصاص

البيوت ، واحدة ثمامه .

الحناء : س ٦٧ .

الحص : ك ٢ الزعفران .

الخروع : ط ٦١ .

الحنظل : س ٤ ، ٦٦ .

- الطحخم : ع ١٤ - آخر ما ييس من النبات ، واحدة خمخمة ، وروى بجاءين غير معجمتين ، ومعناها واحد . الخميلة : ط ٧ - الروضة المعشبة .
- الدرين : ك ٦٩ - الحشيش اليابس . السرحة : ع ٦٥ - الشجرة الطويلة .
- السف : ح ٣٣ - أغصان النخلة ، واحدها سفة .
- السفا : ل ٣٠ - شوك شجر البهمي ، والبهمي من أحرار البقول رطباً ويابساً ، تنبت ويخرج لها شوك مثل شوك السنبيل ، فإذا عظمت البهمي كانت كلاً برعى حتى يصيبه المطر من غمام مقبل ، فينبت من تحته حبه الذي سقط .
- من سنبله . السقي : س ٤١ - النخل المسقى .
- السُّمرة : س - شجرة عظيمة لها شوك . الضال : ط ٢١ - شجر الصدر البرى .
- المُشَر : ط ٦١ - شجر فيه حُرَّاق لم يقتدح الناس في أحسن منه ، ويحشى في الحاد لآيته .
- العرفج : ل ٣٢ - نبت . العظام : ع ٦٤ - نبت يختضب به .
- العقم : ع ٤١ - الحنظل ، والنبقة المرة .
- العندم : ع ٤٧ - شجر عظام ، ورقه كورق اللوز ، وساقه أحمر .
- العنصل : س ٨٦ - البصل البرى ، ويعرف بالأسقال ويبصل الفار ، ويعمل منه خل عنصلان شديد الحوضة .
- العهن : ز ١٣ - القطن مصبوغاً وغير مصبوغ .
- الفلقل : س ٣ - حب شجر هندي .
- الفنا : ز ١٣ - شجر له حب أحمر ، وهو الذي يقال له غنب الثعلب .
- القتاد : ك ٢٩ - شجر له شوك لا يس إذا هاج ، من ذلك قولهم « دون ما يروم خراط القتاد »
- القرظ : ح ٧١ - شجر عظام لها سوق غلاظ ، واحده قرظة .
- القرنفل : س ٨ ، ١٧ - زهر طيب الرائحة .

- للقلام : ل ٣٤ - نبت يكون على الأنهار ، وقيل هو القصب .
 الكتان : س ٥٢ .
 السكلأ : ز ٤١ - العشب .
 الكنهبيل : س ٧٩ - شجر عظام ذات شوك . المرذ : ط ٦ - ثمر الأراك .
 المنور : ط ٨ - الأقحوان النابت في الأرض السهلة .
 النخلة : س ٨١ .
 البراع : ل ٣٥ - القصب .

(٣) ومن أسماء الحيوان والوحش والطير ونعوتها :

- الأحقب . ل ٢٥ - حمار الوحش .
 الأحوى : ط ٦ - الظبي في ظهره حمرة تضرب للسواد .
 الأدم : ع ٢٤ ، ٧٩ - فرس عنزة ، والأدم الأسود .
 الأرام : س ٣ ، ز ٣ ، ل ١٤ ، ٢٧ - جمع رُم ، وهو الظبي الخالص البياض .
 الأربد : ط ١٤ - ذكر النعام الذى لونه كلون التراب .
 الأزعر : ط ١٣ - ذكر النعام الذى لا شعر له .
 الأساربع : س ٤٣ - جمع أسروخ ، وهى دواب تكون في الرمل ظهورها
 ملس . الأسد : ز ٢٨ ، ح ٧٨ .
 الأطلاة : ز ٣ ، ل ٧ - أولاد الظبية .
 الأظار : ط ٥١ - جمع ظئر العاطفة على غير ولدها المارضة له .
 الأعلم : ط ٣٧ ، ع ٤٦ - الجمل ، وكل جمل أعلم ، لأن مشفره الأعلى مشقوق .
 الإفال : ز ٢٥ - الفصلان ، واحدها أفيل للمذكر وأفيلة للأنثى .
 الأكلف : ط ١٦ - من الجمال ما كانت حرته شديدة يشوبها سواد ليس بخالص .
 البرك : ط ٨٩ ، ٩٣ - الإبل الكثيرة . البعير : س ١٥ ، ط ٥٣ .
 بكر لقناة : س ٣٦ - بيضة النعامة .
 البلية : ل ٧٦ ، ح ١٤ - الناقة التى يشد رأسها إلى يديها ، وتجمل عند قبر صاحبها

حقى تموت ، فإذا ماتت حفروا لها ودفنوها ، وربما أحرقوها بالنار يزعمون أنه يحشر معها .

البهام : ل ٧ - جمع بهم وجمع بهمة ؛ وهى أولاد الضأن والمعز والبقر .

التتفل : س ٦٤ - ولد الثعلب . الثور : س ٧١ - الذكر من بقر الوحش .

الجدابة : ع ٦٩ - من الظباء بمنزلة الجدى من الغنم ، ما أتت عليه خمسة أشهر أو ستة . الجرد : ك ٧٩ - من الخيل القصيرة الشعر .

الجمال : ح ٣٣ . الجياد : ك ٨٧ .

الحزقة : ع ٢٩ - الفرقة من الإبل . الحامة : ل ٦٩ .

الحوار : ط ٩٤ - ولد الناقة . الحية : ط ٨٤ . الخفيدد : ط ٣٩ - ذكر النعام .

الخليل : ك ٢٧ ، ع ٤٩ ، ع ٤٨ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ح ٢٠ ، ٥٧ ، ٦٨ .

الدجاج : ل ٦٢ . الذباب : ع ٢٢ .

الذئب : س ٥٤ - والذئاب : ع ٥٧ .

الرَّبْع : ط ٥١ - الفصيل تتج في الربيع ، وهو أول النتاج ، فإن تتج في آخره

فهو هبع . الربض : ح ٥١ - جماعة الغنم .

الرشأ : ع ١٧ ، ٦٩ - الظبي إذا تحرك ومشى .

الرنال : ح ١٠ - فراخ النعام ، واحدها رأل .

الرثم : س ٣٨ - الظبي الخالص البياض .

الزفوف : ح ١٠ - الناقة السريعة الخفيفة ، والزيف عدو النعام إذا أمرع .

السياع : س ٨٦ ، ع ٩١ . السرحان : س ٦٤ - الذئب .

السفنجة : ط ١٣ - النعامة . السقب : ك ١٩ - الذكر من أولاد الناقة .

السقاء : ح ١٠ - النعامة في رجلها المنحاء .

السيد : ط ٥٩ - الذئب . الشادن : ط ٦ ، ع ١٧ ، ولد الظبي .

الشاة : ط ٣٥ ، ع ٦٦ ، ٦٨ - كناية عن المرأة .

- الشول : ط ١٥ - جمع شائلة ، وهى من النوق التى قلّ لبنها ، وارتفع ضرعها .
الشيظم : ع ٨٤ - الفتى الطويل الجسم . من الإبل والخيل والناس
الصوار : ل ٣٦ - القطيع من بقر الوحش . الطير : من ٥٧ .
الظبي : س ٦٤ - والظباء : ل ٦ ، ١٤ .
المصم : من ٨٠ - جمع أعصم ، وهو مافى ذراعيه من الوعول والظباء ، والوعول
التيومس الجبلية .
المَئير : س ٥٤ ، ح ١٨ - الحمار المَيطَل : ك ١٤ - الطويلة من النوق .
العَين : ز ٣ ، ل ٧ - البقر الوحشية ، واحداً عينا ، سميت بذلك لاسعة عيونها .
الغُرَاب : ع ١٥ . الغزلان : ع ١٧ ، ٦٩ .
الفحول : ل ٢٥ - جمع فحل ، وهو الذكر من كل حيوان .
الفرقد : ط ٣٣ - ولد البقرة الوحشية .
الففيق : ع ٣٨ - الفحل الذى لا يركب ولا يحمل عليه .
قلص النعام : ع ٢٩ - أولاد النعام ، واحداً قلوص .
القهيد : ل ٣٨ - ضرب من الضأن تصفر آذانهن وتعلوهن حمرة .
الكلاب : ك ٢٩ . الكهاة : ط ٩٠ - الناقة الضخمة السمينة .
المضر حى : ط ١٧ - الذعر العتيق يميل لونه إلى البياض ، أو الصقر الطويل الجناح
المطية : س ١١ . والمطى : س ٥ ، ط ٢ .
المكاكى : س ٨٥ - جمع مكاء ، ضرب من الطير .
المهر : ع ٨٨ . الناقة : ع ٣ الذعر : ع ٩١ . النعام : س ٦٤ . والنعام : ل ٦٧ .
النعجة : س ٧١ - والنعاج : س ٦٨ ، ل ١٤ الأنثى من بقر الوحش .
الهقلة : ح ١٠ - النعام ، والذكر هقل . الوحش : س ٣٧ .
الوحشية : ل ٣٦ . الهومس : ح ٧٨ - الأسد ، وسمى هومساً لأنه يهمس
همساً ، أى يمشى مشياً بخفة فلا يسمع صوت وطئه . الورد : ح ٧٨ - الأسد .

(٤) ومن أعلام الرجال والنساء :

- الأبناء : ح ٤٩ . ابن أم قطام : ح ٧٧ هو حجر .
ابنا بفيض : ع ٨٧ عبس وذبيان . ابنا ربيعة : ع ٧٥ .
ابنا ضمضم : ع ٨٩ هرم وحصين ابنا ضمضم المريّان ، قتلهما ورد بن حابس
العبسي ، وكان عنقرة قد قتل أباهما من قبل فمكنا يتوعدانه .
ابن الحزم : ز ٤٣ — وفي رواية ابن الحزم بالحاء المهملة . ابن نهيك : ز ٤٢
ابنة مخرم : ع ٩ . ابنة معبد : ط ٩٥ — ابنة أخى طرفة بن العبد .
ابن هند : ح ٥٩ — هو عمرو بن هند .
أبو هند : ك ٢٣ — عمرو بن المنذر الأكبر ، وهو أبو المنذر أيضاً .
ابن يامن : ط ٤ — ملاح من أهل هجر ، أو تاجر ، ويروى « أو من سفين
ابن فيتل »
الأحلاف : ز ٢٦ — أسد وغطفان وطبي ، لأن خزاعة لما أجلت بني أجلت
بني أسد عن الحرم خرجت مخالفت بني طبي ثم غطفان .
أحرعاد : ز ٣٢ — قدار عاقر الناقة ، قال الأصمى : أخطأ زهير في هذا لأن
عاقر الناقة ليس من عاد ، وإنما هو من نمود فغلط فجعله من عاد ، وقال المبرد
هذا ليس بغلط ، لأن نمود يقال لها عاد الأخيرة ، ويقال لقوم هود عاد
الأولى ، والدليل على هذا قوله تعالى « وأنه أهلك عاد الأولى » .
الأراقم : ح ١٦ — قبيلة من بني تغلب ، سموها « الأراقم » لأن عيونهم شبهت
بعيون الحيات ، والأراقم واحدها « أرقم » فكانوا معروفين بهذا .
إرم : ح ٦٨ — والدعاء الأولى أو الأخيرة .
أسماء : ح ١ — صاحبة الحارث بن حلزة .
أم أوفى : ز ١ — امرأة زهير بن أبي سلمى .

- أم الحويرث : ص ٧ - هي مر ، أم الحارث بن حصين بن ضمضم الكلبي .
 أم عمرو : ك ٦ ، ٥ .
 امرؤ القيس : ح ٨٩ - ابن المنذر بن ماء السماء ، وهو أخو عمرو بن هند لأبيه .
 أم الرباب : ص ٧ - امرأة من كلب . أم الهيثم : ع ٨ - كنية عبلة .
 امرؤ القيس : ح ٧٩ - هو ابن المنذر بن ماء السماء .
 الأوس : ح ٨٢ - بنو الأوس من كندة .
 إياد : ح ٤٩ - إياد بن نزار ، قبيلة كانت تنزل سنداد ، وهو نهر بين الحيرة إلى الأبله .
 بنات مُرّة : ح ٣٤ - هو أبو يثم . بنو بكر : ك ٧٣ . بنو رزاح : ح ٥٣ .
 بنو الطلاح : ك ٩٩ . بنو عتيق : ح ٤٦ . تغلب : ح ٥٨ .
 تميم : ح ٥٢ ، ٣٤ . جرم : ز ١٧ - كانوا ولاية البيت قبل قریش .
 جشم بن بكر : ك ٨٩ ، ٦٠ ، ٥١ . جندل : ح ٥٠ .
 الجون : ح ٨٢ - ملك من ملوك كندة وهو ابن عم قيس بن معد يكرب .
 حجر بن أم قطام : ح ٧٧ .
 الحداء : ح ٥٠ - قبيلة من بني ربيعة ، ويقال : هو رجل من ربيعة .
 حصين بن ضمضم : ز ٣٤ - من بني مرة .
 حنيفة : ح ٤٥ - قبيلة من قبائل العرب .
 خولة : ط ١ - امرأة من بني كلب ، شرب بها طرفه . دعى : ك ٩٩ .
 الديلم : ع ٣٢ . ذبيان : ز ١٩ ، ٢٦ .
 ذوالبرة : ك ٦٤ - هو كعب بن زهير ، رجل من ربيعة ، قيل له « ذوالبرة »
 لأنه كان على أنفه شعر خشن فشبه بالبرة وهي حلقة تكون في أنف
 البعير . زهير : ك ٦٢ - جد عمرو بن كلثوم من قبل أبيه .
 شارق الشقيقة : ح ٧٠ - فرم من بني شيبان جاءوا يغيرون على إبل عمرو بن هند
 وعليهم قيس بن معد يكرب .

- طسم : ح ٤٩ - طسم وجديس قبيلتان من قبائل عرب الجنوب .
- العباد : ح ٤٧ - قبائل شقي من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية ، ونزلوا الحيرة .
- عبس : ز ١٩ - قبيلة من قبائل العرب ، وعبس وذبيان هما ابنا بغيض .
- عبله : ع ٤ ، ٧ صاحبة عنقرة . عتاب : ك ٦٣ - جد عمرو بن كلثوم .
- علقمة بن سيف : ك ٦١ - رجل من سادات تغلب . عمرو : ع ٧٠ .
- عمرو : ح ٢١ ، ٦٥ ، ٦٦ - هو عمرو بن هند ملك الحيرة .
- عمرو بن أم أناس : ح ٨٤ - هو عمرو بن حجر الكندي ، وجده هو عمرو بن هند .
- عمرو بن هند : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ . من ملوك المناذرة بالحيرة . وهند هي بنت عمرو بن حجر آكل المرار .
- عنيزة : س ١٤
- العواتك : ح ٧٢ - نساء من كندة من الملوك .
- غسان : ح ٨٠ - في الأصل اسم ماء نزل عليه بنو مازن من الأزد وبنو جفنة ، فسموا به .
- الغلاق : ٥٧ رجل من بني يربوع بنى حنظلة من تميم .
- غيظ بن صرة : ز ١٦ - من ولد عبد الله بن غطفان .
- قاطمة : س ٢٢
- قرط بن أعبد : ط ١٧ - رجل من قوم طرفة .
- قريش : ز ١٨ .
- قضاة : ك ٣١ ، ح ٤٨ - قبيلة من قبائل العرب . قيس : ح ٥٠ - قوم من تغلب .
- قيس : ح ١٧ - هو قيس بن معد يكرب .
- قيس بن خالد : ط ٨٢ - من بني شيبان .
- كلثوم : ك ٦٣ - هو كلثوم بن مالك بن عتاب ، وهو أبو عمرو بن كلثوم .
- كليب : ك ٦٥ - كليب بن ربيعة من سادات تغلب ، الذي أثار مقتله حرب البسوس .
- كندة : ح ٤٤ - قبيلة من قبائل العرب .
- مالك : ط ٧٠ - ابن عم طرفة .
- المالكية : ط ٣ - منسوبة إلى مالك بن سعد بن ضبيعة .
- محارب : ح ٤٥ - قبيلة من قبائل العرب . المرية : ل ١٧ - المنسوبة إلى قبيلة مريّة .

- معبد : ط ٧٣ - أخو طرفة .
 معد : ز - ٢٢ ، ك ٤٠ ، ٩٣ .
 صرّة : ع ٧٥ .
 المنذر : ح ٥٩ ، ٨٠ ، هو المنذر بن ماء السماء .
 المنذر بن ماء السماء : ح ٣٧ .
 مفشم : ز ١٩ - امرأة عطارة ، تحالف قوم فأدخلوا أيديهم في عطرها ، ثم خرجوا
 إلى الحرب فقتلوا جميعاً ، فتشاءمت للعرب بها .
 المهلهل : ك ٦٢ - صاحب حرب وائل التي تسمى حرب « البسوس » وهو أخو
 كليب ، وجدّ عمرو بن كلثوم من قبل أمه .
 ميسون : ح ٦٠ - بنت ملك من ملوك غسان ، قتل النعمان أباه .
 نوار : ل ١٦ ، ٥٥ - صاحبة لبيد .
 نوفل : ز ٤٣ .
 هند : ح ٦ - صاحبة الحارث بن حلزة .
 وهب : ز ٤٣ .

(٥) وصي الصفات والسكنيات :

- الأتلع : ط ٢٩ - العنق الطويل .
 الأرضن : ح ٢٥ - الجبل .
 الإرمي : ح ٦٨ - المنسوب إلى إرم جد عاد وابن سام بن نوح .
 الأروع : ط ٣٦ - القواد الذي يتوقد فطنة .
 الأزهر : ع ٤٣ - الإبريق الأبيض من فضة أو رصاص .
 الأسودان : ح ٧١ - التمر والماء ، وإنما قيل لهما أسودان وأحدهما أبيض
 لأن العرب تغلب أحد الاسمين على الآخر .
 الأسيل : س ٣٧ - الخلد الأسيل الذي في طوله امتداد .
 الأصفر المضبوط : ط ١٠٣ - القدح الذي وضع على النار ، فغيرت منه ، وأثرت فيه .
 الأملی : ط ٨ - الثغر الموصوف بالملی ، وهو سمرة في الشفة .
 أم رئال : ح ١٠ - النعامة ، والرئال فراخ النعام ، واحدها رأل .
 أم سقب : ك ١٩ - الناقة ، والسقب الذكر من أولادها .

- الأمون : ط ١٢ - الناقة المأمون عثاها .
- الأفقاء : ل ٤٢ - جمع نقا ، وهو الرمل الذى ارتفع طولاً ، أو هو الكتيب الذى لم يخالطه غيره .
- البكر : ع ٢٠ - السحابة التى لم تمطر بعد ، فهى أكثر ماء ، وفى رواية « جادت عليها كل بكر حرة » .
- البهكنة : ط ٦٠ - المرأة الغضة الناعمة الشابة . البيت : ز ١٧ - الكعبة .
- البيض : ك ٣٦ - السيوف . بيضة الخدر : س ٢٧ - المرأة .
- التياب : ع ٥٨ - كناية عن القلب « فشككت بالرمح الأعم ثيابه » .
- الجرءاء : ل ٦٦ - النخلة التى انجرد كبرها وليفها .
- الجزور : ل ٧٣ - الناقة التى جزرت أى نحررت .
- الجبسة : ع ٣٨ - الناقة الضخمة القوية .
- الجلى : ط ٧٥ - الخطوة العظيمة التى يحل وقمها ويعظم خطرهما .
- الجمالية : ط ١٣ - الناقة تشبه الجمال فى قوة أعضائها ، ووثاقة خلقها .
- الجنوح : ط ٢٦ - الناقة التى تعتمد على أحد شقيها .
- الحالق : ل ٤٦ - الضرع اللآن .
- حامى الحقيقة : ع ٦٠ - الرجل الذى يحمى ما عليه أن يحميه .
- الحزاورة : ك ٩٢ - جمع حزوور وهو الغلام الشديد .
- الحصد : ل ٢٩ - رأى الحكم . الحلوبة : ع ١٥ - الناقة الحلوبة .
- الحليل : ع ٤٦ - الزوج .
- الحذول : ط ٧ - الظبية خذلات صواحباتها ، فتخلفت عنهن .
- الحضراء : ح ٧٧ - الكتبية يكثر فيها السلاح ، فتكون كأنها خضراء .
- الخطارة : ع ٢٧ - الناقة تخطر بذنبها تحركه وترفعه ، تضرب به حاذيها ، والحاذان حافتا الإليتين .

- الخنساء : ل ٣٧ - البقرة الوحشية التي تأخر أنفها في وجهها وقصر .
- الدالج : ط ٢٢ - الذي يأخذ الدلو ويمشي بها من رأس البئر إلى الحوض ، حتى يفرغها فيه .
- درير : س ٦٣ - حصان سريع المشى ، كأنه يدر الجرى درا .
- الدفاق : ط ٢٦ - الناقة التي تتدفق في سيرها .
- الدفواء : ح ٨٢ - السكتيبة المنحنية على ما تحتها ، يعنى أنها منعطفة على ملـكها
- تقاتل عنه وتذب دونه ، والأدنى من القرون المنحنى .
- الدلاص : ك ٧٦ - الدرع الحكمة . الدواجن : ل ٤٩ - الكلاب المعودة على الصيد
- الدوارع : ك ٨٠ - الخيل التي عليها الدروع ، ودروع الخيل ما يحمل عليها من الكساء .
- الديمة : ل ٤٠ - المطر الذي يدوم .
- ذو البرة : ك ٦٤ - رجل من تغلب ، كان على أنفه شعر يلتوى كأنه البرة ، وهى الحلقة .
- ذو التأمم : س ١٩ - الصبي تعلق في عنقه خرزات تمنع عنه المين .
- ذو خصل ط ١٦ - : الذنب .
- ذو غروب : ع ١٦ - الثغر ، وغروب الأسنان حدها .
- ذومرة : ل ٢٩ - الرأى القوى . ذو هبوة : ل ٦٤ - الجبل ذو الغبار .
- الربذ : ع ٦١ - الرجل السريع الضرب بالقداح .
- رحبية الفرعين : ع ٥٧ - الدلو الواسعة .
- رخص : س ٤٣ - الأنامل النضة الطرية .
- الردية : ل ٧٦ - المرأة التي قد أرذاها أهلها أى ألقوها لعجزهم عن إطعامها وعجزها
- عن السعى والكسب لنفسها .
- الرواعد : ل ٤ - السحاب جمع راعدة ، والرعد صوتها ، يصفقها الريح بعضها في
- بعض فيحصل من تصادمها واحتكاكها هذا الصوت الذي يسمع منها .
- الزفوف : ح ١٠ - الناقة السريعة الخفيفة ، والزيف عدو النعام إذا أسرع .

- الزهراء : ح ٥٥ - الناقة البيضاء .
- الزرافة : ع ٢٧ و ٣٨ - الناقة تبختر في مشيتها .
- الساج : ع ٤٩ - الحصان السريع . السابفة : ك ٧٦ ، ع ٦٠ - الدرع الطويلة .
- السارية : ل ٥ - السحابة تسرى ليلا . السبط : ل ٣١ - الغبار الممتد .
- السقاء : ح ١٠ - النعامة ، في رجلها انحناء . السم : ك ٣٦ - الرماح .
- السمهرية : ل ٥٠ - الرماح الطوال ، يقال إنها منسوبة إلى «سمهر» اسم رجل كان يقوم الرماح .
- الشادن : ط ٦ - الغزال إذا تحرك فاشتد ، واستغنى عن أمه .
- الشامة : ح ٥٥ - الناقة السوداء . الشاة : ع ٦٦ و ٦٨ - كناية عن المرأة .
- الشثن : س ٤٣ - الكف الغليظ الخشن .
- الشدنية : ع ٢٦ - الناقة نسبة إلى « شدن » موضع باليمن .
- الشقائق : ل ٣٧ - جمع شقيقة ، وهي أرض غليظة بين رملتين .
- صادقا سمع : ط ٣٤ - الأذنان . الصافية : ل ٦٠ - الحجر التي لا قذى فيها .
- الصبوح : ل ٦٠ - الحجر تشرب أول النهار .
- صدق الكعوب : ع ٥٦ - القناة الصلبة ، والكعب ما بين كل أنبوبتين .
- الصفواء : س ٥٩ - الحجر الصلب . الصم : ل ١٠ - الديار لا تجيب للسائل .
- الصهباء : ل ٢٤ - السحابة التي في لونها صبهة أى حمرة .
- ضليع : س ٦٥ - الحصان التام الخلق الغليظ الألواح الكثير المصب .
- طليح أسفار : ل ٢٢ - الناقة ، والطليح هو الذي أجهد السير وأهزله .
- الطوى : ح ٧٥ - البئر المطوية . الظمائن : ز ٧ - النساء في هواجهن .
- العاقر : ل ٨٤ - المرأة التي لا تلد . العبلاء : ح ٧١ - الهضبة البيضاء .
- العتاق : ط ١٤ - الإبل السكرام . العشوزنة : ك ٥٨ - القناة الصلبة الشديدة .
- المعصم : س ٨٠ - الوعول المعتصمة بأعلى الجبال .

- العنبد : ط ٢٦ - الناقة الضخمة الرأس . العنود : ح ٨٢ - الكتبية الهيكلة .
 العنيف : س ٦٢ - الراكب الذى ليس له رفق بركوب الخيل .
 العوارض : ع ١٨ - منابت الأضراس ، واحدها عارض ، وأراد الأسنان كلها .
 الموجاء : ط ١١ - الناقة الضامر .
 العين : ل ٧ - البقر الوحش ، جمع عيناء ، وهى الواسعة العين .
 العين : ع ٢٠ - المطر لا يقلع خمسة أو ستة أيام . الغادى : ل ٥ - السحاب ينشأ غدوة .
 الغانية : ع ٤٦ - المرأة ذات الزوج المستغنية بزوجها ، ثم قيل للشابة غانية سواء
 أكانت ذات زوج أم لم تكن .
 الغُبس : ل ٣٨ - الذئب التى لونها كلون الرماد ، وهو بياض فيه كدرة .
 الغضف : ل ٤٩ - الكلاب المسترخية الأذان .
 غلب : ل ٧١ - جمع أغلب ، وهو الفحل الغليظ الرقبة .
 الغوى : ط ٦٤ - الرجل الضال المتنكب عن طريق الصواب .
 الفاحش : ط ٦٦ - الرجل البخيل . الفارسية : ح ٧٧ - السلاح من عمل فارس .
 الفراخ : ع ٧٧ - جمع فرخ ، وفرخ الرأس الدماغ .
 قاصمة الظهر : ح ٥٦ - المصيبة التى تسكسر الظهر لشدها .
 القراضبة : ح ٦١ - الصعاليك .
 قريب بين المنسمين : ع ٢٨ - ظليم قريب بين المنسمين ، ومنسماء ظفراه
 المقدمان فى خفة . القرينة : ك ٦٦ - الناقة تقرن إلى غيرها .
 القناة : ك ٥٧ - عود الرمح .
 القهد : ل ٣٨ - ولد البقرة الأبيض ، أو هو الأبيض الذى يخالط بياضه صفرة أو حمرة .
 قيد الأبواب : س ٥٧ - الحصان السريع الذى يمنع الوحوش من الإفلات .
 القينى : ز ١٥ - الرجل المنسوب إلى بلقين ، وهم حى من اليمن تنسب إليهم الرجال .
 الكافر : ل ٦٥ - الليل . الكبش : ح ٧١ - الرجل العظيم النبيل .

- كثيرة غر باؤها : ل ٧٠ - : يقصد بها قبة النعمان بن المنذر .
 السكديد : س ٦١ - الأرض المسكدودة بحوافر الخيل .
 كيت : س ٥٩ - الحصان في لونه حمرة مشوبة بسواد .
 السكهاة : ط ٩٠ - الناقة الضخمة السمينة .
 السكواسب : ل ٣٨ - الذئاب التي تسكسب الصيد .
 اللاحب : ط ١٢ - الطريق لا حزونة فيه .
 لزاز عظيمة : ٧٨ - الرجل الذى يلزم الأمر المسير حتى يذله .
 اللوامع : ل ٥٣ - الآل يراه الإنسان في الضحا كأنه يرتفع وينحط .
 المتبسم : ع ٥٤ - الثغر . المتردم : ع ١ - الثوب المرقع .
 المنزل : س ٥٩ - المطر . المتوحد ط ٩٨ - الرجل المنفرد الذى لا أصحاب له .
 المنقف : ع ٥٦ - الرمح المصلح المقوم . المثل : س ٦٢ - الراكب الثقيل .
 الحفب : ط ٥٩ - الفرس الذى في يده انحناء .
 المحفوف : ل ١٣ - المودج المنطى .
 المحفوفة : ل ٣٥ - العين حفت بالقصب نابتا فيها ، وأصله أنه ينبت في أحفها
 أى جوانبها . الحمل : ح ٤٧ - البعير .
 المحول : س ١٩ - الذى أتى عليه حول .
 المحول : س ٦٩ - الصبي الكثير الأخوال .
 مدبر : س ٥٨ - الحصان . المدجج : ع ٥٥ - الفارس الذى يتوارى بسلاحه
 المدرية : ل ٥٠ - البقرة ذات القرون . مدّة النهار : ع ٦٤ - أوله .
 المربيع : ل ٤ - الأمطار تسكون في أول فصل الربيع .
 المرتقب : ل ٦٤ - الموضع الذى يرقب فيه .
 المرقال ط ١١ - الناقة تسرع في سيرها .
 المركل : س ٦١ الذى كد بحوافر الدواب ، من الركل ، وهو الضرب .

- المرية : ل ١٧ - المرأة منسوبة إلى قبيلة مرة .
- المسبوعة : ل ٣٦ - البقرة التي أكل السبع ولدها .
- المستكنة : ز ٣٥ - الخطة التي يكنها الإنسان في صدره ، ويخفيها عن غيره .
- المسحج : ل ٢٦ - الحمار المعضض الذي عضضته الحمار .
- المسجورة : ل ٣٤ - العين المملوءة ، وقيل إنها من الأضداد . قال أبو زيد :
- المسجور يكون المملوء ، ويكون الذي ليس فيه شيء .
- المسح : س ٦١ - الذي كأنه يصب الجرى .
- المشعة : ل ٣١ - النار التي أشعلت .
- المشمولة : ل ٣٢ - النار التي أصابتها ريح الشمال فهي تلتهب .
- المشوف : ع ٤٢ - الدينار المجلو . مصرع الغابة : ل ٣٥ - القصب المائل .
- المطفل : س ٣٧ - ذات الطفل . المطفل : ل ٧٤ - المرأة ذات الطفل .
- المحفر : ل ٣٨ - ولد البقرة تريد فطامه فتمنعه من اللبن ، فإذا خافت عليه النقصان رجعت فأرضعته ، ثم قطعت عنه ، حتى يأنس بذلك .
- الحلم : ع ٤٢ - الدينار الذي فيه كتابة . المعم : س ٦٩ - الصبي الكثير الأعمام
- المخالق : ل ٧٣ - القداح التي تغلق الرهن أى نجعله مطلقا لا يمكن فككاكه .
- المخزمر : ل ٧٩ - الرجل يرمى الكلام بعضه على بعض يستخف به ، لا يصلحه ، ولا يتأنق فيه .
- المغايل : ط ٥ - الفقى لاعب الفيل أو صانعه ، وهى لعبة لهم كانوا يكمونون التراب أو الرمل ثم يخبثون فيه خبيثا ، ثم يشق المغايل بيده الكومة قسمين ، فيقول : فى أى الجانبين خبأت ؟ فإن أصاب غلب ، وإلا قيل له :
- قال رأيك ! .

- المقدم : ع ٤٣ - الإبريق الذي عليه القدم ، وهو المصفاة .
- مفر : س ٥٨ - الحصان . مقبل : س ٥٨ - الحصان .

المقبّل : ع ١٦ - الثغر .

المقرمذ : ع ٣٥ - السفام الذى لزم بعضه بعضا كأنه مبنى بالآجر .

مكر : س ٤٨ - الحصان . الملبد : ط ١٦ - الجمل يضرب إبهذه من الهياج .

الملمع : ل ٢٥ - الأتان أشرفت أطباؤها باللبن واسودت حلماتها .

المنجرد : س ٥٧ - الحصان قصير الشعر .

المنيفة : ل ٦٦ - النخلة المنيفة الطويلة المشرفة .

مولى الأسرة : ط ١٥ - المكان الذى يفضل غيره ، وقد أصابه الولى وهو المطر

الثانى من أمطار السنة ، لأنه يلى الوسمى ، وهو المطر الأول .

المولى : ط ٧٨ ، ٧٩ - ابن الم . الناحيات : ط ١٤ - الإبل السراع .

الناظرة : س ٣٧ - العين . النحام : ط ٦٤ - الرجل المهخيل .

النفاذ : ك ٧٩ - الخيل التى استنفذت من قوم آخرين .

النهد : ع ٤٩ - الحصان الغليظ . الهاديات : س ٦٧ - المتقدّمات من الوحش

هادية للصوار : ل ٣٦ - البقرة التى تتقدم قطع البقر .

الهيام : ل ٤٢ - الرمل اللين ، الذى ينهال ولا يتماسك .

الهيكل : س ٥٧ - الحصان العظيم الجرم .

الواكف : ل ٤٠ - المطر يكف من السحابة .

الوبيل : ط ٩٠ - الوبيل العصا ، وقيل هى خشبة القصارين ، وكل ثقيل وبيل .

الوجناء : ط ١٣ - الناقة العظيمة الوجناء ، لفضل قوة فيها .

الوحشية : ل ٣٦ - البقرة الوحشية . اليلندد : ط ٩٠ - الشديد الخصومة .

(٦) وصف أجزاء الجسم فى الانماء والحيوان :

الإبهام : ل ٦٠ . الأتلع : ط ٢٩ - العنق الطويل .

الأرلام : ل ٤٤ - فى الأصل قداح الميسر ، وقد أطلقها ليبد على القوائم .

- الأعلم : ط. ٣٧ ، ع ٤٦ - المشفر .
 الأيطلان : س ٦٤ - أيطلا الظبي خاضعته .
 الترائب : س ٢٥ - جمع تريبة ، وهي محل القلادة من الصدر .
 الثدي : ك ١٥ . الثغر : ع ٥٤ ، س ١٨ . الثنايا : س ١٨ .
 الجران : ط ٢٠ - مقدم عنق البعير . الجفن : ح ٣٠ . الجلود : ك ٧٧ .
 الججمة : ط ٣٠ . الجاجم : ك ٣٧ . الجناحان : ط ١٧ .
 الجيد : س ٣٨ ، ع ٦٩ . الجوف : س ٥٤ .
 الحجاج : ط ٣٢ - العظم الذي ينبت عليه الحاجب .
 الحيزوم : ط ٥ - الصدر ، وجهه حيازيم .
 الخافية : ع ١٥ - واحدة الخوافي ، وهي الريش دون الزيشات العشر من
 مقدم الجناح . الغد : س ٣٧ ، ط ٣١ . الخف : ع ٢٧ .
 الدأى : ط ٢٠ - من البعير جمع دأية ، وهي الفقار ، وكل فقرة من فقار العنق
 والظهر دأية .
 الدأيات : ط ٢٧ - منتهى الأضلاع في الظهر أو في الصدر
 الدف : ع ٢٣ - هو الجنب .
 الدم : ز ٩ ، ١٦ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٦٣ ، ل ٥٢ ، ع ٥٣ ، ٩٠ .
 الدماء : س ٦٧ ، ج ٧٦ ، ٨٠ . الدوابر : ل ٣٠ - مآخير الحوافر .
 الذراع : ع ٢٣ ، والذراعان : ك ١٤
 الذفريان : ع ٣٨ - عرقان مشرقان وراء الأذنين .
 الذقن ، الأذقان : س ٧٩ . الذنب = ذو خصل : ط ١٦ .
 الرأس : س ٢٤ ، ٣٤ ، ٨٣ ، ط ٣٩ ، ٨٤ ، ع ٣٠ ، ٦٤ .
 الرءوس : ك ٢٨ ، ٤٢ ، ٩٢ . الرجل : ط ٢٤ . الرقاب : ك ٣٨ .
 الروادف : ك ١٦ . الساق : س ٤١ ، ط ٩١ . الساقان : س ٦٤ .
 السديف : س ١٣ ، ط ٩٤ - شحم السنام . المرأة : ع ٢٤ - الظهر .

- السنام : ل ٢٢ . السواعد : ك ٩٠ . الشحم : س ١٢ .
الشدق : ع ٤٦ . الشفتان : ع ٧١ . الشق : س ٢٠ .
الشلو : ل ٣٨ - شلو كل شيء بقيته . الصدر ، الصدور : ح ٥٢ .
الصُّلب : س ٤٩ .
الصَّهْوَة ، الصهوات : س ٦٢ - صهوة الفرس محل اللبد منه .
الضُّبْعَان : ط ٣٩ - هما المضدان .
الطرف : س ٧٣ ، ع ٥ . الظفر ، الأظفار : ز ٣٨ .
الظهر : س ٢١ ، ط ١٢ ، ٢٧ ، ح ٥٦ .
العثون : ط ٢٤ - شميرات طوال تحت حنك البعير .
العجز ، الأعجاز : س ٤٩ . العسيب : ط ١٧ - منبت الذنب من الجلد والعظم .
العضد ، المضدان : ط ٢٥ . العظام : ل ٦٧ .
العين : س ٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ز ١٢ ، ح ٣٠ - العينان : س ٢٦ ، ط ٣٢ ،
ع ١٧ ، ح ٦ والعيون : ك ١١ ، ح ٢٤ . الغدائر : س ٤٠ .
الفخذان : ط ١٩ . الفرج : س ٦٥ - الفضاء بين رجلي الفرس ويديه .
الفرع : س ٣٩ - الشعر .
الفرصة : ع ٤٦ - المضعة في مرجع الكتف ترعد عند الفزع ، الفرائص : ط ١٠٢ .
القم : ١١ ، ٣٤ ، ٧١ .
فودا الرأس : س ٣٤ - جانباً الرأس . الفؤاد : س ٣٤ ، ٤٦ .
القدم ، الأقدام : ل ٧١ . القَرَآ : ط ٢٤ - الظهر . القفا : ك ٥٩ .
الأقفاء : ح ٨٣ . اللقب : س ٢٣ ، ٢٦ ، ز ٤٥ . الكاهل : س ٥٣ .
الكتفان : ط ٢٦ . الكشح : س ٣٤ ، ٤١ ، ط ٨٥ ، ك ١٧ ، ز ٣٥ .
الكف : ط ١٠٣ ، ع ٥٦ . الكفان : س ٦٣ ، الأكف : ك ١٥ .
الكلكل : س ٤٩ - الصدر . اللبان : ع ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ . اللَّبَد : ز ٣٨ .

- اللثة ، اللثات : ط ٩ . اللحم : س ١٢ ، ٧٢ ، ز ٦٢ . اللسان : ز ٦٢ .
 المأكلة : ك ١٧ - رأس الورك . المتبسم : ع ٥ . المآن : س ٥٩ .
 المتنان : س ٦٦ ، المتون ك ٧٨ ، ٨٦ . الحمال : ط ٢٠ - فقار الظهر .
 المخلخل : س ٣٤ - موضع الخللخال من الساق . المرفقان : ط ٢٢ .
 المشفر : ط ٣١ . المعصم : ع ٥٩ ، ز ٢ . المقبل : ع ١٦ .
 المنسم : ز ٥١ والمنسمان : ع ٢٨ - الظفران المتقدمان في الخلف . الناب ، الأنياب : ز ٥١ .
 الناطرة : س ٣٧ . النحر : س ٩ ، ٦٧ ، ل ٦٨ ، ع ٨٠ ، ٨٨ .
 النساء ، الأنساء : ح ٧٤ - عرق في الساق الأسفل .
 النواجد : ع ٦٢ - الأسنان الضواحك . وهي التي تبدو عند الضحك ،
 والأكثر الأشهر أنها أقصى الأسنان .
 النواشر : ز ٢ - عصب الذراع من باطنها وظاهرها . الوجه : ١٠ ، ل ٤٢ .
 الوحشى : ع ٣٣ - الجانب الوحشى هو الجانب الأيمن من البهائم .
 الوظيف : ما بين الرسغ إلى الركبة .
 اليد : ط ١ ، ٢٤ ، ٥٦ ، ٦٨ ، ٨٨ ، ز ١١ ، ل ٦١ ، ٦٥ ، واليدان :
 س ٧٥ ، ط ٢٥ ، ع ٣٤ ، ٤٧ ، ٦١ - الأيدي ك ٢٢ ، ٤٣ ، ح ٥٣ .

* * *

وإذا نظرنا في هذه المجموعة من الألفاظ ألفينا التريب منها هو تلك الألفاظ
 التي لم تعد مألوفا في الاستعمال ، لأنها أسماء مواضع لا عهد لنا بها ، أو أعلام تغير
 أكثرها ، أو نبات أو حيوان لم نعد نراه في بيئاتنا ، أو أسماء رمال وتلال اختلفت
 أطوالها وأبعادها ، ولم نعد نعيش فيها ، وكذلك وجدنا في هذه الألفاظ أسماء لأجزاء
 من الخيل والإبل التي كان العرب يلزمونها في عيشهم وحلهم وترحالهم ، وكانت
 تلك الملازمة هي السر في معرفتها على جهة الاستقصاء والتفصيل ، على حين أن
 ذوى الثقافة اللغوية والأدباء لم يعد لهم ذلك الإلف بالحيوان الذي يدعو إلى المعرفة

الكاملة الشاملة ، وهذا هو السر فيما يبدو من غرابة تلك الألفاظ التي لم تكن على هذا النحو من الغرابة عند الجاهليين ، أو عند الذين عاشوا في مثل حياتهم البادية . أما الذين سكنوا في القرى والخواضر ، وزاولوا الحرف والصناعات المختلفة ، فقد نأوا عن استعمال تلك الألفاظ التي لم يعودوا يجدونها في حياتهم ، ولذلك جهلوا دلالتها ، وصعب عليهم الوقوف على معناها ؛ واضطروا إلى الكشف عنها في معاجم اللغة ، أو سؤال العارفين بها .

وعلى ذلك يمكن القول بأن ألفاظ المملكات فيها غرابة ، ولكن بالنسبة إلى المتأخرين . وكذلك يمكن القول بأن في كثير من ألفاظها جفاء وخشونة يبعدها عن أذواق أهل العصور المتأخرة . والسبب في ذلك الجفاء وتلك الخشونة هو جفاء حياة الجاهليين وخشونة عيشهم ، وقسوة الطبيعة في بيئاتهم ؛ ولذلك رأينا في تلك الألفاظ ما تركب من حروف قوية ، كحروف الإطباق والقلقلة وكحروف الجهر وبعض أحرف الحلق ، مما كان له أثر في وصف تلك الألفاظ بالجزالة والقوة التي قد ينفر منها ذوق الذين تحضرت لغتهم ، وجنحت إلى الرقة والسلاسة والمذوبة . ولكن الحكم بأن جميع ألفاظ المملكات على هذا الوصف لا يخلو من التوسع ، فإن في تلك الألفاظ ما يمكن أن يوصف بالمذوبة والرقة أيضاً ، وذلك الاختلاف راجع كما أسلفنا إلى اختلاف الأغراض التي عالجتها المملكات ، واختلاف حظ أصحابها من التحضر أو التبدى .

أما الأساليب فإنها هي أساليب العربية الصحيحة التي احتذاها المعبرون عن عواطفهم وانفعالاتهم وأمانهم من الذين جاءوا من بعدهم ، إذا أرادوا التعبير الأدبي عن أى معنى من المعاني التي تعرض لهم ، وليس من السهل الحكم على تلك الأساليب بمخالفة أصول التعبير ، لأن الذين وضعوا هذه الأصول إنما استقوها من هذا الشعر وأمثاله مما أثر من كلام الجاهليين ، واتخذوا من أساليبه مقاييس قاسوا بها أساليب المتأخرين ، وحكوا عليها بما تقتضيه هذه المقاييس بالصحة أو بالخطأ .

وكان الكلام الفصيح عندهم ، هو الكلام الجازى على كلام العرب القدماء
الموصوفين بالفصاحة أو بالبلاغة ، وفي مقدمتهم أصحاب المعلقة .

ويغلب على أساليب المعلقة الإيجاز وحذف الفصول .

ومن خصائصها مخاطبة الرسوم ، ومساءلة الأطلال والدمى ، وخطاب
الحيوان ، والتحدث عن مشاعره ، وقد خاطب امرؤ القيس الليل (٤٨ - ٥٠)
وحيا زهير الرّبع في قوله :

فلما عرفتُ الدار قلتُ لرَبِّهمْ — ألا انتمُ صباحاً أبها الرّبعُ واسلمُ
وروق ليبد يسأل الأطلال ، وهو يعرف أنه لن يظفر منها بجواب :

فوقفتُ أسألهما كيف سؤالنا — صمّا خوالد ما يبين كلامها
وتحدث عنقرة إلى الرسوم ، حتى اختلط عليها أمرها :

أعيالك رسمُ الدار لم يتهـكّم — حتى تهكّم كالأمم الأجم
ولقد حبستُ بها طويلاً ناقى — أشكو إلى سُنْعِ روا كد جُثم
حتى حيّاها ، ونمى جوابها :

يا دار عبلة بالجواء تهكّمى — وعى صباحاً دار عبلة واسلمى
وصور محاولة حصانه الشكوى إليه من هول الموقعة ، ومما ناله من الجراح :

قازور من وقع القنا بلبانه — وشكا إلى بـبرة ونحمم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى — ولـسكان لو علم الـكلام مكلمى

ولم يكتف بذلك حتى طلب إلى حبيبته أن تسأل الخيل ، لتخبرها عن شجاعته
وحسن بلائه في الحروب :

هلاً سألت الخيل يا ابنة مالك — إن كنت جاهلة بما لم تعلمى

أما الحسنات البديعية وضروب الصنعة فقد ألّم بها أصحاب المعلقة ، وفطنوا
إليها من غير توقيف ، وذلك لأنهم أحسوا بفطرتهم الفنية بأن الأدب فن ،

والفن مجال التأنيق ، وكانت أداتهم في هذا الفن الشعرى هي الألفاظ والأساليب ، ولا شك أن الشعر في تخير ألفاظه ، وتنسيقها ، ومراعاة موسيقى الألفاظ ، وموسيقى القافية ، كان خبير مظهر للصناعة الأدبية ، والتأنيق الفنى في التعبير .

ولذلك كان حسب الشعر مافيه من نظام القصيدة ووحدة الوزن والقافية ليسكون مظهرًا للفنية في صناعة الشعر ، ولكن بعض الشعراء اهتموا إلى ضروب أخرى من الصناعة ، واستعملوها في قصد واعتدال ، لا يلحظ فيه أثر العمل أو التكلف في طلب الصنعة ؛ ومع ذلك فإن تلك الصنعة تبدو في فنون قليلة من فنون البديع التي أحصاها المتأخرون ، ووضعوا لها الألقاب والمصطلحات ، وغالى كثير من أدبائهم في استعمالها ، حتى ظهر على أعمالهم الأدبية مسحة التكلف ذلك التكلف الذى زهد الناس في أدبهم ، بل زهدم في البديع نفسه الذى أصبح معناه في أذهان كثير من الناس طلاء على غير بناء ، وإخفاء لمالم القبح في الأفكار ، وستر الضعف في المعانى .

ومن الفنون البديعية التي وقعت في الملاحظات : التصريع ، والترصيع ، والتجنيس ، والمطابقة . وسنعرض للفنين الأولين في أثناء تعرضنا للأوزان والقوافي .

ومن « التجنيس » الذى وقع في الملاحظات على قلة قول طرفة :

وإن أدعَ للجلِّ أكن من حُماها وإن يأنك الأعداء بالجهد أجهد
وقوله :

بلا حدثٍ أحدثته وكجديثٍ هجائى وقذفى بالشكاة ومُطرَدى
وقول زهير :

ووركن في الشوبانِ يعلون متنه عليهنَّ دَلَّ الناعم المتنمِّم
وقول لبيد :

محفوفةٌ وسطَ اليراعِ يظلمها منه مصرع غابة وقيامها

أنتك أم وحشية مسبوعة خذات وهادية الصوار قوائمها
وقوله :

وإذا الأمانة قسمت في معشر أوتى بأوفر حظنا قسائمها
وقول عنتره :

علقتها عرساً وأقتل قومها زعما لعمر أبيك ليس بمزعم
ومما ورد فيها من «المطابقة» ، وهي الجمع بين الأضداد ، قول امرئ القيس :
مكرت مكرت مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السبل من عل
وقول :

ورحنا يكاد الطرف يقصر دونه متى ما ترق العين فيه أسفل
وقوله :

على قطن بالشيم أين صوبه وأيسره على السّار فيذبّل
وقوله طرفة :

وما زال نشرابي المحور ولذتي ويبي وإفناقى طريفي ومتلدي
وقوله :

لعمر لك ما أمرى على بغمة نهاري ولا ليلى على بسرمد
وقوله :

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد
وقول زهير :

جعلن القنك عن يمين وحزنا وكم بالقنك من محلّ ورم
وقوله :

يمينا لفيهم السّيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

وقوله :

يُوَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يَعْجَلُ فَيُنْفَقَ
وقوله :

وَمَنْ لَمْ يُدْذَنْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يَهْدَمُ وَمَنْ لَا يُظْلَمُ النَّاسُ يُظْلَمَ
وقوله :

وَكَاثِنٌ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجَبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ
وقول لبيد :

دِمْنٌ تَجْرُمُ بَعْدَ عَهْدِ أَنْيَسِهَا حِجَجٌ خُلُونِ حِلَالُهَا وَحِرَامُهَا
وقوله :

فَاقْطَعِ لُبَانَةً مِنْ تَعَرَّضُ وَصْلُهُ وَلَشَرُُّ وَاصِلِ خَلَّةٍ صِرَامُهَا
وقوله :

مُخْفُوفَةٌ وَسَطِ الْبِرَاعِ يَظْلِمُهَا مِنْهُ مُهْزَعٌ غَابِرٌ وَقِيَامُهَا
ومنها قول عمرو بن كلثوم :

وَإِنَّ غَدًا وَإِنْ الْيَوْمَ رَهْنٌ وَبَعْدَ غَدٍ بِمَا لَا تَعْلَمِينَا
وقوله :

بَأَنَّا نوردُ الرِّايَاتِ بِيَضًا وَنُصْدرُ رَهْنًا حُمْرًا قَدْ رَوِينَا

فقد طابق فيه بين « الإيراد » و « الإصدار » . وفي هذا البيت أيضاً ما يسميه البديعيون « التدبيج » الذي يلحقهونه بالطباق ، ويعرفونه بأنه الجمع بين الألوان في معنى من المدح أو غيره بقصد التورية أو الكناية . والجمع هنا بين البياض والحمرة يراد به الكناية عن شجاعتهم ، وأنهم لا يقيمون على ضيم . ومما ورد في معلقته من « المطابقة » أيضاً قوله :

بشبان يرؤن القتل مجداً وشيب في الحروب مجزينا
وقوله :

برأس من بنى جشم بن بكر ندق به السهولة والحزونا
وقوله :

وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أيننا
وقوله :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً وبشرب غيرنا كدراً وطينا
وقول عنتره :

نمسي وتصبح فوق ظهر حشية وأيت فوق سرة أدم منجم
وقوله في ابني ضمضم :

الشامي عري ولم أشتمهما والناذرين إذا لم القهما دمي
وقول الحارث بن حلزة :

إن نبشتم ما بين ملحة فالصا قب فيه الأموات والأحياء
وقوله :

لا يقيم العزيز بالبلد الستم ل ولا ينفع الدليل النجاء
وتفويض المطلق بذلك الفن الذي يسميه البلاغيون « التناسب »
أو « مراعاة النظير » إذ كان الأدب بعامة والشعر بخاصة مظهرًا للتناسب
والمطابقة بأوسع ما تشتمل عليه هاتان السكامتان من المعاني .

كما أن في كثير من أعجاز الأبيات وأواخرها كثيرا من ذلك الفن الذي
يسمونه « التذييل » من أمثال قول عنتره * ليس الكريم على القنا بحرم * وقول
زهير * ومها يكتتم الله يعلم * وقول لبيد * إن الناي لا تحاش سهمها *

وقد استعمل القدماء هذا البديع بقصد واعتدال ، وإلى هذا أشار عبد الله
ابن المعتز في مقدمة كتاب « البديع » الذي يقول فيه بعد أن نسب تسمية هذه

الفنون بالبديع إلى المحدثين : ليعلم أن بشاراً مسلماً وأبا نواس ، ومن تقيّلهم
وسلك سبيلهم ، لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر في أشعارهم ، فعرف
في زمانهم ، حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ، ودل عليه .. وإنما كان يقول
الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم
قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى
فادراً ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل^(١) .

٣ — أوزان المعلقة وقوافيها

أما الأوزان فقد اهتدى إليها أولئك الشعراء بوحى من فطرتهم ، ونظّموا
في تلك الأبحر الشعرية بأذانهم للموسيقية المرفهة التي كانت تصحح أخطأهم
فكانوا يضبطونها تلقائياً ، إذا انحرفوا عن مواقع النغم ، أو وقعوا في شذوذه
الذي تنكره أذواقهم وأماعهم ، كما كان لطول التجربة وكثرة المانة أثرها
في هذا الضبط والتصحيح ، من غير معلمين يوقفونهم على مواضع الخطأ والصواب .

ولا شك أن أولئك الشعراء بطبيعتهم كانوا أكثر الناس إحساساً بموسيقى
الشعر وتأثرأبها ، وليس من الطبيعي أن يلقنوا أصول هذه الصناعة من عامة
الناس أو من علمائهم ، لأن التقنين العلمى ووضع القواعد التي تنظم هذه
الصناعة لم يكن لهما وجود في تلك البيئة البدائية ، وإنما وضعت تلك القوانين
ونظمت القواعد فيما بعد في عصور الحضارة ، باستقراء تلك الأبيات والقصائد
التي وضع الشعراء فيها بأنفسهم تقاليد هذا الفن وأصوله .

ولم يكن أصحاب المعلقة هم الذين اخترعوا هذه الأوزان التي نراها
في قصائدهم ، وإنما كانت تلك الأوزان وغيرها من تقاليد الشعر ثمرة للتجارب
الكثيرة التي عبر بها فن الشعر عند الموهوبين من أبناء الأمة العربية في عصور

موجلة في القدم قبل نشأة أصحاب المعلقات . وليس هذا المجال مجال البحث في أولية الشعر وتطوره من الحداء إلى الرجز إلى المقطعات ، وانتهائه إلى تلك القصائد الطويلة الحكمة . وقد سبق أن قررنا أن الشعر الذي نقرؤه في المعلقات كان الصورة المثلى للفن الشعري كما تصوره العرب ، أو بعبارة أخرى كان هذا الشعر هو التجربة الأخيرة لهذا الفن بعد أن باتت معاملة بعد المرور بتجارب كثيرة على أيدي عدد كبير من الشعراء ، منهم من عرفه التاريخ ، وكثير منهم طوى ذكرهم الزمن .

وإذا طبقنا المعارف العروضية التي نظمها المحدثون على أوزان الشعر في المعلقات ، ألفينا تلك الأوزان قد توزعت بين أربعة من بحور الشعر ، هي : الطويل ، والكامل ، والوافر ، والخفيف :

فما جاء منها من بحر الطويل :

(١) معلقة امرئ القيس . (٢) معلقة طرفة . (٣) معلقة زهير .

وما جاء منها من بحر الكامل :

(١) معلقة لييد . (٢) معلقة عنتره .

وما جاء منها من وزن الوافر : معلقة عمرو بن كلثوم .

وما جاء منها من بحر الخفيف : معلقة الحارث بن حلزة .

وقد التزم كل شاعر من شعراء المعلقات الوزن الذي تخيره في كل بيت من أبيات قصيدته ، ولم يخرج على ذلك الوزن في أى بيت من أبياتها ؛ أى أن الوحدة الموسيقية قد روعيت تمام المراعاة في سائر أجزاء كل قصيدة ، مع الطول الملاحظ في كل تلك القصائد ، ومع تعدد الأغراض في كل قصيدة منها .

ومن مبالغاتهم في مراعاة الوزن لجوؤهم إلى ملاحظة التوازن بين أجزاء بعض الأبيات ، وهذا فن من فنون البديع سماه قدامة « الترصيع » تشبيهاً له بترصيع الجوهر في الحلى ، وأساسه أن يكون في المنشور ، وقد مثل له قدامة فيه .

يقول بعضهم « حتى عاد تمر يضك تصريحاً ، وصار تمر يضك تصحيحاً » وعرفه بأن النائر « يتوخى في كل جزأين متواليين أن يكون لهما جزآن متقابلان يوافقانهما في الوزن ، ويتفقان في مقاطع السجع ^(١) .

وهو في المنظوم « أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به ، أو من جنس واحد في التصریف ^(٢) » . وما جاء من هذا الفن في المعلقة قول امرئ القيس في وصف فرسه :

مَكَرَةً مِفَرَةً مُقْبِلٍ مُذِيرٍ مَعَا كَجَلُودِ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عُلَى
وقوله في وصف ثمر حبيته :

بَشَرٍ كَثَلِ الْأَقْحَوَانِ مَنْوَرٍ نَقِيٍّ الثَّنَائِيَا أَشْنَبٍ غَيْرِ أَثْمَلٍ ^(٣)
وقوله في وصف أصابع يدها :

وَتَعْطُو بِرُخْصٍ غَيْرِ شَتْنٍ كَأَنَّهُ أَسَارِيعُ ظَبِيٍّ أَوْ مَسَاوِيكُ إِسْحَلٍ
وقوله في وصف بقر الوحش :

فَأَدْبَرْنَ كَالْجَزَعِ الْفَصْلِ بَيْنَهُ بِجِيدٍ مُعِمٍّ فِي الْعَشِيرَةِ مُخَوِّلٍ
وقول طرفة في وصف ناقته :

جَالِيَةً وَجَنَاءَ تَرْدِي كَأَنَّهُمَا سَفَنَجَةٌ تَبْرِي لِأَزْعَرَ أَرْبَدٍ
وقوله في الهجاء :

يَعْلَى عَنْ الْجُلَى سَرِيعٍ إِلَى الْخَنَاءِ ذُلُولٍ بِأَجْمَاعِ الرِّجَالِ مُلَهَّدٍ
وقوله ليبيد في الفخر بأمانة قومه :

وَإِذَا الْأَمَانَةُ قَسَمْتُ فِي مَعْشَرٍ أَوْفَى بِأَوْفَرِ حَظَانَا قَسَامَهَا

(١) جواهر الألفاظ ٣ — مطبعة السعادة : القاهرة ١٩٣٢ م

(٢) انظر نقد الشعر ١٤ — مطبعة بريل : لندن ١٩٥٦ م .

(٣) الشنب محرّكة — كما في القاموس — ماء ورقة وعذوبة في الأسنان ، أو هط بيض فيها ، أو وحدة الأنياب . والثمل على وزن قفل وجبل المن الزائدة خلف الأسنان ، أو دخول سن تحت أخرى في اختلاف من الثبت .

وقول عنقرة في وصف أطلال حبيته :

حَيَّتَ من طَلَلٍ تَقَامِدُ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرُ بعدَ أُمِّ الهَيْثَمِ
وقوله :

ولقد نزلت فلا تَظُنِّي غَيْرَهُ مَنِي بَمَنْزِلَةِ الْحَبِّ الْمَكْرَمِ
وكقوله في وصف الناقة :

خَطَارَةُ غِيبِ الثَّرَى مَوَارَةُ تَطِسُ الْإِكَامَ بَوَخْدٍ خَفَّ مِثْمِ
وقول الحارث بن حلزة :

إن نبشتم ما بين ملحمة فالصَّا قِبِ فيه الأمواتُ والأحياء
وقوله :

لا يقيمُ العزيزُ بالبلدِ السَّمَّ لى ولا ينفعُ القليلُ النجاء
قال قدامة « إن هذا الفن يوجد في أشعار كثير من القدماء المجيدين من
الفحول وغيرهم، وفي أشعار المحدثين المحسنين منهم » .

وكان حسب الشعر ما وضع في حده من اللفظ والوزن والقافية والمعنى ، وكان حسب
الشاعر على هذا الحد ألفاظه المختارة ، ووزنه المتسق ، ومضاء المبتكر ، وقافته المستوية .
أما الترصيع فإنه مبالغة في التذسيق والتجميل والتأنق . وهو يحسن إذا اتفق
له موضع في البيت يليق به ، فإنه ليس في كل موضع يحسن ، ولا على كل حال
يصلح ، ولا هو أيضاً إذا تواتر واتصل في الأبيات كلها بمحمود ، فإن ذلك إذا
كان دلّ على تعمد ، وأبان عن تكلف ، والشاعر الجيد هو من لا تلاحظ في شعره
تعمل الصنعة أو تكلف الصياغة^(١) .

أما القوافي التي قامت عليها أواخر الأبيات في كل معلقة من المملقات ،
والتي عرفها العلماء بأنها الحروف من آخر البيت إلى أول متحرك ساكن ،

(١) انظر كتابنا (قدامة بن جعفر والنقد الأدبي) ٢٢١ — الطبعة الثانية ١٩٥٨ .

أو هي عبارة عن الساكنين اللذين في آخر البيت مع ما بينهما من الحروف المتحركة ومع المتحرك الذي قبل الساكن الأول ، فقد انتظمت في المملكات ، ولم يخرج على مقاييسها التي وضعها المروضيون وعلماء القوافي فيما بعد إلا القليل الذي يكاد لا يذكر ، وهي حروف معدودة جانب فيها بعض الشعراء ما عرف من الوحدة المطلوبة في تلك القوافي . فحرف الروى وهو الحرف الذي بنيت عليه القصيدة ونسبت إليه واحد لم يتغير في كل قصيدة . وقد ألزم امرؤ القيس حرف اللام ، وطرفة حرف الدال ، والزم زهير وليد وعنزة حرف الميم ، والزم عمرو بن كلثوم حرف النون ، كما ألزم الحارث حرف الهمة ، ولم يخرج واحد منهم عن حرف الروى الذي اختاره لمملكته .

وكان هذا الالتزام هو الذي جعل القافية تدخل في مفهوم الشعر وحدّه عند العرب ، واعتبارها عنصراً من عناصر الشعر الأصيلة فيه ، حتى غالى بعض شعرائهم فيما بعد ، فألزم نفسه بما لا يلزم من عدد حروفها . ودعاهم الحرص على وحدة الموسيقى الحرص على حركة الروى ، وعدوا الخروج عليها عيباً من عيوب القافية ، عابوا به الشعراء ، وسموا هذا العيب « الإقواء » . نقل ابن قتيبة عن أبي عمرو بن العلاء أن « الإقواء » هو اختلاف الإعراب في القوافي ، وذلك أن تكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة ، كقول النابغة :

قالت بنو عامر : خالوا بنى أسدٍ يابؤسٌ للجملِ ضرّاً لأقوامٍ^(١)
تبدو كواكبهُ والشمسُ طالعةٌ لا النورُ نورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ
وكان يقال إن النابغة الديلمي وبشر بن أبي خازم كانا يقويان^(٢)

(١) خالوا بنى أسد : تاركوهم ، يقال : خالاه إذا تاركه .

(٢) الشعر والشعراء ٤٢/١ . ونقل ابن قتيبة أن بعض الناس يسمي هذا العيب

(الإقواء) ويزعم أن الإقواء نقصان حرف من فاصلة البيت ، كقول حجل بن نضلة ، وكان أسر بنت عمرو بن كلثوم ، وركب بها الفلوز ، واسمها النوار :

وليس في المعلقة من هذا العيب من عيوب القافية إلا بيت واحد ، هو قول الحارث بن حلزة :

فلكننا بذلك الناس حتى مَلَكَ المنذرُ بنُ ماء السماء

وهذا يؤكّد ما قلناه من أن المعلقة كانت نهاية التجارب في صياغة هذا الفن الشعري ، فإن بيتاً واحداً وقع فيه هذا العيب قليل يكاد لا يذكر ، مع أن قدامة بن جعفر ينصّ — بعد أن عرّف الإقواء على النحو السابق — على أن الإقواء في شعر الأعراب كثير جداً ، وفيمن دون الفحول من الشعراء ... ثم يقول : وقد ارتكب بعض فحول الشعراء الإقواء في مواضع^(١). وقال صاحب القاموس : يقال : أقوى الشعرَ خالف قوافيه برفع بيت وجر آخر ، وقلت قصيدة لم بلا إقواء^(٢).

وكذلك ألزم أصحاب المعلقة « الوصل » وهو حرف اللين الناشئ من إشباع حركة الروى كالياء الناشئة من إشباع الكسرة في معلقة امرئ القيس ومعلقة طرفة ومعلقة زهير ومعلقة عنتره ، والواو الناشئة من إشباع الضمة في معلقة الحارث ، والألف الناشئة من إشباع الفتحة في أكثر قافية عمرو بن كلثوم ؛ ومن « الوصل » أيضاً الهاء التي تلي حرف الروى ، سواء أكانت ساكنة أو متحركة ، كما في معلقة لبيد :

عفت الديار محلّها فقامها بمنى تأبّد غوّ لها فرجامها

فإن هذه المعلقة رويها الميم والهاء وصل ، قد ألزم لبيد الروى وهاء الوصل والألف الناشئة عن حركة هاء الوصل التي يسميها العلماء « الخروج » والألف

== حنت نوار ولات هنا حنت وبدا الذي كانت نوار أجنت

لما رأت ماء السلا مشروباً والفرث يصغر في الإفاء أرنّت

سمى إقواء ، لأنه نقص من عروضه قوة — وكان البيت يستوي بأن يقول « مقسرباً » . يقال أقوى الجبل ، إذا جعل بعض قواه أغلظ من بعض .

(١) نقد الشعر ١٠٩ . (٢) القاموس المحيط ٤/٣٨١ .

التي قبل حرف الروى ، التي يسميها العلماء « الرّذف » . كل ذلك قد التزمه
ليبد، ولم يخرج عليه في قافية أى بيت من تلك القصيدة الطويلة.
وقد وقع عمرو بن كلثوم في عيب من عيوب القافية ، ذلك العيب الذى
يسمونه « السّناد » وهو اختلاف ما يراعى قبل الروى من الحروف والحركات،
وذلك في قوله في وصف الدرع :

إذا وُضعتْ عن الأبطال يوماً رأيتَ لها جُلُودَ القومِ جُونا
كأنَّ متونَهُنَّ متونُ غُدرٍ تَصَفَّقُها الرِّيحُ إذا جَرَيْنَا
ونَحْمِلُنا غَدَاةَ الرُّوعِ جُرْدٌ عُرْفُنَا لَنَا نَقَائِذَ وَافْتُلِينَا

ففي قوله « جَرَيْنَا » سناد ، يسمى « سناد الحَذو » وهو عيب من عيوب
للقافية ، لأن حركة الراء الفتحة ، وحركة ما يماثلها الضمة فيما قبلها « جونا »
والكسرة فيما بعدها « افْتُلِينَا » . والفتحة مع الضمة متباعدتان ، والفتحة مع
الكسرة متباعدتان أيضاً ، أما الضمة مع الكسرة فإنهما متقاربتان ، ولذلك
لم يعدوا اجتماعهما عيباً .

ومن عيوب الإعراب بسبب الوزن ما ذكره ابن قتيبة^(١) من أن ليبدأ في قوله :
تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَعْتَلِقُ بَعْضَ النَفُوسِ حَامُهَا
قد اضطر إلى أن يسكن ما كان ينبغي له أن يحركه ، وذلك في قوله « يعلّق »
لأنه يريد : أترك المكان الذى لا أرضاه إلى أن أموت ، ولا أزال أفعل ذلك ،
و « أو » هاهنا بمنزلة « حتى » .

ومن محاسن القوافي ما يسمى « التصريع » وهو أن يكون مقطع المصراع
الأول في البيت الأول مثل قافيته ، وهذا الفن قد التزمه جميع أصحاب المعلقات ،
ولذلك قال قدامة إن الفحول والهجيد من الشعراء القدماء والمحدثين كانوا
يتوخون التصريع ، ولا يكادون يعدلون عنه ، وربما صرّعوا أبياتاً آخر من

(١) الشعر والشعراء ٤٥/١ .

القصيدة بعد البيت الأول . وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره ، وأكثر من كان يستعمل ذلك امرؤ القيس لحله من الشعر^(١) فمن ذلك قوله :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزلٍ بسقط اللوى بين الدخول فحوملٍ
نم أنى بعد ذلك بأبيات فقال :

أقاطم مهلاً بعض هذا التدألٍ وإن كنت قد أزمعتِ صرعى فأجلى
نم أنى بأبيات بعد هذا البيت فقال :

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلِ بصُبح وما الإصباحُ منك بأمثلِ
ومن ذلك ما فعل عمرو بن كلثوم الذى ابتداء معلقته بقوله :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقِ خمر الأندرينا
نم أنى بعد ذلك بأبيات فقال :

قفى قبل التفرق يا ظمينا نخبرك اليقين ونخبرينا
نم أنى بأبيات كثيرة بعد هذا البيت ، حتى قال :

إذا لم نحمن فلا بقينا لشيء بعدهن ولا حيينا
وكذلك فعل عنتره ، فوالى بين بيتين مصرعين فى أول المعلقة ، وذلك فى قوله :

هل غادر الشعراء من متردٍ أم هل عرفت الدار بعد توهمٍ
أعياء رسم الدار لم يتكلم حتى تكلم كالأمم الأعجم
نم أنى بيت غير مصرع ، وأتبعه بقوله :

يادار عبلة بالجواء تكلمى وعى صباحاً دار عبلة واسلمى
وهذا التصريح يعد من أمارات إجادة الشاعر وتعلقه بفنّه ، وأن موسيقى اللفظ تلازمه ، ويدل على أن الشاعر قد حدّد القافية التى سببى عليها قصيدته .
ومن جهة السامع فإن التصريح لإعداد لأذنه ، وتمهيد لحسه لمعرفة هذه القافية

وتقبلها . والترصيع في المنظوم نظير التجميع في كل كلام منشور ، فكما أن الكلام المجمع تدل فاصلة الفقرة الأولى على فاصلة تالياتها ، فكذلك يكون عجز النصف الأول من البيت الأول مؤذنا بقافيته ، ومتى عرف التصريع عرفت القافية . والشاعر المجيد هو من يعدّ أذنك لتقبل انطه ، ليعد عاطفتك للتأثر بمعانيه . وإنما يذهب الشعراء المطبوعون المجيدون إلى ذلك — كما يرى قدامة — لأن بنية الشعر إنما هي التجميع والتقفية ، فكلمة كان الشعر أكثر اشتمالاً عليه كان أدخل له في باب الشعر ، وأخرج له عن مذهب النثر .

وبعض النقاد لا يرى هذا التصريع مختاراً إذا تكرّر في القصيدة ، ويرى أن التصريع وغيره من محاسن الكلام والشعر إنما يحسن منها ما قلّ وجرى مجرى اللعة واللحمة ، وأما إذا تواتر وتكرّر ، فليس ذلك عندهم مختاراً . ويمثلون لذلك بالخال يحسن في بعض الوجوه ، ولو كان في الوجه عدة خيلان لكان قبيحاً ، ويكون في بعض النقوش يسير من سواد أو حمرة ، أو غيرها من الألوان ، فيحسن المزاج والنقش بذلك القدر من اللون ، فإن زاد لم يكن حسناً ، ونستحسن غرة الفرس وهي قدر مخصوص ، فإن كان كله أبيض ، أو زاد ذلك القدر من البياض لم يحسن^(١) .

وأحسن ابن رشيق التعليل للتصريع وتكريره بعد البيت الأول ، فقال إن سبب التصريع مبادرة الشاعر القافية ، ليعلم في أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون غير منشور ، ولذلك وقع في أول الشعر ، وربما صرع الشاعر في غير الابتداء وذلك إذا خرج من قصة إلى قصة ، أو من وصف شيء إلى وصف شيء آخر ، فيأتي حينئذ بالتصريع إخباراً بذلك ، وتنبيهاً عليه^(٢) .

٤ — معاني المعلقة وأخيلتها

من أهم ما يمتاز به معاني الشعر في المعلقة أنها معان فطرية ألفها الشعراء .

(٢) انظر كتاب المدة ١/ ١١٥ .

(١) انظر سر الفصاحة ١٨٠ .

من واقع حياتهم وما زاولوه بأيديهم ، ورأوه بعيونهم ، وسمعوه بأذانهم ، من آثار الطبيعة الحية ، وآثارها الجامدة أيضاً . وقد تفاعلت شاعريتهم بكل مظاهر تلك الحياة ، كما تفاعلت بالأحداث التي وقعت فيها ، وتكونت منها تجارب وعواطف وانفعالات ، عبروا عنها في تلك القصائد الطويلة .

ومن أهم خصائص هذا الشعر الصدق والصراحة في التعبير عن تلك الأحاسيس والعواطف والانفعالات ، ولم يحاول شاعر من الشعراء أن يخفي شيئاً من مشاعره أو عواطفه أو انفعالاته ، بل عرضها كل واحد منهم عرضاً صريحاً صادقاً . وكان ذلك الصدق أنراً من آثار الحرية التي كان يتمتع بها الجاهلي في تلك الحياة الحرة الطليقة التي لا تعترف بالسدود ولا تعرف القيود .

ونلمح أثر ذلك الصدق في كثير من أبيات معلقة امرئ القيس التي عبر فيها عن شيء من تجاربه المأجنة ، في غير تعفف ولا استحياء ، ووصف فيها بعض مضامراته ، ودببه إلى العبت في خفية عن الرقباء .

ونلمحه أيضاً في كثير من أبيات معلقة طرفة التي وصف فيها لإسرافه على نفسه في انتهاب المتع ولذاذات العيش في غير حذر من المستقبل ، أو إشفاق من العذل والتأنيب .

ومن آثار الصدق والصراحة أيضاً ذلك الزهو الذي تجاوز حدود الفخر في معلقة عمرو بن كلثوم على ملك من ملوك الحيرة ، والتعريض بذلك الملك ، وإظهار التمرد على سلاطانه وسلطان أتباعه .

ومن آثاره أيضاً ما كان من الحارث بن حلزة الذي ذكر لقومه كثيراً من الأيادي على ذلك الملك وآبائه ، حين ردوا عنهم طمع الطامعين في ملكهم ، وأعانوهم على النيل من أعدائهم .

وتلك روح البداوة التي هامت بالصراحة ، وتعشقت الحرية في العمل وفي القول والتفكير ، في غير مبالاة بمن لا يرضيهم هذا القول ، أو ذلك العمل ،

ولا يمثل الواجب والأخلاق التي قد تحدت من هذه الحرية ، والعقول التي قد تنكرها ، والأذواق التي قد تنفر منها .

وتلك هي الفطرة التي تنفر من التجميل ، وتنأى عن التكلف في استرضاء البيئة والمجتمع .

ومن أوصاف هذه المعاني أنها معان بسيطة ، لأنها عالجت حياة بسيطة ساذجة في طبيعتها ، وفي طبيعة الأحياء الذين لم يعرفوا النلو في شيء من طعامهم أو ثراهم أو أسلوب حياتهم ، وذلك ما يميزها عن حياة الحضارة التي تتعدد مسالكها ، وتتعدد شعابها ، وتزداد فيها حاجات النفس والعقل ، فلا يعود الفرد يكتفى بالقليل من حاجات الميش الذي يقيم صلبه ويبقى على حياته ، وإنما يجد في تسخير الطبيعة وتذليل عقباتها ، والإمعان في التفكير الذي يوصله إلى إشباع رغائبه من مطالب الحياة التي لا تنفص ، ثم ينطبع كل ذلك في عقله ، ويتسلط على تفكيره ، ويؤثر في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل ، ولذلك اتسم أدب الحضارة بالتمقيد ، والميل إلى الإغراب والمبالغات المرسفة التي خلا منها أكثر أدب القدماء .

ولذلك كان شعر المعلقات مرآة انعكست فيها مظاهر الحياة الجاهلية ، وظهرت فيها هضابها وجبالها ووديانها وعيونها ، وصور سمائها وبجوماتها ، وسحبها وأمطارها ، وأنواع نباتها وصنوف حيوانها ، وحياة الحروب التي خاضوها بخيلها وسيوفها ورماحها ودمائها ، ولم يخرج ذلك الشعر عن تلك المقاصد التي قصدوا إليها ، والمشاهد التي وقعت عيونهم عليها ، كما أعرب عن عواطفهم وانفعالاتهم ، وعبر عن شعور اللذة والألم ، والرضا والسخط ، والحب والبغض . ولذلك كانت الواقعية أظهر خصائص هذا الشعر الذي عبر عن الحقيقة أصدق تعبير .

وقد خلا شعر المعلقات من المبالغات الممقوتة والدعاوى الباطلة ، ولم يصف إلا ما رآه ، ولم يتفاعل إلا بما عرفه ، ولم يؤلف صور الخيال إلا من مجموع

ما رأى وعرف ، مع البعد عن الغلو والإسراف الذى تلاحظه فى أشعار المتأخرين الذين عاشوا فى عصور الحضارة .

كما يمتاز شعر المعلقات بأنه قريب التناول ، بعيد عن النزعات الفلسفية ، وعن التعمق فى فهم أسرار الكون والكائنات ، والبحث فى أسرار الطبيعة وما وراء الطبيعة ، اللهم إلا أفكاراً عارضة عن الموت والبحث والجزاء مما سمعوه عن أهل الديانات ، أو كان نتيجة لإدراكهم نهاية الحياة مما رأوا بأنفسهم عن مصير الحياة فى أسلافهم ؛ ولا يحسب شئ من ذلك من آثار الفلسفة ، أو التعمق فى محاولة فهم ظواهر الحياة ، والبحث عن أسرارها .

والناظر فى معانى المعلقات وأخيلتها يجدها معانى مادية وأخيلة قريبة مما يعرفه أصحابها فى تلك البيئة الجاهلية ، فامرؤ القيس يشبه نفسه وقد دمعت عيناه ، بناقف الجنظال الذى يشقه ليستخرج حبه (٤) ورائحة المسك التى تنبعث من من أردان أم الحوirth وجاراتها أم الرباب تشبه رائحة نسيم الصبا وقد مرت على القرنفل واكتسبت منه طيباً (٨) وشبه شحم راحلته التى عقرها للعذارى بأطراف الإبريسم الأبيض (١٢) ويشبه ما تفعل عينا فاطمة بقلبه إذ تملك عليه كل جهاته بمن يفوز بأجزاء الجزور ، وتلك صورة من صور الحياة عندهم ، والسهمان هما الرقيب والمعلّى من قداح الميسر^(١) فللرقيب ثلاثة أسهم والمعلّى سبعة أسهم ، وجزور الميسر يقسم عشرة أقسام ، فمن خرج له هذان السهمان فقد فاز بجميع أجزاء الجزور (٢٦) .

أما حبيبتها فقد شبهها ببوضة الخدر (٢٧) وببوضة الذمامة (٣٦) وترائبها

(١) القداح الرابحة عندهم سبعة . هى : الفذ ، والنووم ، والرقيب ، والحلس ، والنافس . والسبل ، والملى . ولافذ واحد ، وكل قدح مما يليه يزيد واحداً على ما قبله ، فللملّى سبعة ؛ ومجموع أنصبة القداح الرابحة ثمانية وعشرون نصيباً . أما القداح القارمة فهى : المنيع ، والسفيح ، والوغد .

المصقولة بالسجفجل (٣٥) وناظرتها بناظرة وحش وجرة (٣٧) وجيدها بجيد الرثم
(٣٨) وشعرها بكباسة النخلة (٣٩) وساقها بأنبوب السقي (٤١) وجانب خاصرتها
بخطام البعير (٤١) وأناملها الفضة بالأساريع وأصابعها بأغصان الإسحل (٤٣).
وشبه الليل بموج البحر (٤٨) وبالجل ذي الصلب والمعجز والكلكل (٤٩)
حتى ما رآه في السماء ونجومها شبهه بما يراه على الأرض ، فالثريا كالوشاح
الذى يفصل بين خرزه ، لتفاوت قليل بين كواكبها ، فكأنها خرزات الوشاح
فصل بينها شيء آخر (٢٩) والنجوم لا تزايل مواضعها كأنها شدت يذبيل بكل
مغار الفتل (٥١) والثريا كأنها علقت في مواضعها بأصراس كتان وصلت بحجر
ثابت (٥٢) .

كما شبه الوادى الواسع بحوف العير (٥٤) وحصانه بجلود صخر أنزله السيل
من عل (٥٨) ولبدنه يزل عن ظهره كما يزل المطرفوق الصخر الأملس (٥٩) وصوت
جره كصوت غليان المرجل (٦٠) وهو يدور بالجري كخزوف الوليد (٦٣)
وخاصرته كخاصرتي القطي ، وساقه كساق النعامة ، وعدوه كعدو الذئب وعدو
ولد الثعلب (٦٤) وكأن جانبي صلبه إذا اعتمد على رجلبيه الحجر الذى يندق عليه
الطيب للعروس ، أو الحجر الذى يكسر به الحنظل (٦٦) كما شبه دماء الوحش
على عنق هذا الفرس بما بقى من الحناء على الشعر الأشيب (٦٧) ونعاج بقر
الوحش بالـمـذارى يطفن حول الصنم (٦٨) وشبههن فى نفورهن بالجزع
المفصل (٦٨) .

وشبه البرق فى تحركه ولعانه بلع اليدى ، وفى تألقه بمصباح راهب أميلات
فتيلته بصب الزيت عليها (٧٥ ، ٧٦) وشبه جبل ثبير فى أوائل المطر بكبير قوم
تزمّل بكساء مخطط (٨٢) وأعلى رأس الجحيمر صبيحة ذلك المطر مما جلبه السيل
إليه وأداره بحوانبه بالخشبة التى تطيف بالمنزل وتحيط به (٨٣) وحمله الذى ألقاه

بصحراء الفييط بما ينشر التاجر اليماني مما في عيابه من الثياب ليعرضها على من يريد شرائها (٨٤) ومكا كي الجواء وقد أصابها المطر بشارب الصبوح (٨٥) والأسود وقد غرقت في سيول ذلك المطر بأصول البصل البرى .

هذا ما اشتملت عليه معلقة امرئ القيس وحدها من فن التشبيه ، وإنه لكثير ؛ وإن هذه التشبيهات مع كثرتها لم تخرج عن دائرة التشبيهات المادية القريبة .

وأكثر ما في معلقة طرفة على هذا النحو من المعاني والأخيلة المادية ، فقد شبه ما بقي من أطلال خولة بما بقي من الوشم في ظاهر اليد (١) وشبه مراكبها بالسفن العظام (٣) وشبهها بالعزيزال الأحوى الطويل العنق (٦) وثفرها الذي تضرب حمرة شفقيه إلى سواد بأقحوان نبت في كتيب من الرمل لم يخاطه تراب (٨) وهو في بريقه كأن الشمس كسته ضياءها (٩) ووجهها المشرق كأن الشمس أعارته ثوبا قيا (١٠) .

وحين أخذ في وصف الناقة ، عبر عن عظمة جسمها وضخامته ، وشبه عظامها بألواح التابوت ، وشبه الطريق الذي تسلكه بالكساء المخطط ، لأن فيه من آثار أقدام الإنسان وحوافر الدواب وأخفاف الإبل المتتابعة ما هو كالمخطوط التي في الثوب المخطط (١٢) وشبهها بالجل في قوة أعضائها وثاقة خلقها ، وبالنعامة التي عرضت لظلم في سرعتها (١٣) ومنبت ذنبها في البياض بمخاض نسر أبيض (١٧) وشبه ضرعها البالي بالقربة الخلق (١٨) وتغذيها في السمن بياي قصر عظيم (١٩) وأضلاعها المتصلة بفقارها بالقسي (٢٠) وإبطيها في السعة بيتين من بيوت الثور الوحشى ، وأضلاعها بالقسي المعطوفة تحت صلب محكم (٢١) ومرفقيها البعيدين عن جنبها بسقاء قوى حمل بكل يد دلوا ومشى بهما وقد باعدهما عن جنبه فارتفع بذلك مرقاه عن جنبه (٢٢) وشبهها في

ضخامة جسمها وحسن خلقها وتراصف أعضائها بقنطرة رجل رومى بالغ في
 صنعها وتقوية بنائها (٢٣) وشبه آثار النسع في جلدها بآثار طرق مورد على
 صخرة ملساء في أرض صلبة (٢٧) وعنقها الطويل بسكان السفينة (٢٩) ورأسها
 في صلابته بالسندان (٣٠) وخدها في نعومته بقرطاس الشامي ، وشفتها بحبل
 مدبوغ (٣١) وعينها بالمرآتين اللامعتين في كهفين وقد أحيطتا بعظمين كأنهما حجر
 القلت (٣٢) وبعينى البقرة الوحشية التي أربعت (٣٣) وشبه أذنيها بأذنى الشاة
 (٣٥) وقلبها الذكى بحجر الرداء (٣٦) وإسراعها في السير بإسراع ذكر النعام
 (٣٩) وشبهها في التبخر في مشيتها بالجارية ترخى أذناها وتبخر أمام سيدها (٤٤) .
 أما نداماه فقد شبههم بالنجوم (٤٨) وشبه صوت القينة بصوت النوق
 تبكى أولادهن (٥١) وشبه نفسه حين تحامته العشرة بالبعير الأجرب (٥٣) وشبه
 حصانه بذئب الغضا المتورد (٥٩) ورجلى المرأة ويديها بالشجر والخروع (٦١)
 والموت بصاحب الدابة يرخى لها رسنها لترعى وطرفه بيده فهو قابضها لا محالة
 (٦٨) وشبه اليأس بالموت (٧٢) وشبه نفسه في الخفة والمضاء برأس الحية (٨٤) .
 وفي معلقة زهير : تشبيه ديار أم أو في بالرقتين بما يبقى على ظاهر اليد من
 الوشم (٢) وما يفرش من الثياب بالدم في الحرة (٩) وإصابة المقصود باليد التي
 لا تخطئ الفم (١١) وفقات العين بحب الفنا في تفرقه (١٣) والحرب تستأصل
 المحاربين بالرحى تمر كقفاها (٣١) وشبه حصين بن ضمضم بالأسد ، والسلاح
 بالأظفار ، واستمرارها لها (٢٨) .

وفي هذه المعلقة كثير من صور التمثيل ، كتمثيله المنايا نمت من تصيبه ،
 ويطول عمر من تخطئه حتى يهرم ، بالناقة العشواء تسير بالليل على غير هدى (٥٠)
 وتمثيله من كانوا في صلاح من أمرهم ، ثم صاروا إلى حرب تستعمل فيها السلاح
 وتسفك الدماء بقوم رعوا خيلهم زمنا ، فلما ظمئت أوردوها مياه كثيرة (٤٠)

وتمثله من لا يجامل الناس ويدار بهم في أكثر أموره معهم فيصيبونه بما يكره
 بمن يعض بالضرس ويوطأ بالمنسم (٥١) والذي يبعد في الفرار من المنية بمن
 يحاول أن يرق أسباب السماء بسم (٥٥).

وفي معلقة لبيد شبه الرسوم الباقية بالكتابة الباقية على الأحجار (٢)
 والطلول التي غسلت الأمطار ما كان متراكما عليها من التراب بالكتب التي
 غابت فيها الكتابة ، لبعدها بالكتاب ، والسيول بالأقلام تجدد كتابة
 تلك الكتب (٨) وبالأشمة عمدت إلى وشم ضعف أثره على اليد فرجمته وأعادته
 بذر النثور على داراته كأنه جديد (٩) وجاعات النساء على هواجهن بيقرات
 وحش في حسن عيونهن ، وبظباء وجرة عاطفات على أولادهن (١٤) والرجال
 في ضخامتها بأنثلات منعطفات وادي يبشة وأحجاره الضخمة (١٥) وشبه الناقة
 في خفنها بالسحابة (٢٤) والغبار بدخان النار (٣١ ، ٣٤) والبقرة الوحشية كلما
 تحركت بالليل أشرق لونها بالذرة انقطع سلكها (٤٣) والقرن بالرمح (٥٠)
 واستعار الرقص للارتفاع والانخفاض (٥٣) واستعار لريح الشمال يدأ (٦١) وشبه
 للفرس منتصبه بالذخلة المشرفة (٦٦) والمرأة البائسة بالناقة التي شدت على قبر
 صاحبها (٧٦) وشبه قومه للناس بالربيع الذي يحيي ميت الأرض (٨٧).

وتفيض معلقة عمرو بن كاثوم بأمثال هذه التشبيهات ، فقد شبه الماء الذي
 تمزج به الحمر بالورس (٢) لأنها إذا مزجت بالماء اكتست ثوب صفرة . وشبه
 ذراعى المرأة بذراع ناقة بيضاء لم تلد بعد (١٤) يريد أنها سمينة وأن بشرتها
 خالصة البياض . كما شبه ثديها بحق العاج بياضاً واستدارة (١٥) ولما كان حق
 العاج يابساً خاف أن يسبق إلى الوهم أن ثديها الذي شبه به يكون كذلك ،
 فنفاه بقوله « رخصاً » أي غصاً ناعماً طرياً ، ثم قال إن هذا الندى لم تمسه يد
 لأمس ، وأن صاحبه عفيفة . وشبه ساقها بساريتين من عاج أو رخام إذا
 تحركا سمع لخليهما رنين (١٨) وشبه وجدته بها بوجود ناقة أضلت حوارها فرجمت

الحنين (١٩) ويوجد العجوز لم يترك لها الدهر أحدا من أولادها التسعة (٢٠) ومثل اليمامة وقد بعدت عنهم ، وحال دونها السراب ، فترامت لهم مرتفعة بالسيوف المسلولة من أغاها ، وقد خياها السراب كذلك (٢٢) وفخر بأنهم إذا حاربوا قوما طحنوهم كما تطحن الرحي الحنطة (٣٠) وجعل قري أعدائهم الحرب الطاحنة (٣٣) وشبه رموس أولئك الأعداء إذا سقطت عن أجسادهم بأحمال إبل سقطت في أرض ذات حجارة (٣٧) وسيوفهم بالمخاريق في أيدي صبيانهم ، لأنهم مهرة حذقوا حماها والضرب بها (٤٣) وثيابهم لكثرة ما وقع عليها من الدماء كأنها خضبت بالأرجوان (٤٤) وشبه الدروع في تدريجها وحسن نسجها بطرائق الماء إذا هبت عليه الريح (٧٨) والنسوة إذا مشين غير مجلات وتمايلن مرحاً بالخمور ينمايلون (٨٦) واليد في سرعتها في الضرب بالقلم التي يلعب بها الصبيان . وكذلك تفيض معلقة عنقرة بكثير من التشبهات كما شبه ناقته أو أطلال حبيبتها بالقصر (٦) وشبه الإبل الحلوبة في مواردها وكثرتها بخوافي الغراب الأسود (١٥) وريح حبيبتها بريح قارة المسك (١٨) وريح الروضة الأنف (١٩) وتغريد الطيور في الروضة بترنم الشارب المترنم (٢٢) والذباب إذا سنّ إحدى ذراعيه بالأخرى برجل أجذم قعد يقدح ناراً بذراعيه (٢٣) وشبه نفسه على ظهر الناقة بمن يكسر الإكام بحف ظليم صلب (٢٨) والنعام تستجيب لذلك الظليم بجماعات الإبل تجتمع إذا أهاب بها الراعي (٢٩) وهذا الظليم كأنه مركب جعل خيمة فالنعام يحاذينه ليتطلان به (٣٠) وشبهه في صفر رأسه بالعبد الأسود (٣١) وشبه قوائم الناقة بدعائم الخيام (٣٥) وبالناقة من الحدة والنشاط ما كأن هراتحت لإبطها ينهشها (٣٣) وشبه عرقها الذي يسيل من رأسها بالدبس والقطران جعل في قنم وأشعلت تحته النار (٣٧) وظلمه غير المستساغ بالعلقم في صرارته (٤١) ورشاش الطعنة النافذة بالعندم في الحمرة (٤٧) ورأس القليل وبنانه وقد جلتها الدماء كأنما خضبا بالعظم (٦٤) وهو

في طول قامته كالسرحة العظيمة (٦٥). وشبه جيد حبيته بجيد الجدابة (٦٩) وشبه
الرماح بالحبال التي ترسل في البئر (٧٩).

وشبه الحارث النار التي أوقدتها هند فينت ديارها بالضياء الذي ينمر السكون
ويبدد الظلمات (٦) كما شبه ناقته السريعة بالنعامة طويلة الساقين ذات
الأولاد (١٠) وشبه الفبار الدقيق التي تنيره بقوائمها بما يشاهد في شعاع
الشمس بالدخان إذا نظرت إليه من كوة (١٢) ومثل المنية ترميهم بمصائبها
بمن يرى جبلا فلا يضيره ولا يؤثر فيه (٢٥) وشبه من يصبر على احتمال الأذى
من يعض عينه على القذى (٣٠) ومن يحمل جريرة غيره بالجل تعلق أحمال
غيره على ظهره (٤٧) ومن يؤخذ بذنب غيره بالظباء تؤخذ بذنب الشاة (٥١)
والصالح بك بالألقاء^(١) لحقارهم (٦١) والدماء التي تنزف من الجراح بالماء
القذى يسيل من المزايدة (٧٢) كما شبه تحرك الرماح في أجسامهم بالدلاء تحرك في
البئر لتمتليء (٧٤) والسكنية المهنمة على قائدها بالقرون المنحنية على رأس
الحيوان (٨٢).

ذلك أكثر ما في المطلقات من التشبيهات ، وهي تعطى صورة واضحة
لمعانيها ، ونستطيع من استقراء هذه الصور وما يماثلها أن نرى :
(١) أنها تشبيهات قريبة ، لا تحتاج إلى تعمق في فهمها ؛ وأنها تمتاز بالبساطة
والسهولة .

(٢) وأن معانيها معان مادية مما تقع عليه الحواس .

(٣) وأن منزع هذه المعاني هي البيئة التي عاشوا فيها ، بما فيها من سماء
ونجوم ، وسحاب ومطر ، ونبات وحيوان ، وساير ما يجدون في حياتهم البدوية .
وبذلك استطاع هذا الشاعر أن يسد كثيراً من الفجرات التي يجدها الباحث
في تاريخ الأمة العربية قبل الإسلام ، حين لا يجد ما يساعده على تحقيق غرضه من

(١) الألقاء جمع لقى ، وهو الشيء المطروح الذي لا يكثر به لفظه .

الآثار الشاخصة ، أو النقوش البارزة ، أو الكتابة الباقية التي صورت حياة غيرهم من الأمم ، واعتمد عليها المؤرخون ، واتخذوها مصدراً للمعلومات التي استطاعوا الاهتداء إليها . ولذلك نهض هذا الشعر بكثير من الحقائق عن الأمة العربية التي لم يستطع أن ينهض بها غيره من مصادر التاريخ .

ولا يوصف أكثر تلك المعاني بالسرقة ، فقد كان أصحاب الملاحظات من الأئمة الذين فجروا عيون الشعر ، واستخرجوا معانيه ، واتبعهم فيها الذين جاءوا من بعدهم من الشعراء . قال أبو عبيدة . يقول من فضل امرأ القيس . إنه أول من فتح الشعر واستوقف ، وبكى في الدمن ، ووصف ما فيها . . وهو أول من شبه الخيل بالعصا والاقوة^(١) والسباع والظباء والطير ، فتبعه الشعراء على تشبيهها بهذه الأوصاف . وقال أبو عبيدة : إن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد ، يعنى في قوله في وصف الفرس « قيد الأوابد » فتبعه الناس على ذلك . . وأول من قال « فعادى عداء » فاتبه الناس . وكذلك وجدنا مثل هذه الكلمات في وصف أولئك الفحول .

والإشارة إلى أولئك الفحول وابتسكارهم لمعاني الملاحظات تقتضيها الإشارة إلى ما توارد عليه امرؤ القيس وطرفة بن العبد ، في قول الأول :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أسمى وتجل
وقول الآخر :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أسمى وتجل

فقد اتفقا في البيتين على هذا النحو ، ولم يغير طرفة إلا لفظ القافية الذي جعله طرفة « تجلد » موضع « تجمل » في بيت امرئ القيس .

وهذا لون من السرقات ، سماه النقاد « وقوع الحافر على الحافر » وأجمعوا

(١) القوة العقاب الأتني ، أو الحفيظة السريعة .

على رفضه والنهوين من شأن قائله ، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا أبو عمرو بن العلاء الذى يقول فى هذين البيتين « عقول رجال توافت على أسئتها » .

ولا نستطيع أن نقر هذا التوافق أو التوافق أو الالتقاء عند كثيرين من الآخذين ، إذا كنا عارفين على وجه التحقيق أن المأخوذ منهم سابقون فى الوجود والحياة على الذين شابهت أقوالهم أو أعمالهم الأدبية أو بعضها أعمال أولئك السابقين . والتوافق على هذا النحو بين المتعاصرين أكبر الظن أن مرجعه سوء حفظ أولئك الرواة ، الذين يختلط عليهم الأمر فينقلون من شاعر إلى شاعر ، إذا وجدوا تقارباً فى الاتجاه أو فى الموضوع ، أوفى الفكرة المعبر عنها . ومرجع ذلك فى الحقيقة إلى الغفلة والنسيان ، وكثرة ما يسمعون وكثرة ما يرون لشعراء مختلفين ؛ وأغلب الظن أن راوى القصيدتين واحد ، وربما يشفع له فى ذلك الخلط أن القصيدتين من بحر واحد هو « بحر الطويل » وقد قدم كلا الشاعرين قصيدته بحديث عن الأطلال والديار ، فأطلال امرئ القيس بسقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالقراءة ، وأطلال خولة ببرقة نهمدتلوح كباقي الوشم فى ظاهر اليد ، وكما ناسب الاستيقاف عند تلك الربوع الخاوية بعد ذكرها عند امرئ القيس ، ناسب ذلك عند طرفه أيضاً .

إنها ظنون فى عقل الراوى وفى خلد الناقل يسرت له الرواية ، كما يسرت له أيضاً استبدال حرفين فقط فى لفظ القافية بحرفين ينسجمان مع القافية . إن التفكير المنطقي لا يمنع جواز ذلك النسيان والغفلة من الراوى .

كما لا يمنع أن يكون الوم من طرفه نفسه ، فمن المحتمل أن يكون قد سمع بيت امرئ القيس ، ووعاه فى عقله الباطن ، ثم نسيه ونسى صاحبه ، فلما صاغ قصيدته وضع هذا البيت فى ذلك الموضع معتقداً أنه بيته ، وما هو بيته ، ولكنه الوم ووحدة الغرض ، وسياق الحديث ، هو الذى دعاه إلى ذلك الزعم ، وإيسر لذلك كبير خطر ، فإن ذلك المعنى أصبح من المعانى السائدة التى لا كتبها لأسنة

الشعراء الجاهليين بل فحولهم ، وبين أيدينا قصيدة طرفة بأسرها ، وهي تفيض بآيات الشاعرية الناضجة ، وفيها من المعاني المبتكرة مالا يعجز صاحبها عن الإتيان بمعنى امرئ القيس في غير لفظه ، وفي غير معرضه وكسوته إن أراد .

أما أن يكون اللفظ هو اللفظ ، والترتيب هو الترتيب ، من غير اختلاف في كلمة أو حرف سوى حرفي القافية ، فذلك ما تنكر التوارد فيه والاتفاق عليه ، إذ أننا نرى جواز التوارد في الفكرة والمعنى والعاطفة ، ولا نراه في الصورة والأسلوب ولا تنكره في لفظة أو لفظتين ؛ إذا كانتا خاصيتين بالمعنى أولا يعبر عنه إلا بهما أو بأمثالهما . ومثل ذلك الذي قلناه في امرئ القيس وفي طرفة يمكن أن يلتبس عذرا في أمثال تلك النصوص .

أما « موقع الحافر على الحافر » كما يقولون ، أو « عقول الرجال تتوافق على السنتها » فلنسا نراه يقع على هذه الصورة الكاملة التي جمعت الفكرة وصورتها ، لأنه ينشأ عن التسليم بهذا المبدأ أن المعنى واللفظ مقترنان في الذهن ، وأنهما كذلك في جميع الأذهان ، وقد يكون ذلك في لفظ واحد : اسم ذات ، أو اسم معنى ، ولكنه لا يكون كذلك في العبارة عن المعاني المركبة أو جملة من المواضع أو الانفعالات المتنقلة ، أو الحياة العقلية التي يسرى تيارها متتابعاً^(١) .

وقد ذكر أن طرفة أخذ بيته في وصف ناقته :

أُمُونِ كَالْوَحِ الْإِرَانِ نَسَأَتْهَا عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدٍ
من قول امرئ القيس في غير المعلقة :

وَعَنَسَ كَالْوَحِ الْإِرَانِ نَسَأَتْهَا عَلَى لَاحِبٍ كَالْبُرْدِ ذِي الْخَبَرَاتِ^(٢)
ومعنى البيتين واحد ، والاختلاف بين ألفاظهما قليل .

* * *

(١) انظر الفصل الخامس من كتابنا (السرقات الأدبية) صفحة ١٥٢ وما بعدها .

(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٨١/١ — والعنس الناقة القوية شبيهة بالصخرة . الصماء اصلها ، والإرآن خشب صلب يشد بهضه إلى بهض ، نسأتها زجرتها ، وعنتها بالنساء . وهي الصا ، واللاحب الطريق الواضح ، البرد ذو الخبرات من ثياب اللين الموشاة .

والناظر في معاني المعلقةات يجدها في كثير من الأحيان غير مرتبة الترتيب المنطقي الذي ينشده المتأخرون، وكثيراً ما يجد الشاعر قد ترك المعنى الذي كان آخذاً فيه ، وانتقل إلى معنى آخر استطراداً ، ثم يعود إلى ما كان فيه . ولذلك كان من الممكن مجازاة القائلين بأن من اليسير على الناظر في هذا الشعر أن يقدم بيتاً ويؤخر آخر عن موضعه ، ولا يجد ما يحول بينه وبين ما يريد شيء قد يضيع المعنى أو يفسده ، إن هو قدّم أو أخر بيتاً أو عدداً من الأبيات . والسبب في ذلك هو تعلق الأذهان بالجزئيات ، وعدم التفكير في الربط بين الأفكار والمعاني ، ووصل كل جزء منها بما يتممه . على أننا في الواقع نجد شيئاً من ذلك أو قريباً منه في وصف بعض صنوف الحيوان التي عرض بعض أصحاب المعلقةات لوصفها ، كما في وصف الفرس لامرئ القيس ، ووصف الناقة في معلقة طرفة ، وفي معلقة لبید أيضاً ، وذلك لعنايتهم الفائقة بالحيوان ، وهذين الحيوانين بالذات ، لطول ملازمتهم لهما ، وعظم نفعهما لهما في الظعن والإقامة والصيد والحروب . ولكننا مع ما نجد من الاستقصاء في وصف الحيوان لا نجد ما يفسد المعاني بتقديم بعض الأبيات على بعض .

وقد أصبح بدء القصائد بذكر الرسوم تقليداً من تقاليد الشعر الجاهلي ، وجرى عليه أصحاب المعلقةات ، ولم يشذ عن هذا التقليد إلا عمرو بن كلثوم الذي بدأ معلقته بذكر الحجر ، وقد علل لذلك ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء بأن « مقصد القصيد إنما ابتداء فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكي وشكا ، وخاطب الرّبع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها ، إذ كان نازلة الممد في الحلول والظمن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم عن ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلأ ، وتبعضهم مساقط الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصباة والشوق ، ليُميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس ، لا ئط بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً

منه بسبب ، وضار با فيه بسهم .

إذن فطبيعة الحياة نفسها هي التي جعلت هذا الغرض في مقدمة ما عالج الشعراء من الأغراض كما كانت سائر الأغراض أيضاً مما أوحى به الطبيعة التي عاش فيها أولئك الشعراء وأخلصوا لها ، واستقوا معانيهم منها، واشتقوا أخيلاتهم مما يرونه في جنباتها الواسعة . وكذلك كان الانتقال من غرض إلى غرض موافقاً لطبيعتهم ، وملاماً لنظرتهم القرية العاجلة التي لا تصبر على التأمل والفحص عن تلك المشاهد أو الخواطر غالباً . وكان من الطبيعي ألا نشد في هذه القصائد « وحدة الموضوع » التي ينشدها الدارسون والنقاد في هذه الأيام فيما يمرض عليهم من الأعمال الأدبية ، لأن لكل عصر طبيعته ، ولكل جماعة ذوقها العام الذي ينبع من تلك الطبيعة . ومن خصائص الذين يعيشون في عصور الحضارة الدقة في البحث والاستقصاء ، ومحاولة عدم الخروج عن جادة الموضوع ، سواء أكان ذلك في مجال البحث العلمي أم كان في الأعمال الفنية ، ثم إن تقدم العلوم وتنظيم مناهج البحث فيها من أهم ما يدعو إلى طلب الوحدة في الموضوع ، وحصر الذهن في دائرة لا تتعدها ، حتى يكون الإتقان العلمي أو الإتقان الفني ، وحتى لا يجد المطلع نقصاً يعيب به صاحب العمل ، وذلك لأن الموهوبين في النواحي العلمية أو الفنية يحاولون دائماً أن يظهرُوا بالانفراد ، وأن توصف أعمالهم بالكمال حتى لا يجد المعقب معه ثغرة ينفذ منها إلى الغض من العمل ، أو النيل من صاحبه، والسمة من أهم الأسباب التي تعوق عن تحصيل الكمال المنشود . ولم يكن الأقدمون يحسون بهذه الأفسكار التي يحس بها الذين عاشوا في عصور الحضارة ، لأن تلك المعاني كانت بكرة ، فحاولوا أن يحصلوا منها ما يستطيعون ؛ من غير محاولة الاستقصاء أو التدقيق ، ولذلك قيل إن معاني الشعر عند الأقدمين كانت غير نهائية ، وهي عند المحدثين نهائية ، ومعنى ذلك أن كل غرض من الأغراض التي عالجها القدماء يمكن أن يعالجه المتأخرون ، لأن عرض الأقدمين كان أشبه بالإشارة والإجمال ، أما عرض المتأخرين فإنه عرض يعيل إلى التفصيل والتدقيق والاستقصاء .

الخاتمة

وبعد هذه الجولة في تلك الآثار الخالدة في التاريخ الأدبي للأمة العربية أرجو أن أكون قد وفقت إلى تحقيق ما صبوت إليه من الدراسة الموضوعية لقن المملقات الذي تناولته من أكثر جهاته ، ومهدت السبيل لخدمة النص الأدبي والاعتماد عليه في محاولة التعرف على أولئك الذين أنشئوه ، والبيئة التي عاشوا فيها ، والظواهر الطبيعية والاجتماعية التي بانء معالمها في الأعمال الأدبية .

واست أزم أننى أثبت على كل ما يمكن أن يقال في هذا الموضوع الذي جعلت آفاقه تتسع أمامى كلما تقدمت في البحث ، وأوغلت فيه ؛ وكانت محاولتى دائماً أن أثنى عنان القلم الذى كان يحاول أن يلم بكل صغيرة وكبيرة تتصل بهذا الموضوع ، ولم أشعر فى أية مرحلة من مراحل البحث بما قد يشعر به الذين يكتبون فى الموضوع الواحد من الضيق بقيوده ، والتزامهم بمحدوده .

وأعتقد أن هذه الدراسة تفتح كثيراً من أبواب الدراسات أمام المختصين فى فنون المعرفة المختلفة ، فإن علماء التاريخ يستطيعون تحقيق كثير من الأعلام ، وتمحيص الوقائع والأحداث التى يحدون فى ثنايا المملقات إشارات إليها ، بما يحدون فى مصادر التاريخ الأخرى . ويستطيع علماء الجغرافية أن يستعينوا بها فى وصف طبيعة الجزيرة العربية ، وتحديد مواقع المنازل والجبال والهضاب والوديان ، ورسم خرائط تفصيلية تعين مواقعها ، وتشير إلى مابقى منها وما اندثر . وكذلك يحد علماء النبات والحيوان مجالاً لدراسة ما عرضت له المملقات من صنوفها .

وعلماء اللغة يستطيعون بمحصر الألفاظ التى استعملها أصحاب المملقات دراسة كثير من الظواهر اللغوية فيها ، ومعرفة الألفاظ العربية والدخيلة ، كما يستطيعون تتبع هذه الألفاظ ، والبحث عن حياتها فى الزمن ، وما أبقاه الاستعمال ، وما أمانته الإهمال ، واحتفاظ كل لفظ بمعناه ، أو ما أصابه من تصرف العصور فى ذلك المعنى ، أو إبعاد

له عن دلالة بالتوسع أو المجاز ، أو إشراك معنى غيره معه فى الدلالة عليه ، وبقاء اللفظ جامداً ، أو اشتقاق ألفاظ أخرى منه .

ذلك بعض ما تثيره هذه الدراسة من الأفكار والدراسات التى ذكرت منها ما يتسع له نطاق هذا البحث .

والحمد لله على ما هدى إليه ، وأعان عليه ، له الحمد فى الأولى والآخرة ، نعم المولى ونعم النصير

بروفيسور محمد طه

استدراك

وقعت بعض الأخطاء المطبعية القليلة نشير إلى بعضها فيما يأتى :

- | | |
|------------------------------------|---------------------------------|
| فى السطر الثانى من الصفحة ٦ | كلمة إذا ، وصوابها إذ . |
| وفى السطر السادس من الصفحة ٢٦ | كلمة بهذه ، وصوابها بهذا . |
| وفى السطر الأول من الصفحة ٤٤ | كلمة كان ، وصوابها إذا كان . |
| وفى السطر التاسع من الصفحة ١٢٨ | كلمة المم ، وصوابها الممعد . |
| وفى السطر التاسع من الصفحة ١٣٠ | كلمه غولا ، وصوابها وغلا . |
| وفى السطر الحادى عشر من الصفحة ١٥٩ | كلمة طرفه ، وصوابها لييد . |
| وفى السطر الثامن عشر من الصفحة ١٩٦ | كلمة الجون ، وصوابها الجونجون . |
| وفى السطر الثامن عشر من الصفحة ١٩٦ | كلمة عنون ، وصوابها عنود . |

الفهرس

الصفحة

الموضوع

المقدمة ٨ - ٣

الشعر الجاهلي - منزله عند العرب - المعلقات بين الشعر الجاهلي -
خطة البحث .

الفصل الأول

المعلقات (٩ - ٥٧)

كلمة في المصطلحات الأدبية - أصحاب المعلقات وقصائدهم - رأى صاحب
المقد ، والزوزنى ، وأبي زيد ، والتبريزي ، وأبي جعفر النحاس ، وابن خلدون
(٩ - ١٢) .

مصطلحات أخرى : السبع الطوال - المذہبات - السموط - المشهورات
- القصائد المشهورة - السبعيات - السبع الجاهليات (١٢ - ١٨)
سبب تسميتها «المعلقات» - رأى ابن الكلبي ، وابن عبدربه ، وابن رشيق ،
وابن خلدون ، والبغدادى ، وأبي جعفر النحاس ، وابن الأنباري ، وياقوت
(١٨ - ٢٢) .

إنكار خبر التعليق ، رأى الرافعي : نسبة جمعها إلى حماد - نسبة خبر
تعليقها إلى ابن الكلبي ، رأى نولدكي - إنكار القصائد جملة وإنكار كتابتها
وتعليقها - رأى الدكتور طه حسين (٢٢ - ٢٦) .

مناقشة الآراء السابقة - الاختلاف في جمع القصائد السبع - خزانة النعمان
- المعلقات الثواني - الرد على أبي جعفر النحاس - الطمن في رواية
حماد - (٢٦ - ٣٨) .

حجج منكرى التعليق : أمية العرب - عدم ذكر كتابها وكيفية تعليقها
على الكعبة - عدم ذكر شيء عن المعلقات في أخبار تجديد بناء الكعبة -
تقديم العرب للكعبة - مناقشة هذه الآراء - التشكيك في أجاد
العرب (٣٩ - ٥٧) .

الفصل الثانى

شعراء المملكات (٥٨ — ١٩٩)

المملكات السبع وأصحابها — أصحابها عند صاحب الجهرة — عند التبريزى —
المجمع عليه منهم (٥٨ — ٦١) .

(١) امرؤ القيس ١٠٩ — ٦٢

منزلته بين الشعراء — نسبه — حياته — هل كان امرؤ القيس شخصية خيالية؟
— امرؤ القيس فى التاريخ والأدب — شاعرية امرؤ القيس (٦٢ — ٨٢)
معلقة امرؤ القيس — أهميتها — توثيقها — سبب إنشادها — مناقشة
هذا السبب — أغراضها — ما أقحم عليها — مناقشة المشككين فيها —
نص المعلقة (٨٢ — ١٠٩)

(٢) طرفة بن العبد ١٣٠ — ١٠٩

طبخته عند ابن سلام — رأى النقاد فى منزلته — تاريخ حياته — وفاته
المبكرة — أخلاقه (١٠٩ — ١١٩)
معلقة طرفة — سبب إنشادها — السبب بين أغراض القصيدة — أغراض
المعلقة — نص المعلقة (١٢٠ — ١٣٠)

(٣) زهير بن أبى سلمى ١٥١ — ١٣١

منزلته بين فحول الطبقة الأولى — شاعريته — العناية بشعره — حياته
وأخلاقه (١٣١ — ١٤٤)

معلقة زهير — سبب إنشادها — حرب داحس والغبراء — دعوته للسلم
— أغراض المعلقة — نص المعلقة (١٤٤ — ١٥١)

(٤) ليلى بن ربيعة ١٦٤ — ١٥١

منزلته بين الشعراء — حياته وشعره — إسلامه (١٥١ — ١٥٨)
معلقة ليلى — خصائصها فى الفرض والأسلوب — أغراضها — نص المعلقة
(١٥٨ — ١٦٤)

(٥) عمرو بن كلثوم ١٧٦ — ١٦٤

الصفحة

الموضوع

منزلته بين شعراء الجاهلية — نسبه — حياته وأخلاقه — بينه وبين عمرو بن هند (١٦٤ — ١٦٧) .

معلقة عمرو بن كلثوم — شهرتها — سببها — أغراضها — نص المعلقة — (١٦٧ — ١٧٦) .

(٦) عنتره بن شداد ١٧٦ — ١٨٧

منزلته بين شعراء الجاهلية — نسبه — حياته — شجاعته وعشقه — (١٧٦ — ١٧٦) .

معلقة عنتره — سبب إنشادها — مطلعها — أغراضها — نص المعلقة — (١٨٠ — ١٨٧) .

(٧) الحارث بن حلزة ١٨٧ — ١٩٧

منزلته بين شعراء الجاهلية — حياته — منزلته من قبيلة بكر بن وائل — (١٨٧ — ١٩٠) .

معلقة الحارث — صلتها بمعلقة عمرو بن كلثوم — إنشادها في مجلس عمرو بن هند — أغراضها — خصائصها — نص المعلقة (١٩٠ — ١٩٧) .

الفصل الثالث

المجتمع العربي كما صورته المملقات (٢٠٠ — ٢٩٤)

تصوير المملقات للمجتمع العربي في مختلف مناحيه — المواقع والجبال (٢٠٢) الجو والرياح والمطر والنجوم (٢٠٧) نبات الصحراء (٢١٣) حيوان البادية (٢١٥) الحياة الجاهلية في المملقات (٢٣٢) حياة الحرب والسلام (٢٣٧) أدوات القتال (٢٥٥) المرأة العربية في المملقات (٢٦٠) عادات العرب في المملقات (٢٦٨) الخمر (٢٦٨) فضائل العرب النفسية (٢٧٤) صور أخرى للمجتمع العربي في المملقات : حماية الماء (٢٨٩) دين الجاهلية (٢٩٠) الآطام والحصون (٢٩٢) 'لعب العرب (٢٩٢) خضاب الرأس (٢٩٤) .

الفصل الرابع

الفن الشعري في المملقات (٢٩٥ — ٤٠٠)

المملقات هي الصورة الكاملة للفن الشعري عند العرب — تقاليد المملقات وحياتها في الزمن — شعر القدامى وشعر المحدثين — عمود الشعر (٢٩٥ — ٢٩٨) .
(١) أغراض المملقات وفنونها : ٢٩٩ — ٣٤٥

فنون الشعر العربي وفنونه عند الأوربيين — غلبة الشعر الغنائي في شعر العرب — حظه من الشعر القصصي (٢٩٩ — ٣٠٢) .

فنون الشعر في المملقات : باب الوصف (٣٠٢) باب النسيب (٣٢٢) باب الفخر (٣٢٩) باب الحكمة (٣٤٠) — باب المديح (٣٤٤) .

(٢) ألفاظ المملقات وأسايلها ٣٤٥ — ٣٧٨

التباين في ألفاظ المملقات — أثر التبدي والتحضر — الفراغة والحوشية وصفان غير أصيلين في ألفاظ المملقات — ما يؤلف ومالا يؤلف من الألفاظ — المواقع والجبال والمياه — أسماء الحيوان ونموته — أسماء النبات — أعلام الرجال والنساء والقبائل — الصفات والكنائيات — سلامة الأساليب من الأخطاء — محاسن الألفاظ .

(٣) أوزان المملقات وقوافيها ٣٧٨ — ٣٨٧

أبجر الشعر التي نظمت فيها المملقات — اعتداؤهم إليها بالفطرة وطول المعاناة — سلامتها من عيوب الأوزان — الترصيع — قوافي المملقات — وحدتها — عيوبها : — الإقواء في معلقة الحارث ، والسناد في معلقة عمرو بن كلثوم — فن التصريح .

(٤) معاني المملقات وأخيلتها ٣٨٧ — ٤٠٠

بساطة المعاني — المعاني المادية — البعد عن التكلف — النفور من النلو — معاني التشبيه في المملقات — المعاني المبتكرة — كلمة في نوارده امرئ القيس وطرفة — بدء المملقات بالتشبيب — تعدد الأغراض في كل معلقة — الوحدة في المملقات .

الخاتمة (٤٠١ — ٤٠٢)

للمؤلف

الكتب المطبوعة

(١) معروف الرصافي :

دراسة أدبية لشاعر العراق ، وبيئته السياسية والاجتماعية .

(٢) أدب المرأة العراقية :

دراسة في الأدب النسوي، وتعريف بشواعر العراق .

(٣) أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية :

منابع بلاغته ، ومنهجه ، ومقاييسه ، وآثره في البلاغة والنقد .

(٤) دراسات في نقد الأدب العربي :

بحث في حياة النقد ، وآثار النقاد، ومناهجهم، من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث

(٥) قدامة بن جعفر والنقد الأدبي :

تحقيق لحياته وآثاره ، ودراسة لمنهج جديد في النقد الأدبي .

(٦) السرقات الأدبية :

بحث في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها .

(٧) البيان العربي :

دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية .

(٨) مقدمة في التصوف الإسلامي :

ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي وفلسفته في الإحياء .

(٩) معلقات العرب :

دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعر الجاهلي .

مَطْبَعَةُ السَّالَةِ
٣ شارع حموده الماقل - عابدين